

فحاضرات
المجمع العلمي العربي

بدمشق

الجزء الاول

وفيه قسم من المحاضرات التي القيت في ردهة المجمع العلمي
الكبرى في المدرسة العادلية بدمشق سنة ١٩٢١ و ١٩٢٢ م
(الموافقة لسنة ١٣٣٩ و ١٣٤٠ و ١٣٤١ هـ)

طبع على نفقة المجمع العلمي العربي

وحقوق اعادة طبعها وترجمتها محفوظة له

الطبعة الحديثة في دمشق سنة ١٣٤٣ هـ و (١٩٢٥) م



مكتبة
الأمير مصطفى الشهابي

١٤١٠



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اما بعد فان مجمعنا العلمي العربي بدمشق مازال منذ اول عهده يقيم في ردهته الكبرى حفلات اسبوعية للمحاضرات يشهدها جمهور كبير من اهل الفضل والادب ثم عزز محاضرات الرجال بمحاضرات اخرى تلقى على السيدات وجعل لها مواقيت معلومة . ولم يخص المجمع اعضاءه باللقاء هذه المحاضرات بل كان يدعو احيانا كثيرة غيرهم من الفضلاء المقيمين بدمشق والطارئين عليها ممن عرف بالاخصاء في الفنون المختلفة ان يتفضلوا بمحاضرات يلقونها على من يجتمع في ردهته كل اسبوع للاستفادة . وكما كان المجمع يجتهد في تنظيم هذه المحاضرات وتنويع موضوعاتها كان الجمهور يزداد اقبالا عليها . واعجابا بفائدها . حتى تموا لو تنشر في المجلة او في كتاب على حدة وما كان ييسر للمجمع نشرها في المجلة لكثرتها وضيق مجلته الشهرية عن استيعابها . ولم يكن يستحسن نشرها على حدة لان طبعا كلها يقتضي نفقات طائلة . ولان معظم هذه المحاضرات لم تكن اثرأ من آثار المجمع الخاصة وانما

هو محصول عقول الطبقة المستنيرة من فضلاء ابناء الوطن . على ان كثيراً من هذه المحاضرات كان يكتب بلغة مراعى فيها حالة الجمهور المستمع . وفيهم من يعسر عليه فهم الكلام الجزل . والاسلوب الفحل . فطائفة من هذه المحاضرات - وحالها ما وصفنا - لا يمكن طبعه ونشره الا بعد حذف ما طال من ذيوله .

غير ان المجمع اخيراً لما لم يعذر له هذا مقبولا لدى الفضلاء الذين كانوا يلحون في طبع محاضراته قرر في جلسته المنعقدة في ٣١ تشرين الاول سنة ١٩٢٤ ان يكتفي بطبع ما وصل اليه من نسخ المحاضرات الجديدة بالنشر وها هو يقدم لقراء العربية الكرام الجزء الاول منها وفيه سبع عشرة محاضرة راجياً تحقيق ما يؤمله من النفع العام والله المستعان .

دمشق : في رجب ١٣٤٣ هـ و كانون الثاني سنة ١٩٢٥ م

المجمع العلمي
العربي

معلقة طرفة بن العبد^(١)

أيها السادة !

كُلفت أن أتكم على مئة بيت شعر وثبت من كلام عرب الجاهلية . وذهبت لي مدة للكلام لا أراها تكفي لذلك لأن الأبيات تحتاج إلى شرح وتفسير معنى . ومن دون ذلك لا يكون للمحاضرة معنى . مئة البيت هذه هي التي تسمى (معلقة طرفة بن العبد) .

ومعلقة طرفة واحدة من معلقات سبع . والمعلقات السبع بعض شعر الجاهلية . وشعر الجاهلية طائفة من الشعر العربي . والشعر العربي فن من فنون الأدب العربية . فإذا حاولنا أن نلم بهذه المقدمات فقد الوقت قبل الوصول إلى (معلقة طرفة) . فالأجدد بنا إذن أن نعود إلى تلك المعلقة التي هي موضوع محاضراتنا ونعرج عليها توطأ من دون تعرج على شيء آخر سواها :

(لما ذا سميت المعلقات معلقات ؟)

غير أن هناك أمراً أحببت التعرض له وهو لما ذا سميت هذه القصائد بالمعلقات ؟ المشهور أنها سميت بذلك لأنها كانت معلقة على جدران الكعبة أو مرفوعة على ستارها وأنكر قوم ذلك . ومنهم (أبو جعفر النحاس النحوي) من رجال القرن الرابع للهجرة . فقالوا — في سبب التسمية — كان الملك في الجاهلية إذا أعجبه قصيدة قال لهم علقوا أنا هذه . يعني أكتبوها لتبقى محفوظة في خزائنه مع الأعلام النفيسة . وربما أيد هذا القول أن قريشاً كانوا قوماً حمساً أي شديدي الحماسة والتعصب لديانتهم . وناهيك بمنزلة الكعبة وقد استهوا في نفوسهم . فبعد أن يستمعوا بتعليق شعر فيه تصريح بالفحش والعهر أحياناً — على كهنتهم المقدسة .

(١) أول محاضرة ألقى في قاعة مجمعنا العلمي لأحد أعضائه « المغربي » وذلك مساء الأحد الواقع في ١٧ نيسان سنة ١٩٢١

وزد على ذلك أن كتاب الديرة النبوية ذكروا أن النبي (صلم) والصحابة في فتح مكة دخلوا الكعبة وحطموا الأصنام التي فيها وأزالوا عنها كل معالم الجاهلية حتى أنهم كانوا يحملون الماء يترسهم ويصبونه على جذرائها نحو الصور المنقوشة عليها بالأصباغ . ولم يذكروا أن المعلقات كانت مما أزيل أو أنزل عن الجدران .

(الاسباب التي نظمت معلقة طرفة من أجلها)

أست محاضرتنا في (طرفة) نفسه لنسب في ترجمته . وانما نلم من سيرته بما له تعلق في سبب نظم المعلقة .

كان (طرفة) من قبيلة بكر بن وائل التي يضرب بها المثل في العزة والكثرة وكان ربه في الدروة والسام من تلك القبيلة . وكان هو شاباً جميلاً فصيحاً جريئاً . ومن كان في مثل حالته ومنزلته لا يلبث أن يتصل بالملوك فيكون نديماً لهم وجليلاً . وكانت ملك العرب إذ ذاك عمرو بن هند . وناصبته (الحيرة) . فاتصل به طرفة وناداه . ثم تقم منه الملك بعد ذلك أشياء وحقد عليه من أجلها :

قالوا : رأه يوماً يشي بين يديه وهو يتخلىج في مشيته أي يتمايل ويتجتر غير حاسب للملك حساباً .

وكان مرة يشربان فرأى طرفة في الجام (أي الكأس) الذي بيده خيال اخت الملك وكأنها كانت تطل عليهم متوارية فأنشد طرفة :

(يا بآبي الطيبي الذي تروق شفتاه . ولولا الملك الجالس أنثني فاه)

ويروي (شفتاه) مكان (شفتاه) فسمع الملك قوله فكس على غيظ .

وبدرت من الملك بوادر منكرة في سياسة بلاده : منها اليومان الملعونان : يوم اليوس الذي كان يقتل فيه كل من يصادفه . ويوم النعيم الذي كان يكرم فيه كل من يصادفه . فنظم طرفة قصيدة انتقده فيها — وكان جريئاً على النقد — منها قوله :

(فليت لنا مكان الملك عمرو . رغوئاً حول قبتنا تدور)

(لعمرك ان قابوس بن هند . ليخاط ملكه نوك كثير)

و (الرغوئ) الناقة أو النعجة الحلوب . و (النوك) الحمق . فصمم الملك على قتله

فحذره بعض رجاله عاقبة الامر . وخوفه عشيرة طرفة وخاله التمس الشاعر الكبير المشهور : فإن هذا اذا هجم أسقطه في القبائل .

فرأى الملك ان يتخلص منهما جميعاً فدعاهما اليه واعطاهما كتابين الى المكعب عامله بالبحرين يأمره بقتلهما وأومعها انه يأمر لها بصلة وجائزة . ثم فطن التمس للامر فمزق كتابه في حكاية ليس هنا محلها وقال لابن اخته مزق كتابك انت ايضاً وانج معي . فحملت طرفة غرارة الشباب على عدم المبالاة وقال لخاله : « لئن كان اجتراً عليك فما كان ليحتري علي » ثم ذهب طرفة الى عامل البحرين فأطلعه العامل على جلية الامر . وفسح له مجال الحرب . فلم يفعل أنفة واستكباراً . وأشار على شبان عبد القيس — وهي قبيلة بالبحرين — ان يسقوه الخمر وان يفصدوا أكلكه وهو تميل . والأكمل عرق في القدم . ففعلوا فمات . وكان في حدود العشرين من العمر . ولذلك يقال له (ابن العشرين) وقيل انه بلغ ستاً وعشرين بدليل قول — اخته في رثائه :

(عددنا له ستاً وعشرين حجةً فلما توفاهما استوى سيداً ضحياً)

(فوجعنا به لما رجونا إياه على خير حال : لا وليد أولاً قحماً)

و (القحم) المتناهي في السن .

وفي معلقة طرفة آيات أشار بها الى حادثة شربه الخمر في البحرين مع فتيات عبد القيس :

لكن ليس هذا كل السبب الذي حمل طرفة على نظم معلقته . فإن هناك سبباً آخر هاج من قريحته . وحرك من أنفته :

كان لطرفة أخ اسمه معبد وكان لمعبد إبل ضلت فذهب طرفة الى ابن عم لم اسمه مالك يسأله ان يساعده في استرداد الابل . ولا يخفى ما يكون في بعض أبناء الأعمام أحياناً من الصلف والجفاء اذا رأوا ابن عم لم يدانهم ويتجرب اليهم من أجل قضاء أمر ما . فانتهره ابن عمه وقال له « فرطتم في ابلكم ثم جئتم لتعبوني في طلبها » فتأثر طرفة من قوله . وهاجت شاعريته . فقال معلقته . ومن أحسن ما جاء فيها آياته في معاناة ابن عمه مالك كما سيجي .

والتحقيق ان كل ابيات معلقة طرفة لم تُنقل في سبب واحد . ولا في زمن واحد
ومثلها المعلقات الاخرى : فكان الواحد من اربابها يعرض له السبب الآن فينظم
فيه ابياتاً . ثم يعرض له سبب آخر فيقول فيه قطعة من البحر والقافية . حتى اذا
كثرت الابيات ضم بعضها الى بعض . او فعل هذا بعض رواة شعره . وبهذه
الصورة تألف المعلقة وتبرز الى الوجود . ومن قَاب نظره في المعلقات وسياقاتها
وجد الامر كما قلنا .

وقد ذهب اكثر علماء الادب الى ان (طرفة) في الطبقة الثانية من ارباب المعلقات :
اي انه بعد امرئ القيس وزهير والنابعة . لكن (عمرو بن العلاء) — وهو اكبر علماء
اللغة — كان يقول : ان طرفة اشعرهم واحدة . يعني اشعرهم معلقة . بل ذهب ابن
مقبل الى ابعد من هذا فقال : (ان طرفة اشعر الناس) .

اما مذهب (طرفة) في الشعر وحسن تصرفه في فنونه وشعاب اساليبه ومنزلته في
ذلك بين رفاقة اصحاب المعلقات — فيتجلى لنا من اعمال مقارنة اجمالية بين معلقته
ومعلقة امرئ القيس . وحبذا لو اتسع الوقت للمقارنة بينها وبين سائر المعلقات .

(مقارنة اجمالية بين معلقتي طرفة وامريئ القيس)

معلقة طرفة مئة وثلاثة ابيات . ومطلعها :

(خولة اطلال ببرقة تبعد تلوح كباقي الوشم في ظاهرا ليد)

هلموا بنا ايها الافاضل نقف مع طرفة على اطلال محبوبته (خولة) ثم نسير معه
فنتطوف حيث طاف . ونسمع منه ما أتى على ذكره من الاحوال والاصناف :

ها نحن نسمعه يصف اطلال خولة ببنتين من الشعر .

ثم نسمعه يصف نياق الطعائن فيشبهها بالسفن بثلاثة ابيات .

ثم وصف محبوبته — بخمسة ابيات .

ثم الناقة التي ساعدته على نيل مقاصده — بثلاثين بيتاً .

ثم الفلاة التي اجتازها وانها مهلكة — بثلاثة ابيات .

ثم نفسه بنشاط العزيمة وكفاية المعمر — بستة ابيات .

ثم عاد الى ناقلته ووصف سرعتها — بثلاثة ابيات .

ثم عاد الى نفسه فوصفها بالجود والشرف وانه يجمع بين الجد والهزل — بثلاثة
ابيات ايضاً .

ثم وصف مجلس لهوه مع قينته وندمائه — باربعة ابيات .

ثم ذكر رأيه في هذه الحياة الدنيا وقال : انما هي شرب ولعب ومسرات . وذم
الجل والبخل الذين يضمنون باموالهم فلا ينفقونها في هذا السبيل . ورد على الدين
يلومونه في رأيه هذا — كل ذلك بستة عشر بيتاً .

ثم غاب ابن عمه (مالك) وقص ما وقع بينهما — باربعة عشر بيتاً .

ثم رجع الى وصف نفسه وسيفه ونجره النياق في سبيل الله وما نصحه ابوه به —
بأحد عشر بيتاً .

ثم انتهى الى نهاية كل حي وهي الموت فاستوقفنا على مصرعه . وعلم ابنة اخيه
(معبد) كيف تندبه . وتبكي عليه . وتثنيه بما هو جدير به من القول : لا بما تراثي به
لثام الناس وذوي البخل والشح منهم — بتسعة ابيات .

ثم ختم معلقته بابيات حكيمه بليغة سارت مسير الامثال .

ويمكن إرجاع هذه المواضيع كلها الى موضوعات ثلاثة كبرى :

(١) وصف نفسه واطواره — باربعة وثلاثين بيتاً .

(٢) أخلاقه خاصة . وآداب عامة . بثلاثة وثلاثين بيتاً .

(٣) وصف الناقة بخمسة وثلاثين بيتاً .

بهذه المواضيع يمكن ان نعرف الفرق الادبي بين معلقته ومعلقة امرئ القيس :
فان امرأ القيس لم يضرب بسهم في وصف الاخلاق وتقرير الحكم والآداب كما
فعل طرفة وانما هو اسهب في وصف أمور قد لا تكون مفيدة كالافادة التي تشع
بها في معلقة طرفة .

لنقف مع امرئ القيس بسقط اللوى بين الدخول لخومل . ثم نطوف مطافه .
ونسلمع اوصافه :

(١) أسهب امرؤ القيس في وصف النساء ووقائعه معهن — بستة وثلاثين بيتاً .

(٢) وفي وصف فرسه - بثانية عشر بيتاً .

(٣) وفي وصف السحب والامطار - بثلاثة عشر بيتاً .

هذه هي أمهات الموضوعات التي أتى عليها امرؤ القيس في معلقته وقد استغرقت سبعة وستين بيتاً من الواحد والثمانين بيتاً التي هي مجموع أبيات معلقته فبقي أربعة عشر بيتاً : وصف نفسه بيت . والاطلال ستة . والليل بأربعة . والمفاوز بثلاثة . ولم نسمعه قال بيتاً واحداً في الآداب العامة ولا الاخلاق ولا الحكم . على العكس من طرفة الذي أسمعنا من ذلك الكثير الطيب . وكان من اكبر مزايا معلقته ما تفتحنته من هذه الحكم والامثال .

ففائدنا الادبية والاجتماعية من معلقة (طرفة) اعظم وأجزل منها في معلقة امرئ القيس . اللهم الا ان يدعي مدعي بافضالية هذه من حيث الصناعة الشعرية . وربما كان في هذا التفضيل ايضاً نظر بتحقيق لكم أيها السادة بعرض نموذجات عايكم من معلقة طرفة مفصلة ومتأيزة بعناوين خاصة بها .

(توارد المعلقة اي موافقتها لغيرها)

توارد طرفة مع امرئ القيس في قوله :

(وفوقاً بها صحبي علي مطيهم يقولون لانهلك أسي وتجدد)

وقال امرؤ القيس :

(وفوقاً بها صحبي علي مطيهم يقولون لانهلك أسي وتحمل)

فهل هذا من قبيل توارد الخواطر على معنى واحد من دون ان يسمع احدهما ما قاله الآخر . او هو سرقه . وبعبارة أنزه اقتباس ! وأيها الذي اقتبس من الآخر ؟

ووفاة طرفة كانت سنة ٥٥٠ ليلاد . وفي دائرة المعارف الفرنسية سنة ٥٧٠ وهي السنة التي ولد فيها محمد «ص» . اما امرؤ القيس فكانت وفاته سنة ٥٦٠

(أرق بيت في معلقة طرفة)

(ووجه كأن الشمس ألقت رداها عليه . نقي اللون . لم يتخذ)

اي لم يتشقق وانحف وياتصق لحمه بعظامه . بل هو بض متلي متدا .

(تشبيهاتها البديعة)

هي كثيرة وأحلاها موقعاً قوله يصف النياق والظمائن :

(كأن حدوج المالكية غدوة خلايا سفين بالنواصف من ددر)

يريد بالحدوج النياق وما عليها من الهودج . وبالخلايا السفن العظام . وبالنواصف الاماكن الرحبة او الاباطح . و« ددر » مكان .

وقوله في وصف السفائن :

(يشق حباب الماء حيزومها بها كما قسم الترب المفايل باليدر)

« حباب الماء » سطحه او فقايعه . و« حيزوم السفينة » صدرها وجوؤها .

و« المفايل » اسم فاعل من « الفيايل » ضرب من اللعب عند الاعراب : يجمع اللاعب التراب ويدفن فيه شيئاً كخاتم مثلاً . ثم يقسمه باليد نصفين . ويسأل الآخر عن الدفين في ايهما ؟ فمن أصاب قمر . ومن أخطأ قمر . فالقيايل على هذا مشتق من مادة (الغال) .

وقوله في صفة عيني الناقة :

(وعينان كلماويتين استكنتا بكهني حجاجي صخرة قلات مورد)

« الماويتان » المرأتان و« استكنتا » استقرتا و« الحجاج » بفتح اوله العظم الذي ينبت عليه شعر الحاجب وال« قلات » نقرة في الصخرة يستنقع فيها ماء المطر .

يقول ان عينيها صافيتان كلماويتين . وقد اودعنا حجاجين من رأس كصخرة ذات نقرة كالنقرة التي تجتمع فيها ماء المطر : فيكون قد شبه عينيها بالمرأتين اولاً ثم بماء القلات « جمع قلات » ثانياً عدا ما فيه من تشبيه حجاجيها بالكهفين ورأسها بالصخرة .

وقوله في صفة نجت الناقة في المشي :

(فذالت كما ذالت وليدة مجلس تري ربه اذبال محل ممد)

« ذالت » مأخوذ من الذيل وهو ان يمشي المرء وهو يجز ذيله و« السحل » ثوب

قطر ابيض .

كانت ناقة طرفة اذا ضربها بسوطه ذات اي نشرت ذيلها على فخذيها . كما
تعمل الوليدة وهي الجويرية في مجلس نسي فيه ربها اي سيدها الخمر . أو انها لتعمل
ذلك حين ترقص أمامه . فهي تخر ذيل ثوبها من القطن الأبيض .
وقوله في صفة وثافة خلق الناقة .

(كقنطرة الرومي أقسم ربها لتكثفن حتى تشاد بقرمد)
بقرمد متعلق بتكثفن . وتشاد ترفع . اي لا يزال بذابوها الرومي يحيطها
بالآجر حتى ترتفع .

وقوله في وصف ذنبها .
(كأن جناحي مضرحي تكثفا حنافية شكافي العيب مسرد)
(المضرحي) النسر الأبيض و (حنافية) اي في جانبي الذنب و (العيب)
عظم الذنب و (المسرد) المخرز .

وقوله في صفة القينة . وهي المغنية
(اذارجعت في صوتها خلت صوتها تجاوب أظار على ربيع ردي)
يقول اذا رددت تلك القينة صوتها وهي تغني حسبه لحسنه حين نياق تجاوب
من أجل فصيل لها مات .

ومما تفتش به قوله .
(ندأماي يبيض كالنجوم وقينة تروح علينا بين بردي ومجد)
(رحيب قطاب الجيب منها رفيقة بجس الندامي بضة التجرد)
(المجد) قميص يلي الجسد او قد صبغ بالجداد وهو الزعفران و (قطاب الجيب)
مخرج الرأس منه .

يقول ان شق جيب صدرها واسع حتى اذا مد الندامي أيديهم للجس رفقت
ورضيت . وهذا كل ما جاء فيها من الهنات .

ومن تعابيره الزشقة قوله في صفة إسماع الناقة وأدبها وخوفها من لدغ سوطه .
(وإن شئت لم ترقل وإن شئت أرقلت مخافة ملوي من القيد محصد)
(ترقل) تسرع و (الملوي) يعني به السوط و (محصد) محكم القتل

(وإن شئت سامي واسط الكور رأسها وعامت بضبعيها نجاء الخفيد)
(سامي) بلغ في الارتفاع واسط الكور أعلى الحدج . والحدج للبعير كالسرج
للفرس و (نجاء الخفيد) اي مثل اسراع الظلم وهو ذكر النعام .

(تباري عتاقا ناجيات وأتبعت وظيفة وظيفاً فوق مور معبد)
(تباري) تعارض وتساوى (ناجيات) نساءاً سريعات و (الوظيفة) مستدق
عظم الساق و (المور) الطريق المستوي الموطوء .
وقوله في صفة حالته مع ابن عمه (مالك) .

(فمالي أراني وابن عمي مالكا متى أدن منه بنأني وبيعد)
وقوله في صفة سيفه :

(حسام اذا ماقت منصرأ به كفي العود منه البدء ليس بمعضد)
(منصرأ به) اي منتقأ به لنفسه ، يقول : ان الضربة الاولى به تغني عن
ضربة ثانية . وليس هو بمعضد اي سيف يمتن وتقطع به الاشجار .

(ما فيها من الشؤن التي تهم الباحث في تاريخ العرب)

(يشق حباب الماء حيزومها بها كما قسم التوب المقابل باليد)
مرشح هذا البيت وهو يفيدنا شيئاً مما كانت عليه العرب في ألعابهم وملاهيهم .
وقوله :

(كقنطرة الرومي أقسم ربها لتكثفن حتى تشاد بقرمد)
يفيدنا هذا البيت ان اليونانيين كانوا مشهورين بالحدق في فن المعارك لدى عرب
الجاهلية بحيث يضرب بهم المثل .
وقوله في صفة الناقة :

(وأتلع نهاض اذا صعدت به كسكان بوصي بدجلة مصعد)
(وخدر كقرطاس الشامي وشفر كسبت الباني : قد له لم يجر)
(وأروع نباض أخذ مللم كمرداة صخر في صفيح مصعد)

(اتلع) عنق (سكّان) دفة السفينة (بوصي) معرب (بوزي) السفينة أو النوتي
(مشر) شفة (سبت) الجلد المدبوغ (قده لم يجرّد) أي لم يقع في قطعه اضطراب
(اروع) يعني به قلب الناقة الذي يرتاع من كل شيء (أخذت) سريع الحركة
(مرداة) حجر مستطيل يكسره الصخر (صفيح) حجارة رقيقة ويعني بها اضلاع الناقة .
وقد استفدنا من هذه الايات اموراً من الاعمال والصناعات :
الملاحة في دجلة . وصنع الورق في الشام . والجلد المدبوغ في اليمن . وأن العرب
قبيل الاسلام كانوا يكسرون الصخور بالمرداة كما كان شأنهم في الدور الحجري .

(ما في المعلقة من الادب والحكمة)

هذا الضرب من الشعر استوفاه طرفة وأجاد فيه ، ونقسم ايات الادب في
قصيدته الى أقسام : منها ما جرى مجرى الامثال :
(الاأيها هذا الزاجري أحضر الوغي وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدي)
(لعمرك ان الموت ما أخطأ الفتي — لكما طول العُرخي وثنياس باليد)
(ما) هي المصدرية التوقيتية . أي ان شأن الانسان في هذه الحياة الدنيا
كشأن ناقة لها زمام مرخي أطيل لها لترعى . ولكن طرفيه مثنيان في يد صاحبها فهو
لا يلبث ان يجذبها اليه . وهكذا الموت ما دام هو لا يصيب الفتي لا يقال إنه ناج
منه . فهو في صدد أن يجذبه اليه : كصاحب الدابة والدابة :
(وظلم ذوي القربى أشدّ مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند)
(أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى بعيداً غداً : ما أقرب اليوم من غد)
(أعداد) جمع عدّ بكسر العين وهو الماء لا ينقطع مدده . ومراده بالغد المستقبل
الذي يموت فيه الانسان . يقول ان الموت كالمنهل للوراد : يردونها واحداً بعد
آخر . وهي لا ينفذ مددها .

(سبدي لك الايام ما كنت جاهلاً ويأتيك بالاخبار من لم تزود)
(ويأتيك بالاخبار من لم تبع له بتاناً ولم تضرب له وقت موعد)
(تبع له) تشتري وتبتاع لاجله (بتاناً) هو كساء المسافر وأداته . ويروى أنه

(صلح) أشد هذا البيت (سبدي الخ) بين يديه فقال : (هو من كلام النبوة)
أي على طريقة كلام النبوة .

(أرى الموت يعتام الكرام ويصطفي عقيمة مال الناحش المتشدّد)
(أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلة وما تنقص الايام والدهر ينفد)
(يعتام) يختار وهذا على حد قوله والموت نقاد الخ (الناحش) المبالغ في الجمل
و « عقيته » ماله العز يزعليه . والمعنى أن ايام العمر كالكنز من المال : يؤخذ منه للنفقة
كل يوم . وما كان هذا شأنه لا بد ان ينفد أخيراً .

(التمدح والفخر)

(اذا القوم قالوا : من فتي ؟ قلت : أني « عنت » فلم أكسل ولم أتبلد)
(أتبلد) أي التحير أو أخمل . وهذا على حد قول الحماسي :
لو كان في الالف منا واحد فدعوا من فارس ؟ خالهم إياه يعنونا
(فان تبغني في حلقة القوم تلقني وان تلمسني في الحوائت تصطد)
(وان يلق الحبيّ الجميع تلاقني الى ذروة البيت الشريف الصمد)
قوله « في حلقة القوم » أي للمسامرة أو لأدارة الرأي و « الحوائت » يريد بها
الحانات . وقوله « وان يلق الخ » أي يلقون للمناخلة في أعمال الجهد . وقوله « الى
ذروة » أي في ذروة فإلى نابت مناب (في) كما هي في كقول النابغة :
فلا تتركني بالوعيد كأنني الى الناس مطلي به القار أجرب
فقوله « الى الناس » أي في الناس . ومنه قولهم « جلست الى القوم » أي فيهم
وقوله « الصمد » أي المقصود كثيراً .
(أنا الرجل الضرب الذي تعرفونه خشاش كرأس الحية المتوقد)
(الضرب » أي الماضي الندب واصله الخفيف اللحم . وقوله « خشاش » أي
كثير الدخول في الامور الصعبة .
وقال موصياً ابنة أخيه « معبد » ومعرضاً بآخرين من منافسيه :

(فان مت فأنعمني بما أنا أهله وشقي علي الجيب يا ابنة معبد)
 (ولا تجعليني كأمري ليس همي كهمي ولا يغني غنائي ومشهدي)
 ابطي عن الحلي سريع الخنا ذلول بأجماع الرجال ملهد
 قوله « ذلول بأجماع » أي أذلته أو ذللته كثرة ضرب الرجال له بجمع أيديهم
 فهو « ملهد » أي كثيراً ما يضربونه في ظهري أو صدره بقبضات أيديهم .
 (فلو كنت وغلاً في الرجال لضررتي عداوة ذي الأصحاب والمتوحد)
 « وغلاً » أي لثماً جباناً .
 (ولكن نفي عني الرجال جراً في عليهم وإقدامي وصدقي ومحتدي)
 قوله « نفي عني الرجال » أي كشفهم ونجهم عن مباراتي في حلبة المجد .
 (لعمرك ما أمري علي بعمه نهاري ولاليلي علي بسرمد)
 أي لا تمنعني علي وجوه إنفاذ أموري وقضاء مصالحتي في النهار . كما أنه لا
 يطول ليالي في الغم والحسرة على ما فاني قضاؤه : لاني أكون قد قضيت ونفذت كل
 ما يلزمني عمله . فلم يفتني شيء انحسر عليه .

(رأيه في الحياة أو مذهبه الابيكوري)

« أبيكور » فيلسوف يوناني مشهور . وخلاصة فلسفته أن اللذة أساس السعادة
 في الحياة الانسانية . وأنه يجب علينا ان نبذل كل مساعينا في سبيل نيلها
 والحصول عليها .

قال فينيلون « الافرنسي » مؤلف كتاب تليماك : ان الناس نظروا الى « أبيكور »
 كرجل يرى الانغماس في اللذات وتقم الشهوات ولو كانت سافلة — مذهباً له —
 وهذا ناشئ عن عدم فهم حقيقة فلسفته .

وحقيقتها ان المذوذ عنده يجب ان يساعد على ترقية الفكر البشري وان يكون
 تناول اللذات ضمن دائرة الفضيلة والحكمة .

ومع هذا فندفع معظم الناس ان أبيكور يقول بتناول المذوذات على أية

صورة وقعت . واخذوا يطلقون كلمة أبيكوري على كل رجل منغمس في اللذات
 والشهوات من دون مبالاة فضيحة أو عار .

ويظهر ان (طرفة بن العبد) كان أبيكورياً بدليل آياته :

(وما زال تشرابي الخمر ولذتي وبهي وإنفاقي حاربي ومثلي)
 أي ما زال هذا دأبي وديني .

(الى ان تمامتني العشيرة كلها وأفردت أفراد البعير المعبد)
 (رأيت بني غبراء لا ينكرونني ولا أهل هذا الطرف الممدد)

(بني غبراء) عني بهم الفقراء الذين ينعمون على الغبراء وهي الارض . (وأهل
 هذا) الخ عني بهم الاغنياء و (الطرف) الخباء من جلد . يقول ان أكبر دليل
 على شرفه ومجده وحسن طريقته ان فريق الفقراء والاغنياء يألفونه ولا ينفرون منه :
 الاولون لغمره لم بالعطايا والصلوات . واما الآخرون فمشاركتهم لم في الشرب
 واقتطاف اللذات . وما بقي من الناس غير هذين الفريقين فعم حسدة أغنياء .

(فان كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعني أبادرها بما ملكت يدي)

(فان كنت) أيها اللائم الحاسد من الفريق الثالث .

(ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدرك لم احفل متى قام عودي)

(هن من عيشة الفتى) أي عيشته اللذيذة او المعنى هن مما تثوقف عليه لذة
 عيشه يقول :

لولا هذه الاشياء التي هي مننعي لذة الحياة وسعادتها عندي لما باليت الموت
 واذا كنت أرغب في الحياة واثني طولها فذاك لاني مولع بهذه الاشياء الثلاثة :

(فمنهن سبقي العاذلات بشربة كيت متى ما تملأ بالماء تزيد)

(وكري اذا نادى المضاف — مجنباً كسيد الغضا نهته المتورد)

(المضاف) الخائف المذعور (مجنباً) فرساً في عظامه انعطاف و (السريد)

الذئب و (المتورد) العطشان وارد الماء .

(ونقصير يوم الدجن والدجن مجيب بهيكنة تحت الخباء المعمد)

(كرم يزوي نفسه في حياته : ستعلم إن مشنا غداً أيننا الصدي ؟)
و يظهر من هذا أن عرب الجاهلية كانوا يتأثمون من شرب الخمر ويعتقدون أن
من يشربها في الدنيا يعطش في الآخرة .

(أرسى قبر نخام بخيل بباله كقبر غوي في البطالة منسد)
(النخام) الخيل لأنه انغم أي يعمل كما سئل صدقة . و (الغوي) المستهتر لا يبالي
اللاثمين . و (المنسد) المنذر .

(ترى جثوتين من تراب عليهما صفائح صم في صفيح منضد)
(الجثوة) كومة الحجارة وقوله في (صفيح) أي أنك ترى القبرين في جملة قبور
منضدة كثيرة . وإذا كان قبر الخيل كقبر المنفق في لذاته . وكان مأل كل منها
أن تكون كومتان من صفائح على قبر يعا فلماذا يخل الخيل ولا يحذو حذو الغوي ؟

(عتاب ابن عمه مالك)

(بلوم وما أدري على م يلومني ؟ كما لامي في الحى قرط بن معبد)
(فإني أراي وابن عمي مالك متى أدن منه يتأعني وبعبد)
(وأبأسني من كل خير طلبته كأننا وضعناه إلى رأس ملحد)
قوله (كأننا وضعناه إلخ) أي كأننا وضعنا طلبنا وقدمناه إلى ملحد أي ميت
مدفون في اللحد .

(وإن أدع للجلى أكن من حمايتها وإن يأتك الأعداء بالجهد أجهد)
(أدع) أي إن دعوتني يا ابن عمي و (الجلى) الخطب العظيم . بالجهد أي
بتشقة لا تطيقها أنت و (أجهد) أجتهد في دفعها عنك .

(وإن يذفوا بالقدح عرذك أسقم بشرب حياض الموت قبل التهدد)
أي إذا سبكوك أبادرهم فاسقيهم من مشروب الموت وأوردتهم حياضه قبل أن
أهدرهم بالأقوال . أي أن فعلني يسبق قولني .

(فلو كان مولاي امرأه أو غيره لفرج كربى أولاً نظرتني غد)

(مولاي) أي ابن عمي وقوله (لانظرتني) أي لامهني .
(ولكن مولاي امرؤ هو خاني على الشكر والنسأل أو أنامقندي)
يقول ولكن ابن عمي خاني وأخذ بكظامي على كل حال : سواء شكرت له .
أو سألته العفو . أو افتديت منه بمال .

(وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند)
(فذرتني ومخاتي إنني لك شاكر ولو حل بيني نائياً عند ضرعد)
أي أترككني على ما أنا عليه من الأخلاق والطباع : فانا راض بها . ولا طاعة لي
بتغييرها . وإذا فعلت هذا يا ابن عمي أكون شاكر لك . معها كنت بعيداً عنك .
ولو في جبل ضرعد .

(حال أبيه معه وصبره عليه)

(يقول — وقد تر الوظيف وساقها ألت نرى أن قد أتيت بمؤيد)
(تر) سقط و (الوظيف) مستدق الساق و (مؤيد) داهية يثقل وقعها على النفس
(يقول) أي ذلك الشيخ . وقد مر ذكره في الأبيات السابقة . قال الزوزني هو أبوه .
لكن ورد في ترجمة طرفة أن أباه مات وتركه صغيراً . وعلى هذا يكون المراد بالشيخ
عمه أو وصي أبيه عليه .

(وقال : ألا ! ماذا ترون بشارب شديد علينا بغيه متمعد ؟)
أي وقال — عمه أيضاً جلسائه المشاهدين عقر طرفة للنياق . و (ترون) أي
تشيرون .

(وقال : ذروه إنما نفعها له وإلا تكة وإفاصي البرك يزد)
كأن الشيخ بعدما استشار جلساءه عاد فقال : دعوه فإن النياق إرثه ونفعها عائد
إليه . فدوكم ردوا عليه تلك النياق القاصية الشاردة البعيدة عنه . أو التي أبعدناها
وأقصيناها نحن عنه . واني أخشى أن لم نفعلوا أن يزداد غضبه فيعقر النياق كلها .
ولا يبق على شيء منها تشفياً وانقلاماً .

(الأبيات المعلقة في المعلقة)

ما كان من هذا القبيل في معلقة طرفة قليل جداً ويمكن أن يُعدّ منه قوله :

(جمالية وجناء تردي كأنها سفينة تيري لاذع مربد)

(كأن علوب النع في دأياتها موارد من خلقاء في ظفر قرد)

(وتبسم عن ألي كأن منورا تحلل حر الرمل دعص له ندي)

هذه هي النموذجات التي أحبت عرضها على مسامعكم أيها الأفاضل — من معلقة طرفة وهي نصف أبياتها . وإذا لاحظنا معها أن طرفة لما قالها كانت في حدود العشرين من عمره حكما مع (ابن مقبل) بأن طرفة أشعر الناس . أو لا فمع (عمرو ابن العلاء) بأنه أشعر اصحاب المعلقات .



الحسبة في الاسلام

لم يقصر العرب في شأن من شؤون المدنية بالنسبة لاعتصامهم وكما ارتقت حضارة العرب وتوفر العاملون من ابناءه اليوم على استخراج دفائن هذه المدنية العربية الاسلامية لتجلي لنا امور منها ما كنا نحن اصحاب تلك المدنية نعلمه من قبل . من المعلوم ان المدنية انتقلت الى العرب من الفرس واليونان والهند . ولكن جاء الاسلام بما فيه من العوامل القوية والنظام المدني البديع الذي استخرجه اهل الصدر الاول من روح الكتاب والسنة باكمل مدنية عرفها البشر وما نظمه بها ارتقى في الازمان التالية يخرج عن حدها الا قليلاً .

لم يترك العرب باباً من ابواب المدنية الا وطرقوه ولا علماً من العلوم والصناعات الا وعانوه وبرزوا فيه . وقد تجلت مدينتهم باجلى مظاهرها في فارس والعراق ومصر والشام والاندلس اكثر من غيرها من الاقطار التي هذبها الاسلام وكانت العرب اساتذة ابناءها . والغالب ان قيام دول عظمى اسلامية في تلك الاقطار كان من اول الدواعي الى تحويد مدينتها ورفع شأنها بين الامصار على اختلاف القرون والاعصار وللأقليم وطبيعته دخل كبير في تثقيف العقول وتعبيد القرائح الابداع والاختراع . ضاعت وأسفاه اوضاع مدينتنا القديمة ومخفاتها لان العرب تفرقوا وتفرقوا بعد استيلاء أناس من الفاتحين على بلادهم كانوا دونهم في سلامة الذوق وجودة النظرة فافسدوا اخلاقهم بما حملوه اليهم من عاداتهم وتقاليدهم المختلفة حتى اوصلهم الى درجة من الجهالة لو لم يتداركها في القرن الماضي محمد علي باشا في مصر وخير الدين باشا في تونس ومدحت باشا في الشام والعراق لاضمحل عمرانهم وباد سلطانهم . وبعد فان الناظر في اصول الحسبة في الحكومات الاسلامية السالفة يعلم ان اجدادنا هيأوا لمدينتهم وسكانها جميع ضروب الراحة والهناء وحاولوا ان يبعدوا عنها

ما أمكن الجور والشفاء . والحسبة بانكسر الاجر وهواهم من الاحتساب اي احتساب الاجر على الله لقول فعلته حسبة واحتسب فيه احتساباً والاحتساب طلب الاجر وكانت الحسبة وظيفة دينية من باب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض على القائم بامور المسلمين يعين لذلك من يراه اهلاً له فيتعين فرضه عليه ويتخذ الاعوان على ذلك ويبحث عن المنكرات ويعزر ويؤدب على قدرها ويعمل الناس على المصالح العامة في المدينة مثل المنع من المضايقة في الطرقات ومنع الخمارين راحل السفن من الاكثار في الحل والحكم على اهل المباني المتداعية بهدمها وازالة ما يتوقع من ضررها على السابلة والضرب على ايدي المعلمين في الكتائب وغيرها من الابلاغ في خمرهم لاصبيان المتعلمين - قاله ابن خلدون وقال ابن تيمية: وبذو آدم لا يعيشون الا باجتماع بعضهم مع بعض واذا اجتمع اثنان فضاء فلا بد ان يكون بينهما ائثار بامر وتناه عن امر واولو الامر اصحاب الامر وذوو القدرة واهل العلم والكلام فلهذا كان اولو الامر صنفين العلماء والامراء فاذا صلحوا صلح الناس واذا فسدوا فسد الناس كما قال ابو بكر الصديق رضي الله عنه للاحمسية لما سأله ما بقاؤنا على هذا الامر قال : ما استقامت اكم ائمتكم . ويدخل فيهم الملوك والمشايع واهل الديوان وكل من كان متبوعاً فانه من اولي الامر .

وقال ابن الاخوة : الحسبة من قواعد الامور الدينية وقد كان ائمة الصدر الاول يباشرونها بانفسهم لعموم صلاحها وجزيل ثوابها وهي امر بالمعروف اذا ظير تركه ونهي عن المنكر اذا ظهر فعله واصلاح بين الناس والمحتسب من نصبه الامام او نائبه ينتظر في احوال الرعية والكشف عن امورهم ومصالحهم وبيعائهم ومأكولهم ومشروبهم وملبوسهم ومساكنهم وطرفاتهم وامرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر .

وكانت الحسبة (المقتبس م ٣ ص ٥٣٧ و ٦٠٩) في الحكومات العربية وحكومات الطوائف غريباً من ضروب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر . ولا يكون من تستد اليه الا من وجوه المسلمين واعيان المعدلين ولا يحال بين المحتسب وبين مصلحته اذا رآها والولاية تشد معه اذا احتاج الى ذلك . وقد قسمت الحسبة الى ثلاثة اقسام : احدها ما يتعلق بحقوق الله تعالى والثاني ما يتعلق بحقوق الآدميين والثالث ما يكون

مشتركا بينها ويمكن ان تقسم الحسبة الى دينية ومدنية فالدينية منها بطل من بلاد الاسلام منذ اصبحت حكوماتها لا تحافظ على جوهر الدين بالذات . والمدنية استعيض عنها في القرن الماضي في البلاد العثمانية بالمجالس البلدية وبقيت الحسبة معروفة في مصر الى اواسط القرن الثالث عشر . ولا عجب فمصر آخر ما انصهر من اقطار العرب واول من نهض .

فالحسبة والحالة هذه اشبه بدريوان الشرطة والصحة والبلديات لعمدنا وكانت المحتسب او صاحب الحسبة يشرف على المعاملات المذكورة في الدين ويجازي عليها في الحال فينكر ما يجده مثلاً من المنكرات في الاسواق ويشدد على السوقة والباعة في صحة القناطير والارطال والمثاقيل والدرهم والموزن والمكاييل والاذرع ويجري قواعد الحسبة على الطحانين والعلافين والفرانين والخبازين والشوائين والتفانقين والكبوديين والبواريين والجزاريين والرواسين والطباخين والشرابيين والهراسين وقلاني السمك والزلايصة والحلاويين والشرابيين والعطارين والشماعين واللبانين والبزازين والدلالين والحاكمة والحياطين والرفائين والقصارين والحريريين والصباغين والقطانين والكتانين والصارف والصاغة والفحاسين والحدادين والاساكفة والبياطرة وسحارة العبيد والجواري والدواب والدور والحمامات والسدارين (١) والقصادين والخبامين والاطباء والكعاليين والمخبزين وموذي الصبيان والقومة والموذيين والوعاظ والنجمين وعلى اصحاب السفن والمراكب وباعة قدور الخبز والكيزان والفاخرانيين والغضاريين والاباريين والمسلاطين والمراديين والحناويين والامشاطيين وعلى معاصر السرج والزيت الحار والغرابيين والديباغين والبططيين والبوديين والحصربيين والتبانين والخشابين والقشاشيين والتجارين والشاريين والبنائين الى غير ذلك مما يقصد منه منع غش المبيعات وتدليس ارباب الصناعات .

(١) السدارون الذين يطحنون السدر وهو من المطيزات كالصابون اذا غش بضر ولا ينفع والناخرايون والغضاريون وهم الذين يصنعون الصعاف (الزبادي او السلطانيات) والمرادنيون الذين يعملون المرادن آلات الغزل القديمة تعمل من خشب السسم او من السنت الاحمر والمسلاطيون صناعات المسلات .

وكانوا يختصون المحتسب بالنظر في امور احداها اراقة الخمر وكلها وكسر المعازف واصلاح الشوارع وذلك باب كبير فيه مسائل احداها امر الميزاب والاولحال والارداغ والدكاكية على الباب ومنع جلوس الباعة عليها ومنع سوق الخمر والبقر للخشابين والآجر بين ونحوهم ومنع ربط الناس دوابهم فيها ومنع عمارة الحيطان في شيء من الشوارع ومنع شغل هواء الشارع بالجناس ويسى (برون داشت) ومنع المبرز في الجوار بحيث تكون ازالة النجاسة منه بالوقوف في الشارع ومنع القاذرة الى غير ذلك من المصالح مثل النظر بين الجيران في التصرفات المضرة كالنظر وسد الضوء الا فيما يرجع الى الملك كغصب قطعة من الارض ومنع اسبال الازار ونحوه على الكعبيين وزجر الرجال عن التشبه بالنساء ومنع النساء عن التشبه بالرجال وامر النبوليين بطهارة مائهم ونقية ثوبهم عن الخساة ومنع الناس عن تطهير الحمام ومنع البغايا وتعزيرهن ومنع اولياتهن ومواليهن وازواجهن وامر غير المسلمين بتطهير الاراضي التي يبيعون فيها المائعات من الدهن والبن وامر الغسالين باقامة السنة واجتناب البدعة في غسل الموتى وحفر القبور والحمل وزجرهم عن الغلاء في اخذ الاجرة ونصب الصلحاء وذوي الخبرة بهذه الامور وتفحص الجامع يوم الجمعة والمصلى يوم العيدين واخلواهما عن البيع والشراء ومنع الفقراء عن التخطي ومنع القصاص عن القصص المفتراة ومنع النساء السائلات عن الدخول في المصلى ومنع الصبيان والمجانين منه ودفع الحيوانات المؤذية عن الممرات كالكلاب العقور والنهي عن النجس والامر بالتنظيف ومنع الناس عن الوقوف في مواضع التهم كتحديث الرجال مع النساء في الشوارع ومنع النقاشين والصباغين والصواغين عن اتخاذ تماثيل ذوات الروح (١) وكبر الصور ومنع المسلمين عن الاكتسابات الفاجرة كاتخاذ الاصنام والمعازف والصنج وبيع التبهذ والخنج (٢) ومنع الناس عن اتخاذ القبور الكاذبة وخروج الناس الى زيارة بعض المنبركين او بعض المساجد على مشابهة الخروج الى الحج ومنع النساء عن التبرج والتزج بالخروج الى النظارات وزيارة القبور ومنع الناس عن التصرفات في المقابر

(١) المنهي عنه الصور المحسنة للتعظيم اما الصور النصفية فلا مانع منها .

(٢) الخنج كقنفذ عصير مطبوخ واصله بالفارسية مبيخته .

بلا ملك ومنع المطلعة والسحار والكهان عن منكراتهم ونهي اصحاب الحملات عن منكراتهم بتطهير المياه واخلاء الحمام عن المرد ودخول العراة فيه وامرهم باتخاذ الحجب بين الرجال والنساء ومنع الناس عن تعلم علم النجيم مما لا يحتاج اليه في الدين وتصديق الناس الكهان والمجتمين ومنع الناس عن بدعة ليلة البراءة ومنع الناس اللعابين بالرد والتطريخ وتفريق جمعهم واخذ بساطهم وتماثيلهم ومنع القوابل عن اسقاط جنين الحوامل ومنع الجراحين عن الجلب والخصاء في الناس ومنع الناس من الاقامة في المساجد ووضع الامتعة فيها ومنع الذي اصابه الملعون عن التكلم بالغيب واجتماع الناس عنده زاعمين انه صادق في اخباره بالغيب ومنع الخطاط ومعلم القرآن ومعلم النحو باجر عن الجلوس في المساجد ومنع المعلم عن اخذ شيء باسم النوروز والمهرجان وينذر المحتسب معلمي الكتاتيب ان لا يضربوا الصبيان ضرباً مبرحاً ولا يهتكوا مقتل وكذلك معلمو العلوم بتخديرهم من التفرير باولاد الناس ويقفون من يكون في المعاملة فينهونه بالردع والادب .

وكانت وظائف المحتسب تزيد وتنقص بحسب البلد ولا تعدو وظائف المحتسب الامور المشتركة بين اهل كل مجتمع فالمحتسب في بيروت يقضى عليه ان ينظر في امور لا ينظر فيها محتسب دمشق مثلاً ففي بيروت يعني المحتسب بالاحتساب على السكاكين والملح والصير والبوري وقلاني السمك والطيور وصيادها ونجار المراكب وتقدير المراكب وجميع المدن مشتركة مثلاً في الحسبة على الصيادلة والعقاقير والاشربة والمعاجين والقلانسيين والخرازين وصناع الشراك والاساكفة وصناع الخفاف وصناعة السرايات والزفاتين والنجساتين والدهانين وغشهم والمكارين وغشهم وكساحي السجاد وحمالته والغرايل ومناخل الشعر والوراقين والمهرجين وفيمن يكتب الرسائل على الطرق والرقاع والدروج وكتاب الشروط والولاية والقضاة وتدايسهم والميازيب ومضرتها والمراصد والمراقب وطباخي الولايم والحامل وصناعها والروايا والقرب الى غير ذلك مما كان يستدعيه مجتمعهم ودينهم وعاداتهم ومدنيتهم .

وابس هذا كل ما يطلب من المحتسب فقد كان يطلب منه ان يسيطر على العقول ذكر ابن الاثير في المثل السائر من تقليد انشاء لمنصب الحسبة : واعلم ان

الناس قد امانوا سنناً واحيوا بدناً ، وتفرقوا فيما احدثوه من المحدثات شيعاً ، واظلم منهم من اقرهم على امرهم ، ولم يأخذهم بقوارع زجرهم ، فان السكوت عن البسدة رضا بمكانها ، وترك النهي عنها كالامر باتيانها ، ولم يأت بنا الله الا يعيد الدين قائماً على اصوله ، صادراً بحكم الله فيه وحكم رسوله ، ونحن نأمرك ان تنصفح احوال الناس في امر دينهم ، الذي هو عصمة عالمهم وامر معاشهم ، الذي يتميز به حرامهم من حلالهم ، فابدأ اولاً بالنظر في العقائد ، واهد فيها الى سبيل الفرقه الناجية الذي هو سبيل واحد ، وتلك الفرقه هي السلف الصالح الذين لزمو مواظن الحق فاقاموا ، وقالوا ربنا الله ثم استقاموا ، ومن عدام شعب دانوا ادياناً ، وعبدوا من الالهواء اوثاناً ، واتبعوا ما لم ينزل به الله سلطاناً ، ولولئلا لاربنا بهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول والله يعلم اعمالكم ، فمن انتهى من هؤلاء الى فلسفه فاقتله ولا تسمع له قولاً ، ولا تقبل منه صرفاً ولا عدلاً ، وليكن قتله على رؤوس الاشهاد ، ما بين حاضر وباد ، فما تكدرت الشرائع بمثل مقالته ، ولا تدنس علومها بمثل اثر جهالته ، والمنتهى اليها يعرف بنكره ، ويستدل عليه بظلمة كفره ، وتلك ظلمة تدرك بالقلوب لا بالابصار ، وتظهر زيا دتها ونقصها بحسب ما عند رائيها من الانوار ، وما تجده من كنهها التي هي سموم ناقعة ، لا علوم نافعة ، ووافاعي ملقفة ، لا اقوال مؤلفة ، فاستأصل شأفتها بالتمزيق ، وافعل بها ما يفعله الله باهلها من التمزيق ، ولا يقنعك ذلك حتى تجتهد في تتبع آثارها ، وانكشف عن مكان من اسرارها ، فمن وجدت في بيته فليؤخذ جباراً ، ولينكل به اشهاراً ، وليقل هذا من استكبار استكباراً ، ولم يرج لله وقاراً ،

قلنا وتطبيق هذه الشدة في بعض الحكومات الاسلامية وباللاسف قد دعت الى القول على كل مخالف وذهب كثير من ارباب العقل والفلسفه طعمعة الضغط والاستبداد فتأخرت بذلك الامة واشبه المسلمون في كثير من ايامهم المسيحيين في القرون الوسطى بما عاينوا به من دعوى السحر والكفر فأهلكوا باحكام دواوين التفتيش الديني الوفا ذهبوا جزاء عقولهم التي ارادت ان تخرج عن مستوي محيطهم الضيق .

ومن اجل البقايد تقليد رشيد الوطواط في الحسبة وفيه ان اولى الامور بان تصرف اعنة العناية الى ترتيب نظامه وتقصير غايات العهم عن تنمية اتمامه امر يتعلق به ثبات الدين وينعطف عليه صلاح المسلمين وهو امر الاحتساب فان فيه تثقيف الزائفين

عن الحق وتأديب المنعمين سيف الفسق وتقوية اعضاء ارباب الشرع وسواعدها ، واجراء اعمال الدين على قوانينها وقواعدها ، وينبغي ان يكون منقلد هذا الامر موصوفاً بالديانة ، معروفاً بالصيانة ، معرضاً عن مراد الرب ، بعيداً عن مواقف التهم والعيب ، لا بسا مدارع السداد سالكاً مناخج الرشاد وامرناه ان يجعل الزهد شعاره ، والتقوى دثاره ، والعلم معلمه والدين مناره ، ثم يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ويقم حدود الشرع على موجب النصوص والاخبار ، ومقتضى السنن والآثار ، من غير ان يتصور الحيطان ، ويتسلق الجدران ، ويرفع الحجب المسدودة ، يكسر الابواب المسدودة ، ويسلط الاوباش على دور المسلمين ، وحرم المؤمنين ، حتى يغيروا على اموالهم ويمدوا الايدي الى عوراتهم واطفالهم ، ويظهروا ما امر الله بستره واخفائه ونهى عن اشاعته وافشائه فان عبادة الاوثان خير من ذلك الاحتساب ، العقوبة الابدية اولى بمباشرة من الاجر والثواب .

قال ابن فضل الله في التعريف وصية محتسب : وقد ولي امر هذه الرتبة و وكل اليه النظر في مصالح المسلمين حسبة لله فليستقر سيفه الدقيق والجليل والكثير والقليل وما يحصر بالقادير وما لا يحصر ، وما لا يؤمر فيه بمعروف او ينهى عن منكر ، وما يشترى و يباع ، وما يقرب بخير الى الجنة ويبعد من النار ولو لم يكن قد بقي بينه وبينها الا قدر باع او ذراع ، وكل ما يعمل من المعاش في تبار اوليل ، وما لا يعرف قدره الا اذا نطق لسان الميزان او تكلم فم الكيل ، ويعمل لديه معدلاً لكل عمل ، وعياراً اذا عرضت عليه المعايير يعرف من جار ومن عدل ، وليتقدا كثر هذه الاسباب ، ويحذر من الغش فان الداء اكثره من الطعام والشراب ، ليتعرف الاسعار ، ويستعلم الاخبار ، في كل سوق من غير اعلام لاهله ولا اشعار ، ليقم عليهم من الامتاء من ينوب عنه في النظر ، ويطمئن به وان غاب اذا حضر ، ويأمره باعلامه بالاعضل ، ومراجعتهم معها امكن فان رأي مثله افضل ، ودار الضرب والنقود التي منها لنبت ، وقد يكون فيها من الزيف ما لا يظهر الا بعد طول اللبث ، فليتصد لها بصدره الذي لا يخرج ، ويعرض منها على المحك من رأيه ما لا يجوز عليه بهرج ، وما يعلق من الذهب المكسور ويوزن من النضة ويخرج ، وما اكلت النار كل لحامه ولا بعضه ويقم عليه من جهته الرقباء ، وليقم على شمس ذهبه من يرقب منه ما ترقب من الشمس الحرباء ، وليقم

الضمان على العطارين والطرفية في بيع غرائب العقاقير الا ممن لا يستراب فيه وهو معروف، ويخطط مطيب ماهر لمريض معين في دواء موصوف، والطرفية واهل النجامة وسائر الطوائف المنسوبة الى ساسات، ومن يأخذ اموال الرجال بالحيلة ويأكلهم باللسان، وكل انسان سوء من هذا القبيل هو في الحقيقة شيطان لا انسان، امنعم كل المنع، واصدعهم مثل الزجاج حتى لا ينحجر له صدع، وصب عليهم النكال والا فما تجدي في تأديبهم اداة التأديب والصفع، واحم كل هذه المواد الخبيثة، واقطع ما يجر ضعفاء الناس من هذه الاسباب الرثيثة، ومن وجدته قد غش مسلماً، او اكل بباطل درهماً، او اخبر مشترى بزاندا، او خرج عن معهود العوائد، اشهره في البلد، واركب تلك الآلة فقاء حتى يضعف منه الجلد، وغير هؤلاء من فقهاء المكاتب وعالمات النساء وغيرهما من الانواع (٢) ممن يخاف من ذنبه العائث في سرب الظباء والجاآذر ومن يقدم على ذلك ومثله وما يحاذر، ارشقهم بسهامك، وزلزل اقدامهم باقدامك، ولا تدع منهم الا من جربت امانته، واختبرت صيائنه، والنواب لا ترضى منهم الا من يحسن نقاداً، ويحسب لك اجر استنابته اذا قيل لك من استنبت فقلت هذا . وثقوى الله هي نعم المسالك، ومالك في كل ما ذكرناه بل اكثره الا اذا عملت فيه بمذهب مالك اه .

ولقد حدثنا التاريخ ان الناس كانوا يتولون الحسبة بانفسهم عندما تضعف الحكومات لان مصلحة اهل كل بلد لانتم الابدفع الاذى بعضهم عن بعض والتواصي بالحق والجاهل في ذمة العالم والضعيف من حصة القوي . واهل البلد الواحد متضامنون معنى وضمتا اذا لم يتضامنوا هلكوا وهيئات ان نتم للفرد فيه سعادة لانتناول المجموع .

نعم ان تلك الاوضاع قد بلغت عند غيرنا في هذا العصر مبلغاً عالياً من الرقي بفضل قاعدة توزيع الاعمال وكثرة الاختصاصين في كل فرع من الفروع التي تشتد حاجة المدنية اليها ولكن ديوان الحسبة وحده كان يقوم باكثر هذه المقومات في المدن الفاضلة فكانت الحسبة آخذة برقاب المنافع داغمة اعناق المضار . ومن الغريب ان عصرنا على رقيه لم يصل في بلادنا الى بعض ما كان يتمتع به اهلها في القرون الوسطى وهذا امر الفرق بيننا وبيننا قسماً الملم العظيم .

محمد كرد علي

الوبالة (الملائرية)

« وكيفية الوقاية منها (١) »

ايها السادة :

انندي حضررة استاذنا الكبير رئيس الجمع العلمي المحترم لاحادثكم في هذا المساء فلم اجد بداً من الامثال لرغبته فارتيت افش في حقبي عن موضوع يدور عليه محور كلامي فوجدتها حافلة بالمواضيع الطبية والعلمية والصحية . ولا عجب فهي بضاعة الطبيب ومنها ينفق وينفد . وقد كنت ارد لو انفسح لي الوقت فاتي على مسامعكم سلسلة من المحاضرات في الفلسفة الطبية والعجائب النسيولوجية والتشريحية التي تراءى للمدقق حين تحري كل خلية من الخلايا التي يتركب منها هذا البناء البشري والنظر اليها وهي تتبع نظاماً دقيقاً لا يخرج عنه حتى ليتعطل للانسان عندئذ ان في جسده عالماً آخر جديداً يتبع انظمة انى لعالمنا هذا الظاهر ان ياتلها دقة وانتظاماً . ولكن البحث في تلك الموضوعات يستغرق طويلاً من الزمن ويستدعي عشرات من المحاضرات ارجي القاءها الى زمن آخر لانني ارجب رغبة شديدة بان اطلع ناشئنا الجديدة التي يرجي منها تقدم البلاد ورقبها على ما يجري فيهم من الاسرار والعجائب الخارقات التي يقف عندها اكبر مفكري العالم وهم لا يجدون لحل الغازها سبيلاً، وعار على الانسان ان يطمح بعقله الى إدراك ما يحيط به ومعرفة ما هو بعيد بالنسبة اليه وهو يجهل ما فيه من الغوامض وعليه اني اترك هذه المواضيع الى وقت آخر واختر موضوعاً لكلالي في هذا المساء « الوبالة وكيفية الوقاية منها »

موضوع رجب متسع الاطراف يتمكن الباحث من الجولان فيه ساعات طويلة

(١) محاضرة الدكتور مرشد بك خاطر احد أعضاء الجمع العلمي ألقاها

في اول تموز سنة ١٩٢١

وموضوع جزيل الفائدة إذا روعي كان سبباً لنجاة مئات الألوف في هذه البلاد السورية وحدها على الرغم من قلة سكانها - ولست أريد أن ألقى عليكم الآن درسا طبيا في هذه الحلى واعراضها وكيفية تكونها وعاملها المرضي واختلاطاتها وغير ذلك من الابحاث التي يطول بنا شرحها ولا يلزم لكم سماعها لانها من الاختصاصات الطبية الصرفة ولكنني أحصر كلامي فقط بالقسم الصحي من الموضوع اي بالنقطة التي يجب على كل فرد من الامة طبيا كان أم غير طبيب ان يعرفها ويراعيها لان من الواجب على كل انسان أن يكون طبيا صغيرا أي طبيا في بيته يدخل اليه من العادات كل حسن ويستأصل منه كل فاسد فإذا حصرت موضوعي بنقط ثلاث اكون قد بلغت الغاية التي اتوخاها قاولي هذه النقاط : حدة الوبالة وأضرارها وانتشارها الجغرافي . وثانيتها : طريقة انتقالها ولحمة في حياة العامل الناقل . وثالثتها : كيفية الوقاية منها .

الوبالة او (المالاريا) مرض عفني ناتج عن دخول الطفيلي - الذي كشفه لافران سنة ١٨٨٠ وسمي باسمه - الى دم الانسان وهذا العامل أيها السادة متى وجد في الدم لا يرضى غذاء له الا اشرف ما في الانسان . لا يرضى الا بذلك العنصر الحيوي الاساسي ، تلك الكريات الحمراء التي تأخذ بخضابها الدموي (هاموغلوبين) او كسجين الهواء متممة في الانسان وظيفة التخمض والاحتراق وهي اسل لكل حياة بشرية وحيوانية ونباتية ومتى التهمت هذه الجرثومة تلك الكريات الحية الناشئة الحياة في البناء البشري حدثت اعراض في البنية يطول بنا وصفها واهمها فقر دم عميق بلبه ضعف كل وظيفة جسمية لان الاعضاء التي في الجسد تحتاج الى غذائها وقوتها وغذاؤها وقوتها يقومان بتقديمها الكريات الحمراء فاذا نقصت هذه الكريات عدداً أو اخلت تركيبها الكيمي فنقصت جوهرها مع محافظتها على عددها ضعفت الاعضاء جميعها التي تقص غذاؤها فبدت في البنية اختلالات في الوظيفة اهمها ضخامة الطحال الذي يبلغ احيانا عشرة اضعاف حجمه العادي فيملا البطن ويصل حتى حدوده السفلى وترافقه غالباً ضخامة الكبد وهي وإن تكن أخف من ضخامة الطحال لان الكبد لا تبلغ إلا نادراً ثلاثة اضعاف حجمها الفسيولوجي ، لا يزال حجمها المطابق أكبر من حجم الطحال لان وزنها يعادل أربعة كيلو غرامات مع ان وزن الطحال حين ضخامته

الكبرى لا يزيد على كيلو غرام واحد . وهذا عدا التشوشات العظيمة التي تظهر في السكيتين والنقي (المخ العظمي) والمراكز العصبية فينتفع بسببها لوث الوجه ويعلموه شحوب شديد فتندبل نضرة الوجنتين ويشبه المصاب بهذه الوبالة انساناً نشر من بين الاموات .

هذه هي الوبالة أيها السادة وهذا تأثيرها بالبنية وهذه هي أضرارها الجسيمة وهذه هي أسقامها التي يزرع تحت وقرها جسدنا الحلي فاذا صورتها لكم بهذه الصورة القبيحة أو مثلتها لكم بصورة سنالك عظيم يفتك بمليارات الكريات في الدقيقة الواحدة فإني لا أدرك الحقيقة . وكما ان ضحاياها في الجسد الواحد تعد بالملايين فلست أبالغ اذا قلت ان ضحاياها في جسد المجموع البشري لا تقل عدداً عن ضحاياها في البنية الواحدة من ذلك المجموع فكم من القرى التي افقرت بتأثير الوبالة وكم من الجيوش التي أهدت حلولها في البطائح والحرب التي مرت هي أكبر برهان على صحة ما أقول ولعل عدداً غير قليل منكم أيها السادة رافق الجيوش التركية في غزواتها ووجد معها في تلك المستنقعات السورية والفلسطينية والناضولية والعراقية فرأى بأمر عينه تلك النوب الخبيثة التي لم تكن لتمهل المصاب بها الا عشرات من الساعات . وكم من المدن التي وهبتها الطبيعة من مائها وجمالها ما ضحت به على سواها فلم تستفد من هبات الطبيعة بل شوهتها فجعلت الماء مرتعاً للبعوض فكانت تلك الهبة من البلايا العظيمة على سكان تلك المدينة .

ولو نظرت نظرة عامة أيها السادة الى الكرة الارضية لوجدتم ان للوبالة مستعمرة في كل قارة من القارات فهي لم تترك مملكة الا غرست فيها عملها وشادت قلاعها وان من الممالك ما ناوأها وأدلت عليها الحرب الحامية الوطيس وأضعف سيطرتها وحصرها حتى كاد يخنقها ويقاص ظلها من بلاده ومثال هذه البلاد البلاد الاوربية فان فرنسا مثلاً بعد ان كانت تدفع للوبالة الضرائب الشديدة توصلت اليوم الى نزع نيرها والقائه بعيداً وبعد ان كانت ولاياتها الواقعة في الوسط لاسيما (السولويه) (Sologne) من البلاد التي تنتشر فيها الوبالة أصبحت اليوم آمنة منها بفضل علماء الصحة الخبيرين وهمة الحكومة ونشاطها وهكذا فان اوروبا جميعها قد خطت خطوة

كبيرة في هذا الامر فما يقال عن فرسة ينطبق ايضاً على انكثرة والمائة وسواها حتى اننا لو زرنا البلاد الاوربية لا نرى الا اصابات قليلة لا تكاد تذكر في كورسكة (Corse) وساردانية واسبانية واليونان ولم يبق من البلاد الاوربية مملكة متأخرة عن خلق الوبالة الا البلاد الايطالية التي تكثر فيها المناقع ولا تزال هذه الحمى ضاربة فيها اطنابها ومزيلة من وجنات شبيبتهما نضارة الحياة .

وكذلك اميركة فانها قد حذت حذو اوربية في خطتها لا سيما الشمالية منها وهي وان تكن لا تزال متأخرة في هذا العمل عن مجازاة اوربية القديمة العهد والعريقة في العلم ، قد آزالت قسماً كبيراً من سيطرة هذا البلاء في اميركة الشمالية لم تعد تذكر الوبالة الا في مقاطعات لوزيانا (Lousiane) وفلوريدا (Floride) وتاكساس (Texas) واركنساس (Arkansas) وجورجيس (Géorgie) واما في المكسيك فانها لا تزال مستولية استيلاء غريباً كما انها في بناما وغواتمالا (Guatémala) وجزر الانتيل لا تزال شديدة الوطأة .

واما اميركة الجنوبية فلا تزال وكراً للوبالة فان البرازيل والبيرو عدا الصرود منها ، وغيوانه (Guyanes) وفنازوبلا وكولومبية وبوليفية تئنس فيهما الوبالة نفساً شديداً .

والقارات الاخرى من الكرة تلك القارات التي كتب لها الشقاء لا تزال متأخرة تزرع تحت نير هذه الحمى وسواها من الوبئة النفسية فأفر بقية على الرغم مما يبذل فيها من العناء لا تزال مرتعاً للوبالة ولا ينجو منها الا المدن والقرى الواقعة على المرتفعات وان للمحيط تأثيراً كبيراً في نمو بؤس البعوض الذي ينقل هذه الحمى ويجعل تلك البلاد رغم اليد العاملة فيها من اكبر الينابيع التي يتدفق منها هذا البلاء على البشرية لان هذه الحمى تهوى البلاد الحارة اكثر من الباردة .

واما اوقيانية (جزائر الاوقيانوس الكبير) فان اكثر جزرها لا تزال معرضة لهذه الحمى اخصها مالازية (Malaisie) وجاوا (Java) وسوترا وبورنايو وموليك (Moluques) وفيلبين .

واما آسيا هذه القارة التي نحن فيها وتحت سمائها نحيها فانها القارة التي لم تخط حتى

الآن خطوة تذكر في سبيل التخلص من ربقة هذا المرض فان الكوشاشين وتونكين والقسم الشمالي الشرقي من الصين وكامبودج والعم وهندستان وسيلان ملوثة بالوبالة ثلثاً لا يرجى منه شفاء الا اذا بذلت الحكومة أقصى ما في وسعها في هذا الصدد . ولو نظرنا الى المحيط الذي نحيها فيه بعد ان أرسلنا بنظرنا الى أطراف الكرة الارضية لوجدنا انفسنا في تأخر عظيم ولست أقصد ان أضع لكم الآن إحصاء عن الوبالة في كل مقاطعة من البلاد السورية فان هذه الاحصاءات لا وجود لها لسوء الحظ واذا وجدت فلا تكون حقيقية بل لا تكاد تبلغ عشر الارقام الحقيقية لان كثيراً من الاصابات لا يذكرها الاطباء فضلاً عن ان العدد الكبير من المرضى يتداوى عند الدجالين او عند نفسه فلا تصل استوائهم الى ادارة الصحة العامة لتضع احصاءها الحقيقي . ولكني اقول كلمة موجزة تحققت صحتها بنفسي وبواسطة زملائي وهذه الكلمة تهكم معرفتها كما انها تهكم كل سوري ضنين بصحة اهل بلاده وهي ان ثلث سكان هذه المدينة وثلثي سكان القرى الجاورة لما يصابون بهذه الحمى .

ولو اخذت مقياساً لكلامي لتقيفكم المجتمع هنا أيها السادة وسألت كلاً منكم اذا كان أصيب بنوبة وبالة فربادوارها الثلاثة النافض (العرواء) والحرارة والرق لما وجدت عشرة في المائة سالمين منها مع انكم من الذين يحافظون على صحتهم ويراعون القواعد الصحية مراعاة دقيقة ولكن ليس الذنب ذنبكم . ولو اخذتم انتم على سبيل الاختبار اي مجتمع كن كما لو اخذ أب الاميرة افراد أسرته ورئيس المدرسة عامة تلامذته ورئيس الدائرة جماع مأموريه ورئيس النادي جميع اعضائه ومدير المعمل لقيف مستخدميه لرأيتم ان النسبة تبقى محفوظة او تكاد . إذا اذا جعلت نسبة الاحصاءات ٣٣ بالمائة اكون قد وضعت رقماً دون الحقيقة .

هذا هو انتشار الوبالة في الارض أيها السادة رسمته لكم باليجاز فما هو السبب ياترى في انتقالها وما هو عامها الناقل ؟ ان السبب الوحيد في انتقال هذه الحمى البعوض والشرط الاساسي في حياة البعوض هو المستنقعات والمياه الراكدة او ذات السير البطيء فاذا أزلنا الشرط الثاني انقضى بيوض البعوض وقضى على هذه الحمى وخلصنا هذه البلاد من شر عظيم يهددها ويذهب بقوة ابنائها . أجل : المستنقعات هي النقطة

الاساسية التي يجب ان نوجه اليها انظارنا ولو أخذت مدينة دمشق مثلاً على كلامي وذكرت لكم البطائح المتعددة النسيجة المحيطة بهذه المدينة والموجودة في داخلها لما عيتم بعد ذلك لكثرة الوبالة وشدة انتشارها ما بيننا .

في دمشق مستنقعات فسيحة مملوءة سماً زعافاً تنشر في الفضاء ذلك العامل النافل فلا يدع منزلاً إلا يدخله ويقع سكنه بلقاحه المضر فقيها مستنقع (الجبنة) وجنينة النع والمرج (الدقردار) والزفتية والساحة والقاعة والمستنقع الواقع خارج بوابة الله قرب القدم والمستنقع الواقع في جوار مدافن النصارى واليهود والنهر الابيض الذي يتدفق من الشاعور ويرى الحلقة والزفتية والساحة حتى المنزل — رخرج الغوطة الواقع شرقي الشام . وفي ضواحي دمشق مستنقعات عديدة وبطائح تفسد هواء القرى الواقعة قربها منها ثلاث بطائح قرب بحيرة العتيبة والقرية المسماة باسمها تبلغ مساحتها ٢٤٠٠ متر مربع .

ومستنقع قرب قرية حران العواميد والمستنقعات المتكونة في سفح جبل حرمون كالمستنقع الواقع على بعد خمسة كيلومترات من قطنا في ذلك الوادي الخصب . ومستنقعات عرطوز وسبع المتكونة من نهر الاعوج وغير هذه من المستنقعات الصغيرة التي لا تعد وكلها ناجمة عن اختلال قنوات الانهر وتسرب المياه منها الى الاراضي المنخفضة ومتى عرفنا أنها السادة ان المستنقع يمتد ضرره الى مساحة لا يقل قطر دائرتها عن ثلاثة كيلومترات وهي المسافة التي يقوى البعوض على قطعها اذا كان الهواء هادئاً اذ كنا اذ ذاك ان دمشق وقراها جميعاً دخلت ضمن نطاق الوبالة .

ولا نظن ان بقية المدن السورية اكبر حظاً من دمشق فلو أرسلت بنظري الى حمص وحماء وجسر الشغور وقراها ولم أتجاوز حدود دولة دمشق لوجدت من المستنقعات عدداً عديداً يثبت جرائم هذه الحمى الفتاكة ويميت الالوف ومئات الالوف من سكان القرى المجاورة منها :

مستنقع الغاب : ويسمى ايضاً غارة وجه الحجر دعي غالباً لكثرة ما يذبت فيه من الاعشاب المائية والفصب حتى أصبح حرجاً كثيفاً تأوي اليه الوحوش وهو بوابة الوبالة

تجيش فيه جيوش البعوض فننتشر على الجهات المجاورة وتبعث بين سكانها سمومها . طوله ستة كيلومترات وعرضه كيلومتران ونصف كيلومتر ومساحة سطحه الف وخمسمائة هكتار . وسبب تكونه ارتفاع سطح المياه التي طغت من بحيرة القطينة على الاراضي المنخفضة الواقعة في الجهة الغربية .

ومستنقع نهر السيج : الذي ينبع تحت خرابة اسمها معين قائمة على سفح جبل لبنان الشرقي ويمتد هذا المستنقع على طول مجرى النهر البطي و يجتاز قرى مطرية وسفرجه والناعم والبويزة الغربية ودين وينتهي بمستنقع الغاب فيسم هواء هذه القرى كلها .

ومستنقع كائن قرب حصص بين سد أنشئ حديثاً للعاصي والجسر الحديدي الذي يمر فوقه قطار حصص وطرابلس الحديدي طوله خمسمائة متر وعرضه خمسون متراً . ومستنقع المباس : وهو مأزده مدينة حصص وسبب وبالتها .

ومستنقع السيج : وهو مستنقع آخر يكونه النهر متسع الاطراف يبلغ طوله عشرة كيلومترات وعرضه عشرة أيضاً ومساحة سطحه عشرة آلاف هكتار تحيط به قرى العشرانة والعونية وحلة وتريمسة وصلبا والصفصافية . وهي من اعمال حماه و سلحب وجبرملة وديمو من اعمال قضاء العمرانية من منطقة العلوبين .

ومستنقع الغاب : وهو بطيخة أخرى غير البطيخة الاولى المسماة بهذا الاسم واقعة قرب جسر الشغور واسمها القديم بحيرة افاميا مساحتها اربعون الف هكتار وطولها ٤٠ كيلومتراً وعرضها عشرة كيلومترات وهي كائنة في الاراضي الفاصلة بين حكومة دمشق وحلب وجبل العلوبين تقع في اولها قرية العشارنة وهي من اعمال حماه وفي آخرها قرية قرقور من اعمال قضاء الشغور ويحدها قرى جلاب وعمورين والسقيلبية وقلعة المضيق (وهي مدينة افاميا القديمة) والشريرة وحوير والتويني والناصرية وقرقور وتل الغار وحوراث ورسم الجرن وتل كمثري وكريم والبارد ورصيف شطه . ومما زاد في الطين بلة إقامة سد في معبر المستنقع قرب قرية قرقور سمحت بانشاء الحكومة العثمانية شركة ملتزمي الصيد منعاً لمرور الجري (الخنكيس) من الفرار .

خطر عظيم يهدد الامة ونحن عنه متغاضون وبلاء جسيم سببته المياه الغزيرة ذلك العنصر الحيوي الذي يلقى الحياة حيث مر اذا احسن استعماله ويسبب الامراض والابوثة اذا لم يذب اليه ونحن عنه لاهون . خير اسورية ان تكون ظمأى وبنوها اشده اقوياء من ان تندفق الجداول في كل منعرجاتها وتسيل المياه في دورها وبنوها مرضى شاحبون — وعار علينا ان ندع تلك الهبة التي خصت الطبيعة بها مدينتنا الزاهرة لنقلب الى بلاء وخطر . عار علينا نحن احفاد الامم بين ان نقف وقفة المخرج إزاء هذا الخطر الخفي كأن الدم الذي يلمتهم ليس بدم ابائنا والقوة التي تبعثر ليست بقوة نسنا ، لا بل يلقى بنا ان نضع حدا لهذا الداء وان نحمل اولى الامر على اتمام ما لا طاقة لنا بصنعه منفردين .

المستنقعات مضره آيها السادة لانها البيئة التي ينمو فيها البعوض و يلقى فيها بيوضه فلا تلبث هذه البيوض متى وجدت من الحرارة وركود الهواء ما يلائمها ان تنفقس وتقلب الى سرفه لحشرة فبالغة . فتصبح قادرة على الطيران . وبهذه المناسبة أنبهكم الى امر اسامي خوقاً من الالتباس وهو ان البعوض يقسم نوعين مهمين وان نوعاً واحداً منها يحيا فيه عامل الوبالة وهذا النوع يسمى (الانوفال) . والنوع الآخر عديم الخطر يسمى (كيلاكس) . واليك بعض الاوصاف المميزة للانوفال عن الكيلاكس البالغين : يكون جسم الانوفال عندما تحط على سطح مائل مكوّناً مع السطح الذي تستوي عليه زاوية تبلغ أحياناً الدرجة التسعين . واما الكيلاكس فان جسمها يكاد يكون موازياً للسطح فاذا رأيت بعوضة حاطة على حائط او سرير ووجدت ان رأسها اكثر انخفاضاً من ذنبها اي اذا وجدتوها مائلة فاعلموا ان في خرطومها سمّاً زاعفاً وان لدغها لا يقل خطراً عن لدغ الافعي واذا رأتوها موازية للحائط او السطح السرير فلا تتخافوها فهي تلدغ وتولم مكان اللدغة ولا ينتج عن لدغتها الا الم موضعي لا يلبث ان يزول وما قلته لكم من الاوصاف المميزة بين النوعين البالغين من البعوض نجد شبيهاً له بين الحشرتين والسرفتين الا انني اضرب صفحاً عنها لان ما يقع تحت اعينكم من البعوض هو البعوض البالغ وقلما تندفعون الى تتبع البعوض في وكره والنظر الى سرفاته وهو على وجه المياه — فالانوفال اذا بعد ان تصبح قادرة على الطيران يبقى الذكر منها قريباً من

الكان الذي ولد فيه فيتغذى بعصير بعض الاشجار واما انثاء فانها نهضة لا ترضى بسوى الدم غذاء لها فتفتنم فرصة الميل واستغراق الانسان في نومه فتهاجمه وتمتص من دمه غذاءها ولما كانت لا تميز بين السليم والمريض فاتها متى امتصت من دم مريض مصاب بالوبالة تأخذ مع الدم طفيلي الحى وبعد ان ير هذا الطفيلي بادوار متعددة في جسمها تنقله السليم مع اللعاب حين غرز خرطومها فيه والاغتذاء بدمه وهكذا يتم انتقال هذه الحى من المريض الى السليم . وبدون البعوض لا سبيل الى العدوى وبدون المستنقعات لا سبيل الى حيوة البعوض .

وبان الانوفال هي العامل الناقل وهي الملقح الوحيد الذي ينقل العامل المرضي من العليل الى السليم رأيت من الواجب ان اعطيكم شمة عن حياتها واخلاقها فاقول : للبعوض دور من الحيوه يسعى الدور السرفي وهو الدور الذي يلي فقس البيضة ويسبق زمن البلوغ وهذا الدور من ادوار حياة الانوفال ما ياتي صرف اي ان الانوفال تقضيه في الماء . اذاً لانوفال بدون ماء .

لنتخبط الانوفال المستنقعات الصغيرة حيث الماء نقي صافٍ لتلقى بيوضها فيها غير ان ركود الماء ليس شرطاً لازماً فان الماء اذا كان هادئاً او خفيف الجريان كان موافقاً لها ايضاً وعلية فان قسماً كبيراً من الانهر التي تخترق دمشق مارة في بقع مستوية من الارض او خفيفة الميل يكون سيرها هادئاً جداً حتى انه يخيل للناظر اليها انها بركة لا جريان فيها فهذه الغدران جميعها ملائمة كل الملائمة للانوفال وفيها تلقى بيوضها وتنتج نسلها بمئات الملايين وما يقال في هذه الغدران يقال ايضاً في ضفاف الشواطئ التي نتمو عليها الاشجار المائية فتعوق سير الماء السريع وتولد قرب جذع كل شجرة مستنقعاتاً صغيراً لا بل تفضل الانوفال هذه المستنقعات الصغيرة على تلك نظراً الى قلة عمقها وصفاً مائها وهذه كثيرة بدمشق تعد بمئات الالوف لان كثرتها معادلة لعدد الاشجار النامية على الضفاف .

وكذلك المستنقعات المعشبة والمستنقعات المائية الواقعة في الاراضي الحزفية وكل مستنقعات دمشق التي ذكرت اسماءها منذ هنيئة هي من هذين النوعين ، هي وسط موافق كل الموافقة لنمو الانوفال . ولا ننس ان البرك والجاري الصناعية التي تحتر

في الجنائن والمنعرجات الواقعة في جوار الجداول وثقوب الحوافر الملقاة حول المساخ والافتاق التي يحفرها السرطان المائي والمجامع المائية مهاصغرت لاسيما ما يندرج عن فيضان خزانات الماء كما هي المسالة قرب خزان من خزانات ماء النجعة في دمشق وكسرات القناني وآية الازهار وشقوق الصخور كل هذه اذا اجتمع الماء فيها كانت موافقة لنفس يعض البعوض وبكثرة واحدة فان الانوفال لا تترك بقعة ماء هادئة او راكدة الا تلتقي فيها ببوضها .

ولا تنجبوا ايها السادة اذا أضفت الى كل ماضى ماشاهده بعض علماء الصحة المدققين في فلسطين ولعلنا نشاهده نحن ايضاً اذا جرنا حب الاختبار الى التدقيق : ان بعض الآبار اليتية نخذها الانوفال مقرأ لها وتلقي فيها ببوضها فتأملوا اذا ما أعظم صولة هذا العدو الخفي الذي يتهددنا وكم ينبغي ان نعد من العدد لمقاتلته وشترير معاقبه المتعددة . ولكن متى عرف الانسان مكان عدوه وادرك طريق عيشته ودرس اخلاقه جيداً سهل عليه الفتك به فبما كانت الوظيفة شاقة فان من الواجب اللزوم علينا ان نقوم بها لاننا بدونها لا نتوصل الى قطع شأفة الانوفال واذا لم نفع البعوض من هذا المحيط بقي هواؤنا ملوثاً واجسادنا غيلة مما توفرت الاسباب الصحية الاخرى لدينا فكلمكم بعلم ذلك المصيف الجميل الذي يؤمه الشاميون لصرف اشهر الصيف فيه وما هي عليه بلودان تلك القرية التي بنيت على علو شامخ فاخذت من الهواء نقيه وأتلت بعنقها الى السهول المنبسطة على اقدامها فاخذت من ازهارها ذلك الشذا الشذي فعطرت به هوائها وانعشت صدورساكنيها ومع ذلك فلم يغنها موقعها الطبيعي ولا جودة هوائها شيئاً بعد ان أهملت مياهها فولدت مستنقعات في اراضيها أصبحت مأوى للانوفال ومصدراً للوبالة التي نشت بين السكان والمصطافين في السنة الماضية حتى ان السواد الاعظم من الذين قصدوا تلك البلدة طلباً للصحة عادوا منها وقد علا وجنائهم اصفرار فقر الدم الوبالي ونهكت قواهم تلك الحمى الشديدة الوطأة . فاذا لم نندارك الحكومة امر هذا المستنقع ونفجره او نجففه في هذه السنة كانت انتجاع تلك القرية خطراً عظيماً على المصطافين .

وها انا امر على النقطة الاخرى من موضوعي وهي كيفية الوقاية من هذه الحمى .

الوقاية من الحمى تقوم بامور ثلاثة : اولها اتلاف سرفات البعوض وثانيها توقي البعوض البالغ حين وجوده وثالثها ادخال علاج الى الدم لا يتمكن طفلي الوبالة من ان يعيش فيه وبكثرة اخرى جعل الوسط الدموي غير ملائم لحياة العامل المرضي . اما الامر الاول اي اتلاف سرفات البعوض فيقسم قسمين قسم منه وهو الاكبر يترتب على الحكومة القيسام به والقسم الآخر وهو الصغير يترتب على كل فرد من افراد الامة اتمامه . فواجبات الحكومة ان ترسم مصوراً مفصلاً للبلاد التي تلوي شؤونها وان تدرس درسا دقيقاً مجساري الانهر وما يتولد عنها من المستنقعات فتصلح القنوات اصلاحاً منقناً وتجعل بناء السدود محكماً كي لا تسرب المياه منها في الاراضي المنخفضة الواقعة تحتها وانتظر في امر المستنقعات المنفصلة عن مجاري الانهر فاذا كانت المياه التي تصل اليها قابلة للتحويل ، حولتها عنها فجفتها واذا لم تكن قابلة للتحويل ملائمتها او ردمتها او حفرت فيها خنادق عميقة متصلة بمجرى من المجاري النهرية الاكثر قرباً منها ثم غرست فيها اشجاراً سريعة النمو محبة للماء كشجر الاوكالبتوس مثلاً فلا يمر عليها وقت قصير الا تجف وتصبح الانوفال عاجزة عن ان تجد لها مقرأ لتلقي فيه ببوضها . ومن واجبات الحكومة ايضاً ان تصلح ضفاف الانهر وتجعل مجرى النهر عميقاً وتقتلع الاشجار التي تعوق سير الماء فلا تدع سبيلاً لتولد تلك المستنقعات الصغيرة التي ذكرتها لكم قرب جذع كل شجرة من الاشجار . ومن واجباتها ايضاً معاينة المساخ وجوارها والمعامل وما يحيط بها والشوارع والازقة وخزانات المياه فلا تدع فيها مجماً صغيراً من الماء لتمكن الانوفال من القاء ببوضها فيه . ومن واجباتها وضع قانون يقضي على كل ملاك او مستأجر او مزارع ان يضع في البركة التي في داره او ملكه من زيت الكاز او التربنتين كل اسبوع كمية تناسب سطح تلك البركة اي كمية كافية لتكوين طبقة من الزيت على سطح الماء تمنع السرفات عن استنشاق الهواء وتقتضي عليها وهي في اوكارها وتقدر هذه الكمية بعشرين سائتيماً مكعباً من الكاز في المتر المربع من الماء . وعليها ان تعين مأمورين صحيين لهذه الغاية وان تعاقب العقاب الشديد كل من يجرأ على المخالفة . وعليها ايضاً ان تعين مياه الآبار وتري اذا كانت سرفات الانوفال عائشة فيها فتأمر بامتصاصها او بوضع الكاز فيها عادة ايها كالكبرك الملوثة .

فواجبات الحكومة كبيرة أيها السادة وإذا هي لم تبدأ بالعمل أولاً ولنقوم بواجباتها فإن ما يصنع أفراد الأمة منفردين لا يأتي بالفائدة وإن حكومتنا لما خيرة وإن لم نتم حتى الآن واجباً من الواجبات الصحية المسؤولة عنها فإنها قد وضعت القضية تحت الدرس ورسمت الخطط المنوي تطبيقها ولعل الغرامة الحربية التي جعلتها الحكومة المنتدبة تحت تصرف الحكومة الوطنية تصرف لهذه الغاية وكل آت قريب .

أما واجباتنا نحن أيها السادة فبسيطة للغاية يجب علينا أن نساعد الحكومة على اتمام ما تضعه لنا من القوانين الصحية . يجب على كل فرد منا أن ينظر نظرة دقيقة إلى بيته فلا يدع في بستانه أو داره مجمعاً من الماء إلا ملأه والتي فيه كازاً . يجب علينا أن ننظر إلى المراحيض فإن الانوفال وإن تكن ترغب رغبة شديدة بالماء الصافي فإنها لا تستكف عن المالح أو القذر فإذا وجدنا تلك المراحيض قد ولدت بماء مائية فيجب علينا أن نلقي كمية من الكاز فيها . يجب علينا أن نعتبر الأقسام المحيطة ببيوتنا كأنها ملك لنا يترتب علينا أن نحافظ عليها بحفاظتنا على مساكننا فنعاملها معاملة دورنا ذاتها ونخفف عن الحكومة قسماً من الانعاب . هكذا يصنع الشعب الراقي المتمدن في كل قطر من أقطار العالم .

وأما الأمر الثاني من الوناية وهو انقاء البعوض البالغ حين وجوده فإننا لا نحتاج إليه إلا إذا أهممنا الأمر الأول كما هي الحالة اليوم في مدننا الناعسة ويقوم هذا الأمر بوضع شبكة من الخيوط المعدنية الرفيعة على الأبواب والنوافذ لا يتمكن البعوض من المرور منها ووضع كلات ذات شبكات رقيقة أيضاً على الاسرة ويجب أن تكون هذه الكلات طويلة كي تصل إلى الأرض وإن ثبتت حول السرير بقطع من الرصاص كي لا يرفعها الهواء فيدخلها البعوض ويجب علينا أيضاً أن نعاين الكلات في كل يوم فإذا حدث فيها ثقب صغير يجب أن يرنق حالاً لأن البعوض لا يدع منفذاً مهما كان صغيراً إلا دخله . إن الكلمة أيها السادة كافية في حالتنا لما خيرة للتوقي من شر هذه الحية الشديدة فمها فلا ثمنها ومها قيل فيها فإن اهمالها يعد جريمة لا تغفر . ومها الحمت عليكم جميعاً هذه العادة الحسنة في المحيط الذي أنتم فيه فلا أفي واجب التبشير بهذه القضية حق . فليكن كل منكم رسولاً في بيته وبين أصدقائه ومبشراً

في كل مجتمع ومعلماً للسذج الذين لا يقدرون هذا الأمر فسادهم فلا تتر مددة قصيرة إلا بعم استعمال الكلات عند الفقير والغني فتحسن اذ ذلك الحالة الصحية تحسناً يذكر يعود الفضل فيه اليكم .

وأما النقطة الأخيرة من الوقاية فنقوم بإدخال علاج إلى الدم لا يتمكن طفيلي الوبالة من النمو فيه . وهذا العلاج أيها السادة يعرفه جميعكم ولكن قل من يستعمله منكم . هذا العلاج هو الكينين هو الدواء الذي يحق لنا أن نخجل اليوم بيوهله الماسي لأن السرورات التي مرت على كشفه مائة سنة وسنة . وهذا العلاج الذي وجدته العناية الآلهية شفاءً للوبالة له خاصية واقية أيضاً . فكما أنه يطفى نار الحمى حين تأججها فإنه يجعل أيضاً المحيط الذي يدخله غير قابل للاشتعال . فهو رحمة للبشرية جاء بها بالآتيه وكفاننو سنة (١٨٢٠) وإن التاريخ الطبي يحفظ مع الفخر اسمي هذين الكاشفين الجيدين أما استعمال الكينين للوقاية ففضلي طريقه طريقة لاقران كاشف الطفيلي وهي تقوم بأخذ عشرين سانتغراماً من كبريتات الكينين في كل يوم أو أربعين سانتغراماً كل يومين مادام الفصل الخطر موجوداً . والفصل الخطر حسب تحديد علماء الصحة هو خمسة أشهر أولها حزيران وآخرها تشرين الأول هذا ما أريد أن أقوله لكم أيها السادة عن الوبالة وقاكم الله منها بفضل ما أسدي اليكم من النصائح المفيدة والسلام عليكم .

(١) الجباية في الشام

أم مسألة في قيام الدول وسقوطها إن نفرض الأموال على الرعايا بالعقل ونسبي منهم بالعدل وبحسن التصرف في اتفاقها على المصالح العامة . وقد كانت الحكومات الإسلامية تعني بهذا الشأن كل العناية وكانت إذا غفلت عن هذا الأمر المهم أيام ضعفها تكثر الثورات أو لنقطع عن العمل الرغبات فتغرب البلاد وتنتشر الفوضى ونعم البلوى .

اعتمدت العرب أول التمهيد في تنظيم دواوين أموالها على الروم في الشام ينظرون لهم في مسائل الدخل والخرج ووضع التوازن بحسب عرف تلك الأيام وذلك لأن العرب كانوا لأول أمرهم نصف أميين أو نصف متحضرين وأهل الشام أعرق منهم في الحضارة وما ينبغي لها حتى كان زياد يقول ينبغي أن يكون كتاب الخراج من رؤساء الأعيان العالمين بأمور الخراج .

ولقد كان الأسراف يبدو في الأموال أيام الترف والنعم ويتجلى الانبساط فيها على عهد الجدة والإصلاح وذلك يرجع على الأغلب إلى من يتولى أمر الأمة من خليفة أو سلطان أو ملك أو أمير فإذا صلح الرأس صلح الجسد كله . واذ كانت دواعي الاتفاق محصورة داخل البلاد وكان النقد أقل من هذه الأيام بالطبع والفن في ضبط الشؤون الاقتصادية لم يبلغ مبلغه في القرون الأخيرة وحركة المعاملات والمقايضات محدودة وأضعف من العصور الحديثة كانت المسائل المالية لعهد العرب إلى السداجة لأول الأمر شأنهم في عامة أمورهم .

والجباية أول الدولة كما قال ابن خلدون تكون قليلة الوزائع كثيرة الجملة وآخر الدولة تكون كثيرة الوزائع قليلة الجملة فإن كانت الدولة على سنن الدين فليست إلا المغارم الشرعية من الصدقات والخراج والجزية وهي قليلة الوزائع لأن مقدار الزكاة

(١) ألفت في ٢٢ ذي الحجة سنة ١٣٣٩ هـ و ٢٦ آب سنة ١٩٢١ م .

الجباية في الشام

٣٩

من المال قليل وكذا زكاة الحبوب والماشية وكذا الجزية والخراج وجميع المغارم الشرعية وهي حدود لا تعدى وإن كانت على سنن التغلب والعصبة فلا بد من البداية في أولها . والبداية تقتضي المسامحة والكرامة وخفض الجناح والتجافي عن أموال الناس والغفلة عن تحصيل ذلك إلا في النادر . قال والدولة تكون في أولها قليلة الحاجات لعدم الترف وعوائده فيكون خرجها وإتفاقها قليلاً ويكون في الجباية حينئذ وفاءً بازيد منها بل يفضل منها كثير عن حاجاتهم ثم لا تلبث أن تأخذ بيد الحضارة في الترف فيكثر لذلك خراج أهل الدولة ويكثر خراج السلطان خصوصاً كثرة البغاة فيزيد في مقدار الوظائف والوزائع ويستحدث أنواعاً من الجباية يفسرها على البيئات وينرض لها قدرًا معلومًا على الأثمان في الأسواق وعلى أعيان السلع في المدينة .

وبعد فلم يتصل بنا سند صحيح عن مقادير الجباية في هذه الديار قبل العرب أم على عهد حكومتهم فكانت الجباية في الصدر الأول تجمع من الخراج والعشور والصدقات والجواني أي الجزية أي أن لها أربعة موارد رئيسة ثم صارت أصول جهات الأموال السلطانية عشرة الجزية والخراج والعشور والاجور والزكوات وأثمان المبيعات والمقاسم والغنمة والفي والمعادن . وزادت أنواع الجباية على عهد الخطاط هذه البلاد ونسي المتغلبون أو الفاتحون « أن تكثير المال ماله بأموال رعيته بمنزلة من يحسن سطوحه بما يقتلعه من قواعد بنيانه » .

قال الظاهري : أن كثرة الأموال وقتلها بقدر المعرفة باجتلابها من جزى مقررة ، ومتاجر معشرة ، وأخرجة محضرة ، وعشور محررة ، وقسم مقدرة ، وغنائم موفرة ، وفي من جهات غير منحصرة ، هذا إلى زكوات واجبة ، وأجور لازمة ، وديات دماء ذاهبة ، ومحرمات باحات راتبية ، ومستخرج معادن غير ناهية ، وعداد تم سائمة لاسائبة ، ووظائف على أكرامة ناصبة ، إلى غير ذلك من تزيين مزارع ، وتوزيع قطائع ، وتوسيع مراتع ، وتفرغ مواضع ، وترجيع طوابع ، فهذه جهات أموال جعل الشرع بيد السلطنة زمام استخراجها ، ومكن من استينائها بسلوك طريقها ومنهاجها ، وفوض فيها حقوقًا تحجب رعايتها ، عند صرفها وإخراجها ، اهـ .

وقال الغزالي : وكل ما يحمل للسلطان سوى الأحياء وما يشترك فيه الرعية

فكان قسم مأخوذ من الاعداء وهو الغنيمة المأخوذة بالقهر والنيء وهو الذي حصل من مالم في بده من غير قتال والجزية واموال المصالحة وهي التي تؤخذ بالشروط والمعاقدة والقسم الثاني المأخوذ من المسلمين فلا يحل منه إلا قسمان المواريث وسائر الاموال الضائعة التي لا يتعين لها مالك والافاق التي لا متولي لها اما الصدقات فليست توجد في هذا الزمان — اي في القرن الخامس — وماعدا ذلك من الخراج المضروب على المسلمين والمصادرات وانواع الرشوة كلها حرام . وقال ايضا ان اموال السلاطين في عصرنا حرام كلها او اكثرها وكيف لا والحلال هو الصدقات والنيء والغنيمة ولا وجود لها و ليس يدخل منها شيء في يد السلطان ولم يبق الا الجزية وانما تؤخذ بنوع من الظلم لا يحل اخذها به فإنهم يحاربون حدود الشرع في المأخوذ والمأخوذ منه والوفاء له بالشرط ثم اذا نسبت ذلك الى ما ينصب اليهم من الخراج المضروب على المسلمين ومن المصادرات والرشا وصنوف الظلم لم يبلغ عشر معشار عشره .

والاول شيء من المال فرض على اهل دومة الجندل وهي في طرف الشام ومعدودة منه يعرف من الكتاب الذي أرسله النبي صلى الله عليه وسلم مع حارثة بن قطرب الكبي من اهل دومة الجندل يقول فيه : هذا كتاب من محمد رسول الله الى اهل دومة الجندل وما يليها من طوائف كلب لنا الناجية من النخل ولكم الصامتة من النخل على الجارية العشر وعلى الغايرة نصف العشر لا تجمع سارحتكم ولا تعد فاردكم تقبّلون لوقتها وتؤتون الزكاة بحقها لا يحظر عليكم النبات ولا يؤخذ منكم عشر النبات لكم بذلك عهد الله والميثاق وانسا عليكم النصح والوفاء وذمة الله ورسوله شهد الله ومن حضر من المسلمين اه .

واختلف مقدار الجبايات باختلاف العصور وكان لاول الفتح ضرب الخراج على الارض والجزية على الرقاب وراعى الخليفة الثاني حال الشام فعمل في نواحيها غير ما عمل في غيرها من البلاد التي فتحت في عهده راعى في كل ارض ما تحمله وكانت الجزية في بده الامر ديناراً في كل حول على كل جمجمة (١) ثم وضعها عمر بن (١) يقول لامس ان الرومان ضربوا الجزية على اهالي سورية على الذكور من سن الرابعة عشرة وعلى الاناث من الثانية عشرة الى سن ٦٥ من عمرهم جميعاً وفرضوا عليهم

الخطاب على الذهب أربعة دنانير وعلى أهل الورق أربعين درهماً وجعلهم طبقات لغنى الغني وإقلال المقل وتوسط المتوسط وقيل جعل على كل رأس مائة ثمانية وأربعين درهماً ومن الوسط أربعة وعشرين درهماً ومن الفقير اثني عشر درهماً والجزية تؤخذ من غير المسلمين والخراج يشترك فيه كل من يملك أرضاً . وصالح ابو عبيدة بن الجراح نصارى الشام حين دخلها على ان تترك لهم كنائسهم وبيعهم وعلهم ارشاد الضال وبناء القناطر على الانهار من أموالهم وأن يضيفوا من مرائبهم من المسلمين ثلاثة أيام وصالحهم عمر على ضيافة من مرائبهم من المسلمين ثلاثة أيام مما يأكلون ولا يكلفهم ذبيح شاة او دجاجة وتبيت دوابهم على غير شعير وجعل ذلك على اهل السواد دون المدن . خراجاً جبوه من الاملاك يبلغ في المئة واحداً ورسموا ايضاً ضرائب ومكوساً على الواردات والمصادرات من السلع الا ان هذه الرسوم مع ثقلها كانت أخف على عائق السوريين من المغارم والسخر التي حملهم إياها ملوكهم سابقاً وكانوا يتقاضونها دون نظام معلوم وفي أي آن شأواوا اه .

وقال غيره كان أهل الولايات الرومانية يؤدون للرومان الجزية وعشر غلاتهم وإتاوة من المال ورسماً على كل رأس وعلهم أن يخضعوا لجماع ما يؤمرون به قال شيشرون ان الولايات أملاك الشعب الروماني فاذا اخضع هذا الام بامرها لسلطانها فذلك ظمماً بفائدتها لا لاجل منفعة الشعوب ولذلك لا يتوخى ان يدير تلك الولايات بل يحرص على استثمارها . قالوا وكان للشعب الروماني في كل ولاية مواد مهمة من الجمارك والمناجم والضرائب والحقول الصالحة لزراعة الحنطة والمراعي يؤجرونها من شركات متعهدين يسمونهم العشارين يتناعون من الحكومة حق جباية الخراج ويجب على سكان الولايات أن يطيعوهم كأنهم وفود الشعب الروماني ويتناول هؤلاء العشارون اكثر مما يجب لهم أخذه يسلبون الاهلين وكثيراً ما كانوا يبيعونهم كما يبيع الرقيق . قال سنيوبوس وكثيراً ما كانوا يأخذون في آسيا حتى السكان بدون سبب وجمع الرومان في بلادهم ثروات الام المغلوبة ولذلك كانت الدراهم كثيرة جداً في رومية ونادرة كل الندرة في الولايات واضطر سكان الولايات أن يبيعوا حتى التجف والطرف . وقد شوهد أبوان يبيعان ابناهما وبناتهما .

ولما مسح عمر السواد وضع على كل جريب (١) عامر او غامر يناله الماء بدلو او بغيره زرع او عطل درهما وقفيزاً (٢) واحداً والغى عمر النخل عوناً لاهل السواد واخذ من جريب الكرم عشرة دراهم ومن جريب السمسم خمسة دراهم ومن الخضر من غلة الصيف من كل جريب ثلاثة دراهم ومن جريب القطن خمسة دراهم ثم حمل الاموال على قدر قربها وبعدها فجعل على كل مائة جريب زرع مما قرب ديناراً وعلى كل مائتي جريب مما بعد ديناراً وعلى كل الف اصل كرم مما قرب ديناراً وعلى كل الف اصل كرم مما بعد ديناراً وعلى الزيتون على كل مائة شجرة مما قرب ديناراً وعلى كل مائتي شجرة مما بعد ديناراً وكان غاية البعد عنده مسيرة اليوم او اليومين واكثر من ذلك ومادون اليوم فهو في القرب وحملت الشام على مثل ذلك . وقد ذكر عن بعض اهل المدينة واهل الشام انه تخرج زكاة الخضر من اثمانها على حساب مائتي درهم خمسة دراهم . ولما رأى اهل الذمة وفاء المسلمين لهم وحسن السيرة فيهم صاروا أشداء على تدو المسلمين وعوناً للمسلمين على اعدائهم فبعث اهل كل مدينة ممن جرى الصلح بينهم وبين المسلمين رجلاً من قبلهم يتجسسون الاخبار عن الروم وعن ملكهم فكتب ابو عبيدة الى كل وال ممن خلفه في المدن التي صالح اهلها يأمره ان يرد ما جبي منهم من الجزية واخراج وكتب اليهم ان يقولوا لهم انما ردونا عليكم اموالكم لانه بلغنا ما جمع لنا من الجموع

(١) الجريب عشر قصبات في عشر قصبات والقفيز عشر قصبات في قصبة والعشير قصبة في قصبة والقصبة ستة اذرع فيكون الجريب ثلاثة آلاف وستمائة ذراع مكسرة واما الذراع فسبعة اصناف وهو يختلف باصطلاح كل بلد وقطر . (٢) القفيز مكيال ثمانية مكاك جمع مكوك وفي القساموس المكوك مكيال يسع صاعاً ونصفاً او نصف رطل الى ثمان اواق او نصف الوبة والوبة اثنان وعشرون او اربعة وعشرون مداً بمقد النبي صلى الله عليه وسلم او ثلاث كيلبات والكيلبة تسع مناً وسبعة اثمان مناً والمنا رطلان والرطل اثنا عشرة اوقية والاقية استار وثلاثا استار والاستار اربعة مثاقيل ونصف والمثقال درهم وثلاثة اسباع درهم والدرهم ستة دوانق والدانق قيراطان والقيراط طسوجان والطسوج حبتان والحبة سدس ثمن درهم وهو جزء من ثمانية واربعين جزءاً من درهم .

وانكم قد اشترطتم علينا ان نمنعكم واننا لا نقدر على ذلك وقد ردونا عليكم ما اخذنا منكم ونحن لكم على الشرط وما كتبنا بيننا وبينكم ان نصرنا الله عليهم . فلما قالوا ذلك لهم وردوا عليهم الاموال التي جبوها منهم قالوا : ردكم الله علينا ونصركم عليهم فلو كانوا هم لم يردوا علينا شيئاً واخذوا كل شيء بقي لنا حتى لا يدعوا شيئاً .

اول من وضع العشور عمر لقوله عليه الصلاة والسلام ليس على المسلمين عشر وانما العشور على اليهود والنصارى وقال يا معشر العرب احمدوا الله الذي وضع عنكم العشور . ولا تؤخذ الصدقات الا مرة في السنة الا ان يجد الامام فضلاً . وفرض عمر سنة خمس عشرة الفروض ودون الدواوين واعطى العطايا على السابقة في الاسلام وفرض لاهل الشام الفين الفين وكانوا يجمعون من الغنائم الاقباض ويقسمونها بين الفاتحين . وأمر عمر عثمان بن حنيف لما ارسله لمسخ السواد ان لا يمسح تلاً ولا أجمة ولا مستنقع ماء ولا مالا يبلغه الماء ولما فرض على الرقاب وجعل على من لا يجد اي الفقير اثني عشر درهماً في السنة قال درهم في الشهر لا يعوز رجلاً وكان يأخذ الجزية من اهل كل صناعة من صناعتهم بقيمة ما يجب عليهم وكذلك فعل علي . ذكروا في الفتي والخراج ان من صولحوا اذا عجزوا يخفف عنهم وان احتملوا اكثر من ذلك فلا يزداد عليهم وان تظالموا فيما بينهم حملهم امام المسلمين على العدل ووضع ذلك الصلح عليهم جميعاً بقدر ما يطبقون في اموالهم وارضيتهم ولا يطرح عنهم شيء لموت من مات ولا لاسلام من اسلم منهم ويؤخذ بذلك كل من بقي منهم ما كانوا يطبقونه ويحتملونه قاله يحيى بن آدم . كتب عمر الى سعد حين افتتح العراق : اما بعد فقد بلغني كتابك تذكر ان الناس سألوك ان تقسم بينهم مغائهم وما فاء الله عليهم فاذا انك كتابني هذا فانظر ما اجلب الناس به الى العسكر من كراع او مال فاقسمه بين من حضر من المسلمين واترك الارضين والانهار لعمالها ليكون ذلك في اعطيات المسلمين فانك ان قسمتها بين من حضر لم يكن لمن بقي بعدهم شيء وقد كنت امرتك ان تدعو الناس الى الاسلام فن اسلم واستجاب لك قبل القتال فهو رجل من المسلمين له ما لم وله سهم في الاسلام ومن استجاب لك بعد القتال وبعد الهزيمة فهو رجل المسلمين وما له لاهل الاسلام لانهم قد احرزوه قبل الاسلام . ولما ولي عمر بن الخطاب سعيد بن عامر بن جذيم حمص

وما يليها من الشام كتب اليه كتاباً يوصيه فيه بتقوى الله والجد في امر الله والقيام بالحق الذي يجب عليه . وبأمره بوضع الخراج والرفق بالرعية فأجابه سعيد بن عامر على نحو من كتابه . ولما طعن عمر قال : أوصي الخليفة من بعدي باهل الامصار خيراً فانهم جباة المال وغيظ العدو ورد المسلمين وان يقسم بينهم فيهم بالعدل وان لا يجهل من عندهم فضل الاطبيب انفسهم . واوصى الخليفة من بعده باهل الذمة وان يوفي لهم بعهدهم وان يقاتل من ورائهم وان لا يكفوا فوق طاقتهم . وكان كثيراً ما يصادر عماله ويجعل اموالهم في بيت المال فمن صدر خالد بن الوليد فاتح الشام لانه اجاز رجالاته اتبعوه منهم الاشعث بن قيس اجازه بعشرة آلاف وسأله عمر من اين هذا الثراء قال : من الاتقال والسهمان ما زاد على ستين ألفاً فلك فقوت عمر ماله فزاد عشرين ألفاً فجعلها في بيت المال .

قال الصولي في ادب الكتاب : ارتفع خراج الشام على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه خمسمائة الف دينار فلما أفضى الامر الى معاوية قطع الوظائف على اهل المدن فوظف على اهل قنسرين اربعمائة وخمسين الف دينار على الجماجم من ذلك الثلثان وعلى اهل دمشق اربعمائة وخمسين الف دينار على الجماجم من ذلك الثلثان وعلى الاردن مائة وثمانين الف دينار على الجماجم من ذلك الثلثان وعلى فلسطين مثل ذلك ثم جعل بعد ذلك بصطفي الارض الجيدة ويدفعها الى الرجل بخراجها وعلاجها والخراج على اصله لا ينقص منه شيء .

وقد تغير الحال على عهد الخليفة الثالث لانه نشأت له ثروة واعطى بعض ولاته حريتهم ومنهم معاوية بن ابي سفيان فصاروا يجمعون المال وينذرونه وقد دفع هو الى ثلاثة انفس من قریش زوجهم بناته ثلاثمائة الف دينار فيما قال المسعودي لكل واحد مائة الف دينار وأقطع بني أمية قطائع لمصلحة تعود على المسلمين لانت تلك الضياع كانت خراباً لا عامراً لها فسلمها الى من يعمرها ويؤدي الحق عنها واقتنى هو وجماعته الضياع والدور وكان في نهاية الجود والبذل في القريب والبعيد فسلط عماله وكثير من اهل طريقته وتأسوا بفعله وكان عثمان على ما يظير على شيء من السعة قبل الخلافة وكثرت في ايامه اموال الاتقال والغنائم بكثرة الفتوح .

والغنيمة ما غلب عليه المسلمون بالقتال حتى يأخذوه عنوة والقي ما صولحوا عليه من الجزية والخراج . قال الذهبي في حوادث سنة ٣٢ : ان الدنيا اتسعت على الصحابة حتى كن الفرس يشتري بمئة الف وحتى كان البستان بالمدينة يباع باربعائة الف وكانت المدينة عامرة كثيرة الخيرات والاموال والناس يجي اليها خراج المالك وهي دار الامارة وقبة الاسلام فبسط الناس بكثرة الاموال والخيول والنعم وفتحوا اقاليم الدنيا واطمأنوا وثرغوا اه .

واراد الخليفة الرابع ان يرجع في معاملة العمال الى طريقة الشنينة ابي بكر وعمر الا انه لم يوفق الى ذلك واستأثر معاوية بامارة الشام عشرين سنة وبالخلافة عشرين سنة وما كان لعلي بل ولا لعثمان حكم على هذه الديار مع معاوية الداهية الذي دعي بكسري العرب لكثرة أهيته ونفقته وكانت يبدل المال لمن وافقه ولمن خالفه فانشأ للأموال بين ملكاً بالشام توارثوه وبنوا القصور والمصانع والمرافق وهذا لا يكون بالطبع الا بتوفر الجباية والتطلع ولو بعض الشيء الى ما في ايدي الناس من الاموال والاغضاء عن بعض الحقوق ولا مجال للانكار ان من خائساء الامويين من كانوا يجورون على الرعية ومنهم من كانوا يقطعون انفسهم او بعض انبياء بيتهم او خاصتهم الاقطاعات الكثيرة . والجباية كانت تكثر في عهد العادلين اكثر من زمن الجائرين وما نقص من مال السلطان زاد في مال الرعية . والاقطاع اقطاعان اقطاع تمليك وهو موات وعامر ومعادن واقطاع استغلال وهو عشر وخراج . والمقاح البلد الذي لا يؤدي الى الملوك الاربان والاربان هو الخراج وهو الاناوة . قال مكحول : كل عشري بالشام فهو مما جلا عنه اهلها فاقطعه المسلمون فاحبوه وكان موانئاً لا حق فيه لاحد فاحبوه باذن الولاة . واول من اقطع الارضين وباعها عثمان ولم يقطعها ابو بكر ولا عمر ولا علي .

اوصى الخليفة الرابع احد عماله باهل عمله فقال : اذا قدمت عليهم فلا تبين لهم كسوة شتاء ولا صيفاً ولا رزقاً يأكلونه ولا دابة يملكون عليها ولا تضرب احد منهم سوطاً واحداً في درهم ولا تنقمه على رجله في طلب درهم ولا تبع لاحد منهم عرضاً في شيء من الخراج فانما أمرنا ان نأخذ منهم العفو . وكتب للاشتر النخعي : ونفقده امر

الخراج بما يصلح اهله فان في اصلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم ولا صلاح لمن سواهم الا بهم لان الناس كلهم عيال على الخراج واهله وليكن نظرك في عمارة الارض ابلغ من نظرك في استحلاب الخراج لان ذلك لا بدرك إلا بالعمارة ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرج البلاد وأهلك العباد ولم يستقم امره إلا قليلاً فان شكوا ثقلًا او علة او انقطاع شرب او وبالة او إحالة أرض اغمرها غرق او أجحف بها عطش خففت عنهم بما تخرجون ان يصلح به امرهم ولا يثقلان عليك شيء لا خففت به المؤونة عنهم فانه ذخريهم به عليك في عمارة بلادك وتزبين ولايتك مع استحلاب حسن ثنائهم وتجيحك باستفاضة العدل فيهم معتمدًا فضل قوتهم بما ذخرت عندهم من اجرامك لم والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم ورفقت بهم فربما حدث من الامور ما اذا عوت فيه عليهم من بعد احتملوه طائفة انفسهم به فان العمران محتمل ما حملته رانما يوتي خراب الارض من اعواز أهلها وانما يعوز أهلها لاشراف انفس الولاة على الجمع وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انشغالهم بالعبادة .

هكذا كان قانون آخر الخلفاء الراشدين وهو من اهم القوانين في اصول الجباية الا ان الامويين الذين قلبوا الخلافة الى ملك عضوض كانوا يعمدون بتوفير الجباية مع الظلم ليشككوا من اعمال العمران التي اقاموها واطعام الجيوش التي فتحوا بها القاصية وكانت الجباية ثقل عندما ينكسر الخراج فلا يحمل شيء كثير منه لتخط او زلزال او وباء . ولقد كان عمال معاوية يحملون اليه هدايا النيروز والمهرجان فيحمل اليه في النيروز وغيره وفي المهرجان عشرة آلاف . وهدايا النيروز والمهرجان مما رده عمر بن عبدالعزيز كما رد السخرة والعطاء على قدر ما استحق الرجل من السنة وورثت العيالات على ما جرت به السنة غير انه اقر القطائع التي اقطعها اهل يثرب والعطاء في الشرف لم ينقصه ولم يزد فيه وزاد اهل الشام في اعطياتهم عشرة دنائير ثم رأى ان ينكثها وسماها مظلماً . وكتب الى عماله عامة : « اما بعد فان الناس قد اصابهم بلاء وشدة وجور في احكام الله وسنن سيئة سنتها عليهم عمال السوء قلما قصدوا قصد الحق والرفق والاحسان » . وبقي العطاء على حاله حتى نقص يزيد بن الوليد الناس من عطائهم فسمي يزيد الناقص .

وبينما كان عمر بن عبد العزيز يقول لأسماء بن زيد وكان على ديوان الجند بدمشق لما بعثه سليمان بن عبد الملك على مصر يتولى خراجها : ويحك يا أسماء انك تأتي قوماً قد ألح عليهم البلاء منذ دهر طويل فان قدرت ان تنعشهم فانعشهم كان سليمان يقول لعماله أسماء : احلب حتى ينفيك الدم فاذا نفاك فاحلب حتى ينفيك القيح لا تبقيها لاحد بعدي . فعمل أسماء في مصر اعمالاً جائزة حتى استخرج من أهلها اثني عشر الف دينار .

اما عمر بن عبد العزيز فانه لما ولي الخلافة جعل لا يدع شيئاً مما كان في ايدي اهل بيته من المظالم الا ردّها مظلمة مظلمة خطب على المنبر ذات يوم فقال : اما بعد فان هؤلاء يعني خلفاء بني أمية قد كانوا اعطونا عطايا ما كان ينبغي لنا ان نأخذها منهم وما كان ينبغي لهم ان يعطونا ايها واني قد رأيت الآن انه ليس علي في ذلك دون الله حبيب وقد بدأت بنفسي والاقربين من اهل بيتي اقرأيا مزاحم فجعل مزاحم يقرأ كتاباً كتاباً فيه الاقطاعات والضيايع والنواحي ثم يأخذ عمر بيده فيقصه بالعلم اي المقرض . ولقد اجتمع اليه بنو أمية لما عزم عمر بن عبد العزيز على اخذ مافي ايديهم من حقوق

الناس وردة على اهله وكلوه فقال : انكم اعطيتم في هذه الدنيا حظاً فلا تنسوا حظكم من الله واني لاحسب شطراً موال بني الدنيا وأمة محمد في ايديكم ظلماً والله لا تركت في يد احد منكم حقاً لمسلم ولا معاهدا الا رددته . قال ابن سعد لما ولي عمر بن عبدالعزيز وضع المكس عن كل ارض ووضع الجزية عن كل مسلم واباح الاحماء كلها الا النقيع وفرض عمر بن عبدالعزيز للناس الا للتاجر لان التساجر مشغول بختارته عما يصلح المسلمين وسوى بين الناس في طعام الجار وكان اكثر ما يكون طعام الجار اربعة ارادب ونصف لكل انسان . وكتب الى احد عماله ان استبري الدواوين فانظر الى كل جور جاره من قبلي من حق مسلم او معاهد فردها عليه فان كان اهل تلك المظلمة قد ماتوا فادفعه الى ورثتهم واما زال عمر بن عبد العزيز يرد المظالم من لدن معاوية الي ان استخلف . اخرج من ايدي ورثة معاوية ويزيد بن معاوية حقوقاً . وكتب عمر بن عبد العزيز الى عدي بن ارجانة ومن قبله من المسلمين والمؤمنين : اما بعد فانظر اهل الذمة فارفق بهم واذا كبر الرجل منهم وليس له مال فانفق عليه فان كان له حميم فرحمه بنفق عليه وقاصه من

جراحه كما لو كان لك عبد فكبرت سنه لم يكن لك بعد من ان تنفق عليه حتى يموت او يموت .
 وكتب اليه ان ضع عن الناس المائدة والنوبة والمكس ولعمري ما هو بالمكس ولكنه
 البخس الذي قال الله ولا تبخسوا الناس اشياءهم ولا تعثوا في الارض مفسدين فمن
 أدى زكاة ماله فاقبل منه ومن لم يأت فالله حبيبه . وحرم عمر بن عبد العزيز الكلال
 في كل ارض . وان عمر بن عبد العزيز لم يزل رأيته والذي يشير به على من ولي هذا الامر
 من اهل بيته توفير هذا الخمس على اهله فكانوا لا يفعلون ذلك فلما ولي الخلافة نظر
 فيه فوضعه مواضع الخمسة وآثر به اهل الحاجة من الاخماس حيث كانوا فان كانت
 الحاجة سواء وسع في ذلك بقدر ما يبلغ الخمس وانه ربما اعطي المال من يستألف على
 الاسلام وانه اعطي بطريقا الف دينار استألفه على الاسلام . وامر ان لا يؤخذ من
 المعادن الخمس وتؤخذ منها الصدقة وانكر التسخير في سلطانه وضرب احدى اربعين
 سوطا لانه سخر دواب النبط . ومما كتبه الى احد عماله : اما بعد فخل بين اهل
 الارض وبين مبيع ما في ايديهم من ارض الخراج فانهم انما يبيعون في المسلمين
 والجزية الراتب . وكتب باباحة الجزائر وقال انما هو شيء انبته الله فليس احد احق
 به من احد . دخل عامل لعمر بن عبد العزيز عليه فقال كم جمعت من الصدقة فقال
 كذا وكذا قال فكم جمع الذي كان قبلك قال كذا وكذا فسمي شيئا كثيرا من ذلك
 فقال عمر : من اين ذاك قال : يا امير المؤمنين انه كان يؤخذ من الفرس دينار ومن
 الخادم دينار ومن الغدان خمسة دراهم وانك طرحت ذلك كله قال لا والله ما القيته
 ولكن الله القاه . وكتب اني ظننت ان جعل العمال على الجسور والمعابر ان يأخذوا
 الصدقة على وجهها فتعدي عمال السوء ما أمروا به وقد رأيت ان اجعل في كل
 مدينة رجلا يأخذ الزكاة من اهلها فخلوا سبيل الناس في الجسور والمعابر . وكتب الى
 عامله ان لا تقاتل حصنا من حصون الروم ولا جماعة من جماعاتهم حتى تدعوهم الى
 الاسلام فان قبلوا فكف عنهم وان ابوا فالجزية فان ابوا فانبد اليهم على سواء .
 وفي عهد عمر بن عبد العزيز وقد أصبحت عادة للخلفاء « اذا جاءتهم جبايات الامصار
 والآفاق بأنهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس واجنادها فلا يدخل
 بيت المال من الجباية دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد بالله الذي لا اله الا هو ما فيها

دينار ولا درهم الا أخذ بحقه وانه فضل اعطيات اهل البلد من المقاتلة والتدريه بعد
 ان اخذ كل ذي حق حقه « اي فضل اعطيات الاجناد وفرائض الناس . قال ابن
 ابي الحديد : رد عمر بن عبد العزيز المظالم التي احتقها بنو مروان فابغضوه وذموه وقيل
 انهم سموه فمات . اما من جاؤا من قبل ومن بعد من بني أمية فكانوا اشكالا ومشارب
 منهم الجماعة ومنهم المبدد فقد كان في بيت مال الوليد يوم قتل سنة ١٢٦ هـ سبعة وسبعون
 الف الف دينار . ففرقها يزيد عن آخرها .
 وكذلك كانت سيرة العباسيين بعد فقد اخذ المنصور اموال الناس حتى ماترك عند
 احد فضلا وكانت مبلغ ما اخذهم ثمانمائة الف الف درهم وعدل ابو جعفر المنصور ارض
 الغوطة غوطة دمشق فجعل كل ثلاثين مدأ بدينار بالقاسمي وكان اداء الناس على ذلك
 وكان الخلفاء من بني العباس يمدون الى ابطال الرسوم عندما يتولى لم ضررها ولا يقطعون
 امرا بدون اخذ آراء جلة الفقهاء في عصرهم فقد امر المعتضد سنة ٢٨٣ بالكتابة الى جميع
 البلدان ان يرد الفاضل من سهام الموارث الى ذوي الارحام وابطل ديوان الموارث .
 وخلف المعتضد هذا في بيوت الاموال تسعة آلاف الف دينار ومن الورق الف الف درهم .
 ومن خلف هذه القناطر المقنطرة من الذهب لابلده ان يظلم أمته وان لا يصرف اموالها
 في وجوه مصالحها وقد كنت ترى في ايام العباسيين عدلا شاملا لا مثيل له حينئذ وتجد
 ظلما شائنا في دور آخر فعهد الرشيد والمأمون والمهدي والظاهر والمتوكل كان عجبا في
 العدل والنظام الجباية . فقد كتب المأمون سنة ٢١٨ الى اسحق بن يحيى بن معاذ عامله
 على جند دمشق في التقدم الى « عماله في حسن السيرة وتخفيف المؤونة وكف الاذى »
 عن اهل عمله قائلا فنقدم الى عمالك في ذلك اشد التقدم واكتب الى عمال الخراج مثل
 ذلك . وكتب الى جميع عماله في اجناد الشام جند حمص والاردن وفلسطين بمثل ذلك .
 والمهدي مثالا افتتح امره بالنظر في المظالم وبسط يده في العطاء فاذهب جميع
 ما خلفه المنصور وهو ستمائة الف الف درهم واربعة عشر الف الف دينار سوى ما جباها في
 ايامه . والمأمون العباسي أقام سنة بدمشق (٢١٤) لمساحة اراضي الشام واجتنب لتعديله
 مساح العراق والاهواز والري وكان جده ابو جعفر المنصور تشبث بذلك فلم يتم له بيعت
 بقية بن الوليد ليصح اراضي دمشق كما كان بيعت اسماعيل بن عياش العباسي الحمصي

الى دمشق فعذل ارضها الخراجية وعدل احمد بن محمد ارض دمشق والاردن وكان على ديوان الخراج سنة ٢٤٠ وحمل كل ارض ما استحقه . والخلفاء الاول من بني العباس كانوا اقرب الى الرفق بالرعية فقد كان اسماعيل بن صبيح الكاتب يحدث عن الرشيد انه قال للحسن بن عمران يوم ادخل عليه في الحديد : وليتك دمشق وهي جنة تحيط بها عندئذ نكفأ مواجها على رياض كالزراعي وارده منها كفايات المؤمن الى بيوت اموالي فابرح بك التعدي لارفاقهم فيما امرتك حتى جعلتها أجرد من الصخر ووحش من القفر قال : والله يا امير المؤمنين ما قصدت لغبر التوفير من جهته ولكني وليت اقواماً ثقل على اعناقهم الحق فنفروا في ميدان التعدي ورأوا المراغمة بترك العمارة اوقع باضرار الملك وانه بالشئعة على الولاة فلا جرم ان امير المؤمنين قد اخذهم بالخط الاوفر من مساءتي . والمهدي اول من نقل الخراج الى المقاسمة وكان السلطان يأخذ عن الغلات خراجاً مقررأ ولا يقاسم وجعل الخراج على النخل والشجر . واعاد الظاهر بامر الله سنة ٦٢٢ سيرة العمرين . قال ابن الاثير فلو قيل انه لم يل الخلافة بعد عمر بن عبدالعزيز مثله لكان القائل صادقا فانه أعاد من الاموال المنصوبة في ايام ابيه شيئاً كثيراً واطلق المكوس في البلاد جميعها وامر باعادة الخراج القديم وان يسقط جميع ما جددته ابوه وكان كثيراً لا يحصى وفي ايام ايه خربت العراق وفرق اهله في البلاد .

خربت العراق وما اليها من الامصار والاقطار للشدة في نقاضي الجباية والنفن في الضرائب وعدم اطرادها على وتيرة واحدة . كتب علي بن عيسى الى عامل ديار ربعة وقد ورد الحضرة قوم من اهلها يتظلمون من حيف لحقهم في معاملاتهم : « بسم الله الرحمن الرحيم . في علمك اكرمك الله بما امر الله به من العدل والاحسان ونهي عنه من الجور والعدوان وعاقب به الظالمين في سالف الازمان غنى لك عن التنبيه والتوقيف والوعظ والنفوف وفيما رسمته لك مشافهة ومكاتبة في انكار الظلم وازالته واظهار العدل وافاضته كفاية وبلاغ . وقد ورد الحضرة اكرمك الله جماعة من جوه التناء والمزارعين بديار ربعة متظلمين مما عوملوا به في سني ثلث عشرة وثلاثائة . من اكراههم على تفهين غلات يباذروهم بالحزر والتقدير والزامهم حق الاعشار في ضياعهم على التربع واستخراج الخراج منهم على اوفر عبدة قبل ادراك غلاتهم وثمارهم واكراه وجوههم وتجارهم على

اتباع الغلات السلطانية باسعار مسرفة مجحفة فافلقني ما افاضوا فيه من الشكوى وآلمني ما انتهوا الي وضعه من عظيم البلوى ووجدته مع قبح ذكره وعظيم وزره عائداً بخراب الضياع وتقصان الارتفاع فينبغي اكرمك الله ان تجري سائر رعيتك على المعاملات القديمة وتحملهم على الرسوم السليمة حتى يعودوا الى افضل حال عهدوها واجمل سيرة حمدها وتزيل السنن الجائرة وتبطلها وتقطع اسبابها وتحسمها وتكتب الي بما يكون منك في ذلك فاني على اهتمام به ومراعاة له ان شاء الله . »

ولو رجعت الى كتب التاريخ والسير لرأيت شيئاً كثيراً من هذا القيل وسيف الكتاب الذي كتبه الامام ابو يوسف صاحب الامام ابي حنيفة الى الخليفة هرون الرشيد صورة لطيفة من تلطف العلماء في نصح الملوك والخلفاء . وكتابه دستور في الجباية تستدل به على ترقى العقول في عصره . وما خلا عصر من علماء يتعون على اعمال اعمالهم وتجانفهم عن طرق الحق في معاملة الامة وقلم كانت المواعظ تفعل الا في المستعدين للخير من الخلفاء فمن دونهم .

وكثيراً ما كان الناس يعذبون في الخراج وقد وقع ذلك في اوائل دولة الامويين بالشام فاخذ جباة الجزية يعذبون بعض اهل الذمة ويجعلونهم في الشمس ساعات عقوبة لهم فنهى عن ذلك الفقهاء وبطل تعذيب المكافين من ذاك اليوم . ونص الفقهاء انه لا يؤخذ شيء من نصراني التجر في بلاده من اعلاها الى اسفلها ولم يخرج منها واذا خرج من بلاده الى غيرها من بلاد المسلمين تاجرأ لم يؤخذ منه مما حمل قليل ولا كثير حتى يبيع وقال مالك في النصراني يكره ابله من الشام الى المدينة يؤخذ منه في كرائهم العشر بالمدينة قال لا . فان اكرى من المدينة الى الشام راجعاً يؤخذ منه ويؤخذ من اهل الحرب ما صالحوا عليه في سلعم ويؤخذ من عبيدهم كما يؤخذ من ساداتهم . ذكروا ان عمر بن الخطاب قال لاهل الذمة الذين كانوا يتجرون الى المدينة : ان تجرت في بلادكم فليس عليكم في اموالكم زكاة وليس عليكم الا جز يتكم التي فرضنا عليكم وان خرجتم وضربت في البلاد وادرت اموالكم اخذنا منكم وفرضنا عليكم كما فرضنا جز يتكم فكان يأخذ منهم من كل عشرين نصف العشر كما قدموا من مرة ولا يكتب لهم براءة مما اخذ منهم كما تكتب للمسلمين الى الحول فيأخذ

منهم كما جاءوا وان جاءوا في السنة مائة مرة ولا يكتب لهم براءة بما اخذ منهم .
 زاد الاجحاف بحقوق الرعية لما توزع ملوك الطوائف البلاد واخذ كل ملك او
 امير يستولي على اقليم صغير من الارض ويخفف على الناس في الجباية ويسمي نفسه ملكاً
 من ذلك بنو حمدان في حلب وما اليها فانهم كانوا على جانب من البطش والظلم فقد لجوا
 في الظلم والاستئثار بالاموال وكانت قنهم مع الروم لا تنقطع فاستأثر القضاء بهلاك
 العباد وخراب البلاد على ايدي المدافعين والمهاجرين (كما سنقف على ذلك في الكلام
 على حلب) . ولي خلافة الرازي سنة ٣٢٤ فبطلت الدواوين والوزارة فكان كل من
 تولى امره الامراء تحمل اليه الاموال فيتصرف فيها جميعاً كما يريد ويطلق للخليفة
 ما يريد وبطلت بيت الاموال وكانت الشام اذذاك في يد محمد بن طغج . وبينما كانت
 الشام تدافع القرامطة وتشغل بفتن بني حمدان لتقع في ايدي الاخشيدية اصحاب
 مصر كانت بغداد في شغب وتعب واذا كانت هي العاصمة فاحر بالاطراف ان تكون
 اسوأ حالاً .

وهكذا اختلفت احوال المملكة العربية وطرق الجباية فيها لما نال الناس من المغارم
 والمظالم والحكومات لا تعرف واجبيها ولا تدري ان الجباية في الدولة اجرة الحماية
 ولذلك تأفف ابو العلاء المعري في النصف الاول من المئة الخامسة من ملوك عصره فقال :

وارى ملوكاً لا تحوط رعية
 وقال : عجم وعرب دائلون وكلنا
 وقال : ارى امراء الناس يمسون شرهم
 وفي كل مصر حاكم فموفق
 وقال ايضاً : يقولون في مصر العدول وانما
 ولست بمختار لقومي كونهم
 وقال : بكل ارض امير سوء
 وقال : ان العراق وان الشام مذموم
 ساس الانام شياطين مسلطة
 من ليس يخل خمس الناس كلهم
 فعلام تؤخذ جزية ومكوس
 في الظلم اهل تشابه وجناس
 اذا خطفوا خطف البزاة اللوامع
 وطاغ يحابي في اخس المطامع
 حقيقة ما قالوا العدول عن الحق
 قضاة ولا وضع الشهادة في رق
 يضرب للناس شر سكة
 صفران ما بها الملك سلطان
 في كل مصر من الوالين شيطان
 ان بات يشرب خمرأ وهو مبطان

وقال : وجدت غنائم الاسلام نبياً
 وقال : مل المقام فكم أعشراة
 لامصحاب المعازف والملاهي
 امرت بغير صلاحها امراؤها
 ظلموا الرعية واستباحوا كبدها
 فعدوا مصالحها وهم اجراؤها
 واصحاب الامور جباة خرج
 وهم زعيمهم انهاب مال
 حرام النهب او اخلال فرج

وبعد فقد استقر خراج فلسطين على عهد معاوية على اربعمائة وخمسين الف دينار
 واستقر خراج الأردن على مائة وثمانين الف دينار وخراج دمشق على اربعمائة الف
 وخمسين الف دينار وخراج جند حمص على ثلاثمائة وخمسين الف دينار وخراج قنسرين
 والعواصم على اربعمائة الف وخمسين الف دينار وفعل معاوية بالشام والجزيرة واليمن
 مثل ما فعل بالعراق من استصفاء ما كان للملوك من الضياع وتصييرها لنفسه خالصة واقطعها
 اهل بيته وخاصته وهو اول من كانت له الصوافي في جميع البلاد . قال البلاذري وكانت
 وظيفه الأردن التي اقطعها معاوية مائة الف وثمانين الف دينار ووظيفة فلسطين ثلثمائة
 الف وخمسين الف دينار ووظيفة دمشق اربعمائة الف دينار ووظيفة حمص مع قنسرين
 والكور التي كانت تدعى بالعواصم ثمانمائة الف دينار ويقال سبعمائة الف دينار . وكان
 ارتفاع الشام سنة ٢٠٤ هـ وهي اول سنة وجود حسابها في الدواوين بالحضرة لان الدواوين
 احرقت في الفتنة فتنه الامين على مارواه قدامة — ثلثمائة الف وستين الف دينار ارتفاع
 قنسرين والعواصم وارتفاع جند حمص مائتي الف وثمانية عشر الف دينار وارتفاع جند
 دمشق مائة الف وعشرة آلاف دينار وارتفاع جند الاردن مائة الف وتسعة آلاف دينار
 وارتفاع جند فلسطين مائتي الف وتسعة وخمسين الف دينار .

قال اليعقوبي ان خراج دمشق سوى الضياع يبلغ ثلثمائة الف دينار وخراج جند
 الاردن يبلغ سوى الضياع مائة الف دينار وبلغ خراج جند فلسطين مع ماصار سيف
 الضياع ثلثمائة الف دينار وخراج حمص سوى الضياع ايضاً مائتي الف وعشرين الف
 دينار . وكان خراج الاردن زمن عبد الملك بن مروان مائة وثمانين الف دينار
 وكان خراج قنسرين على عهد المأمون اربعمائة الف دينار ومن الزيت الف حمل
 وخراج دمشق اربعمائة الف دينار وعشرين الف دينار وخراج الاردن سبعة

وتسعين ألف دينار وخراج فلسطين ثلثمائة ألف دينار وعشرة آلاف دينار ومن الزيت ثلثمائة ألف رطل .

ولما تغلب الموالي من الاتراك وثنائسك الخلافة وبقيت الدولة العباسية في الترف وقوي عامل كل جهة على مايليه كثرت النفقات وقلت الجباية بتغلب الولاة على الاطراف قال المقدسي كانت الضرائب ثقيلة على قنسرين والعواصم زمن سيف الدولة بن حمدان فكان خراج هذا الاقليم ثلثمائة ألف وستين ألف دينار وعلى الاردن مائة ألف وسبعون ألف دينار وعلى فلسطين مائة ألف وتسعة وخمسون ألف دينار وعلى دمشق اربعمائة ألف ونيّف .

وانت ترى ان الجباية في الشام كانت تختلف باختلاف العصور والادوار والتقلبات الجوية ومن الاراضي الخراجية والعشرية التي تدفع العشر لانها مما فتحه المسلمون عنوة قال ابو يوسف : كل ارض اقتطعها الامام مما فتحت عنوة ففيها الخراج الا ان يصيرها الامام عشيرة والشام في ذلك كمصر والعراق ولانها كلها فتحت عنوة وفي التارخانية ان السلطان اذا دفع اراضي لامالك لها وهي تسمى الاراضي المملكة الى قوم ليعطوا الخراج جاز وطريق الجواز احد شيئين اما اقامتهم مقام المالك في الزراعة واعطاء الخراج او الاجارة بقدر الخراج ويكون المأخوذ منهم خراجاً في حق الامام اجرة في حقهم وقال ابن عابدين ومن هذا القبيل الاراضي المصرية والشامية ويؤخذ من هذا انه لا عشر على المزارعين في بلادنا اذا كانت اراضيهم غير مملوكة لهم لان ما يأخذه منهم نائب السلطان وهو المسمى بالزعيم او التجاري ان كان عشراً فلا شيء عليهم غيره وان كان خراجاً فكذلك .

قال الغزالي ان الاموال المنصبة الى الخزائن المعمورة اربعة اصناف الصنف الاول ارتفاع المستغلات وهي مأخوذة من اموال مورثة له والصنف الثاني اموال الجزية والصنف الثالث اموال التركات والصنف الرابع اموال الخراج فهذه هي الاموال المأخوذة واخذها جائز وبقى النظر في مصارفها وهي مع اختلاف جهاتها تحويها اربع جهات وفيها تفرع مصالح الاسلام والمسلمين . الجهة الاولى المرتزقة من جنود الاسلام الجهة الثانية علماء الدين وفقهاء المسلمين القائمون بعلوم الشريعة فانهم حراس الدين

بالدليل والبرهان كما ان الجنود حراسه بالسيف والسنان والجهة الثالثة محايي الخلق الذين قصرت بهم ضرورة الحال وطوارق الزمان عن اكتساب قدر الكفاية . الجهة الرابعة المصالح العامة من عمارة الرباطات والقناطر والمساجد والمدارس . وهذا وجه الدخل والخرج .

ولم تكثر الاقطاعات الا في القرون الوسطى قال المقرئزي : وكانت عادة الخلفاء من بني أمية وبني العباس والفاطميين من لدن امير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ان يجبي اموال الخراج ثم تنفق من الديوان في الامراء والعمال والاجناد على قدر رتبهم وبحسب مقاديرهم وكان يقال لذلك في صدر الاسلام العطاء وما زال الامر على ذلك الى ان كانت دولة العجم فغير هذا الرسم وقررت الاراضي اقطاعات على الجند واول من عرف انه فرق الاقطاعات على الجند نظام الملك وزير السلجوقيين وذلك ان مملكته اتسعت فرأى ان يسلم الى كل مقطع قرية او اكثر واقل على قدر اقطاعه فعمرت البلاد وكثرت الغلات واقتدى بفعله من جاء بعده من الملوك من اعوام بضع وثمانين واربعمائة الى اوائل القرن التاسع .

وكانت اقطاعات الشام اقل من اقطاعات مصر في القرن الثامن والتاسع وليس في الشام من يبلغ شأواً اكبر الامراء المقدمين بالديار المصرية الا نائب الشام فانه يقاربهم في ذلك . وخاصة الامراء المقدمين انواع من الانعامات ماعدا المقررات من المشاهرات والاكل والعليق والكساوي كالعقار والابنية الضخمة التي ربما أنفق على بعضها فوق مائة ألف دينار . قال التاج السبكي المتوفى سنة ٧٧١ : ومن قبائح ديوان الجيش الزامهم الفلاحين بالاقطاعات بالفلاحة والفلاح حر لا يد لآدمي عليه وهو امير نفسه وقد جرت عادة الشام بان من نزع من دون ثلاث سنين يلزم ويعاد الى القرية قهراً ويلزم بشد الفلاحة والحال في غير الشام اشد منه فيها وكل ذلك لا يحل اعتماده والبلاد تعمير بدون ذلك بل انما تجزأ البلاد بذلك لانهم يضيقون على الناس .

وماعدا الاراضي التي كان الملوك يوغرونها اي التي يدفع عنها اربابها قدر ما من المال مرة واحدة فتعفى من الخراج وما خلا الاقطاعات التي يستأثر بها اصحابها من ارباب الدولة ولا يؤدون عنها خراجاً وعدا ضياع كثيرة تعفى من الضرائب وعدا الصوافي واحداً

صافية وهو ما استخلصه السلطات غلته او هي الاملاك والاراضي التي جلا عنها
اهلها او ماتوا ولا وارث لها - ما عدا هذا كان هناك نوع من الاراضي يسمى الجباء اي
يلجأ صاحب الارض الى بعض الكبراء فيسجل ضيعته باسمه تعززا به من عمال الخراج
حتى لا يجبروا عليه فتصعق الضيعة مع الزمن ملكا لذلك الكبير .
قال ابن أبي الحديد : ان من اهل الخراج من يلجئ بعض ارضه وضياعه الى خاصة
الملك ويطأته لاحدا من اهل الامتناع من جور العمال وظلم الولاة وتلك منزلة يظهر بها
سوء اثر العمال وضعف الملك والخلالة بما تحت يده واما للدفاع عما يلزمهم من الحق
والتيبيرة وهذه حلة لتسديها آداب الرعية وينقص بها اموال الملك . وكان العادلون
من الملوك يعاقبون المتجشعين والمجاهلين ولكن الناس يلجئون املا بهم عند باب الصولة
وكم مرة خربت سور يدة او صنع كبير من اصقاعها بظلم ظالم من عمالها . ذكروا ان الخليفة
الحاكم اعني ولاية حلب من الخراج سنة ٤٠٧ لانها كانت ضعفت بالفتن المتواصلة
وان الب ارسلان لما ولي امرة حلب رفع عن اهلها الكفاف التي كانت مجددة عليهم
وان نجم الدين ايل غازي بن ارق (٥١٤) رفع المكوس عن اهل حلب والمؤمن
والكاف وابطل ما جددته الظلمة من الجور والرسوم المكروهة و بالغ الامير حصن
الدولة معلى بن حيدرة بن منزو الكشامي الذي ولي دمشق سنة ٤٦١ في المصادرات
وارتكاب المظالم فلم يلق اهل البلد من التعجرف والظلم والعسف بعد جيش ابن
الغضامة في ولايته ما تقوه من ظلمه وسوء فعله فخرت اعمال دمشق وجلا عنها اهلها
وخلت الاماكن من قاطنيتها والغوطة من فلاحيتها .

والغالب ان المكوس والضرائب كثرت اواخر حكم العباسيين والعباسيين في
الشام وبقي في البلاد رسوم كثيرة حتى ابطلها نور الدين وابطل ابق الصوفي
الافساط في دمشق وما كان يؤخذ في الكور من الباعة جملة وابطل صلاح الدين
مثل مكس مكة وعوض اميرها بجلاب غلة تحمل اليه كل سنة وتعين ضياع موقوفة
عليها بالديار المصرية . قال ابن أبي طي : ان الذي اسقطه السلطان صلاح الدين والذي
سامحه لعدة سنين آخرها سنة اربع وستين وخمسمائة مبلغه عن نصف الف دينار
والنصف الف اردب سامح بذلك وابطله من الدواوين واسقطه من المعاملين وكذلك فعل

اخوه ابو بكر بن ايوب فانه ابطل كثيرا من المظالم والمكوس وطهر بلاده من الفواحش
والجور والقمار وكان الحاصل من ذلك بدمشق خصوصا مائة الف دينار الا ان المكوس
عادت فأحدثت . ولما دخل صلاح الدين دمشق سنة ٥٧٠ ازال المكوس وكانت
الولاية في اهلها قد ساءت وامرغت واليد المتعدية قد امتدت الى اموالهم واجغت .
قال العماد : اقتصر صلاح الدين في جميع البلاد على الرسوم التي يبيحها الشرع وهي الخراج
والاجور والزرع . وكذلك كانت من قبل سيرة نور الدين محمود بن زنكي فانه منع
ما كان يؤخذ من دمشق من المغارم بدار البطنج وسوق الغنم والكيالة وغيرها وكان والده
زنكي ينهي اصحابه عن اقتناء الاملاك ويقول معها كانت البلاد لنا فأي حاجة لكم الى
الاملاك فان الاقطاعات تغني عنها وان خرجت البلاد من ايدينا فان الاملاك تذهب معها
ومنى صارت الاملاك لاصحاب السلطان ظلموا الرعية وتعذوا عليهم وغصبوا املاكهم .
قال ابو يعلى : تجتمع قوم من السفهاء العوام وعزموا على تخريب نور الدين على اعادة
ما كان ابطل وسامح به اهل دمشق من رسوم دار البطنج وعمرصة البقل والاثمار وصانهم
من اعنات شرار الضمان وصوله الاجناد وكرروا اسخف عقولهم الخطاب وضمنوا القيام
بعشرة آلاف دينار بهض وكتبوا بذلك حتى أجبيوا الى ما راموا وشرعوا في فرضها
على ارباب الاملاك من المقدمين والاعيان والرايا فما اعتدوا الى صواب ولا نجح لهم
قصد في خطاب ولا جواب وعسفوا الناس بجهلهم بحيث تألموا واكثروا التقيج
والاستغاثة الى نور الدين فصرف همه الى النظر في هذا الامر فتجت له السعادة وابنار
العدل في الرعية الى اعادة ما كان عليه فأمر باعادة الرسوم المعتادة الى ما كانت من
امانتها وتعفية اثر ضمانها وأضاف الى ذلك تبرعا من نفسه ابطل ضمان الهريسة والجبن
واللبن ورسم بكتب منشور يقرأ على كافة الناس بابطال هذه الرسوم جميعها وتعفية
ذكرها . قال السبكي : وقد علم ان المكوس حرام فان ضم الوزير الى اخذها الاجحاف في
ذلك وتشديد الامر فيه والعقوبة عليه فقد ضم حراما الى حرام .

ومع كثرة احتياج البلاد للمال زمن نور الدين وصلاح الدين للاستعانة به على
قتال الصليبيين كانت الجباية الى الرفق في الجملة ببلاد الشام فاطلق نور الدين المكوس
والضرائب واكتفى بالخراج والجزية . واسقط صلاح الدين فريضة الاتيان المقسطة على

اعمال دمشق وضياح الغوطة والمرج وجبل سنير وقصر حجاج والشاغور والعقبة ومزارعها ولما فتح حلب اطلق المكوس والضرائب وسامح باموال عظيمة « ومنها ما هو على الاثواب المجلوبة ، ومنها ما هو على الدواب المركوبة ، ومنها ما هو في المعاش المطلوبة » ومما كتب عنه من منشور ان اشقى الامراء من سمن كيبه واهزل الخلق ، وابعدهم من الحق من اخذ الباطل من الناس وسماه الحق . وكان هذان الملكان من ازهد الناس فلم يختلفا في خزائنها الا التافه وقد خلف الملك العادل ابو بكر بن ايوب اخو الملك الناصر صلاح الدين يوسف في خزائنه وكان يجب ادخار المال ليصرفه حين الحاجة — سبعمائة الف الف دينار وخلف الملك الافضل ستائة الف الف دينار عيناً ومائة وخمسين اردباً دراهم نقد مصر ومائة مسمار من ذهب وزن كل مسمار مائة مثقال في عشرة محابس في كل محبس عشرة مسامير وصندوقان كبيران فيها ابرذهب يرمم الجواري والنساء عدا الثياب والطرائف والقطعان والخيول والبغال والرفيق . وهذا مالا يمكن ان يحوزه ملك صغير الا بالضغط على الرعية ولو قليلاً لاستخراج هذه الاموال والتوقف في صرفها على مصالح الامة ومرافقتها . وقد استعمل ملوك الطوائف الشدة في تكثير الجباية وكان ينال المنكر لها من العلماء اذى من ذلك ان نغر الدين بن عساكر انكر على الملك المعظم تضمين المكوس والجمور فعاقبه بان انتزع منه المدرسة النورية والصلاحية بدمشق . وقد فعل عكس ذلك الاتابك طغرل الظاهري صاحب حلب فقد امر سنة ٦١٨ برفع الجبايات ومحو اسمها واهراق كل خمر في المدينة ورفع ضمانها وكتب الى النواحي . قال القفطي : وكان المحصول من ضمان ما اطلق ما مقداره مائتا الف درهم في السنة وان اضيف اليه ما يستغل في السنة الآتية من رخص الكروم وتعطيل ضماناتها وقلة دخلها بهذا السبب كانت الف الف درهم او ما يقاربها .

ولم نغفل لدمشق عاصمة البلاد على ارتفاع لها خاصة وقد قال ابن ابي طي : حدثني كريم الدولة بن شرارة النصراني وكان مستوفى دار حلب يومئذ انه عمل ارتفاع سنة تسع وستائة في الايام الظاهرية دون البلاد الخارجة عنها والضياح والاعمال فبلغ ستة آلاف وتسعمائة الف واربعه وثمانين الفا وخمس مائة درهم قال : ومما

احطت به علماً في ايام الملك الناصر ان ارتفاعها على القاعدة في الارتفاع ستة آخر دولته مع حلوله بدمشق وخلوها منه كان على ما ينصل ثم فصل الارتفاع فكان ستة واربعين صنفاً وطر الجموع بـ ٧٦٣٠٥٦٠٠٠ درهم . وكان مسافة ما بين ملك حلب في ايامه وهو الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازي من المشرق الى المغرب مسيرة خمسة ايام ومن الجنوب الى الشمال مثل ذلك وفيها ثمانمائة ونيف وعشرون قرية ملك لاهلها ليس للسلطان فيها الا مقاطعات يسيرة ونحو مائتي قرية ونيف مشتركة بين الرعية والسلطان قال ياقوت الحموي : اوقفني الوزير صاحب القاضي الاكرم جمال الدين ابو الحسن علي بن يوسف بن ابراهيم الشيباني القفطي ادام الله تعالى ايامه وختم بالصالحات اعماله وهو يومئذ وزير صاحبها ومدير دواوينها على الجريد بذلك واسماء القرى واسماء املاكها وهي بعد تقوم برزق خمسة آلاف فارس مزاحي العلة موسع عليهم قال لي الوزير الاكرم ادام الله تعالى علوه : لو لم يقع اسراف في خواص الامراء وجماعة من اعيان المقاريد لقامت بارزاق سبعة آلاف فارس لان فيها من الطواشية المقاريد ما يزيد على الف فارس يحصل للواحد منهم في العام من عشرة آلاف درهم الى خمسة عشر الف درهم ويمكن ان يستخدم من خواص الامراء الف فارس وفي اعمالها احدى وعشرون قلعة يقام بذخايرها وارزاق مستحفظيها خارجاً عن جميع ما ذكرناه وهو جملة أخرى كثيرة ثم يرتفع بعد ذلك كله من فضلات الاقطاعات الخاصة بالسلطان من سائر الجبايات الى قلعتها عتباً وحبواً ما يقارب في كل يوم عشرة آلاف درهم وقد ارتفع في العام الماضي وهو سنة ٦٢٥ من جهة واحدة وهي دار الزكاة التي تجبي فيها العشور من الافرنج والزكاة من المسلمين وحق البيع سبعمائة الف درهم وهذا مع العدل الكامل والرفق الشامل بحيث لا يرى فيها متظلم ولا متهضم ولا مهتضم وهذا من بركة العدل وحسن النية اهـ .

ومن هذه النقول تعرف درجة الجباية والثروة في تلك العصور . ولا قبض الاثراك والجرأكة على زمام الاحكام في الشام في القرن السابع والثامن والتاسع كانت المكوس كثيرة جداً وزادوها هم ونفنتوا في ضروبها حتى صعب احصاؤها وحفظها وكانت الجمور في سنة ٦٤٣ مضمنة والمكوس شديدة وكان صاحب امين الدولة في مدة وزارته الملك الصالح اسمعيل حصل له اموالاً عظيمة جداً من اهل دمشق وقبض على كثير من

املاكهم وابطل الملك الظاهر يبرس سنة ٦٦٥ ضمنان الخبيثة وامر باحراقها والغالب ان بعض الملوك لم يكونوا يستنكفون من اخذ الضرائب عن الخمر والمكينات بل تعدوا ذلك في تلك الحقبة من الزمن الى اخذ الرسوم عن البغايا والمواخير فقد ابطل الظاهر برفوق في جملة ما ابطل من المظالم والمكوس في بر الشام ضمنان المغاني اي المغنين والمغنيات في انكرك والشوبك. وضمنان المغاني كان معروفاً في مصر فابطل سنة ٧٧٨ زمن الاشرف قلاوون ابطله من جميع اعمال مملكته وكان عبارة عن مال كثير مقرر على المغاني من رجال ونساء يؤدونه كل سنة الى الخزنة. وابطل الناصر قلاوون ضمنان المغاني ايضاً وهو عبارة عن اخذ مال من النساء البغايا وذلك لخرجت اجل امرأة تقصد البغاء ونزلت اسمها عند امرأة تسمى الضامنة واقامت بما يلزمها من القدر المعين عليها لما قدر اكبر من في مصر ان يتبعها عن البغاء وعمل الناحية وكان يحصل من ذلك جملة كثيرة من المال .

لاجرم ان دولة الترك والجزاكية في مصر والشام تشبه في كثير من الوجوه دولة الترك العثمانيين التي جاءت بعدها وكانت مراسيم ملوكها تصدر الحين بعد الآخر بابطال بعض الرسوم والضرائب ولكن مع هذا تجد من الامراء من كانوا يصادرون على ملايين من الدنانير دع سائر اسباب الثروة من ناطق وصامت . والدولة التي تخفف عن رعاياها بالاقوال والافعال على خلاف ذلك، هي دولة سيئة ادارتها المالية فقد كان الملك المؤيد شيخ كثير المصادرات للرعية وهو الذي قطع دابر النواب العصاة الذين اخرجوا غالب البلاد الشامية وحدث في ايامه اشياء كثيرة من ابواب المظالم لما كان يخرج الى التجار يد . واخرج الى التجار يد او الحملات كانت من جملة الاسباب التي انتهت لملوك الجزاكية ليلبوا الناس اموالهم ولا تكلف التجار بدة اقل من نصف مليون دينار فاذا جرد السلطان في حياته عشرين تجر بدة كان المصروف من ذلك في هذا السبيل عشرة ملايين لا تصل الى خزنة السلطان حتى يجبي مثلها من الرعايا المساكين .

وفي سنة سبعمائة استخرجت الحكومة مالا عظيماً من جميع الاملاك والاقواف بدمشق وظهرها فكان من داخل دمشق حق اربعة اشهر واخذوا من الغوطة من كل قرية تكثر اموالها ثلث ضمايتها واخذوا من القرى التي لزراعة القمح والشعير والقطن والحبوب على نسبة مغل سنة ثمان وتسعين وستائة فعظم ذلك على الناس وهرب

خلق كثير واستخفى جماعة والذين وقعوا بايديهم قطعوا اشجار الباقين واباعوها حطباً بحيث اباعوا القنطار الدمشقي بثلاثة دراهم . فكان خراب الغوطة بهذا السبب ومن شدة الطلب وكثرة الظلم والجور .

وفي سنة ٧١٤ اصدر الملك المؤيد صاحب حماة امراً الى جميع نوابه ان لا يقبل احد حماية لاحد بل الكل متساوون في الحقوق ودفع ما عليهم وذلك لان الاسماعيليين كانوا في مصياف لا يدفعون لسلطه اموالاً بدعوى الحماية فأخذت الاموال من الجميع . وفي سنة ٧٢٤ برزت المراسيم الشريفة الى نائب حلب بان يروك البلاد الحلبية اي يمسحها ويعين عليها مالا كما فعل سيف البلاد الشامية فراكوا جميع البلاد الحلبية وجميع البلاد الشامية والحلبية والمصرية في الروك الناصري وابطل في هذه السنة مكوس الغلة بالشام وكان مبلغاً عظيماً يؤخذ من ثمن الغرارة ثلاثة دراهم ونصف .

ومن جملة ما ابطلوه في ادوار مختلفة من الرسوم وهو ما نوردته مثلاً من حالة تلك الايام ما ابطله برفوق مما كان منقرواً على البرذارية في كل شهر من المال وما كان يأخذه السماسرة على الغلال والكيالة وعن الملح في عين ناب وعلى الدقيق في البيرة وما كان مقررراً لنائب طرابلس عندما يتولى على كل قاض من قضاة البر والولاية بغلة او ثمنها خمسمائة درهم . وابطل المنصور قلاوون من جملة ما ابطل من المظالم ووظيفة ناظر الزكاة وهو ان يؤخذ ممن عنده مال زكاته فان مات الرجل صاحب المال او عدم ماله بقي ذلك القدر المقرر عليه في الدفاتر يؤخذ من اولاده او من ورثته او من اقاربه ولو بقي منهم واحد . وابطل الاشرف صلاح الدين ما كان يؤخذ على كل حمل يدخل باب الجباية بدمشق من القمح خمسة دراهم من المكس بل ابطل المكوس والضرائب عن سائر اصناف الغلة بجميع الشام وكان ذلك جملة تخرج عن الاحصاء . وتجد الى اليوم على السواري الاربع القائمة في مدخل جامع بني أمية بدمشق من الغرب اربع وثائق في ابطل المكوس كتبت كل وثيقة على سارية . تاريخ الاولى سنة ٨٦٣ على عهد قايتباي الجزاوي كافل المالك الشامية ابطل بها الرسم المقرر على الاسواق والطواحين وغيرها من المكوس بدمشق . والثانية كتبت سنة ٨١٥ وهي مما امر به الظاهر ابوسعيد بن جقمق بابطال المكوس على الاقشة الحصية وفرع الاردية وفرع القطن وغيرها والثالثة

بشاريح سنة ٨٥٢ تقول بأنه ورد مرسوم شريف من مولانا السلطان الملك الظاهر اوسعيد جقمق بإبطال بعض المكوس ومنها القير والعنص والسمك البوري والحناء والقماش المصري . قال وهذا في صحائف الدولة العادلة ١ والرابعة فيها ذكر القلي والخروج والقنقاس وجلود الجاموس والماعز .

وكانت العادة ان تنقش على الرخام صورة الامر الصادر من الملك في رفع مثل هذه المظالم فنقش الملك الظاهر اوسعيد حطير رخامة والصقها على باب الجامع الاموي في هذه المدينة بإبطال ما كان لنائب الشام على الختسب في كل سنة وكذلك ابطال في القدس ما كان يجبي لنائب القدس في كل سنة من المال ونقش ذلك على رخامة والصقها بباب الجامع الاقصى . وفي سنة ٧٤٦ كتب على باب قلعة حلب وغيرها من القلاع ما مضمونه : مسامحة الجندي ما كان يؤخذ منهم لبيت المال بعد وفاة الجندي وذلك احد عشر يوماً وبعض يوم في كل سنة وهذه مسامحة ببال عظيم وكتب بالمسامحة بمثل ذلك على حائط قلعة طرابلس وهذا التفاوت ايام الدوران ما بين السنين الشمسية والقمريّة . وكثيراً ما كان يصدر الامر في زمن الجراكسة بجمع الذهب اذا قل أو الفضة وتسليمها الى الملك ليضرب بها سكة وتقوداً وكثر في ايامهم غش الفضة حتى كان سعر الدرهم ينزل كثيراً ويصاب الناس في الشام ومصر بخسائر فادحة وكثيراً ما كانوا يخسرون ثلث اموالهم لان بعض ملوكهم كانوا يعشون الفضة وينزلون عيار الذهب فكانت المصيبة بالفضة والذهب لعهدهم كالمصيبة بالاوراق النقدية لعهدنا كل يوم في ارتفاع وانخفاض . ولا عجب فقد كانت الدول بعد عصر صلاح الدين وآله في هذه الديار تخطط بدون قاعدة مستقرة والدول التي ينصب لها ملك وهو لم يبلغ الحولين ويتولى الممالك امره لا يصدر منها اكثر من هذا كما وقع في سلطنة الملك المظفر ابي السعادات احمد بن الملك المظفر فار كبوه فرس النوبة وهو ابن سنة وثمانية اشهر وسبعة ايام وهو يزعم من البكاء ومشت قدامه الامراء حتى دخل القصر الكبير وهو في حجر المرضعة وقبلوا الارض امامه ولما دقت الكوسات بهت الطفل وصار حول العين .

وكانت ايام الجراكسة فريدة بثررة عمالها والغالب ان الواحد منهم كان يأخذ رزق مئة الف او مئتي الف انسان على نحو ما كانت الحال في مصر قبل اربعين سنة ولكن

الثروة كانت شيئاً كثيراً في تلك الايام محصورة في الافراد فقد اخذ تيمور من دمشق لما جاءها سنة ٨٠٣ عدا المأكول والمشروب وغيره الف الف دينار فقام بها اهل دمشق من غير مشقة فلم يرض تيمور بذلك وقال ان المطلوب بحساب بلاده وهو عشرة آلاف الف دينار او الف تومان والتومان عشرة آلاف دينار من الذهب فنزل بالناس باستخراج هذا منهم ثانياً بلا عظيم ولما حمل الى تيمور قال هذا المال لحسابنا انما هو ثلاثة آلاف الف دينار وقد بقي عليكم سبعة آلاف الف دينار وظهر لي انكم عجزتم ثم اخذ اموال المصر بين حكام البلاد والتجار الغائبين عن دمشق وافرد على كل رأس من كبير وصغير عشرة دراهم شامية وافرد على اوقاف الجوامع والمساجد اجرة ثلاثة اشهر فتزايدت البلايا وكانت دمشق يومئذ احسن مدن الدنيا واعمرها على ما قال ابن تغري بردي ولذلك هان عليها ان تجمع عشرة ملاين دينار وهو اذا قيس باعتباره بنسبة هذه الايام لا يقل عن مئتي مليون ليرة .

رجع الى الرسوم والمكوس في القطر الشامي فقد تنوعت انواعها في عهد الجراكسة ومنها ما كان الخلف يلغيه على غير ارادة السلف فقد وضعوا على اهل محلة قبر عاتكة ومحلة القبيبات وقرية القابون في دمشق سنة ٨٣٢ رجلاً على جاري عادة الفتن فبلغ علاء الدين البخاري احد صلحاء المدينة فانكره وارسل الى النائب فأبطله وفي سنة ٨٣٦ ركب السلطان برسباني الاشرف الى صالحة دمشق لزيارة الشيخ علاء الدين البخاري فوعظه الشيخ وكلمه كلاماً غليظاً فرسم السلطان بإبطال طرح السكر ونودي في الحرم سنة ٨٣٧ بمرسوم السلطان بان يبطل طرح السكر وان ينقش ذلك في الجامع الاموي والقلعة ودار السعادة قال الاسدي فنقش ذلك وعلى الظن الغالب انهم لا يفوا بذلك لما علم من عادة السلطان . وتري الى اليوم في جامع حلب الكبير عدة سوار في الغاء الرسوم فالسارية الاولى كتب عليها ان الملك دمرداش أبطل سنة ٨١١ مكس البيض من المملكة الحلبية . الثانية أبطل فيها الملك جقمق سنة ٨٥٢ ما كان يؤخذ ظلماً من الدلالين في سوق الحراج . الثالثة في سنة ٨٤٦ بإبطال الملك الظاهر جقمق مكس الكتان . الرابعة سنة ٨٤٦ بإبطال ما كان يؤخذ من اهل سرمين . الخامسة بشاريح سنة ٨٥٧ بإبطال مكس الزيتون من قري عزاز . السادسة سنة ٨٦٤ بإبطال ما تجدد

على المصبغة بقلعة القصير عن كل خاية عشرة دراهم وان لا يؤخذ سوى درهم واحد عن كل خاية . وغيرها بابطال مكس السلاح في جميع سوق السلاح ومنها ما كتب سنة ٨٨٢ بابطال مكس الملح الداخل مدينة حلب ومنها بابطال ما على الدباغين بدير كوش من المكس ومنها ما صدر سنة ٨٩٣ بابطال ما كان يأخذ ناظر الخنة من سوق الخناوية ومنها ما صدر سنة ٩٠٣ بابطال ما كان يؤخذ من مكس القطن ومنها ما صدر سنة ٩٠٣ بابطال مكس المسك والزعفران ومنها بابطال مكس السماق ومنها بابطال ما هو معين عن ختم القماش العراقي والدمشقي والقديسي . ومعظم هذه الاوامر المسطورة على الاعمدة مشقوقة بحملة ملعون ابن ملعون من جردها او يعيدها الى غير ذلك من استجلاب اللعنات على من يجردها ومنها كانت الله ورسوله خصمه يوم القيامة الى غير ذلك من القيود والعقود .

ويحق لنا ان نستخرج مما تقدم ان المكوس كانت تختلف باختلاف البلاد فما كان في طرابلس لا يجبي مثله في حمص وما كان في القدس لا عهد لحلب به وما في دمشق لا مثيل له في المدن الاخرى . وهاك أمثلة أخرى من هذا القبيل في مدخل جامع طرابلس امر بابطال المظالم المحدثات على اهل طرابلس من التججير على قوت العباد من القمح والقمح والخبز والفراخ وغير ذلك وذلك في ايام ابي النصر شيخ سنة ٨١٢ وفي مدخل هذا الجامع امر من صاحب طرابلس بابطال منع استيفاء رسم الدخايف وما يستأديه من يكون متكلاً في ديوان الحجوبة الكبرى واستاد دارية الديوان الشريف من سكر وخل وغير ذلك ومن طرح الصابون والزيت والبلس (البوتاس) ومن جميع ما يحدث من ديوان النيابة والديوان الشريف وغيرها ومن جميع الكلف والمخادام الجارية بها العادة قديماً والحديثة مستقبلاً وعلى حائط مدرسة الشمسية امر كتب سنة ٨٢٦ بابطال الملك اشرف برسباني ما على البلاد الطرابلسية من الخيل بالبريد ورسم الملك الاشرف بابطال التحكير بالخانات والمكوس على الخطب والتبن وغيره وجبر بالنداء بذلك بدمشق بالجامع الاموي ونقش به رخامة وفي سنة ٨٤٦ سوح عوام القدموس بما على انوال الحياكة وخراج الكروم بالقدموس مساحمة مستمرة على الدوام ونقش رخامة على حائط الجامع الكبير وفي سنة ٨٥١ ابطال ما تجدد على عوام القدموس

والكف والمنيقة والعليقة والخواجي من الاعمال الطرابلسية من الثياب الخام ودورة الاستاددار . وفي مدرسة طرابلس رسم بابطال ما على الخيرة (السلخ) بطرابلس من الموجب لديوان النيابة وقدره في كل يوم ثمانون درهماً وباطال معلوم كتابة السر احد وعشرون درهماً ومعلوم الحجوبة ثلاثة عشر درهماً وفي حائط تلك المدرسة ايضاً كتابة بتاريخ ٨٨٨ بابطال المظالم وهي الطروحات التي كانت تطرح من التجار والمتسببين بمدينة طرابلس وذلك عن الصابون والكرم والزيت وغير ذلك وفي سنة ٨٨٨ ابطال مكس الدواليب الحرير والقصابة بالكهف والقدموس وابطل مكس نخيرة البقر والجاموس وقطع الضأن وقرم الاسا كفة بالقدموس والخواجي وعلى ذلك الحائط كتب سنة ٩٠٩ بابطال المظالم والحوادث عن فلاحي الوقف ان لا يكرهوا فلاحي الوقف الا الجزية الشرعية والمال المقرر وفي سنة ٨٢١ ابطال غنمان المكس بسوق العطارين بطرابلس الشام وكتب على حائط مدرسة الرفاعية سنة ٨٢٠ ان لا يؤخذ من تجار حماة وغيرها من السمسرة والترجمة الا ما جرت به العادة القديمة وهي على الالف عشرة دراهم لا غير وان لا يتناول الاجرة الا من باثر العمل بنفسه من ابناء السبيل ومنع النصارى من الترجمة والسمسرة وان لا يؤخذ شي من باع سلعته بغير دلال . والفي قانصوه الغوري المكس عن حاكاة حمص .

وبذلك رأينا ان الغاء المظالم والمغارم كان على اشده في آخر ايام الجراكسة وكان من اسوأ ملوكهم شعبان قال المؤرخون فيه انه كان متطعاً الى جمع المال واقام ديواناً برأسه للبذل وفتح باب قبول البذل في الاقطاعات والوظائف وجعل لذلك ديواناً قائماً بالذات وكان يعين البذل في المناشير وهو مبلغ ثلثمائة درهم فما فوقها والخالصة فان الجراكسة نفنوا في طرح المكوس ومن غرّبها في ايامهم مكس القرعان وذلك ان شحاصاً من المالك الجراكسة كشف رأسه في سنة ٨٣٠ بين يدي السلطان فاذا هو اقرع فضحك منه السلطان فقال ذلك المملوك: اجعلني والي القرعان يا مولانا السلطان فاجابه السلطان الى ذلك واخرج له مرسوم سلطاني به وان يكون شيخ القرعان وخلع عليه خلعة فصار يدور في الاسواق والحارات ويكشف رؤوس الناس فن وجدده اقرع يأخذ منه ديناراً حتى اعيان الناس ففجع منه الناس وشكوه للسلطان فضحك ونادى

بالامان للقرعان وان كل شيء على حاله وكسب ذلك الرجل في هذه الحركة مالا عظيماً .

انتهى دور الجراكسة الحزن المرمض واملت الامة بدخولها في حوزة الترك العثمانيين ان ترى ايام رغد وسعادة لانها دولة جديدة تقامى ما امكن الاغلاط التي وقعت فيها الحكومة قبلها ولكن جاء الامر على العكس من ذلك على ما نراه . لما فتح السلطان سليم العثماني الشام ومصر بعد ان كان في ضائقة شديدة اضطر معها الى الاستدانة من بعض التجار قال وقد ملأ خزائنه من اموال الجراكسة : اني ملأت الانابيب بالذهب وكل من يستطيع من اخلافي ان يملأها دراهم فليجئ عليهما بطابعه والا فتيق الخزينة السلطانية محتومة بطابعي . هذه كانت وصيته وذلك كانت خزينته « الاندرون » محتومة بخاتم سليم . لاجرم ان اكثر فتوح السلاطين العثمانيين كان السائق اليها حب الغنائم والنهب ولذلك كانوا يرجعون فتح البلاد في جهات اوربا على الفتح في آسيا لان تلك كانت اغنى في نظره وعلى شيء من الانظمة في الجملة تسد مغائنها نعمة جيوشهم وخواصهم وفيها من الجمال ما يكافي الاتعاب فيتمتع السلطان واهل دولته بمن شاءوا من بنات المغلوبين وبنيتهم ولذلك جاء النسل التركي في الاستانة فقط مزيجاً من الروم والكرج والبشاق والارناؤد والرومان والصرب والبلغار والمجر والطلبان والروس والبولونيين وغيرهم من امم اوربا .

ولما فتح السلطان سليم دمشق (٩٢٢) فوض نيابة دمشق وما اليها من بلاد الشرق الى عريش مصر الى جان بردي الغزالي على مال معين قال ابن طولون قيل قدره مائتا الف دينار وثلاثون الف دينار . وذكر النجم الغزي ان هذا السلطان ثقف في ضرب المكوس ومن جعلتها المكس على المومسات فتأسف العقلاء واكبر الامر اهل الدين والورع . ومن وصل به الطمع في مال الامة الى هذه الدرجة وهو في مبدأ تغلبه على البلاد يجب عليه ان يريها شيئاً من العدل ينسبها مظالم الدولة الجركسية فحدث ما شئت ان تحدث عما أحدثه اخلافه من البدع في الارتفاعات بعده حتى قال مؤرخو الترك انفسهم ان خراج ايلة الشام كله كان يعطي للمرأة السابعة من نساء السلطان ابراهيم وكان الجاني يأتي دمشق فيجيبها بنفسه لان نساء القصر لم يكن يأمن احداً

من الولاة والمتصرفين على جبايتها من الامة . فتأمل ايلة بل مملكة كهذه تعطي جبايتها لامرأة واحدة من نساء القصر تنفقها على زينتها وازيائها كيف تكون مجابيتها عادلة مصروفة في سبلها !

وذكر مؤلفو الترك ان اقطاع الشام كله كان مسانبة مليون اقچه (١) ولا مير لوائها من مئين الى ثمانمائة الف اقچه وفيها ١٢٨ زعامة و ٨٦٦ اقطاعاً و عدد جندها ٢٦٠٠ من الفرسان . وكانت ايلة طرابلس وارتفاعها السنوي خمسة يوكات (٢) ولديوان الخاص من ٢١٠ الى ٣٩٠ الف اقچه وحاميتها من الفرسان ١٤٠٠ وايلة حلب وخراجها ثمانمائة وسبعة عشر الف اقچه وديوانها الخاص يرتفع من ٢٠٠ الى ٥٠٠ الف اقچه وفي هذه الايلة ١٠٤ زعامات و ٢٩٩ اقطاعاً وحاميتها ٢٥٠٠ فارس يخرج منها عشرة يوكات كان يدفعها اولاد رمضان حكام اذنة .

وكانت الدولة تستوفي نصف ايراد الشام على عهد السلطان سليمان الاول اعني في سنة ٩٩٩ هـ ١٥٥٣ م ٢٠٠٦٠٠٠ دوكا والدوكا عشر اقحات والبارة ثلاث اقحات وتصرف الباقي على وقاية البلاد ومحافظتها وكذلك كانت تفعل في مصر تأخذ نصف ريعها وتصرف النصف الآخر في حمايتها .

(١) كل ثلاث اقحات بارة وكل ٤٠ بارة قرش والكيس خمسمائة قرش ذهباً او فضة . وذكر لامنس ان القرش كان يساوي في القرن الثامن عشر في سورية نحو خمسة فرنكات وفي منتخبات الجواب ان تقود الدولة العثمانية كانت قبل القرن الحادي عشر للهجرة من صنف الدوكات المنسوبة الى البندقية التي كانت مملكة عظيمة مسنقلة وكانت وزن كل مئة دوكات ذهباً ١١٠ دراهم اما تقود الفضة فكانت من صنف الريال الجرمانى الذي كان يجلب من المانيا وكان وزنه تسعة دراهم وقيمته ٨٠ اقچه . واول من استعمل الاقچه السلطان بايزيد الاول وذلك في سنة ٧٩٢ هـ (١٣٩٠) اما استعمال البارة فاشتهر في سنة ١٠٦٦ هـ وفي سنة ١٠٩١ قر الرأي ان كل ٤٠ بارة تحسب قرشاً وكانت البارة تساوي ثلاث اقحات اما الكيس الذي كان يساوي ٥٠٠ قرشاً ذهباً او فضة على حساب المعاملات فكان يساوي الف دوكات .

(٢) اليوك مبلغ خمسمائة الف قرش .

وما برحت الحال المالية في هذه الديار في اديار وهي تبع للوالي الذي يتولى زمام الحكم فقد ذكروا ان والي الشام رفع في سنة ٩٩٤ المظالم وأبطل المكوس الزائدة فأبطل مكس الخمرات وكان هذا المكس لكل من كان حاكماً على بر الشام ثم أبطل اليسق من باب صاحب الشحنة. واليسق كبير الانكشارية يلتزم هذه الوظيفة بنال كبير يدفعه للآغا وللباشا ويكون في باب صاحب الشحنة يقطع الجرائم ويدفع المال عن ارباية يريح ديناراً عثمانياً كل يوم فاذا كانت الجريمة خمسين ديناراً مثلاً دفعها عن ائزم بها وله ربحها في كل يوم خمسون عثمانياً فاذا بقيت عليها يوماً حتى يسعى في تحصيلها تضاعفت عليه حتى لا يقدر على الوفاء والتخلص منها فان كان له اسباب او عقار او وقف او غير ذلك باعها او ملكها لذلك اليسق كيف اراد فادى ذلك الى تحول الانكشارية وتملكهم كثيراً من الاملاك وأبطل اليسق من باب القاضي ورثت الانكشارية مالا على البضائع المجلوبة. وأبطلت المكوس التي كانت تؤخذ على اللبن الداخل الى دمشق وعلى الموازين.

وفي سنة ١٠٠٤ طالبت الحكومة الرعايا بعوارض سنتين جديدة وعتيقة وطالبوا الاسرائيليين بمال عظيم. وهذا كثيراً ما كانت تعمد اليه حتى الى عهد قريب تطلب المال قبل استحقاقه وتسلب اموال الصيارف والمرايين بحجة الاستدانة منهم وحدث ان بعض الامراء والملوك صادر والنصارى واليهود خاصة كما فعل الملك الاشرف قايتباي فصادرهم مرتين في ايامه. وفي سنة ١٠٠٨ تولى السيد محمد باشا ولاية دمشق وامر بتغيير المعاملة فيها وجعل كل سلطاني بثانين قطعة جديدة زنة كل قطعة قيراطان ونصف قيراط وهبطت الاسعار وحصل الرخاء. وذكر بعضهم ان غفر الدين المعني كان يجبي تسعمائة الف ليرة ويزيد ذلك بزيادة التجارة فكان دخل صيدا ياتي الدولة سنوياً بمائتي الف ليرة. ويدفع من جبايته للسلطان ثلاثمائة واربعين الف ليرة فقط وكان الامير بشير كالا مير غفر الدين يحب البذخ وقد ضاعف خراج لبنان اربعة اضعاف. وغرّم احمد حافظ باشا سنة ١٠١٨ وكانت كافل الشام اموالاً طائلة وصادر جماعات في دمشق واخذ اموالاً منهم بغير حق ولذلك كانت المصادرة عامة لتناول من في صندوقه مال اياً كان مذهبه.

وهكذا انتفى القرن الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر في سلسلة مغارم

ومظالم فقد تولى احمد باشا الجزار دمشق لأول مرة سنة ١٢٠٠ وكانت مدته حكمه فيها خمس سنين لم يرتج شهر أو احدى من طلب المال ظلماً ومن طرح النقود وطرح البضائع المتنوعة ينهبها من جهات ويطرحها على أخرى بأسعار زائدة ومن مظالمه انه اذا وجد قتيل في احد الانهار يلحقون جميع القرى التي تشرب من ذلك النهر ويأخذون منهم مالا غريباً وكان لا عمل له الا القبض على الاغنياء ومصادرتهم على اشنع صورة فصديق فيه قول الشاعر:

قد بلينا بامير ظلم الناس وسبح فهو كالبجازار فيهم يذكر الله ويذبح
قال ابن آق بيق في حوادث سنة ١٢١٧ شغل الشام بالظلم واكرامية الباشا من البلاد واشتغل حسن آغا بالظلم في دمشق وارهق القرى بالطردحة والاكراميات واقراض الذخائر ومعاونة الجردة وغير ذلك من المظالم التي لم يسمع لها اثر في السابق. وفي سنة ١٢٤٧ كانت محاولة سليم باشا والي الشام وضع «مصريتين» ضريبة على كل سكرة اي عقار في دمشق من جملة اسباب قتله حرقاً مع جماعته.

وقال ابن عابدين: ان غالب الغرامات الواردة على القرى في هذا الزمان (اي في اوائل القرن الثالث عشر) ليست لحفظ املاك ولا لحفظ ابدان وانما هي مجرد ظلم وعدوان فان غالب مصارف الوالي واتباعه وعمارات منزله ومنزل عساكره وما يدفعه الى رسل السلطان الواردين باوامر ونوامر وامثال ذلك كله يأخذه من القرى ويسمون ذلك بالذخيرة تؤخذ في بلادنا في السنة مرتين ويزيد فيها دراهم كثيرة رشوة لاعوانه وحواشيه من اعيان البلدة وقد جرت العادة بقسمة ذلك كله على عدد فدان القرية وتارة يقسمونه على مقدار حق الشرب بالساعات الرملية فمن كان له فدان مثلاً يؤخذ منه ما يخصه او من له ساعة يؤخذ منه ما يخصه سواء كان رجلاً او امرأة او صبياً وكذا يجعلون منها على رقاب الرجال الساكنين في القرية الذين لا ملك لهم فيها.

وما اخترعه العثمانيون «الرعاة» وهي عبارة عن قرى يقطعها من يعطاها وتضمن على الاقل بعشرين الف درهم عثمانياً كل سنة واخترعوا العوارض وهي مظلمة سلطانية تؤخذ من البيوت في الشام في كل سنة ويقال انها من محدثات الملك الظاهر بيبرس اشار اليها الاكرمي بقوله:

لحنا الله أيام العوارض انها
يضيق لها صدري واقبل لشاعر ضليع وبني ما عليه عوارض

قلنا وهذا من جملة الدواعي التي انقلت بها في القرن الماضي قرى ومزارع كثيرة في سهل الشام وجباله الى ارباب النفوذ فخرج اهلها عن ملكها ورضوا بالاستعباد على ان تكونوا احراراً مالكيين وذلك فراراً من ظلم الحكومة وتخلصاً من الضرائب الثقيلة التي لا تحمّلها نفس بشرية وكثيراً ما كان الشيوخ يقصون علينا قصة الطلبة يوم تدق في قريتهم ويحيي اعوان القلّة لاخذ المظالم من اهلها وهناك كنت تسمع من المؤلمات وضروب الظلم في طرق الجباية ما تسأل الله معه السلامة وتستغرب كل الغرابة من جنس هذا الساطق المتروك ومن طرز ادارة العثمانيين التي تعرف كيف تستنزف دماء الامة واموالها وقلما فكرت فيما يجلب لها الثروة ويحفظ عليها الحق ويقم بينها قسط العدل .

ولما فتح جيش محمد علي باشا المصري بلاد الشام كان الاجنبي اذ ذاك يعطي رسوم كارك وضرائب اقل مما يدفع الوطني بكثير ولذلك اضطر بعض التجار الى ابتياع حماية الاجانب حتى يستطيعوا ان يجروا وهذا كان مبدءاً اشتداد الامتيازات الاجنبية . كتب اللورد دوغرين الى حكومته سنة ١٨٦٠ يقول : في مقدمة اسباب ضعف الادارة العثمانية في الشام ان الباب العالي كان يعتبر هذه الولاية منذ بضع سنوات كأيلة اجنبية يقتضي الانتفاع منها ما يمكن ولذلك طرح منصبها في المزاد ولم يول عليها الا الزائد الاخير ومن الطبيعي ان كل وال جديد لم يكن يفكر الا في تعويض مادفعه من المالك ويجمع الثروة فيسلب اهالي ولايته لدن وصوله مبتزاً منهم الاموال ومثقالاً كاهلهم بالضرائب الجديدة . وبعد ان ذكر كيف كان الوالي يرشي جماعة الاستانة لتسليم له الولاية مدة يواصل فيها استنزاف الاموال واملاء جيوبهم بها . قال : فنتأ عن ذلك مظالم لا نطاق وابتزاز اموال لا تحصى وتعاقب على الايالة ولاة غير اكفاء للمنصب جاؤون مرتشون طماعون في جمع المال لا تشبع بطونهم خالون من ادنى اهتمام بالصحة العامة اه .

تبدلت الاوضاع الادارية في هذا القطر مرات على عهد العثمانيين وفي سنة ١٢٧٢ هـ

كانت تقسم الى ايلالتين ايلالة دمشق وايلالة صيدا ودخل الاولى التي هي عبارة عن دمشق ومرج الغوطة ووادي العجم ووادي بردى وجبل قلمون وحماة وحمص وبعبك ومعرة النعمان وعجلون والبقاع وحاصبيا وراشيا وحوران وجبل الدروز وحسن الاكراد والقنيطرة وايكي قبولي من الخراج والاعشار والبدل العسكري والرسوم المختلفة ٤١٨٠٥ اكياس يضاف اليها ٩٠٠ كبس كانت تدفعها الخزينة الى الاوقاف وذلك عدا ما كان يؤخذ من حماة وحوران وحمص وجبل الدروز وحسن الاكراد ومعرة النعمان وعجلون عيناً من الاعشار والرسوم وهو ١٨٧٥٩ اردباً من القمح و٢٥٨٨٤ اردباً من الشعير و٩٥١ من الدرة و١٣٣٩٣ اوقية سمن و٣٢٠ اوقية حرير و١٣٠٠ رأس غنم . وكان دخل ايلالة صيدا وقائم مقاميني لبنان الدرزية والمسيحية ويدخل فيها بيروت وطرابلس واللاذقية ونابلس وعكا وحيفا وساحل عتليت والاقضية الشمسية ٣١١٥٤ كبساً ماعدا المستوفى عيناً من القمح والشعير والذرة والكرسنة والسمن والعدس والسمن والزيت والفيالج والقطن .

وكان مجموع دخل ايلالة دمشق ١٨٥ الف ليرة على ذلك العهد وايلالة صيدا ٥٠ الفاً وكان لبنان يؤدي للدولة سنوياً ٣٥٠٠ كبس جزية وخراجاً . كتب المستر بيرانت قنصل انكلترا في دمشق الى سفير دولته في الاستانة عن حالة ايلالة دمشق في ٤ حزيران ١٨٥٨ من كتاب مايا تي : « ان الضرائب كانت باهظة على عهد الحكومة المصرية على ان استئجاب الامن وعدم بخل الحكومة على الشعب كانا يكفيان لاقتناعه ان في وسعه تحمل وقرها دون ان يروح تحتها وكان الدخل يدار بنزاهة واقتصاد ولدى الحكومة المصرية جيش وافر العدد وثقوب بكل نفقات ادارة الايالة المتوقع ازديادها تدريجاً امحالة اليوم (اي على عهد الحكم التركي) فهي على عكس ما تقدم من جميع الوجوه فالضرائب عبث ثقيل لا يطاق (١) مع انها اقل من ذي قبل والامن مفقود والدخل يقل كل يوم لاهمال القرويين حراثة الاراضي وكل ما يتم جمعه ينفق باسراف او يسرقه (١) قال بيريه ان الضرائب التي وضعها ابراهيم باشا المصري على السوريين كانت شديدة وما كان القوم يتحملونها لو لم يكونوا من عناصر واديان مختلفة قلنا ومن حسات ابراهيم باشا انه ابطل الرشى والاصطناع وابطل المصادرات وقرر حق التملك .

الموظفون والاموال اللازمة لادارة الحكومة نطلب من الاستانة وصار من الجلي ان المالية تزداد اختلالاً وفساد الادارة مستمر .

« كانت حكومة محمد علي فرضت على كل ذكر ساكن في المدينة ضريبة جديدة تدعى ضريبة التردة تختلف بين ٥ اقروشاً الى ٥٠٠ قرش حسب حالة كل انسان وكانت مجموعها يبلغ عشرين الف ليرة انكليزية ولما عاد الاتراك الى البلاد لقوا مقاومة شديدة في جبايتها فابدلوا بضريبة على البيوت تستوفي دون حدوث اضطراب كبير او قتال على ان مجموعها لا يتجاوز العشرة آلاف ليرة انكليزية وقد جرت بعض احتسكارات وفرضت ضرائب جديدة على البنائات المحدثه للاستعاضة عن الدخل الذي اسرفوا به وكانت الحكومة المصرية تستوفي نحو ٥٥ الف كبس ولا يتأخر لها بارة وهذا المبلغ يساوي ٢٧٥ الف جنيه فيبسط الدخل اليوم الى ٣٥ الف كبس قيمتها ١٤٣ الف وخمسمائة جنيه يجبي منها عشرة آلاف كبس ويبقى زهاء ٤١ الف جنيه في ذمة الاهالي وهذه بتعذر جباية قسم منها .

هذا ما قاله رجل غريب عن البلاد واصرح منه ما كتبه مدحت باشا ايام كان والياً على الشام بتاريخ ١٧ آذار ١٢٩٥ شرقية من لائحة في سياسة الشام واموالها ومما قاله : ان الاوامر التي تصدر من الاستانة الى الشام محصورة في طلب المال والجند فقط وبذلك بطل العمل بالقانون والاصول المرعية وفُتحت ابواب سوء الاستعمال وما عدا بعض الرجال من الموظفين اصبح كبار العمال وصغارهم لا يلتفتون الى غير مصالحهم فطراً على المعاملات خلل وبسوء تأثير ذلك فسدت اخلاق الناس وكثر القتل والنهب والغارة على الاموال والعروض في كل مكان واختل الامن كل الاختلال . قال واذا ألقينا نظرة على واردات الدولة نرى الخراج والاموال قد نزل ارتفاعها الى النصف وخربت مسائل الاعشار البلاد وفل البديل العسكري وحدثت ماشئت عن بلية « القائمة » فمن اجل سقوط اسعارها نزلت الواردات في العام الماضي الى النصف وبقي النصف الآخر في باب النفقات بدون تسديد .

وكلام مدحت باشا يشمل ولايتي سورية وبيروت لان الولاياتين في عهده كانتا ولاية واحدة فكلامه يتناول معظم سورية وفلسطين وبالطبع كانت فلسطين اقصى

الجنوب وحلب في اقصى الشمال على هذه الصورة او اشد لان روح المملكة كانت واحدة وهي المركزية الشديدة وكانت في الدور الذي سلف لامركزية ولكنها اشبه بالفوضى . ولم لتغير الحالة المالية عن عهد مدحت باشا بل ظلت تعسة الى آخر سقوط الشام ورحيل الاتراك عنها وان كانت الارزاقات زادت في العقود الاربعة الاخيرة لانتشار الامن في الجملة بتأسيس الحاكم النظامية التي قضت على الاشقياء بعض الشيء وكفت البادية عن العيث سيف البلاد القرية من العمور بعد ان كانت تأتي لاختد الخوة من القرى القرية من الحواضر الكبرى ولزيادة النفوس بقلة الاوبئة وتخفيف بعض البطائح وسد العجز المالي ولا سيما في الساحل بما ادخله المهاجرون الى اميركا وغيرها من ابناء الشام فكانوا وما زالوا يحملون الى هذه الديار مبالغ طائلة تدخل في تحسين الزراعة والصناعة وتزاد بها الحركة التجارية . وكانت الدولة العثمانية كما سلحت عنها الولايات النائية تزيد في مقدار الجباية والمظالم على بلادها فالدخل ينقص على الدوام بسلب الممالك من جسمها والخرج يزيد لان اهل الاستانة عالة على اهل الولايات يشقى هؤلاء لينعم اولئك وبنوا القصور وبنتموا بالولدان والحور .

ولم يكف الحكومة العثمانية زيادتها في العشور حتى بلغت ثلاثة عشر ارباعاً في المئة تؤخذ من الحاصل والمحصول عدا ما يلحقها من ظلم الملتزمين والعشارين وهو قد يبلغ عشرين في المئة في بعض الانحاء ولم يكفها زيادة الاموال والضرائب الاخرى الى ضعفين بل الى اضعاف ما كانت قبل عشرين سنة بل زادت في العشر والخراج زيادة مهجة مدة الحرب العامة دع ما احدثته من التكاليف الحربية واستلبته من اموال الفلاحين وعروضهم ومواشيهم ولولا ارتفاع الاسعار ودخول ملايين من الليرات التي اقترضتها الدولة من المانيا لتنفقها على الجيش الذي جمعه وجلبته من القاصية لولا ذلك ابقي عشرة في المئة فقط من قرى هذا القطر عامراً ولا ضحت الحال انعم مما كانت قبل ستين او سبعين سنة ايام كان الفلاحون لا يستطيعون زراعة اراضيهم لقلة الايدي العاملة فيجلبون انساناً من العبيد يستخدمونهم في الحرث والكرث .

وبعد الحرب كثرت الجباية والمفازم في بلاد الشام خصوصاً لقلة الشعب في الايدي والاستعاضة عنه بالورق النقدي فزادت الجباية في بعض المال اربعة اضعاف فقلت

الشكوى واخذت اسعار البضائع تملو وتسفل في المدة القليلة والمقرر على الرعايا بنزل ويرتفع على تلك النسبة فتضرر الناس من ذلك وكان البلاء في ذلك عاماً في كل البلاد التي لم يستقر سعر ورقها المالي على وتيرة واحدة ولم تواز قيمته قيمة الذهب واضطرت حكومات الشام الى الاتفاق اكثر من ذي قبل على صغار عمالها وكبارهم لئلا تترك لهم مجالاً الى الرشي والتلاعب بحقوق المساكين والضعفاء وان تقوم ببعض الاعمال اللازمة في الحكومات المتدنة فانقرجت مسافة الخلف بين الدخل والخرج ثم تعادلا واخذت الحكومة تفكر في الغاء طريقة الاعشار والاستعاضة عنها بمال مقطوع وزادت الضرائب على العقارات بنسبة اجورها .

لاجرم ان الاموال اذا جيت كما تجي في البلاد المتدنة بالرفق وبموجب طاقة المكلفين يتوازن مع الزمن الدخل والخرج بل قد يزيد الاول على الثاني اذا وقع الاقتصاد في وجوه النفقات كأن تكفي الشام بما تخرجه لها ارضها وبفيض عليها ما تنصرفه على الخطوط الحديدية ورصف الطرق وتعبدها في المدن وبين القرى وعلى الاسلاك البرقية والكهربائية والهاتفية وتخفيف البطائح واصلاح طرق الري واقامة معالم العلم ودور التهذيب . وكل مملكة تسد عجزها بالاقتراض ولا تستثمر بايدي رجالها ما في سطحها وبطنها من الخيرات يكون مصيرها الى الاستعباد الاقتصادي وهو اشنع ضروب الاستعباد في هذا العصر . وما لا تستطيع ان تعمله لنفسك ليس في مكنة غيرك ان يجعله اليك . وكل امة لا تفرض الجباية بالعقل ، ولا تجبيها بطرق العدل ، ولا تبذل على المرافق العامة منها الفضل ، لنحل بل تصحول .

محمد كرد علي

القضاء في الاسلام^(١)

رأيت ايها السادة ، ان يكون الحديث في هذا الاجتماع ، عن القضاء في الاسلام لاسباب اربعة :

اولاً — ان القضاء هو افضل مظهر يتمثل به العدل . وعل العدل الذي جعل به ارسطو « قوام العالم » الا ركن الملك الوطيد ، لا يثبت له بنيان الا عليه . ولا يستقيم للدول امر الا معه . ولا سيما ان تأسيسها واولئ نشأتها كالتنا الحاضرة . فاذا لم يكن قضاء حر ، مستقل ، نزيه . فلا عدل . واذا لم يكن عدل ، فلا سبيل الى البقاء .

ثانياً — ان هذا القضاء كان منذ كان . الى ان جعلوا يخرجونه عما وضع له . ويتأولونه على غير ما أريد به ، خير قضاء عرفه الناس . مثلاً لروح العدل ، متكيفاً مع المكان ، متمشياً مع الزمان . وكان قضائه حتى منتصف العصر العباسي ، انزه قضاء عرفهم التاريخ ، لامستنيأ احداً من مشارق الارض ومغاربها . في حاضرات الايام وغايرها .

ثالثاً — ان النهضة العلمية الاخيرة ، قد حدرت اللثام الذي كانت سدته القرون الوسطى — قرون الخمول والجمود — على حضارتنا السابقة ، فعرفنا كثيراً عن اسلافنا مما يدعوا الى الاعجاب والمفاخرة غير . ان اكثر ما عرفناه قلائداً به الكتب الحديثة ، كان في الادب ورجاله . والادب الرفيعة وذو بها ، وما الى ذلك . اما القضاء ورجاله فقد ظل خبرهما مجهولاً عندنا ، الا قليلاً مما لا يغني الغناء كله ، بل مما قد تكون معرفته شراً من جهله . فاذا كانت الناشئة اليوم ، تعرف رجالات الادب . والتاريخ في العرب . فحري بها ان تعرف شيئاً

(١) ألقيت هذه المحاضرة يوم الجمعة ٢٣ ذي القعدة ١٣٣٩ هـ و ٢٩ تموز ١٩٢١ م .

صحيحاً عن القضاء وتاريخه ورجاله . وكيف كان ، وإلى أية حال صار . اتماماً للتأديب وخدمة للتاريخ .

رابعاً — أنا وإن كنا نعلم ان الامجاد التاريخية القديمة ، لا تكفل للامة ارتقاها وتعزير مكانتها ، ان لم يمس الابناء على سنن الآباء ، و يضيفوا الى تليد المجيد طريقه . فلنا نذكر ان التحدث بالجهد ، داع الى النشاط . باعث لهم من مراقبها . نزاع النفوس — وقد عرفت سابق عزها وباسق غرسها — الى الاقتداء بالسلف الصالح ، والجري على آثاره . ولعل النبي العربي الكريم لم يرد غير ذلك يوم قال : « الشرف معون » .

ولا ارى لي بداً قبل ان اخوض في هذا الموضوع من ان اقول : ان هذا القضاء قائم بنفسه ، لاصلة له البتة بالشرعية الرومانية . اما الذين يذهبون الى ان الشرع الاسلامي ، هو في جملة الشرائع التي استمدت اصولها واحكامها من هذه الشريعة . فانما يذهبون مذهباً لا نهض به حجة ، ولا يؤيده دليل . ومع هذا فقد اصاب مدعاهم شيئاً من القيمة في بعض العقول والنفوس . ولكي لا يحسب قولنا مجرداً عن البرهان كما جاء قول المخالفين ، نعرضه بالدلة الآتية :

١ — ان القضاء في الاسلام . وان كان اختبر في مدة لم تبلغ القرنين . فليس يصح ان يقال فيه ، انه نقل عن الشريعة الرومانية ، ما دام لم يوضع دفعة واحدة . بل نما مع الحاجة وعلى الايام . حتى ولا ان يقال : انه استمد منها ، ما دامت مصادره معروفة : الكتاب ، والسنة صراحة او استنتاجاً او قياساً . ثم اضيف الى ذلك الاجماع .

فهل يصح في شرع عرفت مصادره ، و بينت فيه طرق الاستنتاج ووجوه القياس . ان يقال فيه : انه شرع نقل عن غيره او استمد منه ؟

٢ — ان التاريخ ذكر لنا ما اخذه العرب في النهضة العباسية عن غيرهم من الامم . من العلوم بعضها او كلها . كالفلسفة والطب والفلك والتنجيم ، وسائر العلوم الكونية . فعرفنا اسماء المترجمين والمربين . في كل فن وعلم . وعرفنا المصادر التي اخذوا منها . واللغات

التي نقلوا عنها . ولم يذكر انه حصل شيء من مثل ذلك في القضاء .

٣ — ان العلوم المنقولة بقيت عليها في لغتها . مسحة من الجملة . وفي مفرداتها الفاظ غريبة عن العربية . خلا هذا القضاء . فقد جاء عربياً صحيحاً مفرداً ومركباً . فاذا وقع فيه لفظ غريب . فليس اكثر مما هو في بعض الفنون العربية المجتة كالادب مثلاً . وهذه الالفاظ اكثرها فارسي . جاء به المؤلفون الفرس . ثم انتقلت منهم الى من اخذ عنهم . او كانت مما افنضته الصناعة والتجارة والزراعة .

٤ — اذا كان بين الشريعتين تشابه في بعض الاحكام ، فذلك ان الشريعة في كل امة تعتمد في مصادرها ايضاً على العرف والعادات ، والمالات الطبيعية . ويكثر ان تشترك كثير من الامم ، في كثير من هذه الامور . وليس ادل من ذلك مما عند اهل البداوة من الاحكام التي يكاد يكون بعضها ، كالعقوبات الموضوعة .

ثم لو صح ان تكون الشريعة الاسلامية استقت من القانون الروماني ، لما كانت سملت من ان يتسرب اليها او الى عقول اصحابها ، شيء من الخزعبلات التي كانت تجري في مواطن هذا القانون ، لذلك العهد وما بعده . كمثل محاكمة الحيوانات ، والقضاء عليها بغير او بتعذيب او بصلب . وكنيش الموقى بمعابكتها ، واصدار الاحكام عليها . وهذا ما تعالت عنه هذه الشريعة علواً كبيراً .

٥ — لو صح ان يكون القانون الروماني ، من مصادر الشريعة الاسلامية . لحق ان يكون موطن الاشتراع الاسلامي ، او احد مواطنه . — في اقل ما يكون — بلداً من البلاد التي كانت خاضعة لسلطان روما ، نازلة على احكام قانونها . وهذا ما لم يكن شيء منه .

وثمة وجه آخر لا يحذر السكوت عنه . وهو ان القانون المعروف بالقانون الروماني ، كان من قبل مشوشاً معقداً . لم يظهر بشكله الاخير الا بعد ان لايت الترجمة العرب في الاندلس ، واخذت العلم عنهم . وقد قال بهذا كثيرون واوردوا عليه أدلة عقلية ونقلية . ليس من غرضنا الآن ان نأتي بها . واذا نحن اؤنا بين هذين الرأيين : رأي القائلين بان الشريعة الاسلامية استقت من القانون الروماني — وهو رأي قد تكشفت مقائلته — ورأي القائلين : بان الشريعة الاسلامية هي التي امدت هذا القانون فصيرته ما هو .

لكانت كفة هذا الرأي هي الراجحة . ووجهة القائلين به ، أقرب للعقل . وأوزن في النقل .
لذلك نستطيع ان نقول : ان القضاء الذي نتكلم عنه ، هو قضاء لا اثر للنقل فيه .
ولا فضل في وضعه لغير ذويه . ولسلفه من قبله .

وسيدور بحثنا على أربعة أمور :

- (١) القضاء في العرب قبل الاسلام .
- (٢) القضاء ، والقضاء وما يؤخذ عليه .
- (٣) آداب القضاء والقضاة .
- (٤) مقارنة بين القضاء في الاسلام ، والقوانين في هذه الايام .

القضاء قبل الاسلام — كان العرب يسمون القضاء حكومة . والقاضي حكاماً .
ولم تكن الحكومة عملاً مستقلاً الا في قریش . فكانت عندهم في جملة المناصب الخمسة
عشر التي كانوا يتولونها قبل الاسلام . وكان ممن تولى الحكومة فيهم هاشم بن عبد مناف ،
وابنه عبدالله ، وابوطالب بن عبد المطلب ، والعاص بن وائل .
واما في سائر القبائل ، فقد كان الحكم صاحب الرأي فيها . فاذا وقع خصومة
احتكموا اليه ، فيفصل بينهم بما أوتيته من الحكمة والعقل ، وبما جرت عليه العادة .
كان كهم بن صبيح ، الذي كان بعد من رؤساء المحكمين . والحاجب بن زرارة ، والاقرع
ابن حابس في تميم .

وكانوا يرجعون ايضاً في خصومتهم الى الكهان . اذ كانت الحكومة تُدرج تحت
عملهم الذي هو الكهانة . كسطيح الذنبي ، المعروف بسطيح الكاهن . وشق انمار .
اما حيث كان يكون ملك او امير ، فكان اليه مرجع الامور كلها وفي جملة ما
الحكومة . الا ان بكل ذلك الى غيره .

وكانت الحكومة عندهم فطرية ساذجة ، كحالتهم الاجتماعية . ليس لها قوانين
موضوعة ، ولا شرائع متبعة ، الا ما كان من قبيل العرف والعادة . ولعل الحكومة
كانت محملة عندهم في القول المأثور عن قس بن ساعدة « البينة على من ادعى واليمين على
من انكر » وهو قول لم يبتدعه الرجل ابتداءً ، ولكنه استخلصه من الحكومة التي كانت

جارية في ايامه وقبلها . وهي انهم كانوا يسألون البينة من ادعى ، واليمين على ادعى
عليه .

القضاة . والقضاء في الاسلام — فلما جاء الاسلام ، ظلت الحالة في بادئ الامر
على ما كانت عليه من قبل . فلم يكن في ايام الرسول حكم غيره . وكذلك كانت
الامر ايام خليفته ابي بكر .

والسبب في ذلك ان الاسلام كان لذلك العهد قلاً ، منحصرأ في جنوبي الجزيرة .
وكان قد نفث في روع الناس آداباً سامية . وبعث فيهم أخلاقاً عالية . خلبت لب من
دخل فيه إعجاباً وافتناناً . وحركت قلوبهم رحمةً وحناناً . ومكنت عليهم عواطفهم .
فقلت الخصومات في تلك الفترة . وخف اعتدائهم هؤلاء الناس بعضهم على بعض .
وكان اذا وقع شيء من ذلك اختصموا الى صاحب الرسالة فيقضي بينهم ، او استأثروا
اصحابه ، ونزلوا عند فتياهم .

بل بلغ الامر فوق ذلك ، فكان الرجل اذا اجترم جاء من ذات نفسه ،
يقول : يا نبي الله : لقد كان مني كيت وكيت .

ان زماً هذا شأنه ، لا يحتاج الى قضاة اخصاء . ولا الى قوانين محددة .
بل كان حسب ما كان فيه . من كتاب الله وسنة نبيه .

فلما امتد سلطان الخلافة الى العراق والشام . واتسعت رقعة الملك . انشئت تلك
الصراحة التي كانت في نأناة الاسلام . بعد ان دخل فيه كثير من الاقوام رهبة
او رغبة . لذلك ، ولاشتغال الخليفة عمر بتدبير امر هذا الملك ، رأى ان يجعل
القضاء عملاً مستقلاً خاصاً . فعهد فيه الى ثلاثة تخرجهم من اهل الدين والعلم . فجعل
ابا الدرداء معه في المدينة . وبعث شريحاً الى البصرة . وولى ابا موسى الاشعري
بالكوفة . فكانوا اول قضاة في الاسلام ، كما كانت عمر — على اصح الروايات —
اول من دفع القضاء الى غيره .

وكتب عمر الى عمرو بن العاص ، عامله في مصر ، ان يولي على القضاء كعب

يوم كانت القضاة السابقون والخلفاء الراشدون، يحكمون كل حسب رأيه واجتهاد وقياسه، وكثيراً ما كانت تختلف احكامهم واقوالهم، لاختلاف في الآراء، او طرق الاجتهاد، او مناهج القياس.

وقد جاء في الوسيط :

« انقضى زمن الخلفاء الراشدين : ولم يدون فيه كتاب : الا ما كان من امر كتابة المصحف . وكان مرجع الناس في امر دينهم ودينهم كتاب الله وسنة رسوله . فاذا اشتبه عليهم امر من الامور ، رجعوا الى الخلفاء وفقهاء الصحابة ، او استخاروا الله فيه ، واستهضروا واجتهادهم رأياً وعملاً به . وقد كانوا لا يكتبون اقوال النبي - صلى الله عليه وسلم - وفتاوى الصحابة ، خشية ان يجرم ذلك الى الاعتماد على الكتب ، واهمال حفظ القرآن الكريم والسنة . ولان الكتاب عرضة للضياع والتصحيف والتخريف . »

« ثم لما حدثت الفتن ، وتعددت المذاهب والفعل ، وكثرت الاقوال والفتاوى ، والرجوع فيها الى الرجال والروايات ، وماتت اكثر الصحابة . خافوا ان يعتمد الناس على رؤسائهم ، ويتركوا سنة رسول الله . فاذا ن امير المؤمنين عمر بن الخطاب بن عبد العزيز لابن بكر محمد بن حزم - نائبه على المدينة في القضاء والولاية - ان يدون الحديث ، بعد ان استخار الله اربعين يوماً . فدون ما يحفظ عن الرسول في كتاب بعث به عمر الى الامصار . »

فلم يكن للقضاة الى ايام ابي جعفر المنصور مراجع مدونة ، يستمدون منها ويقيسون عليها ، غير القرآن وكتاب ابي بكر هذا .

فلما كان العصر العباسي ، نهض ابو جعفر المنصور نهضته المباركة . وجعل يحث الأئمة والفقهاء على تدوين الحديث والفقه . ولم يدخر وسعاً في الجوائز السنية في هذا السبيل . فمضوا فيما رغب فيه . واقبلوا على الجمع والتدوين والتصنيف في العلوم الاسلامية ، ومنها القضاء . وكانت القراءة والفقه والتفسير والحديث في اول الاسلام علماً واحداً . فجعلت تميز على توالي الايام ، الى ان اصبح كل علم مستقلاً عن الآخر . فلما استقل الفقه سمي اصحابه الفقهاء . وكانوا قبلاً يعرفون بالقراء ، تعظيماً لشأن القراءة التي كان يجيهاها العرب في اول امرهم .

قال العلامة ابن خلدون :

« وانقسم الفقه فيهم الى طريقتين : طريقة اهل الرأي والقياس ، وهم اهل العراق . وطريقة اهل الحديث ، وهم اهل الحجاز . وكان الحديث قليلاً في اهل العراق فاستكثر من القياس ومزجوا فيه ، فلذلك قيل لهم اهل الرأي ، ومقدم جماعتهم الذي استقر المذهب فيه وفي اصحابه ، ابو حنيفة . وامام اهل الحجاز ، مالك بن انس ، والشافعي من بعده . ثم دخل اهل الحجاز العراق . ونقلوا اليه الحديث . فتساوى الفريقان في معرفته . ونشأ عن ذلك عدة مذاهب . اشهرها : مذهب الشافعي ، ومذهب الحنيلي ، فكانوا والمذهبيين الاولين : الحنفي والمالكي ، والمذاهب الاربعة المشهورة ، التي رخصها الأئمة في امر دينها ودينهاها الى يومنا هذا . »

وجاء في الوسيط :

« اما الامام الاعظم ابو حنيفة (١) فقد اخذ كل علمه عن شافه الصحابة ونقل عنهم . واستنبط فقهه من القرآن الكريم . وما صح عنده من الحديث على قلته ، مع استعمال الرأي والقياس . »

« وتابعه في ذلك كثرة ائمة العراق لقلة رواية الحديث الصحيح بينهم . »

« واما الامام مالك (٢) فقد اعتمد في فقهه على الحديث . »

« والشافعي (٣) استنبط مذهبه من القرآن والحديث والقياس والرأي . فكان مذهبه وسطاً بين اهل الرأي من اصحاب ابي حنيفة . وبين اهل الحديث من امثال مالك واحمد . »

« واحمد بن حنبل (٤) استنبط مذهبه من السنة مشوباً بشي من القياس والرأي . »

المواطن التي انتشرت فيها هذه المذاهب

قال ابن خلدون :

« اما احمد بن حنبل . فمقلده قليل . لبعده مذهبه عن الاجتهاد واكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها ، وهم اكثر الناس حفظاً للسنة ورواية للحديث . »

واما ابو حنيفة فمقلده اليوم اهل العراق . ومسلمة الهند والصين ، وما وراء النهر وبلاد العم

(١) ولد سنة ٨٠ - وتوفي ١٥٠ (٢) ولد سنة ٩٥ - وتوفي سنة ١٧٩ (٣) ولد سنة

١٥٠ - وتوفي ٢٠٤ (٤) مولده سنة ١٦٤ ووفاته سنة ٢٤١

كلها لما كان مذهباً خاصاً بالعراق وكان تليذه (١) صحابة الخلفاء من بني العباس ، فكثرت تأليفهم ومناظراتهم مع الشافعية وحسنت مباحثهم في الخلافات وجاءوا منها بعلم مستظرف وانظار غريبة .

« واما الشافعي فقلده بصر أكثر مما في سواها ، وقد كان انتشر مذهب به بالعراق وخراسان وما وراء النهر . . . ثم درس ذلك كله بدروس المشرق واقطاره . »
« واما مالك فاختص بمذهبه اهل المغرب والاندلس . وان كان يوجد في غيرهم . الا انهم لم يقلدوا غيره الا في القليل . لما ان رحلتهم كانت غالباً الى الحجاز ، وهو مذهب سفرهم . والمدينة يومئذ دار العلم ، ومنها خرج الى العراق . ولم يكن العراق في طريقهم ، فاقصروا عن (٢) الاخذ عن علماء المدينة ، وشيخهم يومئذ وامامهم مالك ، وشيوخه من قبله وتليذه من بعده . فرجع اليه اهل المغرب والاندلس وقلده ديوان غيره ، ممن لم تصل اليهم طريقته . وايضاً ، فالبداوة كانت غالبية على اهل المغرب والاندلس ، ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لاهل العراق ، فكانوا الى اهل الحجاز اميل ، لمناسبة البداوة . ولذلك لم يزل المذهب المالكي غصناً عندهم ولم يأخذوا نتيج الحضارة وتهذيبها ، كما وقع في غيره من المذاهب »

هذا ما قاله العلامة ابن خلدون ، بياناً لمواطن هذه المذاهب الى يومه . وتعليلاً لانتشار بعضها دون بعض .

اما في يومنا هذا :

فان المذهب الحنفي ، منتشر في ما كان يعرف بالبلاد العثمانية الاوربية والاسيوية . وفي تركستان ، وهندستان ، وبلاد التتر .

والمذهب المالكي في المغرب كما اقضاه واسطه وامواه

والشافعي في مصر والهند .

والحنبلي في بعض بلاد العرب وفي مدينة بلخ

(١) لفظة صحابة وردت في النسخ الثلاث التي وقفنا عليها وهي مصدر في الاصل . فيجوز ان تطلق على المفرد . ولكن الكلام الوارد بعدها بصيغة الجمع ، يرشح كون تليذه وردت من خط النسخ ، وكان حقها ان تكون تلاميذه (٢) هكذا ورد في الطبعة البيروتية .

بقي ان ما اورده ابن خلدون ، تعليلاً لانتشار مذهب ابي حنيفة ومالك — مع ما فيه من وجوه الصواب — ليس بالسبب الذي استقل بهذا الامر . بل لعل السبب الذي اتى به الفيلسوف ابن حزم اوجه واقوى قال : (١)

« مذهبنا انتشر في مبداء امره بالرياسة والسلطان . مذهب ابي حنيفة : فانه لما ولي قضاء القضاة ابو يوسف يعقوب : صاحب ابي حنيفة . كانت القضاة من قبله . فكان لا يولي قضاء البلدان من اقصى المشرق الى اقصى افريقية الا اصحابه والمنتسبين اليه والى مذهبه . ومذهب مالك بن انس عندنا فان يحيى بن يحيى كان مكيناً عند السلطان مقبول القول في القضاة ، فكان لا يولي قاض في اقطار الاندلس الا بشورته واختياره . ولا يشر الا باصحابه ومن كان على مذهبه والناس سراع الى الدنيا . فاقبلوا على ما يرجون بلوغ اغراضهم به . على ان يحيى لم يزل قاضاً قط ولا اجاب اليه . وكان ذلك زائداً في جلالته عندهم : وداعياً الى قبول رأيه لديهم »

ومثل ذلك ما افق لمذهب الشافعي : من نصرة محمود بن سبكتكين ونظام الملائكة في بلاد المشرق . وصلاح الدين الايوبي في مصر

فلما وضع هؤلاء الائمة الاربعة قواعد الفقه . وقف الفقهاء بعدهم . ونظروا الى ما وضع كأنه قطعة من الوحي . لا يجوز تعديله ولا تبديله ولا الخروج عنه ولا الزيادة عليه . وصرفوا همهم الى وضع الشروح والتعليق والحواشي . على ما كانت كتب من قبل . فكان ذلك حجر عثرة في سبيل طلب الفقه : لما فيه من التطويل والعمل والابحاث العقيمة : مما يضيع على الطالب فكره ووقته .

ولم يقف ضرر هذه المطولات عند التشويش على الافهام : والتضييع في الاوقات . بل كان علة من علل الجمود والانحطاط . قال السيد عبد الله جمال الدين : قاضي قضاة مصر في كتابه « السياسة الشرعية » وهو يعدد اسباب الانحطاط :

« سادساً تمقق الابحاث وتضييع الكتب حتى خرجت بالشرعية الخفيفة السحواء عن الرفق والسذاجة »

(١) ابن خلدون .

وفي هذا الصدد والمعنى: يقول بن قيم الجوزية في كتابه «الطرق الحكمية»: «معتزلاً على الذين قصر واعقوا ولم واعملهم على ما كان من احكام السلف: غير مراعين تبدل الاحكام وتغير الازمان:

«وهذا موضع مزلة اقدام ومضلة افهام - وهو مقام ضحك - ومعتزك صعب فرط فيه طائفة فطروا الحدود وضيعوا الحقوق - وجروا اهل الفجور على الفساد - وجعلوا الشريعة قاصرة لا تقوم بمصالح العباد: محتاجة الى غيرها - وسدوا على نفوسهم طرقاً صحيحة من طرق - معرفة الحق والتبليغ...» ظناً منهم منافاة التواضع للشرع

وهو يقول في موضع آخر من كتابه المنوه به:

«ولقد كان عبد الله بن عمر اذا احتجوا عليه بآية يقول: ان عمر لم يرد ما نقولون فاذا اكثروا عليه قال: افرسول الله احق ان يتبع ام عمر؟

والمقصود: ان هذا وامثاله سياسة جزئية: بحسب المصلحة: تختلف باختلاف الازمنة - فظننا من ظنها شرائع عامة لازمة الى يوم القيامة»

ومن هذا الباب: ما ذكره الطحاوي قال: (١) «كان ابو عبيد علي بن حسين البغدادي قاضي مصر - بذكر في المسائل فاجبته يوماً في مسألة فقال لي: ما هذا قول ابي حنيفة - فقلت له: ابي القاسم او كما قاله ابو حنيفة اقول به - قال ما ظننتك الا مقلداً - فقلت له: وهل تقلد الا عصبي - فقال لي او غي - فطارت هذه الكلمة في مصر حتى صارت مثلاً»

وكان ابو عبيد من قبل يذهب الى قول ابي ثور ثم صار يختار - فجميع احكامه بمصر باختياره -

فقریب: انت يضيق الناس بعد ذلك على انفسهم هذا التضييق - فبرزوا ان ليس لهم ان يروا رأياً لم ينص عليه من سبقهم - ولا ان يستنبطوا حكماً لم يقل به من كان قبلهم - ولو انهم نظروا نظرة صادقة - لرأوا ان الاحكام انما توضع تبعاً للحاجة - ولو انه جاز للسلف ان يضع الخلف احكاماً في امور دنياهم ثابتة راسخة - لا تتغير ولا تبدل - لكان ذلك حقيقاً بأئمة الصدر الاول من الخلفاء الراشدين - بل بالرسول نفسه - اما وانهم لم يفعلوا ولم يفعل - فذلك ان لكل زمان حوادثه - ولكل حوادث احكامها

(١) اخبار القضاة

واهم مما قدمناه وادل على مخالفة الرأي حتى مع من هم فوق الأئمة والمجاهدين: ما جاء في كتب السير:

«اراد النبي - صلى الله عليه وسلم - في بعض الحروب ان يعطي نصف اثار نخيل مدينة لقبيلة من قبائل العرب لثلاثين مجاربوه مع فريش - فلما سمع السعدان: سعد بن عباد بن رئيس الخزرج، وسعد بن معاذ رئيس الاوس - قالاً: يا رسول الله - هل ذلك بوحى من الله ام رأي رأيته - قال بل رأي رأيته - فقالا: لا وحقك لا نعطيهم نصف ثمرة - فاجابهما الرسول الى ما رآيا -

ومن ذلك يعلم ان ما كان يراه الصحابة وجميع المسلمين واجب التنفيذ غير قابل للنقض والتغيير - انما هي السنة المنفذة للمنصوصات -

ومن هذا القبيل:

«ان القافة (١) دلت عليها سنة الرسول - وعمل خلفائه الراشدين - والصحابة من بعدهم منهم: عمر بن الخطاب وعلي بن ابي طالب وابو موسى الاشعري وابن عباس وانس بن مالك ولا يخالف لهم في الصحابة - وقال بها من التابعين: سعيد بن المسيب وعطاء بن ابي رباح والزهرى واباس بن معاوية وقتادة وكعب بن انس واصحابه - ومن بعدهم: الشافعي واصحابه واحمد واصحابه واسحق وابو ثور واهل الظاهر كلهم» فلم يمنع هذا الاجماع المتصل المتسلسل - باحنيفة واصحابه من بعده ان يخالفوه فيقولوا: ان العمل بالقافة تعويل على مجرد الشبه - وهو قد يقع بين الاجانب - ويختلف بين الاقارب - واحسن ما قيل في هذا الباب قول ابن عقيل:

«السياسة الشرعية ما كان فعلاً يكون معه الناس اقرب الى الصلاح والبعد عن الفساد - وان لم يضعه الرسول - ولا نزل به وحى - فان اردت بقولك - الا ما وافق الشرع - اني لم يخالف ما نطق به الشرع - فصحيح - وان اردت - انت لا سياسة الا ما نطق به الشرع - فغلط - وتغليط للصحابة -

لقد سمع المتأخرون تلك الاقوال التي فيها من الرخص والاستقلال ما فيها - ورأوا تلك الاحكام التي أقدم عليهم سلفهم مخالفة لسلفه - فلم يجروا مع هذا كله

(١) الطرق الحكمية - والقافة: الخافى الابن بابيه لمشابهته له -

على شيء من مثلها . وان قفت به حالة زمانهم . بل جبنوا عما ليس فيه مخالفة . ولكنه مجرد اجتهد في الرأي .

لقد خاف الائمة على الناس ان يذهبوا قبائل في آرائهم . وفسروا الشريعة حسب اهوائهم . فاحتاطوا للامريات جعلوا للاجتهد باباً محددآ لا يفتح على مصراعيه . ولكن الناس كانوا على انفسهم اشد تنقيهاً فصاروا الى ما صاروا اليه . واستمر القوم في جمودهم هذا وتقليد اعمى . حتى ضاقت حلقات الاحكام عن ان تتسع لحاجات الايام . والزمان تجدد احواله . والعالم تغير اوضاعه . سنة الله في هذا الكون . فاضطر السلطان عبد المجيد في ٢٦ شعبان سنة ١٢٥٥ هجرية . و ٣١ تشرين الثاني سنة ١٨٣٩ ميلادية . ان يصدر مرسوم الاصلاح المعروف (بخط كلفانة) . فانشئت منذ ذلك الزمن المحاكم النظامية مستقلة عن المحاكم الشرعية . واخذت الدولة تقلد اوروبا في قوانينها بل ترجمها قانوناً قانوناً . وفي كثير من الاحيان فصلاً فصلاً ومادة مادة . وانحصرت الاحكام الفقهية في المحاكم الشرعية وفي شاكلتها الحقوق ايضاً . غير انهم القوا من الاحكام الفقهية خلاصة موجزة . سموها « المجلة العدلية » ثم قيدوا ذلك وبنوا وجوه المحاكمة فيه ، بكتاب نقلوه عن الفرنسية — كما اكثر ما نقلوا من القوانين — عرف به (اصول المحاكمة الحقوقية) .

٣ آداب القضاء والقضاة — هذا مجال يقف فيه القلم عاجزآ . واللسان قاصراً . واي امريء معها أوتي من ضروب البيان . يستطيع ان يصف ما هو عليه هذا القضاء من العدل . وما كان عليه ذروه من قبل من النزاهة والفضل . وحسبنا ان نقول : انه قضاء هو العدل بعينه بل العدل نسخة عنه .

يكثر — في كل أمة وفي كل زمان — ان يدعي الناس لانفسهم كثيراً من فضائل الاخلاق وهم منها براء . وينسبوا لاوزاعهم الشرعية والاجتماعية انها المثل الاعلى في الكمال وهي اوضاع خرقاء . وقد ينفق ان تكون الانظمة عادلة فاضلة من حيث الوضع غصب . ويكون بين القائمين بها وبين العدل والفضل ما بين الشرق والغرب لذلك لا تنف عند ذكر ما اودعه هذا القضاء من الفضائل بل تتعداه الى ذكر

آداب القضاة انفسهم . حتى يعرف هذا الخلف العاثر حقيقة ذلك السلف الناهض فلقد شرطوا على القاضي ان يكون :

موثقآ به في عقافه وعقله وفهمه وصلاحه ، وعلمه بالسنة والآثار . وافقآ على المسائل الفقهية ، مقتدرآ على فصل الدعاوي . مهيبآ وقوراً . وحكيآ وجيهاً صبورآ . بنى الله ويقضي بالحق . ولا يقضي خوياً بضمه ، ولا لرغبة لغيره ، ولا لرغبة تزجره . لاصغيراً ولا معتوهاً ولا اعمى ولا اصم . وجعلوا من آدابه .

ان لا يطلب القضاء بقبابه ولا يسأله بلسانه . وان لا يكون فظاً غليظاً . بل شديدآ من غير عنف . ليناً من غير ضعف . وان لا يجلس للقضاء وحده ، لان ذلك يورث التهمة . وان لا يسلم ، ولا يسلم عليه في مجلس الحكم . وان لا يقدم رجلاً جاء غيره قبله .

وان لا يسار احد الخصمين ولا يشير اليه ، ولا بكلمة بلغة لا يفهمها خصمه . وان يقضي — اذا امكن — من غير ان يوغر الصدور وان يبين للمقضي عليه وجه قضائه . وواجبوا عليه رد الهدية . ولو تأذى المهدي بالرد ، يعطيه مثل قيمتها . ولو تعذر

الرد لعدم معرفته ، او لبعده مكانه . وضعها (اي القاضي) في بيت المال . ومن آداب هذا القضاء واصوله . انه جعل القاضي ضامناً اذا اخطأ . وهذا الضمان يكون تارة في بيت المال ، وهو اذا اخطأ في حد ترتب عليه تلف نفس او عضو . وتارة يكون في مال المقضي له ، وهو اذا اخطأ في قضائه في الاموال . وتارة يكون قدراً وهو اذا اخطأ في حد ، ولم يترتب على ذلك تلف نفس او عضو . كحد شرب مثلاً . وتارة يكون في مائة (اي مال القاضي) وهو اذا اعمد الجور .

وهذه قطعة من كتاب عمر (رض) الى ابي موسى الاشعري حين ولاء قضاء الكوفة . ولعله من امتع الكتب في هذا الباب . واجمعها لآداب القضاة والقضاء . « ان القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم اذا ادلي اليك ، فانه لا ينفع تكلم بحق لاننا ذله . وآس بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلك . حتى لا يطمع شريف في

حيثك ، ولا يأس ضعيف من عدلك ... لا يمنعك قضاء قضيتك امس ، فراجعت اليوم فيه عقلك ، وهديت فيه لرشدك ، ان ترجع الى الحق ، فان الحق قديم . ومراجعة الحق خير من التادي سيف الباطل ... واياك والقلق والضجر ، والتأفف بالخصوم ، فان استقرار الحق في موطن الحق ، يعظم الله به الاجر ، ويحسن به الذكر .

ومن ذلك ما كتبه الامام علي ، الى الاشر النخعي عامله في مصر :

« ثم اختر للحكم بين الناس ، افضل رعيته ممن لا تضيق به الامور . ولا تمحكه الخصوم . ولا يتأدى في الزلة . ولا يحصر من التي الى الحق متى عرفه . ولا تشرف نفسه على طمع . ولا يكتفي بادنى فهم دون اقصاه . اوقفهم في الشبهات . واخذهم بالحجج . واقلهم تبرماً . ترجع الخصم ، واصبرهم على تكشف الامور ، واصرمهم عند اتضاح الحكم . ممن لا يزدحمه اطرا . ولا يستميله اغراء ... ثم اكثر تعاقد قضائه . وافسح له في البذل ما يزيل عنه ، وثقل معه حاجته الى الناس . واعطه من المنزلة لديك ، ما لا يطمع فيه غيره . من خاصتك ، ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك »

هذه طائفة من الآداب ، التي اوجبها الشرع وحماته على القضاة . بقي علينا ان ننظر الى هؤلاء فترى ، اقاموا بحق هذا الامر ؟ ام كان غايته ان سطرته بطون الكتب وظل العمل به من قبيل الخيال ، او تصوير المحال ، شأب العالم شرقه وغربه ، في كثير من الامور ولا سيما ما يتعلق منها بالفضائل والآداب .

جعلوا من شروط التولية — كما سبق فذكرناه — ان لا يطلب القاضي القضاء بقلبه ولا يسأله بلسانه .

ولكن قضائنا السابقين ، لم يقفوا عند هذا الحد ، بل تحاموا القضاء . واحتملوا في ذلك كل عذاب وبلاء .

فلقد كتب عمر بن عبدالعزيز الى نائبه بالعراق وهو عدي بن اوطاة :

« ان اجمع بين اياس بن معاوية والقاسم بن ربيعة الحرشي . فول قضاء البصرة انفسهما . فجمع بينهما .

فقال له اياس : أيها الامير ! سل عني وعن القاسم فقيهي المصر : الحسن البصري ومحمد بن سيرين . وكان القاسم يأتيهما وأياس لا تأتيهما . فعلم القاسم انه ان سألهما أشارا به

فقال له لا تسأل عني ولا عنه ! فوالله الذي لا اله الا هو ان اياس بن معاوية افقه مني وأعلم بالقضاء . فان كنت كاذباً فما يحل لك ان توليني وانا كاذب . وان كنت صادقاً فينبغي لك ان تقبل قولتي . فقال له اياس انك جئت برجل وقفته على شئير جهنم فنجى نفسه منها بيمين كاذبة يستغفر الله منها ويخجو مما يجاز . فقال عدي بن اوطاة اما ان فقهتها فانبت لها . واستنقضاء « (١) »

واراد يزيد بن عمر بن هبيرة النزازي — امير العراقيين ، ايام مروان بن محمد آخر بني أمية — اباحنية على قضاء الكوفة ، فابى فضر به مائة سوط وعشرة اسواط : كل يوم عشرة اسواط ، وهو على الامتناع . فلما رأى ذلك منه خلى سبيله .

وقال الربيع :

« رأيت المنصور ، ينازل اباحنية في امر القضاء ، وهو يقول : انى الله ! ولا ترع في امانتك الا من يخاف الله . والله ما انا بمأمون الرضا ، فكيف اكون مأمون الغضب . ولوانته الحكم عليك ، ثم تهددني ان لغرقني في الفرات او تلى الحكم . لا خرت ان اغرق ، ولك حاشية يحتاجون الى من يكرمهم لك ، ولا اصلح لذلك . فقال له كذبت انت تصليح . فقال له : لقد حكمت لي على نفسك . كيف يحل لك ان تولي قاضياً على امانتك وهو كذاب ؟ (٢) » ثم دعي ابو حنيفة الى القضاء مرة ثالثة ، فقال حتى استشير اصحابي ، فاستشار ابا يوسف . فقال لو اقلدت لمنعت الناس فنظر اليه ابو حنيفة نظر المغضب وقال : ارايت لو أمرت ان اعبر البحر سباحة أ كنت اقدر عليه ؟ ومات وهو على الابهاء . ودعي محمد الشيباني الى القضاء فابى . حتى قيد وحبس واضطر فنقله .

وممن نفروا من القضاء عبد الله بن وهب بن مسلم اجتهد عباد بن محمد بن حبان والي المأمون على مصر سنة ١٩٦ ان يولييه قضاءها فاستتر منه . قال احمد بن عبد الرحمن وتغيب عني في منزل يحيى بن حرملة فهدم عباد بعض داره . قيل وسمع ابن وهب اثناء ذلك يقول : يارب يقدم عليك اخواني غداً علماء حلاء فقهاء واقدم عليك قاضياً لا يارب ولو قرضت بالمقاريض .

وكئن جمع آخاءه واهله فشاورهم فقالوا له : اعل ان يحيا الحق على يدك فقال لهم : (١) شرح مقامات الحريري للشرطي وابن خلكان (٢) ابن خلكان .

أكله في بطونكم اردتم ان تأكلوا ديني .

وحياة أراد على القضاء يزيد بن حاتم امير مصر من قبل المنصور فقال حياة : لست أفعل فافعل ما انت صانع . فتركه وولى ابا خزيمة الرعيبي وسمع حياة يقول بعد ذلك : ابو خزيمة خير مني اختبر فصيح ولم اختبر .

وسعيد بن ربيعة اخذ الوائد بن رفاعه بالقضاء فامتنع فقيل لسعيد : استعجم عليهم حتى يكون لنا عذر ففعل ولم يقض بين اثنين .

وسفيان الثوري ، كتب له المهدي عهداً على قضاء الكوفة ، وان لا يعترض عليه في حكم ، فرمى به في دجلة وهرب . وعلي بن معبد بن شداد العبدي عرض عليه المأمون قضاء مصر فابى . والحارث بن مسكين عرض عليه الفضل بن مروان وزير المأمون قضاء مصر فامتنع ثم اراده المتوكل على قضاء مصر فابى ايضاً فأكرهه اصحابه .

وفي هذا الاياه عن تولي هذا المنصب — على ما كان من رفعة وعظيم شأنه وسعة وظيفته — دليل على ما كان في قلوب هؤلاء الناس من التخرج والتأثم ، ان يشبهه لهم ، فيخرجوا في احكامهم عن محجة الحق والصواب . وتخوفوا على نفوسهم مما ناله الرسول (ص) : « من ولي القضاء ، فقد ذبح بغير سكين » . ولقوله :

« القضاء ثلاثة ، اثنان في النار وواحد في الجنة : رجل عرف الحق ففضى به فهو في الجنة . ورجل عرف الحق فلم يقض به وجار في الحكم فهو في النار . ورجل لم يعرف الحق ففضى للناس على جهل فهو في النار » .

اما وقد نوهنا بهذا النفر من ابو ان يتولوا القضاء فقد حق لنا ان نذكر قطعة من اخبار من ولي هذا الامر لتدل على مبلغ العدل من نفوسهم ، وكيف انهم تقيدوا بالآداب التي اشترطها عليهم القضاء تقيداً تاماً . وعدلوا عدلاً تقتصر المحمة عن ان تطلع الى ما وراءه . بل تعجز النفوس — مهما بلغ منها العدل — ان تطمع في مثله .

وقع خلاف بين امير المؤمنين ابي جعفر المنصور وزوجته ام المهدي بنت يزيد الحميرية — والغوث بن سليمان الحضرمي على قضاء مصر — فاستقدمه الخليفة وقال له :

« يا غوث ! ان صاحبكم الحميرية ، خاصمتني اليك في شروطها ، قال غوث : فقلت ايرضي امير المؤمنين ان يحكمني عليه ؟ قال نعم . فقلت : انت الاحكام لها

شروط أفرض عليها امير المؤمنين ؟ قال نعم . قلت يا امرها امير المؤمنين ان توكل وكيلاً وتشهد على وكالته خادمين حرين يعدلها امير المؤمنين على نفسه فتعمل . فوكلت خادماً وبعثت معه كتاب صداقها وشهد الخادمان على وكالتها . فقلت قد تمت الوكالة فان رأى امير المؤمنين ان يساوي الخصم في مجلس فانخط عن فرشه ، وجلس مع الخصم . قال غوث ودفع الي الوكيل كتاب الصداق ، فقرأه عليه وقلت . يقر امير المؤمنين بما فيه ؟ قال نعم . قلت ارى في الكتاب شروطاً مؤكدة بها تم النكاح بينكما ارايت يا امير المؤمنين ، لو خطبت اليهم ولم تشتط لهم هذا الشرط اكانوا يزوجونك ؟ قال لا . قلت فبهذا الشرط تم النكاح : وانت احق من وفي لما بشرطها (١)

وعن يحيى بن عبد الصمد قال :

« خوصم امير المؤمنين الهادي الى القاضي ابي يوسف في بستان . وكان الحكم في الظاهر للهادي وفي الباطن خلاف ذلك . فقال الهادي لابي يوسف — ما صنعت في الامر الذي نتنازع اليك فيه ؟ فقال خصم امير المؤمنين يسألني ان احلف امير المؤمنين : ان شهوده شهدوا على حق . فقال له الهادي وترى ذلك ؟ قال فقد كن ابن ابي ليلى يراه . فقال اردد البستان عليه . وانما احتال عليه ابو يوسف العله انت الهادي لا يحلف (٢)

وكان ابو يوسف على ما مر بنا قاضي الرشيد ، بل قاضي القضاة في ايامه . ولقد نال عنده المنزلة التي لا يتعلق بها درك . ومع هذا في فقد قضى عليه خصومة بينه وبين نصراني . وروي انه قال حين ادركته الوفاة :

« اللهم ! انك تعلم اني وليت هذا الامر فلم امل الى احد الخصمين ، حتى اقلب الا في خصومة نصراني مع الرشيد لم اسوء بينها وقضيت على الرشيد ، وبكي (٣) وشهد عنده يوماً من الايام ، الفضل بن الربيع وزير الخليفة فرد شهادته فعاتبه الخليفة في ذلك قائلاً : لم رددت شهادته ؟ قال :

« سمعته يقول لك انا عبدك فان كان صادقاً فلا شهادة للعبد وان كان كاذباً فكذلك » (٤)

(١) اخبار قضاة مصر (٢) الطرق الحكيمة (٣) حاشية ابي عابد بن (٤) ابن خلدون

واقبل صاحب خراسان يشهد عند ابياس فقال له : مالك وللشهادة ؟ انما يشهد
السوق . قال صدقت وانصرف ، فقيل له خدعك انه لا يقبل شهادتك . (١)
ولما ولي القضاء على مصر ، توبة بن عمر الحضرمي مستهل صفر سنة ١١٥ دنا
امراته عنيرة الاشجعية وقال لها : (٢)

يا ام محمد ! اي صاحب كنت لك ؟ قالت خير صاحب واكرمه .
قال فاسمعي ! لا تعرضن لي في شيء من القضاء ولا تذكرني بخصم ، ولا تسألني عن حكومة ،
فان فعلت شيئاً من هذا فانت طالق . فلما ان انتهت مكرمة ، واما ان تذهبي ذميمة . «
فكانت ترى دوائه قد احتاجت الى الماء فلا تأمر بها ان تمد ، خوفاً من ان يدخل
عليه في يمينه شيء .

وشروط محمد بن صالح الهاشمي العباسي لما ولي قضاء القضاة ببغداد وأضيف اليه
قضاء مصر والشام وغيرها ، شروطاً منها ان لا يتناول على القضاء أجراً ولا يقبل شفاعة
في فعل ما لا يجوز ولا في اثبات حق .

وقد بلغ من استقلال القضاة في آرائهم ، وعدم انقيادهم الى اصحاب الشأن والسلطان
ان احدهم كان يربأ بنفسه ، ان ينزل على امر سلطانه ، اذا خالف معتقده . فقد ذكرنا
عن احمد بن طولون صاحب مصر انه كان يبائع في اكرام قاضيها بكار بن قتيبة الثقفي ،
حتى انه كان يدفع له كل سنة الف دينار غير المقرر له . فكان بكار يتركها بيمينها ولا
يتصرف فيها . فلما دنا من الخلع الموفق بن المتوكل ، وهو والد المعتضد ، من ولاية العهد .
امتنع بكار (٣) فاعتقله احمد ، ثم ضالبه بجملة المبلغ الذي كان يأخذه كل سنة ، فحمله

(١) العقد القريب (٢) اخبار القضاة (٣) وفي ذيل اخبار القضاة ان بكاراً اجاب
الى خلع الموفق من ولاية العهد وسماه الناكث واشهد على نفسه هو وسائر قضاة الشام والثغور
ولكنه امتنع عن لعنه وكان احمد قد امر به . فألح عليه فاصر بكار على الامتناع الى ان قال
الا لعن الله على الظالمين . فقال ابن مطاطبا وكان تقيب الطالبين بمصر : ايها الامير انه
عاداك . فغضب احمد وامر بتزيق ثيابه وجروحه برجله وليس عليه الاسراويل وخنان
وقلنسوة ، مسلوب الثياب ثم حمل من بين يديه الى السجن . واقامه للناس بظالمونه بمظالم
بدعوتها عليه وكان الطحاوي يقول ما تعرض له احد فافلح بعد ذلك .

اليه يجتمع ، وكان ثمانية عشر كيساً . فاستخى احمد منه . وكان يظن انه اخرجها
وانه يميز عن القيام بها . (١)

هذا قليل من كثير عن عدل هؤلاء القضاة ومتين اخلاقهم ، وانى يخاف امرؤ
ان يضيع عندهم حقه وهم وهم وحالم ماراً بتامع الخلفاء واصحاب السلطان الذين اليهم مرجع
الامر . بقي ان نرجع بصراً قليلاً الى ذلك العهد . لنترى ما هي الاسباب التي سمت بهذه النفوس
فرفعت الى ذلك المستوى الباذخ . حيث نزعته عن الاغراض وتجردت عن المآرب .
ان ذلك يرجع الى اسباب عدة . منها :

- ١ — الفطرة الخالصة التي كان قريباً عهدها .
- ٢ — الدين وما كان من اثره في النفوس من حيث التربيته الدينية والدينية .
- ٣ — ما كان عليه ذوو السلطان : خلفاء وامراء ولا سيما في الصدر الامر ،
من العدل الصحيح الذي كان مثلاً لقضايتهم وللمذين جاوراً من بعدهم على الاثر .
- ٤ — ما كانت عليه الامة من الانفة ان تستكين الى جور او لئام على مظلة .
- ٥ — تخير القضاة من رجالات لهم من ابناء النفس وشرف البيت وصحيح
العلم ، ما يخافون معه على عرضهم ان يناله لسان بحق .
ونحن نقص على مسامعكم شيئاً يؤيد ما قلناه .

« جاءت عمر بن الخطاب برود من اليمن . ففرقها بين المسلمين . فخرج في نصيب
كل رجل برود واحد . ونصيب عمر كنصيب واحد منهم . قيل ، واعتلى عمر المنبر
وعليه البرد وقد فصله قيصاً . فندب الناس الى الجهاد . فقال له رجل لا سمعاً ولا
طاعة . قال عمر : ولم ذلك ؟ قال الرجل . لانك استأثرت علينا : لقد خرج في
نصيبك من البراد اليمنية برود واحد ، وهو لا بكيفيك ثوباً ، فكيف فصلته قيصاً .
وانت رجل طويل ؟ فالتفت عمر الى ابنه قائلاً : اجبه يا عبدالله . فقال عبدالله لقد
ناولته من بردي فاتم قيصه منه . قال الرجل : اما الآن فاستمع والطاعة (٢) . »

وحديث من اراد ان يقوم اعوجاجه بمجد سيفه مشهور .

ولما ضرب ابن ملجم علياً جمع الامام ابناءه وقال لهم :

(١) ابن خلكان (٢) الفخري .

« يا بني عبد المطلب ! لا التينكم تخوضون دماء المسلمين خوفاً ، تقولون : قتل امير المؤمنين الا لا تقتلن في الا قتالي . انظروا اذا انامت من ضررته هذه ، فاصروه ضررة بضررة . ولا يمثل بالرجل . فاني سمعت رسول الله — صلى الله عليه وآله وسلم — يقول : اياكم والمثلة ولو بانكأب العقور . »
ودخل علي بن ابي طالب مع خصم له ذمي ، الى القاضي شريح فقام له . فقال : « هذا ابل جورك »

وشكته ذمية الى عمر بن الخطاب فقال له قم يا ابا الحسن الى خصمك فقام مغاضباً فقال له وقد قضى بينها — اساءك يا ابا الحسن ان ادعوك الى خصمك رانت مكذوب عليك ؟ قال كلا يا امير المؤمنين لم يسوفني هذا وانما ساءني ان تدعوني يا ابا الحسن ، لعل الخصم يداخله شيء من الرعبة او التخط ان كنت كشيئتي .
ومثل ذلك ، ما وقع للأمو ، في قضية رفعتها اليها امرأة على ابنه العباس في حديث طويل مشهور . ونحن نجتزئ بهذا القدر حتى لا يطول نفس الكلام .
ولقد بلغ من تحفظ اولياء الامر والقضاة ، انهم رأوا ان قضاء احدهم بعلمه موجب للتهمة ، فجعلوا يتصرفون عنه فلقد روي عن ابي بكر انه قال : لو رأيت رجلاً على حد من حدود الله لم آخذه حتى يكون معي شاهد غيري .

وعن الفحاك ان عمر اختتم اليه فيما يعرفه فقال للطالب ان شئت شهدت ولم افض وان شئت قضيت ولم اشهد وعن الشعبي انه قال : لا اكون شاهداً وناصبياً (١)

٤ ما يأخذونه على القضاء — اكثر ما يأخذونه على هذا القضاء — حتى بالنسبة الى الصدر الاول —

الشهادة : فيما يتعلق بالمرأة ، وبغير المسلم

١ شهادة المرأة : يقولون : ان القضاء الاسلامي امتن المرأة وصغر من شأنها اذ جعل شهادتها على النصف من شهادة الرجل

ومن نظر نظراً صحيحاً رأى ان ذلك لم يكن احتقاراً لها ولأنها اعجز في ذاتها من

(١) الطرق الحكيمة

الرجل — واقل ثقة منه . بل لان النساء يتعذر غالباً حضورهن بمجلس الحكم . وحفظهن وضبطهن دون حفظ الرجال وضبطهم . قال ابن قيم الجوزية : « انا لانسلم ضعف شهادة المراتين اذا اجتمعتا . ولهذا يحكم بشهادتهما مع الرجل . وان امكنه ان يأتي برجلين . فالرجل والمرأتان اصل لا بدل ، والمرأة كالرجل في الصدق والامانة والديانة . الا انها لما خيف عليها السهو والنسيان ، قويت بثقلها . وذلك قد يجعلها اقوى من الرجل الواحد او مثله . ولا ريب ان الغن المستفاد من رجل واحد دونها ودون امثالها . »

وقبل كثير من ائمة الفقهاء ، شهادة النساء ليس معهن رجل . ولقد سئل الامام احمد في الرجل يوصي ولا يحضره الا النساء ؟ قال أجزى شهادة النساء . فظاهر هذا انه يثبت الوصية بشهادة النساء على الانفراد اذا لم يحضره الرجال .

وذكر الجلال عن احمد : انه سئل عن الرجل يوصي بأشياء لا قاربه ويعتق ، ولا يحضره الا النساء هل تجوز شهادتهن ؟ قال نعم تجوز شهادتهن في الحقوق .

وقد حكموا بشهادة امرأتين و يمين المدعي . في الاموال وحقوقها وهذا مذهب مالك . فانظر ! اين هذا من قول العابثين على هذا القضاء ازدراء والمرأة ثم ليس هذا الذي يأخذونه على هذه الشريعة . يرد على غيرها من الشرائع والقوانين ؟ أليست هذه الشهادة هي اليوم ايضاً موضع بحث رجال القانون في اوربا ؟

وهذا المسيو (كيلر) المحامي امام محكمة باريز الاستثنائية ، عقد في كتابه (السر في خطأ القضاء) فصلاً خصيصاً للمرأة ابان فيه ما يعرض لها من الوهم . وما ينبعث عن ذلك من الخطأ في الحكم . وتوسع في ذلك توسعاً لا يقف عند تحديد شهادة المرأة . ولكنه يقضي على هذه الشهادة من حيث هي .

٢ شهادة غير المسلم : اما شهادة غير المسلمين على المسلمين . فقد غلب فيها المنع . لانه اشترط في الشاهد ان يكون عدلاً ، ولما كان لكل دين آداب خاصة . فقد يكون العدل في دين ، غير عدل في دين آخر . وعلى هذا استند القائلون بانه « اذا اختلفت الملل لم تجز شهادة بعضهم على بعض » (١)

(١) روى ذلك بن ابي شيبة عن ابن عيينة بن يونس عن الحسن .

يؤيد ما قلناه ان القضاء كانوا يقبلون شهادة النصارى على النصارى واليهود على اليهود ويسأل عن عدالتهم في اهل دينهم (١) ولكن هذا المتع لم يكن جازماً بآناً في كل حالة . فلقد قال مالك « تجوز شهادة الطبيب غير المسلم على المسلم للحاجة » (٢)

وفي الكتاب الكريم سورة المائدة : « يا ايها الذين آمنوا شهداء بينكم اذا حضر احدكم الموت حين الوصية اثنان ذوا عدل منكم . او آخران من غيركم ان انتم ضربتم في الارض » قال ابن قيم الجوزية : في كتابه (الطرق الحكيمة)

« قال شيخنا رحمه الله : وقول الامام احمد في قبول شهادتهم (يريد غير المسلمين) في هذا الموضع هو ضرورة ، يقضي هذا التعليق قبولها في كل ضرورة : حضراً وسفراً وعلى هذا لو قيل : يحلفون في شهادة بعضهم على بعض ، كما يحلفون في شهادتهم على المسلمين في وصية السفر لكان متوجهاً . ولو قيل : لقبول شهادتهم مع ايمانهم ، في كل شيء عدم فيه السلون . لكان له وجه . ويكون بدلاً مطلقاً . »

فيرى النصف ، ان امر هذه الشهادة ، سواء أ كان في حق المرأة ؟ ام غير المسلم ؟ لم يجزى ازدراء وتعصبا ، ولكن كان له مواضع خاصة . وعلل واسباب لا ينكرها امرواوتي الرشد والنصف .

وهل ادل على ان هذا الشرع ، انما شرع للعدل المطلق ، وان الاولين لم يقيدوه بقيود تخرجه عن الطريق اللاب والصراط القويم ، من قول ابن قيم الجوزية : « والمقصود ، ان البيئة في الشرع تكون اربعة شهود . وتارة ثلاثة بالنص في بيعة المجلس . وتارة شاهدين . وشاهداً واحداً . وامراً واحدة . ونكولاً ويميناً . او خمسين يميناً . او اربعة ايمان . » الى ان يقول :

« فاذا ظهرت امارات العدل . واسفر وجهه باي طريق كان . فتم شرع الله ودينه . والله سبحانه اعلم واحكم واعدل من ان يخص طرق العدل وامارته واعلامه بشيء . ثم بني ما هو اقوى دلالة ، وابين اماره . »

(١) اخبار قضاة مصر (٢) ابن قيم الجوزية .

٤ القضاء في الاسلام ، والقوانين في هذه الايام — جاء هذا القضاء بكثير من الاصول والاحكام التي يزعم اكثرنا انها كانت مجهولة لولا القوانين الحديثة . واذا كان في هذا الشرع الذي اقبل بابه منذ مئات من السنين ، نقص عن حاجات هذا الزمن ، فان فيه كثيراً مما يوافقها ، بل فيه ما قصرت عن مثله هذه القوانين . واليك أدلة على ما نقول .

الادعاء العام — فوض القانون الى المدعي العام ، ان يتابع الجرائم ، فيقيم الدعوى على فاعلها . وان يدافع عن الحق العام . ويخاصم كل من يعيث به . وهو يكاد يتدخل في كل دعوى جزائية . واما في الدعاوي الحقوقية . فقد نص على خطته في المادة (٦٥) من اوضاع المحاكم النظامية . وخلاصتها : انه يتدخل في كل ما يندرج تحته اسم الحق العام ، صراحة او ضمناً . كأموال الدولة ، والمؤسسات العامة ، وصكوك الوصية التي تعود لجهة البر . ورد الحكم . والشكوى منهم . ودعاوي من هم فيد الوصاية ، والغائبين . الخ

وهذه الخطة لم يغفل الشرع امرها . وقد سماها الاصوليون حقوق الله . وعرفوها بانها ما تعلق نفعه بالعام ، ويجب على ولي الامر اقامتها : مثل جزاء السارق ، وقاطع الطريق ، واللص وغيرهم من اهل النسق والفجور . قال ابن تيمية في كتابه (السياسة الالهية) مانعه :

« الحدود والحقوق هما قسمان : فالاول الحدود والحقوق التي ليست لقوم معينين بل منفعتهما لعمامة المسلمين ، او نوع منهم ، وكلهم يحتاج اليها وتسمى حدود الله ، وحقوق الله مثل : حد قطاع الطريق ، والسراق ، والزناة ونحوهم . ومثل الحكم في الاموال السلطانية ، والوقوف ، والوصايا التي ليست لمعين . فهذه من اهم امور الولايات . » ففي هذا الكلام خطة المدعي العام . فالشق الاول حدد وظيفته في الامور الجزائية . والشق الثاني اشار الى ما ينبغي عليه في الامور الحقوقية « المدنية » وهي تكاد تكون — ووظيفته في هذه الايام — وظيفة واحدة . ثم قال :

« وهذا القسم (اي الحد الذي يتعلق به حق الله) يجب على الولاة البحث عنه . واقامته من غير دعوى احده . وكذلك لنظام الشهادة فيه من غير دعوى احده . وان

كان الفقهاء قد اختلفوا في قطع يد السارق، هل ينظر الى مطالبة المسروق بماله . لكنهم متفقون على انه لا يحتاج الى مطالبة المسروق بالحد . بل اشترط بعضهم المطالبة بالمال ثلاثا يكون للسارق فيه شبهة .

تريد على ذلك ان المدعي العام يستوفيه في القوانين التي نقلنا قوانيننا عنها (وكيل الامبراطور) او (وكيل الملك) . فهم قد جعلوا هذا الحق الى ولي الامر وكذلك هو الشرع الاسلامي واذا كان الامبراطور او الملك ، قد وكل عنه من يتولى خطة الادعاء العام . فقد سبق للخلفاء ففعلوا ذلك ، وسموا وكيلهم في هذا الشأن صاحب الشرطة . وجعلوا اليه المطالبة بحق الله . وهي ما قلنا عنها انها الحق العام نفسه . وكما ان المادة ال ١٥٥ من اصول المحاكمة الجزائية ، فوضت الى المدعي العام ، ان يطلب تنفيذ الحكم من الجهة التي تعلق به ، فكذلك كان امر صاحب الشرطة في تنفيذ الاحكام .

الحق الخاص والعام — ليس رجوع المدعي عن دعواه بموجب ، في ما يتعلق به الحق العام — الا في امور معينة — وكذلك في الشرع لم يجعل رجوع المدعي عن دعواه سببا يترك من اجله او الحق الالهي الذي هو الحق العام جاء في (السياسة الالهية) : « وفي الصحيحين عن عائشة (رض) ان قرينا منهم شأن الخزومية التي سرقت . فقالوا من يتكلم فيها عند رسول الله (ص) فقتل : ومن يجترئ عليه الا اسامه بن زيد . قال يا اسامه ! اتشفع في حد من حدود الله ؟ انما هلك بنو اسرائيل انهم كانوا اذا سرق منهم الشريف تركوه . واذا سرق فيهم الضعيف اقاموا عليه الحدود . والذي نفس محمد بيده ، لو ان فاطمة بنت محمد سرقت . لقطعت يدها . »

ومثل ذلك ما رواه ابن نجيبة ، في كتابه هذا قال :

« كان صفوان ابن امية نائما على رداء له . فجاءه لص فسرقه . فأتى به الرسول . فامر بقطعه . فقال يا رسول الله . اعلى ردائي لقطعه ؟ اني اهبه . قال فها قبل ان تأتيني الاستنطاق — وكذلك يقال عن الاستنطاق ، فلقد كان الامام علي اول من اجراه على ما يقرب من اصوله الحاكمة ، بل على هذه الاصول عينها . ذلك ان شابا شكاه اليه فقَالَ :

« ان هؤلاء خرجوا مع ابي في سفر ، فعادوا ولم يعد ابي . فسألتهم عنه فقالوا مات . فسألتهم عن ماله فقالوا ما ترك شيئا . وكان معه مال كثير . وتوافعنا الى شريح ، فاستخلفهم وخلي سيولهم (١) فدنا علي بالشرط فوكل بكل رجل رجلين . واوصاهم ان لا يمكنوا بعضهم ان يدنوا من بعض ، ولا يمكنوا احدا يكلمهم . ودنا كاتبه . ودنا احدهم فقال : اخبرني عن ابي هذا الفتى ، اي يوم خرج معكم وفي اي منزل نزلتم ، وكيف كان سيركم ، وبأي علة مات ، وكيف اصيب بماله ؟ وسأله عن غسله ودفنه . ومن تولى الصلاة عليه وابن دفن ؟ ونحو ذلك . والكاتب يكتب . ثم دنا آخر بعد ان غيب الاول عن مجلسه ، فسأله كما سأل صاحبه . ثم الآخر كذلك حتى عرف ما عند الجميع فوجد كل واحد منهم يخبر بضد ما خبر به صاحبه . فضيق عليهم . فاقرروا بالقصة . فاغرمهم المال ، واقاد منهم بالقتيل . »

التفريق بين الشهود — وكان الامام علي ، يفرق بين الشهود ، ويستشهد كلا على حدة . وهذا وفاق المادة القانونية القائلة « ان الشهود يؤدون الشهادة فردا فردا » السجن بالدين — وكان لا يحبس بالدين ، ويقول انه ظلم — الا ان يظهر بقربنة انه قادر مماطل — وهذا ما جرت عليه القوانين الحديثة . وكذلك كان خير بن نعيم الحضرمي قاضي مصر يسجن بالديون ثم يكشف عن امره اذا ادعى العدم فان شهد له به اطلقه من ساعته .

الاوراق الرسمية — ان الاصول الحديثة ، تعد المحاضر والاعلامات والاوراق الرسمية صحيحة ، الى ان يثبت تزويرها . وهذا ما كان يفعله القضاة . فقد قال ابن قيم الجوزية :

« وقد كان القاضي يجيز كتب غيره من القضاة ، بغير محضر الشهود . فان قال الذي

جاء عليه بالكتاب ، انه زور . قيل له : اذهب فالتمس الخرج من ذلك »

الترجمان — في اصول المحاكمة الجزائية المادة ال (٢٨٦) ما نصه :

(١) وفي لسان العرب : ورفع الى علي رضي الله عنه امر رجل سافر مع اصحاب له فلم يرجع حين قفلوا الى اهل بيته فأتته اهل اصحابه فرغموا الى شريح ففصل الاولياء البيت فخرجوا عن اقامتها . واخبروا عليا بحكم شريح فتمثل بقوله :

اوردها سعد وسعد مشتمل باسعد لا تزوي بهذاك الابل

« اذا لم يحسن المتهم أو الشهود أو احدهم ، التكلم باللسان الذي يتكلم به الآخرون . فربس الحكمة يعين ترجماناً رسمياً يكون له من العمر لا أقل من إحدى وعشرين سنة . ويحلف انه يترجم واقع الحال الخ . »
وفي الفتح : اذا كان الحاكم يعرف لسان الخصم يكفي له ترجمان واحد . فاذا لم يعرف لسانه فلا يقبل فيه الا عدلان كشهادة »

وفيه من مالك : « ويشترط في الترجمان ان يكون ثقة ، عدلاً ، أميناً ، عفيفاً . »
فالشروط التي اشترطها الشرع أشمل الاغراض التي رعى اليها القانون ، ونفصها من وجوه .
انواع الجرائم — جعل الفقهاء الجرائم وعقوباتها على نوعين :

« العقوبة المقدرة للجرائم الكبيرة . وهي تكون بالقود والقصاص والحد — ويغلب عليها اسم الجناية — والعقوبة غير المقدرة لما دون ذلك . ويرجع امر تقديرها للحاكم . ويكون التأديب فيها : بالحبس أو الضرب أو الصفع أو الكلام العنيف وما أشبه . وأطلق بعض الفقهاء عليها اسم الزلة — وكذلك قسموا القتل الى عمد وشبه عمد وخطأ . وعرفوا كلاً منها تعريفاً جليلاً »

درجات الحاكم — جعلت القوانين الحاكم درجات ، صيانة للعدل .

« وكان الامام علي قدائشاً ديواناً سمي (ديوان المظالم) كان يلجأ اليه المتظلمون من الاحكام التي تصدر عليهم . وتابعه في ذلك بنو أمية ثم بنو العباس . غير ان عبد الملك بن مروان أفرد لهذا الديوان يوماً . ولوماً يتصنع فيه قصص المتظلمين وكان اذا وقف منها على مشكل رده الى قاضيه ادريس الاودي فينفذ فيه الحكم . وكان ادريس المباشر وعبد الملك الأمر (١) . وكان سائر الخلفاء . بن من يجلس هذا المجلس بنفسه ، كما فعل علي بن ابي طالب وعمر بن عبدالعزيز من بني أمية والمهدي والهادي والرشيد والمأمون ثم المهدي من بني العباس .

وفي المنهج السلوك : لما أفضى ملك الشام الى الملك العادل نور الدين بن زنكي بنى له داراً في قلعة دمشق سماها دار العدل ، فكان يجلس فيها فيتصفح قصص المظلومين ويفصل بين المتنازعين ولديه الفقهاء وأئمة الدين فيرجع اليهم ما أشكل عليه من أمور الشرع (٢) .

(١) المنهج السلوك (٢) المنهج .

وبين من يكله الى قاضيه »

الظنين واليمين — حظرت القوانين ان يحلف الظنين او المتهم . وعدت ذلك أثراً من آثار العجبية . لان الرجل يقف عندئذ بين احدي خطتين : كذب كاسر من نخوته ، او صدق مضيع لحيته ، متلف لنفسه .

وقديماً قال ابن القيم الجوزية ، في كتابه (الطرق الحكيمة) :

« وقد استثنى من التحليف في الحدود صور ثلاث : احداها اذا قذفه فطلب حد القذف . فقال القاذف حلفوه انه لم يزن فذكر أصحاب الشافعي فيه وجهين . والصحيح قول الجمهور انه لا يحلف ، بل القول بتخليفه سيغاية السقوط . فان الحد يجب بقذف المستور ، وليس من شرطه ان لا يكون قد اتى الفعل في نفس الامر . ولهذا لا يسأله الحاكم عن ذلك ولا يجوز له سؤاله . ولا يجب عليه الجواب . وفي تخليفه تعريضه للكذب واليمين الغموس ، ان كان قد ارتكب ذلك . او تعريضه لفضيحة نفسه ، واقراره بما يوجب عليه الحد . او فضيخته بالنكول الجاري مجرى الاقرار . »

ادنام العقاب — لما ارتقت الهيئة الاجتماعية رقت قوانينها — فكان من وراء ذلك ان جعلت الجزاء اصلاً وتأديباً . لا انتقاماً وتعذيباً — وجاءت المادة ال (٢٩٩) من اصول المحاكمة الجزائية نقول في شقها الثاني :

« اذا ارتكب المتهم عدة جنائيات وجنحات معاً . فتحكم بالجزاء المعين للجرم الاشد عقوبة »

ومثل ذلك ما قاله ابو يوسف في كتابه (الخراج) .

« وان لم يكن القاذف ضرباً للاول حتى قذف آخر ، فانه يضرب لها جميعاً حدّاً واحداً . »
« فان كان القاذف عبداً ، ضرب حد العبد اربعين . فان لم يكن ضرب بعد ما قذف حتى أعتق ، ثم قدمه الى الحاكم فانه لا يزيده على الاربعين لانها هي التي كانت وجبت عليه يوم قذف »
وهذا وفاق ما ننظر اليه الاصول الحديثة ، اي الى الحالة التي كان عليها الجرم يوم وقوع الجرم « فان لم يكن ضرب بعد العتق ، حتى قذف آخر . ضرب الاول وللثاني ثمانين . اي انه عوقب للجرمين بعقوبة أشدهما فقط . وكذلك لو ضرب من العبد اسواطاً ، ثم قذف آخر . كمل له الحد فقط . ويحتسب بهامض . ولا يضرب ثمانين مستقلة ما بقي من الحد سوط . فان كملت له الثمانون ، ثم قذف آخر . ضرب لذلك ثمانين أخرى بعد ان يجلس حتى يخف الضرب »

« وكذلك لو سرق غير مرة ، قطع مرة واحدة لتلك السرقات كلها . »
السرقه وانواعها — المادة (٢٣٠) من قانون الجزاء ذيل جعلت احدى فقراته للسرقة
 وسوء الاتقان واخذ المال بالحيلة مما يقع على الاشياء الخسيسة . عقوبة دون غيرها .
 « وفي الشرع لا يقطع السارق في الشيء النافه » وفي الحديث لا قطع في البغرة
 وهي اخذ الشيء اختلاساً .

فيكون الشرع جعل الاختلاس أخف عقوبة من السرقة . وهو ما جرت عليه القوانين
 الحديثة . اذ ثبتت على السرقة لقطع (اخذاً ونشلاً) جزاء اخف من السرقات العادية .
 ومن هذا القيل القيل الترق بين السرقة لقطع في مكان محرز ، وبينها لقطع في مكان غير
 محرز . فواجبوا القطع في الاولى فقط . وهذا وفاق لتقسيم السرقة الى جنائية وهي
 ما صاحبها خلع او كسر او فتح بآلة خصيصه . والى جنحة وهي السرقة العادية .
 على انهم اشترطوا في القطع ان تبلغ قيمة المسروق عشرة دراهم فصاعداً . وهذا
 القيد خير من الاطلاق الذي جرى عليه القسانون . لان رجلاً يدفعه الجوع فيفتح
 باباً يفتح او آلة فيسرق رغيفاً يدافع به الموت عن نفسه كما كان يقع ايام الحرب .
 يكون من الجنائية ان بعد فعله جنائية .

السرقه بين الاصول والفروع — في قانون الجزاء .

« اذا اخذ الزوج او الزوجة مال الآخر في حالة الاجتماع او الافتراق . او اخذ الاولاد
 وسائر الفروع مال آبائهم وامهاتهم وسائر اقربائهم من الاصول . او اخذ الآباء والامهات
 وذوي القرى من سائر الاصول مال الاولاد وسائر الفروع . يسترد المأخوذ ويعطى
 لاصحابه . »

وقال ابو يوسف في كتابه (الخراج) :

« ولا يقطع احد بسرقة من ابيه . ولا من أمه . ولا من ابنه . ولا من اخيه . ولا من أخته
 ولا من زوجته ، ولا من ذي رحم محرم منه . ولا يقطع المرأة في السرقة من مال زوجها . »
المحاولة — جعل القانون لمن صمم على جنائية — ثم حالت اسباب قاهرة دونها —
 عقاباً خاصاً هو دون ما يترتب على تلك الجنائية لو انها خرجت الى حيز الفعل . وهذا
 ما يفتن له الفقهاء من قبل . فقد قال ابو يوسف في كتابه (الخراج) :

« ومن وجد قد نكب داراً او حانوتاً . ودخل فجمع المتاع ولم يخرج به . حتى
 ادرك . فليس عليه قطع . ولكنه يوجع عقوبة ، ويحبس حتى يحدث توبة . »
 ومثل ذلك ما قاله ابن نجيبة في كتابه (السياسة الالهية) .

« واما اذا اشبهوا السلاح ، يريدوا لاعراب وفسقة الجند وغيرهم (ولم يقتلوا نفساً ،
 ولم يأخذوا مالاً . ثم اغمدوه او هربوا . وتركوا الحرب . فاقبضهم بنفون . واختلفوا في النبي
 فقيل هو تشريدهم فلا يتركون في بلد . وقيل هو حبسهم ، وقيل هو ما يراه الامام اصلحة من
 في او حبس او نحو ذلك . »

المشاركة — جاء في المادة (٤٥) من قانون الجزاء :

« اذا ارتكب عدة اشخاص متحدين ، جنائية او جنحة . او كانت احدهما مؤلفة من
 عدة افعال . فاقبض كل منهم فعلاً او بعضاً من هذه الافعال قصد حصول الجرم . عدوا
 مشتركين في الجريمة وعوقبوا كلهم عقاب الفاعل المستقل »
 وقبل ذلك جاء في تنوير الابصار ، باب السرقة :

« تشارك جمع ، واصاب كلا قدر نصاب ، قطعوا . وان اخذ المال بعضهم . وفي الدر
 المختار : (ولو فيهم صغير او مجنون او معتوه او محرم لم يقطع احد) وزاد في الحاشية قوله :
 قال في الفتح (وانما وضعها في دخول الكل ، لانه لو دخل بعضهم لكنهم اشتركوا
 بعد ذلك في فعل السرقة ، لا يقطع الا الداخل ان عرف بعينه . وان لم يعرف عزروا كلهم
 وابد حبسهم الى ان تظهر توبتهم)

وفي هذا الاستدراك ، الذي استدركه صاحب الدر ، من الرحمة والصواب ما فيه .

الرشوة — في المادة (٧٧) من قانون الجزاء .

« اذا اكره انسان ، واضطر اضطراراً صحيحاً ، ان يرشو آخر ، صوناً لنفسه وماله
 وعرضه . وبالاجمال لكل منفعة مشروعة . ثم اعلم الحكومة بامرء . استردت نقود
 الرشوة واعيدت لاصحابها . وعوقب آخذها عقاب المرتشي . »

وهذا وفاق ما ورد في السياسة الشرعية قال :

« وللرشوة نوع آخر ، هو دفع شيء الى الظالم بالاضطرار لرفع ظلمه ، او لتخليص
 المال والنفس من شره . وهذا لاشك في انه حرام على الآخذ الظالم ، واما الدافع

المظلوم فلا يدخل تحت الوعيد ، اذ الرجل مأثور بجعل ماله وقاية لنفسه ودينه ، في مواضع الضرورة . كما يدل الحديث الشريف : اجعل مالك دون نفسك ، ونفسك دون دينك . فالرشوة من هذا القبيل ، لما كانت لا تستند الى سبب شرعي من اسباب الملك ، تسترد من الميراثي وترد الى صاحبها .

اسقاط الحق العام — رأى اصحاب القانون في الفترة الاخيرة انه كثيراً ما يقع خلف بين ذوي العلاقة والقرابي ، فتحمل الطرفين او احدهما نزوة من نزوات الغضب ، فيرفع الامر الى الحاكم . فاذا انتهت القضية اليه ، فلا بد من حكم يكون في غالب الاحيان ، سبباً في توسيع الخرق واستحكام حلقة العدا . فاستدركوا الامر ابقاء للمودة وحفظاً للحقوق ، بان جعلوا للمادتين الـ (١٧٩) والـ (٢١٤) فقرتين اجازوا فيها اسقاط الحق العام ، تبعاً للحق الخاص ، في كثير مما أشمله هاتان المادتان .

واذا دققنا في اقوال الفقهاء ، وجدنا لم ما يقرب من هذا كثيراً ، بل ما يرد واياه شرعة واحدة . في حاشية ابن عابدين . مبحث (هل للقاضي العفو عن التعزير) :

« قال : لا خير يا زاني ! فقال الآخر بل انت . حذاً لغلبة حق الله (الحق العام) فيه . بخلاف ما لو قال له مثلاً يا خبيث فقال بل انت . لم يعزرا . لانه حقهما ، وقد تساويا اما اذا تشاكما بين يدي القاضي ، او تضاربا ، لم يتكافأ لهنك مجلس الشرع »

الاقرار — في الاصول القانونية لا يكون مداراً للحكم .

« وقد قال ابو يوسف — من ظن به او توهم عليه سرقة ، او غير ذلك فلا ينبغي ان يعزر بالضرب والتوعد والتخويف فان من اقر بسرقة او يحد او يقتل وقد فعل ذلك به فليس اقراره ذلك بشي . ولا يحل قطعه ولا اخذه بما اقر به . وعن عمر انه قال ليس الرجل بما مؤمن على نفسه ، ان اجتمه او اخفته او حبسته ، ان يقر على نفسه . »

« وكذلك لا يعتبر اقرار الرجل عما وجب عليه فيه الحد ، ما لم يردده . ثم يسأل عنه ، هل به لم ؟ هل به جنون ؟ هل في عقله شي ينكر ؟ فان لم يكن في عقله شي من ذلك وجب عليه الحد »
الانهاك والتبرئة — ولقد منعت الاصول الحاضرة ، ان يحكم على رجل اتهمه بتهمة بها ، او بتهمة قليلة ترد عليه . وواجبوا في كل قضية يتروى فيها وجدان الحاكم بين البراءة والحكم

بل بالغوا في ذلك ، حتى قالوا : ان تبرئة جماعة من المجرمين اولى من تبرئة بري واحد . ولقد جاء في هذا الشرع :

« ادروا الحدود بالشبهات ما استطعتم . والخطأ في العفو خير من الخطأ في العقوبة . وقال عمر لئن اعطل الحدود في الشبهات . خير من ان فيها في الشبهات . »

تخلية السبيل والكفالة — شرعت تخلية السبيل بالكفالة ، صيانة للحرية الشخصية ان تقضي عليها الشبهات . ورحمة بالظنين او المتهم في بعض الحالات . وهو تدبير عدل جرت عليه الامم الراقية كافة . ولم يذهب هذا الامر عن بال القائمين بهذا الشرع . قال ابو يوسف : « ولا ينبغي ان تقبل دعوى رجل على رجل في قتل ولا سرقة . ولا يقام عليه حد الا بينة عادلة . او باقرار من غير تهديد من الوالي له او وعيد . ولا يحل ولا يسع ان يجلس رجل بتهمة رجل له . كان الرسول لا يأخذ الناس بالقرف . ولكن ينبغي ان يجمع بين المدعي والمدعى عليه فان كانت له بينة على ما ادعى . حكم بها . والا أخذ من المدعى عليه كفيل . وخلي عنه فان اوضح المدعي بعد ذلك شيئاً ، والا لم يتعرض له . » ولم يجوزوا السجن بالتهمة .

« الا اذا كان المتهم من ذوي التهم السابقة ، او من اجلاف يتوقع منهم صدور مثل تلك الافعال . ولم يجعلوا مدة معينة للسجن في هذه الحالة ، فتحدد مدته راجع الى الرأي والاجتهاد »

جلب الظنين — ان القانون الذي تجري عليه في يومنا ، قد اوجب على الظنين ان يحضر المحاكمة بنفسه . ولا يسوغ له ان يرسل وكيلاً يدافع عنه في اساس القضية اذا كانت الدعوى التي اقيمت عليه من دعاوي الجنحة او الجنابة . وكانت تستوجب — ان هي ثبتت عليه — جزاء الحبس . ولا ينكر ما في هذا القيد من التشديد ، اذ لا يندر ان تكون الدعوى انما اقيمت تكاية بالظنين وخطأ من كرامته . فالقضاء عليه ان يحضر بنفسه والا يمنع حق التوكيل ويحيا كم غيباً — فيه اجحاف وظلم كبيران . ولقد كان الشرع في هذا ، اصح من القانون وانصف اذ كان مالك . على ما جاء في كتاب الخراج : ممن يرون ان حضور مجلس الحاكم تعويقي من جنس الحبس فلا يجب حضور الخصم المطلوب بمجرد الدعوى . بل لا بد للمدعي ان يبين ان للدعوى التي يدعيها اصلاً .

الافتراء والذم — في قانون الجزاء عن الافتراء ما خلاصته :

« من عزا الى آخر جرماً لغرض ما وهو يعرفه بريئاً او اختلق على ذلك الرجل آثاراً ودلائل مادية لكذا جرم يجبس الخ ... »
وفيه عن الذم والتحقير .

« من ذم انساناً باستاده اليه ما يجعله عرضة لاحتقار الناس وخصوصتهم . يجبس الخ »
او ما يحط من قدره وناموسه ... يجبس الخ »

قالوا : ويتم الافتراء ايضاً اذا ورد الاخبار في لائحة دعوى مكتوبة او مطبوعة او في ضبط يودعه المخبر اخباره .

واليك ما قاله الفقهاء في هذا المعنى :

« قال مالك واشهب لا ادب على المدعي الا ان يقصد اذية المدعى عليه وعيبه وشتمه . فيؤدب »

فالحكم الشرعي والقانوني سيفي هذا واحد . من حيث الجوهر والروح . كلاهما يجازي حيث يراد الاثنتان على آخر ، والنيل من كرامته .

الحامل والجزاء — في المادة الثامنة عشرة من قانون الجزاء : « المرأة المستحقة جزاء الاعداد ، اذا اخبرت بانها حامل وتحقق ذلك وثبت تنفيذ فيها العقاب بعد وضعها »

وفي رد المختار على الدر المختار : ويقام الحد على الحامل بعد وضعها . فان كان حدها الرجم ، رجمت بعد الوضع . الا اذا لم يكن للمولود من يريه . فمقتى يسئني . وان كان الجلد فبعد النفاس)

الحرمان من الحقوق المدنية — لاشهاد لمن حكم عليه بالحرمان من الحقوق المدنية . وقريب من ذلك ما ورد في الشرع (من ان الرجل اذا حذفي قذف ، لم تقبل شهادته) سن المجرم — راعت — المادة (٤٠) ، من قانون الجزاء — سن المجرم . من حيث نوع العقوبة وتطبيقها قال الفقهاء :

« ولا يقام له الحد على غلام لم يبلغ الحلم »

الدفاتر والسجلات — وكان القضاة يتخذون دفاتر ومجلات يقيدون فيها اقصيتهم

واول من فعل ذلك منهم سليم بن عتر النجفي (١) قاضي مصر : وذلك انه اختصم اليه في ميراث فقضى بين الورثة ثم لناكروا فعادوا اليه فقضى بينهم وكتب كتاباً بقضائه واشهد فيه شيوخ الجند . ثم جاء المفضل بن فضالة فطوّل السجلات ونسخ فيها كتب السحايا والوصايا والديون ولم يكن ذلك قبله (٢)

هذا وقبل ان نتمم الكلام نرى حقاً ان نشير الى بعض اصول ، تجري عليها اليوم وقد سبق للسلف ان جروا عليها من قبل . من ذلك :

كتابة العدل — فهي ليست مما حدثه المتأخرون . بل كانت قديماً . اخذها الفقهاء من الكتاب الكريم . وصيروها عملاً مستقلاً كاد يكون كما هو اليوم . قال ابن خلدون :

« العدالة ... تابعة للقضاء . وحقيقة هذه الوظيفة القيام عن اذن القاضي بالشهادة بين الناس فيما لهم وعليهم عند التنازع وكتّاباً في السجلات تحفظ به حقوق الناس واملاكهم وديونهم وسائر معاملاتهم . وشرط هذه الوظيفة . الانصاف بالعدالة الشرعية ، والبراءة من الجرح ، ثم القيام بكتّاب السجلات والعقود من جهة عباراتها ، وانظام فصولها ومن جهة احكام شروطها الشرعية وعقودها . فيحتاج حينئذ الى ما يتعلق بذلك من الفقه . ويجب على القاضي تصحح احواله والكشف عن سبره . . . فيقولون (اي القضاة) غالباً بها (اي بالبينات الموثوقة) على هذا الصنف . ولغولاً ، في سائر الامصار دكاكين ومصاطب يختصون بالجلوس عليها ، فيتعاقدون اصحاب المعاملات للاشهاد ونقبيده بالكتاب . »

دار القضاء — كان الحكم قبل الاسلام والقاضي في الصدر الاول . يؤتى في بيته فيحكم بين المتخاصمين . او كان حيث يكون قهناك مجلسه . ثم اتخذ القضاة المساجد ندوة للحكم ، يقضون فيها بين المسلمين ، فاذا جاء العصر جلسوا على باب المسجد يقضون بين غير المسلمين او جعلوا لهم يوماً في منازلهم . فلما انقضى قضاء مصر — ايام الرشيد — الى محمد بن مسروق ادخل التصاريح المسجد الجامع في خصوصياتهم .

السجن — كان الرسول يسجن في المسجد ، وتبعه في ذلك ابو بكر وعمر

(١) اخبار قضاة مصر (٢) اخبار قضاة مصر

وعثمان . ثم احدث علي سجنًا خاصًا . وأجري على من لا مال له ولا شيء له ، ما يقوته من بيت المال . ومضى على سنته الخلفاء من بعده .
وكتب ابو يوسف ، مخاطبًا امير المؤمنين الرشيد في شأن السجناء :

« فمر بالتقدير لم ما يقوتهم في طعامهم وادامهم . وصير ذلك دراهم تجري عليهم في كل شهر . فانك ان أجريت عليهم الخبز ذهب به ولاية السجن وول ذلك رجلاً من اهل الخير . يثبت اسماء من في السجن . ممن تجري عليهم الصدقة شهراً فشهراً . ويقعد ويدعو باسم رجل رجل . ويدفع ذلك اليه في يده وكسوتهم في الشتاء قميص وكساء . وفي الصيف قميص وأزار . ويجري على النساء مثل ذلك . وكسوتهن في الشتاء قميص ومقنعة وكساء . وفي الصيف قميص وأزار ومقنعة »

« ونهوا عن غل السجن . الا اذا خيف فراره . وعن ضربه الا اذا أقيم عليه حد . وأذنوا له اذا كان عليه ديون ان يخرج فيخاصم . »

هذه صفحة من هذا القضاء . قضى عليها الدهر بان تكون مطوية ، مع ما لاصحابها في نشرها من حسن الاحدثة وطيب النشر . وأنا لا أدعي اني قد أحطت بهذا الموضوع من جميع وجوهه . اذ قد يكون ما فاني ذكره ، لا يقل عما ذكرته دقة وعدلاً ، من حيث الاداب . وموافقة لروح العصر ، ومما شاة للقوانين الحاكمة ، من حيث الاصول .

ولقد كانت الامور الجزائية اكثر ما تعرضت له في هذه المقارنة لسببين : (اولاً) لان القانون المدني عندنا هو الجملة ، وهي مستمدة بمجملتها من الشرع . فليس ما يدعو الى التنويه بها ، وهي لا تزال واحكامها هي هي . لا بعوزها الا قليل من التعديل . حتى تجد نفاذها . وتصح خليفة ان ينسج في القوانين على منوالها .

(ثانياً) ان اهل العصر الحاضر ، يزعمون هذا الشرع غربياً عن قضايا العقوبات جملة . دع الاصول الحديثة . بعيداً عن روح العدل في هذا الباب . على حين رأيت

ما بينهما من الصلة والعلاقة . ولو انه أتبع هذه الشريعة خلف سار على سنة ذلك السلف . لانفردت عن الاشياء ونزهت عن النظائر .
وهو وان كان شرعاً اسلامياً فقد كفل العدل والنصفة لكل من نزل على حكمه مسلماً كان او غير مسلم .

لهذا ولأمثاله لقبت هذه الشريعة بالشرعية السحة وهذه هي المفاخر الصحيحة التي يعرفها التاريخ الحق لا تلك البدع العريضة بالوم . فاذا استفاق الخلف . واقننى سنة السلف . ونبذ القشور . وعاد الى الباب . فقد عاد الى هذا الوطن . عصره الاول . الاغر المحجل .

عارف النكدي



جمع في ما يقال اربع مئة الف مجلد وقيل اكثر وانتشرت هذه الرغبة في جميع الكتب حتى كانت من انفس ما يتغالى به . وقد قيل ان الاندلس كان فيها في اوائل القرن الخامس للهجرة سبعون مكتبة حافلة .

وكان للعلماء عند العرب مقام سام حتى ان خلفاء انفسهم كانوا يصيرون الماء على ايدي العلماء ويقضون اوقاتهم بين المحابر والدفاتر ويتبنون بيوت العلم كما يتبنون بيوت العبادة . ورغب علماء العرب في العلوم الطبيعية والفنون فيها واخذوا عن اليونان مبادئ الفلك والهندسة والحساب والجبر والطب والنبات وغير ذلك من العلوم وحسنوها كلها ومازالت انوار المعارف ساطعة في آفاقهم حتى دالت دولهم فالتقيت مقابلتها الى الغربين وقد كانوا خابطين في ظلمات الجهل فاهتدوا بما اقتبسوه من علوم العرب واجتهدوا في نقائها وزادوا عليها بعد ان كانوا تلاميذ العرب اصبحوا يجدون ومثابرتهم وثباتهم اساتيد العالم بأسره وقادة الافكار البشرية كلها وتوصلوا بفضل فروع العلم المختلفة الى الاثبات بالعجب الاختراعات والاكتشافات واعظم الاعمال التي تحير العقول وتكاد تشبه المعجزات واستخدموا كل ذلك في ما يؤول الى خير البشر وراحتهم وسعادتهم . ولا بد لي في هذا المقام من ذكر خلاصة المنافع التي جناها العلماء من حقائق العلم واهدوها الى المجتمع البشري وهي : (١) تحسين الصحة العامة فان العلماء بكنز وباستور وكوخ وغيرهم اكتشفوا ادوية واثباتية وشافية من الجدري والحنق والحواء الاصفر والحُميات المتنوعة . والجراحين لفننوا في الاعمال الجراحية وبلغوا في نقائها درجة سامية فاصبحوا قادرين ان يفتحوا البطن ويستأصلوا بعض الاعضاء بدون تعريض الحياة للخطر وساعدوا على النجاح في اعمالهم استعمال مضادات الفساد التي اوصلهم العلم الى كشفها حديثا فقلت الوفيات بتقدم الطب والجراحة ومراعاة القوانين الصحية وطال معدّل العمر كما ثبت ذلك بالاحصاءات الدقيقة وشهادة الخبراء العارفين . قال احد ساسة اليابان انه قبل انتشار العلم في بلادنا كان اكثر من ثلثي اطفالنا يموتون لجهلنا وسائط التربية وقوانين الصحة وكانت الاوبئة تفكنا فتكا ذريعا لجهلنا طرق الوقاية منها ووسائط منع تفشيها اما الآن فان المدارس والمستشفيات والاطباء والوسائط الفنية قد افادتنا فوائد جمة لا يسع احدا انكارها فتحصنت عندنا الصحة العامة وزادت مواليدنا على وفائنا . وهو قول حري بالاعتبار وكفى به دليلا على ان العلم لم ينتشر في بلاد الاغاد اهلها فوائد

العلم (١)

لا جرم ان العلم الصحيح الكامل وسيلة الى كل فضيلة وصلاح وسلم ارتقاء الامم الى اعلى درجات النجاة والفلاح . به يتميز الانسان على الانسان كما يتميز على غيره من انواع الحيوان بالعقل والبيان . ولذلك وصف بانه حياة النفوس وضياء البصائر وبان رتبته ارفع الرتب . ووصف العلماء بانهم ورثة الانبياء وامناء الله على خلقه ومصاييح الهداية وكواكب الارض . كما وصف الجهل بانه موت النفوس وعمى الازدهار وظلام العقول . ووصف الجاهل بانه بعيمية في صورة انسان وبان عينيه في ظلمة . ورأسه في معدته . وقد كان للعلم شأن عظيم عند كل أمة من الامم السالفة واول من اشتغل به البابليون او الكلدانيون فكان علماءهم يلقنون رصد الكواكب بمنتهى التدقيق واخترعوا لها المزاويل المضبوطة وكان لهم باع طويل في الطب وشهرة واسعة في الصنائع النفيسة كالنقش والحفر والتصوير . ثم انتقل العلم الى الفرس والفينيقيين والصينيين والهنود واليونان والرومان وكما سطعت انواره في أمة ارتفع شأنها وعظم عمرائها . وكما تقلص ظلمة من مملكة نقاص معه مجددها وافل سعددها وتزعزت اركانها وتهدم بنيانها كما حدث للشعوب التي مرّ ذكرها . فلما جاء العرب ادر كوا ما للعلم من المنزلة العالية في الحالتين المدنية والسياسية وعرفوا شدة الحاجة اليه في الشؤون الاجتماعية وعنوان نشره في البلاد العربية فسطع ضياؤه في الشام والعراق ومصر والمغرب والاندلس ولا سيما في زمن الخليفة العباسي المأمون الذي اثنى افضل الكتب الفلسفية اليونانية وامر بترجمتها الى العربية وحرص الناس على مطالعتها وتعلمها حتى حفلت بغداد بالعلماء والمصنفين وزخرت خزائنها بالكتب النفيسة وامتدت شعلة الطلب والتدريس الى سائر البلاد الاسلامية . وفي زمن الخليفة الاموي عبدالرحمن الملقب بالناصر الذي جعل مدينة قرطبة دارا للعلم على نحو ما كانت بغداد في المشرق والقيروان في المغرب والقاهرة في مصر وحشد الكتب من افرريقية وبلاد فارس ومصر وسائر الآفاق العربية حتى

(١) خلاصة محاضرة للاستاذ انيس سلوم القاها في ٢١ تموز سنة ١٩٢١ م .

صحية عظيمة والصحة أساس كل خير ونجاح وهي أهم من كل شيء ولا ينبغي عنها شيء .

(٢) تقوية العقل وترقيته بتجربته على الحذر والانبساط والملاحظة والاستقراء والاستدلال والقياس والتدقيق والتحقيق والاستنباط والاختراع ورد النتائج الى اسبابها الحقيقية وإدراك النسبة بين العلة والمعلولات . وجملة القول ان العقل المستنير بضياء العلم الصحيح يكتسب مضاء وقوة وتحرر من عبودية الخرافات والخرعيلات والذهابات التي كانت تخيف الناس كلاعتماد ان الحسوف والكسوف وظهور ذوات الاذئاب وهبوط البيازك مما يوثر في احوال البشر ويحلب عليهم الحروب والابوة والجماعات وغيرها من البلايا . وكذا ان الرياضة البدنية بالالعاب المتنوعة والاعمال المختلفة تقوي البدن كذلك الرياضة العقلية بدرس العلوم المختلفة تقوي العقل وتزيل عنه الجمود والخلل والوهن وتقوّم كل اعوجاج فيه . فعمل المهندس يقي الذهن من التشتت وعلم المنطق يعضمه من الخطأ في الفكر ويديره على إقامة الصحيح . وعلم الحقوق يعينه على استحضار القضايا والاستشهاد باقوال الفقهاء والنبات الدناوي بالنصوص الشرعية والقانونية . غير ان الرياضيات أشد العلوم تنقيها للعقل لانها قائمة بالقياس والذهابات ومتضمنة احسن ما يهتدأ به العقل للاستدلال وإقامة الحجة .

(٣) اصلاح الآداب فان الذين تعلموا العلم الصحيح يعرفون ما لهم من الحقوق وما عليهم من الواجبات فيحافظون على حقوقهم ويقومون بواجباتهم ويحترمون انفسهم فيعتزلون المنكرات ويترفعون عن الدنيا ويتزينون بالاخلاق الحسنة ويتسابقون الى الاعمال الشريفة والمساعي الحميدة فلا ريب ان العلم الصحيح يصلح الآداب ويحسن النية ويجعل الحصال يقلل الجرائم سيف البلاد . ولذلك قيل اذا امتلأت المدارس فرغت السجون . وكما بعد الناس عن العلم وتوغلوا في الجهل ساءت اخلاقهم وفسدت آدابهم ونجست أعمالهم كما يري ذلك في القبائل المتوحشة كقبائل الواسط المغربية التي تأكل لحوم البشر وتعمل القبايح التي لا يليق ذكرها بلا خوف ولا حياء لانت غير المتدينين لا يارقون عن الوحوش المفترسة الا يكونهم يلبسون العلم والتهذيب اذا أُنِج لهم ذلك وتوفرت لديهم الوسائل الكفيلة به . فان قيل ان بعض أهل العلم ذوو اخلاق فاسدة

وآداب ساقطة قلت ان علمهم غير صحيح او غير كامل لان العلم الصحيح الكامل مقرون ابداً بالاخلاق الفاضلة فلا يصدر عنه الا صلاح فهو كالشمس التي لا يصدر عنها الا النور

(٤) اخضاع الامور الطبيعية لسلطة الانسان فالتدين تعمقوا في العلم عرفوا كثيراً من اسرار الطبيعة واكتشفوا خباياها واطلعوا على منبها وخباياها وشاهدوا عجائبها وغرائبها واستنبطوا دخالها ومكنوناتها واستخدموا المنافع من قوتها فمخروا بريق السماء وتسلطوا على الماء والهواء واخترقوا الحطب ببعض الاشعة فراوا ما خفي على الابصار وولموا بقوة الماء بدائع الانوار وتمكنوا من اجتناء كثير من الثوائد ورفع كثير من الاضرار وانما توصلوا الى كل ذلك بفضل الطبيعيات وهي علوم التجربة والاستقراء .

(٥) توفير الثروة فان العلم هو الذي حسن مصادرها اي الزراعة والصناعة والتجارة فوفرت الاموال وحسنت الاحوال باصلاح الاعمال وبهان ذلك ان العلماء توصلوا بعلم الزراعة وهندسة الري الى تزييد غلال الارض كما يشاهد ذلك في اكثر بلاد الغرب وبعض بلاد الشرق كصر التي اصحت تفيض ذهباً وهاجاً على سكانها بفضل تحسين الري فيها . ويعلم المعادن استخراجها كنوز الارض الثمينة وذخايرها المدفونة . ويعلم الكيمياء رقا الصناعة وتفننوا فيها على اساليب شتى حتى انهم التفتعوا بالنفائات كالخرق البالية والاقدار الجارية والعظام وقصاصة الجلد ونشارة الخشب والامعاء فصنعوا منها الورق الابيض الصقيل والطيب الذكي ومقايض السكاكين واوتار آلات الطرب الى غير ذلك من الاشياء التي ينفع بها الناس . وحازت ألمانيا قصب السبق في هذا الميدان فكانت تصدر من الاصباغ الكيماوية المستخرجة من فطران الفحم في كل سنة ما يبلغ ثمنه اربعين الف دينار فوق ما كانت تستعمله في بلادها وقد نابت تلك الاصباغ منا — النيل الذي كان يستعمل من قديم الزمان لهذه الغاية . وجملة القول ان العلم هو الذي افاض النعم العظيمة على سكان اوربة واميركة وهو الذي فتح لهم خزائن الارض وهو الذي حول الماء والتراب والنبات ومعادن الرصاص والحديد والنحاس الى ذهب وعاج والفرق بينهم وبين اكثر الشرقيين هو انهم لم يمتثلوا على الارض ليستخرجوا الذهب من ترابها وماثها ومعادنها ونباتها واكثر الشرقيين يمتثلون على الثروة الموجودة في ايدي الناس

إسلبوها بالغش والخداع ولذلك كانت ثروة الغربيين تزداد بالاجتهاد في العلم وثروة الشرقيين تنقص بالكسل والجهل .

(٦) تسهيل طرق المعيشة وتوفير اسباب الراحة باستخدام القوات الطبيعية مثل قوة الماء وقوة الهواء بدلاً من قوة الحيوان كما في ادارة الارحية بهما بدلاً من ادارتها بالأيدي واستخدام البخار لتسيير القطار في البر بدلاً من الخيل والجمال والسفن في البحر بدلاً من الاثمنة وتسيير البرق لنقل الانبياء الى اطراف المعمور في طرفة عين بواسطة الاسلاك المعدنية وبدونها بدلاً من البريد والسعاة . واناارة البيوت والشوارع بالاضواء اللوامع بدلاً من الشموع والسرچ وتسيير المركبات وتدوير الآلات والقيام بها ككثر الحاحات كالغسل والطحن والعجن والخبز والكنس وغير ذلك مما كان يعمل باليد أصبحت قوة الكهرباء تعمل به بدون مشقة وكل ذلك بفضل العلم . وزد على ذلك اختراع الآلات العديدة التي تخفف التعب وتوفر الوقت كآلة الخياطة وآلة النسيج وآلة الطبع وغيرها مما تنضيق المجلدات عن وصفه . فالمطبعة تطبع في ساعة ما لا يستطيع الانسان ان يكتبه في شهر والمنسجة تنسج في يوم ما لا يقدر الانسان ان ينسجه في سنة وعلى ذلك فقس . وخلاصة ما يقال في هذا الشأن ان العلم يمكن الانسان من السفر الى اقصى الارض في ايام قليلة ومعرفة اخبار العالم في ساعات معدودة ومخاطبة من يشاء على امدالوف من الاميال في لحظة والحصول على الوف من الكتب باثمان زهيدة . وقدم له الجليد في ايام الحر الشديد والدفء في ايام البرد القارس وحمل اثقاله وسهل اعماله وراح جسده وافساره وازال من سبيل سعاده اكثر العقبات وهو ن عليه في حياته اعظم الصعوبات .

(٧) الابهاج بآيات الله في خلقه فان العلم بما في هذا الكون العجيب من الآيات الينيات من اكبر دواعي المسرات لانه يكسب صاحبه لذة عقلية تفوق كل لذة جسمية بمقدار ما يفوق العقل الجسد فاذا طاف عالم الحيوان والنبات الحقول او الغابات سميت له الازهار ورحبت به الاشجار واظربت سمعه الاطيار لانه درس خصائصها وعرف طبائعها واذا رفع عالم الفلك بصره الى القبة الزرقاء في ليلة زهراء او رصد كواكبها او تأمل عجائبها شعر بلذة لا يعبر عنها بلسان ولا يشعر بها الا اولو العرفان وكذلك يهتز الشاعر طرباً لنفيس الاشعار ويترنم الموسيقي عجباً لنغمات الاوتار ويجد كل عالم او

منفني في علمه او فنه سروراً عظيماً لا يقدر الجاهل ان يعرفه او يشعر به فحياة العالم سعيدة وايامه بهيجة اذ لا شيء يبهج القلب ويملاؤه حبوراً مثل العلم ولا صحة لقول بعضهم من زاد علماً زاد همماً لان زيادة العلم تزيد المسرة واللذة وذلك ثابت بالبدية لانه كما ان النور يبهج البصر يكشفه المرئيات كذلك العلم يبهج القلب يكشفه الحقائق المثبتة للعقل فكما زادت المعرفة زادت اللذة .

(٨) رفع شأن الافراد والجماعات والامم فقد رفع العلم كثيرين من وهددة الهوان الى ذروة المجد فبعد ان كانوا خطابين او خزافين او صائغي احذية ارتقوا الى مراتب الوزراء او السفراء او رؤساء الجمهوريات . والامم التي غنيت بالعلم ورفعت الوتة في بلادها بلغت اعلى ذرى العز والسمعة والنجاح والسيادة والتاريخ اكبر شاهد على ذلك فان مملكة الرومان لما كان العلم فيها مشرقاً اتسع نطاقها وعلا سوادها وخدمها السعد قروناً قدمت صولجانها على الخافقين ولكن لما انطفأت شعلة العلم فيها تمزقت شذر مذر وكذلك جرى للممالك السالفة وللديار العربية فانها لما غنيت بالعلم سادت وشادت وبلغت من المجد ما أرادت ولما أهملته انحط شأنها وتهدم عمرانها . والدول العظمى في عصرنا الحاضر لم تبلغ ما بلغت من العز والقوة والجاه والسطوة الا بفضل العلم وحسبنا اثباتاً لهذه القضية ما نراه من البون الشاسع الادبي بين اليابان والصين وهما في بلاد الشرق الاقصى فان الدين على اتساع ارضها وكثرة عدد سكانها ليس لها شأن يذكر بين الدول المعظمة . واليابان على ضيق ارضها وقلة عدد سكانها لا تقل شأناً عن دول اوربة العظمى وكفاها فخراً انها غلبت اعظم الدول الغربية واكبرها جيشاً وماسر غلبتها الا العلم فلا تطمع أمة او مملكة في العز والصولة والمجد والعظمة والسيادة والقوة مادام الجهل خساراً اخطابه او مملكة في العز والصولة والمجد والعظمة والسيادة والقوة مادام الجهل خساراً اخطابه فيها وذلك من البديهييات التي لا ريب فيها عند العقلاء . قال زوج الملكة فكتوريا في احد خطبه حين كان رئيساً للجمع العلمي البريطاني « ينبغي ان يزيد الثبات في الدولة الى العلم كما نرجو وسنجد فيه عنصراً جوهرياً من عناصر قوتها ونجاحها » . وقال الفيلسوف جول سيمون « ان الامة التي تعلم بنبيها التعليم الاكثر تصير العظمى بين الامم ان لم يكن في اليوم في الغد » . وقال واشنتون في خطابه الوداعي لبلاده « أحلوا اهل المراكز العلمية المحل الاول فان الحكومة التي تنصت الاعتماد على رعاياها يجب ان

تهدب عقولهم قبل ذلك». وقد حفظ الامير كيوت هذه الوصية واهتموا بنشر العلم اهتماماً عظيماً وانتقوا في هذا السبيل الاموال الطائلة حتى ان الحكومة وقفت على ترقية العلوم في الولايات المتحدة مئة وخمسين الف فدان من اراضيها الزراعية وكذلك اهتمت دول اوربة بترقية المعارف في بلادها وانتقت قناطير من الذهب على المدارس والجامع العلمية والكتائب العامة لتبقيها ان العلم هو الدائمة الكبرى في بناء الممالك والسلام الوحيدة الموصلة الى ذرى الجدد والعظمة فلا غنى عنه في السياسة كانه لا غنى عنه في الزراعة والصناعة والتجارة. هذه هي خلاصة منافع العلم ذكرتها بالايجاز ولو شئت الاسباب لما استطعت الى ذلك سبيلاً لانه يستغرق السنين الطوال ويملا الجلدات الضخمة. وهنا يجدر بنا ان نسأل ماذا كان نصيبنا من تلك المنافع واني اختراع او اكتشاف مفيد ينسب اليها في هذا العصر؟ ان لاديسون الاميركي الذي لا يزال حياً يوزق نحو التي اختراع مفيد غير يهسا حالة المجتمع البشري ورفق شؤن العالم العمرانية وهو رجل احد قبل اختراع اهل بلادنا اختراعاً واحداً كلهم وهم يعدون بالوف الاولوف؟ اليس البشر كلهم من طينة واحدة فلماذا نرى هذا الفرق العظيم بيننا وبين الغربيين العلم اشراف من اصولاً ام اسمى عقولاً ام اصفى اذهاناً ام اقوى ابداناً ام اعر تقوى ام اكبر رؤوساً؟ لا لعمري فقد أثبت الاختبار ان السوري اذا توفرت له وسائل الارتقاء وجال في ميدان العلم جارى غيره ولم يقصر عنه وبعض السور بين الذين دخلوا جامعات اوربة واميركة سبقوا رفقاءهم من ابناء القرب وامتازوا عليهم بالتحصيل فحق لا ينقصنا الا الاجتهاد والاتحاد والثبات. اننا لا ننكر ان حالتنا العلمية اليوم احسن مما كانت عليه منذ مئة سنة وذلك بفضل الحكومة السابقة والحكومة الحاضرة والبعثات الاجنبية. فبعد ان كان ظلام الجهل محجاً في ربوعنا حتى انه لم يكن فيها من يعرف القراءة والكتابة الا افراد يعدون على الاصابع كانوا يتجهون محجاً بذاك المعرفة القليلة ويمشون في الارض مراحاً زاعمين انهم وسعوا كل شيء علماً وبعدها كانت بلادنا خالية من المدارس العالية والمطابع والصحف السياسية والمجلات العلمية وزغت فيها انوار العلم قشيدت المدارس المختلفة من ابتدائية وعالية وطبية وتجارية وصناعية وحرفية تخرج منها كثيرون من شبان البلاد النجباء فشغلوا احسن

المناصب في سورية ومصر وغيرها وانتشت الصحف والمجلات وظهر سيف هذا القطر الكتاب والخطباء والصيدلة والاطباء والحامول والعلمون والمهندسون كما يشهد هذا الحفل الحافل. ولكن اين نحن من الغربيين الذين جاؤا بالعجب العجيب وحبروا باعمالهم الابواب فجعلوا البر يجرأ والبحر يبرأ وذلك بفتح الترع كثيرة السويس وترعة بناما العينية وانشاء المرافى كمرفا بيروت ومرقا نيو يورك وكثير غيرها ومشوا على وجه الماء وغاصوا في لجج الدماء وركبوا على مناكب الهواء بالمناطيد والطيارات وساحوا بين كواكب السماء بالمراصد والنظارات وقاسوا ما بينها من الابعاد بادق الآلات وصنعوا من الادوات الحديدية المختلفة الاشكال والحجوم ما يفوق الحصر ويدهش العقل من آلات الساعة الدقيقة التي لا تكاد ترى بالعين المجردة الى الفاطرة البخارية التي تجر وراءها سلسلة مركبات ضخمة لا يدرك الطرف آخرها الى الجسر العظيم العجيب كسر بروكلين الذي تجري عليه القطار وتسير من تحته السفن. قيل ان بناء هذا الجسر شغل نحو ثلاث عشرة سنة وثقافته بلغت ثلاثة آلاف الف ليرة انكليزية وهو من اسلاك قوة كل منها اثنا عشر الف وسق وعليه طريقتان حديديتان وطريقتان الترامواي وطريقتان المركبات الخيلية وطريق للمشاة عرضها ثلاث عشرة قدماً فهو من غرائب المصنوعات البشرية. وقد فتحوا الاتفاق الطويلة في الجبال وتحت الانهار والبحار اتسبهر مركبات البخار وبدوا الخزانات الكبيرة لحفظ المياه العذبة والانتفاع بها وقت الحاجة. وجملة القول انهم دكوا الاطواد وانطقوا الجماد وعمروا البلاد ورقوا العباد بل جعلوا الصم يستمعون والعمي يبصرون والموتى يتكلمون فاين نحن منهم بل اين نحن من اسلافنا العرب الذين وثقوا اسباب الحضارة في جميع الاقطار وخفقت اعلام مجدهم على كل الامصار فقد النوا وصنفوا واستنبطوا واكتشفوا وضربوا في مناكب الارض بجثا وعماء ودعشها الطبيعة من الآثار وتطلعوا الى آفاق السماء طلباً لمعرفة ما فيها من الاسرار وكانت عندهم من بديع الصنائع وغريب الننون واتساع التجارة ونمو الزراعة ما لا يتسع المجال لذكره في هذه الحاضرة المختصرة. وبكفي ان أقول ان العلم كان مصاحباً لجذودهم في كل بلاد افتتحوها حتى امتدت حضارتهم من اطراف آسية الى اقاصي افريقية وقلب اوربة. فلم لم ننشبه بهم سيف طلب العلم ونشره! ولم نرض

بالتأخر عن مجازاة الامم الغربية الرافية في سلم التقدم الصحيح والتهذيب الكامل وماهي
اسباب عدم رواج العلم في بلادنا يا ترى ؟ لا ريب ان لذلك اسباباً كثيرة اخصها
ما يأتي :

١ - اعتقاد اكثر القوم عندنا ان العلم غير ضروري لكل الناس وانما هو ضروري
للذين يريدون ان يشتغلوا به لاكتساب الرزق فقط كما سائذ المدارس والكتاب
والمتشئين والاطباء والحامين وغيرهم من ارباب الصناعات العلمية اما التجار والصناع
والزرايع وسائر العامة فعم في غنى عنه لانهم يستطيعون ان يكتسبوا الرزق بدونهم . وهذا
الاعتقاد خطأ عظيم لان العلم ضروري لكل فرد من افراد الامة كبيراً كان أم صغيراً
اذ يحتاج اليه الصلوك كملك والفقر كالغني والمرأة كالرجل فلا احد يستغني عنه . قال
عبد الملك بن مروان لبيته « يا بني تعلموا العلم فان كنتم سادة فقتم وان كنتم وسطاً سدتكم
وان كنتم سوقاً عثتم » . وقال بعض البلغاء « تعلم العلم فانه يقومك صغيراً ويقدمك
كبيراً ويصلح زينتك وفاسدك ويرغم عدوك وحاسدك ويقوم عوجك وميلك
ويصح سمك واملك » . وقال مصعب بن الزبير « تعلم العلم فان يكن لك مال كان
جمالاً وان لم يكن لك مال كان لك مالا » . وقال بعضهم اذا اراد الله بالناس خيراً
جعل العلم في ملوكهم والملك في علمائهم لان العلم عصمة الملوك فهو بمنعهم من الظلم ويردهم
الى الحلم ويصددهم عن الاذية ويعطفهم على الرعية . والخلاصة ان البشر كاهم على
اختلاف طبقاتهم واحوالهم واطوارهم منتفرون الى العلم فارباب السياسة يحتاجون الى
معرفة التاريخ وفلسفة الاجتماع وحقوق الدول وسائر العلوم العمرانية ليستطيعوا ان
يسنوا الشرائع العادلة الكافلة بسعادة الامة وينفذوها بالعدل والنزاهة والعفة .

وارباب التجارة يحتاجون الى معرفة علم الاجتماع وعلم الاقتصاد السياسي وعلم
سلوك الدفاتر وسائر العلوم التجارية ليستطيعوا ان يفجحوا في تجارتهم نجاحاً تاماً .

واهل الصناعة ينتفرون الى معرفة الرياضيات والطبيعات لكي يتمكنوا من اتقان
صناعاتهم والنفن فيها حسب الحاجة . والزرايع يلزمهم ان يدرسوا العلوم الزراعية لكي
يعرفوا خواص الاتربة وطرق الحراثة والتسميد واساليب الري وانواع الزرع والغرس
والنظيم والتلقيح وتربية المواشي وغير ذلك مما لا بد منه لتحسين الزراعة وتوفير الغلال

والنساء ينتفرون الى علم التربية وعلم التمريض وعلم تدبير المنزل لكي يستطعن ان يربين
اولادهن تربية صالحة ويخدمتهم في اوقات المرض الخدمة النافعة ويديرن بيوتهن
التدبير الكافل براحة ازواجهن وسعادتهم . والرجال بالاجمال يحتاجون الى العلم ليعرفوا
مايجب عليهم لازواجهم واولادهم ووطنهم وحكومتهم ويقوموا بواجباتهم كلها حتى
القيام فاذا نالت الامة كلها نصيباً وافراً من العلم صلحت اعمالها وحسنت احوالها واعتزت
حكومتها وارنقى وطنها الى اسمى درجات العمران . فلا احد يستغني عن العلم بوجه من
الوجوه لانه حياة الافراد والجماعات والشعوب . ولا ينكر هذه الحقيقة الا الذين اعمى
الجهل بصائرهم ولم يفهموا معنى الآية الكريمة « هل يستوي الذين يعلمون والذين
لا يعلمون » .

٢ - زعم فريق كبير من الناس انه لا فائدة من العلم بدون مال وان المال هو الغاية
التي يجب على الانسان ان يسعى لها لانه قاضي الحاجات ورافع الدرجات فهو يغني عن العلم
وعن كل شيء وعلى ذلك قول بعضهم :

ان الدراهم في المواضع كلها تكسو الرجال مهابة وجلالا

فهي اللسان لمن اراد فصاحة وهي السلاح لمن اراد قتالا

وقول الآخر :

فصاحة سحبان وخط ابن مقلبة وحكمة لقمان وزهد ابن ادم

اذا اجتمعت في المرء والمرء مفلس ونودب عليه لا يباع بدرهم

وهذا الزعم ضلال مبين واقوال الشعراء بهذا المعنى مخرفة وتضليل . والحق ان العلم
هو الذي يرفع شأن الامة لا المال . قال علي بن ابي طالب : « العلم خير من المال .
العلم يجرسك وانت تحوس المال . العلم حاكم والمال محكوم عليه » .

لا احد ينكر ان المال قوة عظيمة اذا كان بيد من يحسن استعماله ولكنه لا يرفع
شأن الجاهل فالجاهل حقير وان كان غنياً والعالم شريف وان كان فقيراً . ومما يؤيد ذلك اننا
اذا نظرنا في العلم منفرداً رأينا به خيراً محضاً لانه اداة لاتحاد والالفة والتعاون والتناصر .
واذا نظرنا في الغنى منفرداً وجدناه شراً محضاً لانه داعية الجري في ميدان الشهوات
المحرمة والنفار والتفريق بين الاهل والاصدقاء . واذا نظرنا في العلم معتزلاً بالغنى رأينا

المال خادماً للعلم نافعاً به فالغني العالم منهل عذب وشجرة مثمرة والغني الجاهل بلية عظيمة واضرار له للناس جسيمة وكفى بما قدمناه دليلاً على ان العلم خير من المال وينبغي ان يكون غاية لا واسطة بل هو أشرف الغايات عند العقلاء ولو كرهه الجهلاء .

٣ - توهم بعضهم ان العلم كله يقوم بمعرفة القراءة والكتابة وبعض قواعد الصرف والنحو وأعمال الحساب الاولى وحفظ بضع قصائد وحكم فاذا تبسرت هذه المعرفة لاحد الناس لقب نفسه بالعالم وادعى التفوق على غيره وطلب التصدر في المجالس وطالب الامة باكرامه وتعظيمه واحقر العلماء انكبار واستخف بالعلوم الحديثة التي يتوقف عليها عمران البلاد ونجاح العباد وانكر الحقائق العلمية الثابتة بالادلة الراهنة كدوران الارض حول الشمس وحاول البرهنة على انها ساكنة غير متحركة او انها مسنقرة على قرن الثور وكل ذلك من الاغلاط الفاضحة لان معرفة الاشياء المذكورة وان كانت ضرورية ونافعة ليست الا جزءاً صغيراً من العلم فلا تغني عن غيرها من المعارف المفيدة ولا تكفي لتسمية صاحبها عالماً ولا تحرر عقله من الخرافات ولا تعرفه قدر نفسه وانما العالم الحقيقي من تضلع من العلم على اختلاف انواعه الطبيعية والرياضية والتاريخية وغيرها وعرف على الاقل نظام الارض وخواص اتربةها ومعادنها وترتيب بلدانها واصناف سكانها وحواصل اقاليمها وعجائب حيوانها وتركيب مائها وسنن هوائها وتواريخ اجيالها القديمة وممالكها العظيمة وعرف مع كل ذلك قدر نفسه ولم يستكبر على ابناء جنسه . فمعنى العلم عند المحققين أوسع مما يتوهمه المدعين وما أحسن قول الشاعر :

قولوا لمن يدعي علماً ومعرفةً عرفت شيئاً وغابت عنك اشياء

٤ - ادعاء شرذمة من الناس ان العلم يناقض الدين ولذلك رفض بعض البسطاء من اهل الدين حقائق العلم خوفاً على دينهم من الفساد واحقر بعض المشتغلين بالعلم حقائق الدين فلنأمنهم انها تخالف العلم . وكلا الفريقين مخطئ لان العلم الصحيح لا يمكن ان يناقض الدين القويم وانما هما حليفان كل منهما يؤيد الآخر ويخمد به ولي على اثبات ذلك أدلة . الاول انه لو كان العلم والدين تقيضين للزم عن ثبوت احدهما بطلان الآخر ولكن كلاهما ثابت بالادلة القاطعة الجلية فلا تناقض بينهما لان مصدرهما واحد فالدين وحى الله على نبي الشريعة والعلم وحى الله على صفحات الطبيعة . وبين الدين

والعلم رابط شديد وهو الايمان وهذا مما يستغربه السامع لاول وهلة لان الشائع بين القوم ان الايمان غنص بالدين والحق انه من لوازم العلم ايضاً فكما يؤمن اهل الدين بالحقائق الروحية ويسبرون في حياتهم الدينية بقوة الايمان فيعملون خيراً الاعمال وأعمال الخير كذلك يؤمن اهل العلم بالحقائق الطبيعية ويسبرون في حياتهم العلمية بقوة الايمان فيحيثون بعجائب المخترعات وغرائب المكتشفات . فالايان من أعظم قوى العالمين وبه تم كل شيء نافع في عالم العلم وعالم الدين وهو بينهما رباط متين .

الثاني : انه لو كان العلم منافضاً للدين للزم عن ذلك ان كل عالم كافر وكل دين جاهل وهو خلاف الواقع لان كثيرين من اهل العلم متدينون وكثيرين من اهل الجاهل كفرون . بل ان الذين يتمسكون بالدين حق التمسك هم العلماء لا الجهلاء . وما أحسن قول القرآن الكريم : « انما يخشى الله من عباده العلماء » . وحسبنا ثبوتاً لذلك ان نذكر بعض المتدينين من اهل العلم المتقدمين والمتأخرين . فمن المتقدمين ابو جعفر المنصور الذي كان مع كلفه بعلم الفلسفة وعلم النجوم متديناً بارعاً في علم الفقه . وهرون الرشيد الذي امر ان تبني بجانب كل جامع مدرسة ليسير الدين والعلم معاً لانه كان يعتقد انهما حليفان لا نقيضان . والمأمون الذي كان أعظم الخلفاء واعلمهم وكان عارفاً من اللغات اليونانية والعبرية والهندية والفارسية فضلاً عن تجرعه في الفلسفة وعلم الفلك ومع ذلك كان ثقيلاً ورعاً . وابن سينا الذي اشتهر بالعلم الطبيعي وعلم الطب وغيره وكان له نحو مئة تصنيف كانت ايضاً مشهورة بالعلم الالهي والتمسك بدينه . ونفر الدين الرازي عبدالله المعروف بابن الخطيب الذي فاق اهل زمانه في علم الاوائل والمعقولات وكان له عدة تصانيف كان ايضاً اعلماً في علم الكلام ثقيلاً متعبداً . ومن المتأخرين فيلسوف الانكيز العظيم اسحق نيوتن مكتشف ناموس الجاذبية والعلامة الاميركي المشهور بعلم طبقات الارض الدكتور دوسن . والناطقة الاميركي الذي خدم سورية سنين عديدة بالتطبيب والتدريس والتأليف العلامة فاندريك . فان كل هؤلاء وكثيرين غيرهم من وطنيين وأجانب كانوا من فحول العلماء وكبار الاثقياء . والعالم اليوم مملوء بالرجال الذين يعدون بالوفى الالوف وكلمهم من العلماء المتدينين فليس كل عالم كافراً ولا كل دين جاهلاً ولا تناقض بين العلم والدين . فان قيل ان كثيرين من العلماء مرقوا من الدين

قلت ان مروقهم لم ينشأ عن العلم بل عن فساد قلوبهم وخبث نفوسهم الامارة بالسوء
وما كانت العلم الا كاشفاً لذلك المروق لا شيئاً له وعدم التناقض بين العلم والدين
لا يستلزم ان يكون كل عالم ديناً كما ان عدم التناقض بين العلم والغنى لا يستلزم ان
يكون كل عالم غنياً وكفى بذلك دليلاً لمن يريد الاذعان للحق .
الثالث : انه لو كان العلم مناقضاً للدين للزم عن ذلك ان المرء كما تجر في العلم توغل
في الكفر وهو خلاف الحقيقة لان الاختبار اثبت لنا ان المتدين كما تجر في العلم زاد
تديناً اذ ان العلم يعينه على كشف أسرار الكون وكما كشف منها سرّاً اقرب من رب
الاسرار وعالم الخفايا جل جلاله كرافى سلم قصر شاقق كما صعد درجة تقرب من المقيم
بالى غرفة فيه . وقد شهد العلماء الانقياء ان العلم لم يزد من الايماناً بخالق الاكوان
لانهم قرأوا آياته البينات في كتاب الطبيعة كما قرأوها في كتاب الشريعة . وهم الذين
البتوا وجوده تعالى وجلوا آيات كونه ورفعوا اعلام عظمتهم ومزقوا حجب الظلمات عن
عجايب حكمته وقدرته وجودته . منهم العلامة كلثوم احد اعيان الانكيز المتوفى سنة ١٩٠٧
الذي اشتهرت مباحثه الكبر بالية في الاقطار وجاء بالبدع العجيبة في معرفة اعماق البحار
وقد نسب اليه العلماء اعظم المسائل المتعلقة بالجواهر الفرد والاثير وغيرها فهذا الرجل الجليل
الذي فاق اقرانه في المباحث العلمية لم يكشف بكشف الاسرار المادية بل أخذ يبحث في
المعقولات والمثبوتات والاختيار والعواطف والانتعالات والقوة والعقل والعلّة العاملة وامثال
ذلك من الموضوعات العقلية وأثبت في كل من تلك المباحث آيات القصد والحكمة في
العالمين ومما قاله في ذلك « ان الاشياء كانت اما بالاتفاق (الصدفة) واما بالضرورة
واما بالقصد وكل من الاول والثاني باطل . اما الاول فلانه يقتضي كون معلول بلا
علّة . واما الثاني فيقتضي ان الاشياء على ما هي عليه الآن كانت كذلك منذ الازل .
والواقع خلاف ذلك على ما ثبت في مباحث التكوين فكيف توزعت عناصر العالمين على
نسبتها المعلومه ولما ذا كان الذهب اقل من الحديد والحديد من الصلصال . وكيف
استنسبت الكرة الارضية في خواص موادها وصفاتها ومقدارها وتوزعها على مقتضى
حاجة الاحياء وانتشارها ونموها وكيف نشأت الحياة في الجماد ؟ ما ذلك الا لان كل
شيء قائم بعناية خالق حكيم ضابط الكل فالعالم مخلوق فثبت الخالق » .

وهذا من الأدلة العلمية التي لا يسع الكفرة انكارها فالعلم الحق لا ينافي الدين
الحق ولا ينفيه بل يثبت ويؤيده ويقويه . واما الذين كفروا بالله وآياته فقد كان
كفرهم لقلة علمهم قبل ان يقفوا على بينات الدين فلما تعمقوا في العلوم اشتغلوا بها دون
غيرها فتمكن منهم الكفر الى حد لم يستطيعوا عنده الرجوع عنه ولو عرفوا ضرره
فقتلهم مثل الذي أدمن المسكرات حتى صار شريراً من طبعه واخلاقه فيستمر عليها
ولا يرجع عنها مع معرفته ضررها . وجملة القول ان التعمق في العلم يزيد المؤمن ايماناً والكافر
كفراً . فلا تناقض بين العلم والدين بل هما حليقان ولو كره الكافرون . ومما يؤيد ذلك ان
كلاً منها نافع للآخر فالعلم افاد الدين بانه ازال عنه كثيراً من البدع والخرافات التي
شوهت محاسنه واثبت كثيراً من حقائقه بالاكتشافات المتعددة . والدين افاد العلم
بتشبيده معاهدته ونشر كتبه ورفع اعلامه باموال المتدينين كما تشهد المدارس القديمة في
دمشق وغيرها من البلاد العربية فان الذين اسسوها ووقفوا عليها الاراضي والايمة
كانوا من اهل الدين . والمدارس التي اسستها البعثات الاجنبية في أنحاء الارض المختلفة
انما تأسست باموال المحسنين من اهل الدين ايضاً . فالعلم والدين كنا ولا يزالان حليقين
ينصر احدهما الآخر ويؤيده لا يناقضه ولا يفسده فالاسباب التي يتورك عليها المستحقون
بالعلم والخائفون منه كلها باطلة والتجيج التي يوردونها كلها فاسدة . واذ قد اثبت ان العلم
من مقومات الحياة العقلية والادبية والاجتماعية والسياسية ووضحت فوائده المعنوية والمادية
ومكانه من الجامعة الانسانية المقدم الآن الى بيان الواجب المتروك على الطلاب والعلماء
والوالدين والحكومة والامة كافة في هذا الشأن . فاقول على طلاب العلم ان يدخلوا بيوتهم
من ابوابها وبأخذوا فروعه من اربابها ويجهدوا في الدرس والمطالعة والتأمل والمراجعة
ويواظبوا على كل ذلك بلا ملال ويحترزوا من الكل والاممال متذكرين قول
من قال :

ومن طلب العلوم بغير درس سيدركها متى شاب الغراب
وعليهم ان يفهموا ما يقرأونه لئلا يكونوا كالبيغاء ويحفظوا ما يفهمونه لان العلم في
الصدور لافي السطور . والعرب نقول حرف في قلبك ولا الف في كتبك وما احسن
قول الشافعي :

علي معي حيثما تمت ينفعني صدري وعالي له لا يظن صندوق في
ان كنت في البيت كان العلم فيه معي او كنت في السوق كان العلم في السوق
وعليهم ان لا يقتصروا على نوع واحد من العلم بل يشاركون في فروع كثيرة منه . قال
يحيى بن خالد لابنه : « عليك بكل نوع من العلم فخذ منه فان المرء عدو لما جهل وانا اكره ان
تكون عدواً لشيء من العلم » وقال الشاعر :

ما حوى العلم جميعاً احد لا ولو مارسه الف سنة

انما العلم بعيد غوره نغذوا من كل علم احسنه

ويجب عليهم ايضاً ان يعاشروا العلماء ويداكروهم في المسائل العلمية ويستفيدوا
من اختياراتهم الكثيرة » قال الشاعر :

واطل سيف العلم ماذا كره فحياة العلم ماذا كرهه

ويحسن بهم ان يدونوا ما سمعوه من القوائد لان الانسان عرضة للنسيان ويشابروا
على ذلك الى نهاية الحياة مذكّلين كل عقبة في سبيلهم وغالبين كل صعوبة تثبط عزائمهم
وغير معتدّين بضييق الوقت او كبر السن فان الانسان يقدر ان يجد وقتاً كافياً للتعلم
اذا اراد ان يجد وقتاً كافياً للملاهي المضرة او البطالة والراحة او التلذذ باشباع الشهوات
ولا احد يكبر عن العلم ولو بلغ الثمانين من سنه . قيل ان فكتوريا ملكة الانكليز
شرعت في درس اللغة الهندية وهي في الثالثة والثمانين من عمرها . ومئات من العلماء المشهورين
لم يشروعوا في تحصيل العلم الا بعد ان تجاوزوا العشرين او الثلاثين او الاربعين من
اعمارهم كما في بكر الرازي فقد قيل انه لما شرع في تعلم الطب كان قد تجاوز اربعين سنة من
العمر . ومنهم من درسوا العلوم وهم في المعامل او المتاجر او المزارع لعدم تمكنهم من
تحصيلها في المدارس ايام الحداثة . وكل من جد وجد فلا شيء يمنع المجتهد من اكتساب
العلم مع حال دونه من العقبات . ويجب على العلماء ان يكونوا عاملين بعلمهم باذلين
جهدهم في زيادته ونشره ورفع لوائه وتعزيز منزلته لانهم كالمرافي التي تعكس النور فان لم
يضيئوا غيرهم او يستفيدوا منه كان عليهم عقياً . والعالم الحقيقي من لا يجل بالافادة
ويدعو الناس الى ورود مناهل العرفان ويحبوا اليهم السير في مناهج الفضيلة ويهينوا

لهم مزايا العلم الحميدة ومنافعه العديدة ويحذروا العجب والكبرياء ويحبذوا التخلق
والرياء فان ذلك ينافي الفضل ويبدل على الجهل . قال الامام عمر بن الخطاب « تعلموا
العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم وتواضعوا لمن تعلمون ولا تكونوا من جبابرة العلماء
فلا يقوم علمكم بجهلكم » .

ويجب على الوالدين ان يعينوا بتثقيف عقول اولادهم وتهذيب اخلاقهم كما يعشرون
بترية اجسادهم ويختاروا لهم افضل المعلمين المقتدرين الامناء المعروفين بطهارة السيرة
ويضعوهم في ارقى المدارس التي تنتج سيف تلاميذها روح الرجولية وتلقنهم المبادئ
الشريفة التي توهلهم للحياة النافعة الصالحة . ومن قصر في ذلك كان قاتلاً بل شراً
من القاتل لان قتل العقل اقطع واضر بالمجتمع من قتل الجسد ولان يهلك الرجل ولده
بالسيف اخف جرماً من ان يميت عقله بالجهل فيكون شر الظالمين السفاكين .

ويجب على الحكومة وهي المقامة لصيانة الوطن واعلاء شأنه وتنظيم احوال الامة
بتوفير اسباب الراحة وتمهيد سبل السعادة ان تعنى عناية عظيمة بنشر العلم الصحيح
في كل بلد وقرية بين الذكور والاناث لان الامة لا تنحيا سعيدة ولا تتجاري الامم المتقدمة
الا بانتشار المعارف فيها وتمزق غياهب الجهل عنها . ولا بد للوصول الى ذلك من اتفاق
الاموال الطائلة لزيادة عدد المدارس الابتدائية بحيث يتسنى لكل ولد ان يجد مدرسة
قريبة منه ليتلقى العلم فيها . وحينئذ تمكن الحكومة من جعل التعليم الزامياً مجاناً فلا يمر
وقت طويل حتى يصبح افراد الشعب كلهم متعلمين . وجميع ما يتفق من الاموال في هذا
السبيل يعود على الدولة بالربح الجزيل لانها تعد بذلك خير الرجال الذين يعززون
شأنها ويشيدون بنيانها . وقد عرفت الحكومات الغربية هذه الحقيقة فخصصت
مبالغ طائلة من دخلها للاتفاق في سبيل العلم والتعليم . فحكومة الولايات المتحدة تنفق
نحو عشرين الف الف ريال في السنة على مدارسها وقد ضمت الى دراوين الزراعة والمساحة
اكبر علمائها وقطعت لهم الرواتب الطائلة . وحكومة فرانسه تنفق على التعليم اكثر من
الف الف دينار في السنة . وحكومة انكلترة تبذل في سبيل المعارف نحو خمس نفقاتها
كايها ومثلها حكومة بلجيكة وامتازت حكومة سويسره باتفاقها نحو ثلث دخلها في هذا
السبيل . وفي ما ذكر كفاية لبيان اهتمام دول الغرب بنشر المعارف بين رعاياها وهي تعضد

كل مشروع علمي كالمدراس الاهلية والاندية الادبية والجامع اللغوية وشرف
القراءة وتنشيط المؤلفين واصحاب المجالات وغيرهم من ذوي الافلام وتكافئهم باعطائهم
الجزالة لانها تحب ذلك من افضل الدرائع الى نشر العلم والآداب في الاوطان ومن
امتن السعائم التي يبنى عليها العمران . وقد جذت حكومتنا الرشيدة حذو الحكومات
الراقية في الاهتمام بنشر المعارف في هذه الربوع على قدر ما مكنتها الاحوال فاستحدثت
البناء الطيب . الا ان البلاد لا تزال في حاجة شديدة الى زيادة عدد المدارس المكفلة
بتعميم العلم بين الشعب وانهاضه الى مساواة الشعوب الغربية ولا ريب في ان الحكومة
الحاضرة ستبذل جهدها في سد هذه النلة في القريب العاجل بتمه تعالى وحسن توفيقه .
اما الامة فيجب عليها ان تستيقظ من غفلتها وتنهض من كبوتها وتيقن انه لا حياة
لها الا بالعلم وان العلم لا ينال الا بالاجتهاد والمثابرة والسخاء فلا يجوز للشعب ان
يتكاسل في هذا الامر الخطير ولا ان يتوقع من الحكومة ان تقوم وحدها باعباء هذا
العمل العظيم بل يجب على الافراد والجماعات ان يساعدوا الحكومة على بث المعارف
بتأليف الجمعيات العلمية وتأسيس المدارس الاهلية والاندية الادبية التي لتور الاذهان
وتنشر العرفان . وعلى الاغنياء خصوصا ان يبذلوا شيئا من اموالهم لمعاودة المشروعات
التي تنفع الاوطان وتعين لها النجاح وتلو الشأن ذلك خير من بذل اموالهم في سبيل
التتبع لذاتهم او كنزها في الصناديق الحديدية او المصارف التجارية بحيث لا ينفع بها
احد في حياتهم بل يستولي عليها الورثة بعد مماتهم وربما بذروها في ارتكاب المعاصي
او خزنها كما فعل اسلافهم الذين ورثوها عنهم فلم ينفعوا هم بها ولا نفعوا غيرهم . ان
بعض الاغنياء في بلادنا قد شعروا بوجوب الانفاق في سبيل العلم ومدوا ايديهم الى
مساعدة المشروعات العلمية والاعمال الخيرية فاستحقوا الشكر وتكف باقي الاغنياء
لا يزالون مهملين هذا الواجب فاقبلين عنه وهم يباهون بايلاهم والولائم الفاخرة وركوب
الخيول المطبوعة وبنايها في اغنياء الغرب بوقف اموالهم الطائلة على انشاء المعاهد العلمية
ومعاودة الملاهي الخيرية ولا يقتصرون على معاونة اوطانهم بل يرسلون باموالهم الى
غير بلادهم لتأسيس المدارس الابتدائية والعالية والجامعة خدمة للانسانية كما تشهد
آثارهم في هذا القطر وغيره من اقطار الارض البعيدة والقريبة فتمت اغنياءونا

بتأسيس مدرسة كلية في وطنهم تشبه الكلية الامبركية او الكلية اليسوعية في بيروت
بل متى يهتمون بزيادة عدد المدارس الابتدائية الاهلية في البلدان التي لا يزال الوف
من سكانها يجهلون القراءة والكتابة . ربما يعذرون بان ثروتهم قليلة بالنسبة الى ثروة
اغنياء الغرب فلا يمكنهم ان يقوموا بمثل اعمالهم ولكن قلة ثروتهم لا تمنعهم من القيام
بشيء من الاعمال النافعة لبلادهم والامة لا تطالبهم بما هو فوق طاقتهم بل لتوقع منهم
ان يتعودوا البذل في سبيل العلم شيئا فشيئا الى ان يستطيعوا القيام بعمل كبير نافع
وما ذلك عليهم بعسير . فيا ايها السوربون النجباء والاخوان الادباء اجيبوا نداء محب
مخلص يدعوك الى نشر العلوم والمعارف والآداب والفضائل في الوطن العزيز . وسير
في سبيل التمدن الحقيقي بالمجد والنشاط والعزم والثبات تبلغوا ذروة النجاح . ونفوزوا
بالخير والفلاح . والله المسوؤل ان يوفقكم لكل سعي مشكور . وبعضدكم في كل عمل
مبرور . انه ولي الامر والتدبير . وهو على كل شيء قدير .

عصر النقيقر قد مضى واتاكم
فدعوا التواني وابذلوا مجهودكم
وابنوا المدارس وانشروا الكتب التي
فالجهل ليل ماله من هازم
عصر بانوار التقدم ساطع
في العلم ان العلم فيه منافع
ثمر النعي والفضل فيها يانع
الا صباح بالمعارف لاعم

انيس سلوم



الثالث التجارب والممارسة

ومحصله ان الاجتماع البشري لما كان قد بطرأ عليه من المعاملات المالية ما لا يكون مبرماً مع عدم اتفاق الآراء والنظر على تعيين ما يقع ملائماً من صورها وكيفياتها لم يروا مندوحة عند طلب الكمال عن الاخذ بآية صورة تخاطر لاي محيط من صور تلك المعاملة التي يتصورها العقل وتطبيق آية كيفية يتمكنون من تطبيقها فيما بينهم لتحصيل المقصد الحيوي من تلك المعاملة ويغلب وجود هذا الاصل في المعاملات الاختيارية مثل الزكاة وانواع التجارات والوكالات والمزارعات .

وبعد ان تظهر ملائمة تلك الصور والكيفيات لمصلحة الفريقين المتفقين على إيجاد تلك المعاملة بينهما ويتضح انه لا ينشأ منها خلاف في الاغلب تعتبر في ذلك المحيط اصلاً من الاصول لما تدخله من المعاملات المدنية مقبولا عند جمهورهم يرجعون اليه مرة في تقرير الحق وأخرى في تحصيله ممن وجب عليه ان هو حق له .

وقد سمي هذا الاصل بلسان التشريع الاسلامي « العرف والعادة » وقد اقرته الشريعة الاسلامية عاملاً في غير المنصوص من الاحكام على ممر الايام وهو من اهم الاصول والقواعد للشرائع الزمنية في كل جيل من الاجيال وعصر من العصور .

علاقة اصحاب الشرائع السماوية بالحقوق المدنية

مما تقدم يتكون بلا ريب سؤال ملخص ما هي اذن علاقة الشرائع السماوية بالحقوق المدنية . والجواب عنه حسبما يتضح من اساليب الكتب السماوية المقدسة ان المقصد الاساسي من انزالها ومن ارسال الرسل العظام التي نشرت تعاليمها انما هو تربية النفوس بالاخلاق النافذة وتطويع الامم من صحيح الانحطاط الادبي الى ذروة الكمال العقلي وتقوية الروابط القلبية فيما بين البشر وسوقهم من طريق الرغبة وحس الخير الى ارفع الخصال وجعلهم يتركون المساوى والقبايح باختيارهم بعداً عن اصرارها وعندئذ يستعدون لوضع ما يحتاجون اليه من نافع القوانين .

وقد اقتدر كل واحد من الشارحين على ان يطور بنفسه وتلامذته الملايين من

الحقوق المدنية

في العالم القديم ومنابعها الثابتة (١)

الحقوق المدنية عنصر من عناصر المدنية العامة للعالم القديم وحال ملازم له في اول ادوار التجمع البشري وقد اعتدت اليها فطرة الانسان قبل ان يعنى بامرها ما وقفنا عليه من الكتب السماوية . ولها منابع ثابتة مطردة عند جميع الامم لا تخرج عن ثلاثة بعد البحث والاستقراء .

اولها الحاجة

هذا الاصل كما انه من اصول الصناعة والتجارة وغيرهما فهو اصل من اصول الحقوق المدنية وهو اصل ثابت في كل زمان لما هو حاجي من الاحكام المدنية . ولذلك اقرته الشريعة الاسلامية . وقد اشتهر على السنة المموم ان الحاجة اصل الاختراع . ومن هذا الاصل استنبط الناس قديماً مبادلة العروض بالعروض ، ومما يستنبط منه حق الزواج لبقاء النوع الانساني وحق الطلاق لتحصيل الراحة من النزاع العائلي الدائم .

ثانيها ارشاد الفطرة

ومحصل هذا الاصل اتفاق آراء العالم كافة او اهل محيط يتماه على الحكم باستحسان الامر الذي يكون وسيلة لتحصيل مقصد من مقاصد الحياة العامة وهو اصل يعم الحاجيات والكماليات من الحقوق والارتفاقات وقد استنبط منه قسمة المشترك . او المهاداة زماناً او مكاناً على الانتفاع به قالوا ومن ذلك توريث الابن مال ابيه . وهذا الاصل هو الذي سمي بلسان الشريعة الاسلامية الاجماع وقد تخصص العمل به فيها بمجالة فقدان النص من الكتاب او السنة الذين اعتبرهم الاصلين الاولين لانواع الشرائع والاحكام .

(١) المحاضرة التي القاها الشيخ سعيد مراد الغزي استاذ المجلة في المعهد الحقوقي وذلك في ردة المجمع العلمي في ١٣ تشرين الاول سنة ١٩٢١ م

الناس في اقل من ربع قرن مع ان تطوير الامم باصول التربية العامة لا يمكن حصوله قطعاً في ثلاثة امثال هذه المدة كما قرر في علم الاجتماع .
وهذه هي خاصة الشارعين المشتركة فيما بينهم التي لا يمكن ان يجازيهم فيها احد سوام من اكابر الفلاسفة واعظم نوابغ الامم .

الحقوق المدنية الشرقية وفي ضمنها العربية قبل الاسلام

ما تقدم علم انه لا بد لاية امة من ان تكون ذات حقوق مدنية حيث لا يمكنها الحياة الاجتماعية بدونها غير ان المناضل بين الامم انما يقع في حسن انتخاب هذه الاصول وايضاً في ثمراتها حسب درجة الامة الاخلاقية وصحة احتياجها او فسادها وما وصلت اليه من درجة البعد عن الشر واحترام حقوق الافراد والجماعات عندما تريد ان تسخر بارشاد فطرتها احكام القانون وحسب درجة ما اعتادته من احكام المعاملات في الحسن والقبح .

ثم ان اول ما عرف فيما وصل اليه البحث والاكتشاف من الحقوق المدنية الشرقية شريعة حمورابي المسماة باسم الملك السادس من ملوك الدولة الاولى من دول بابل المؤسسة قبل الميلاد بالالفين واربعائة وستين سنة والتي هي من اصل عربي عندا كثير المؤرخين فمن هذه الشريعة في حقوق الزواج ان كلاً من الرجل والمرأة انما يقترن بين يساويه في الطبقة الاجتماعية لا بمن هو فوقه او ازل منه طبقة .

وقد كان يقع نادراً اتخاذ السراري بطريق الملك غير انهم كانوا يستثنون من ذلك عبيد القصر الملكي فيجوزون لهم التزوج بنات الاحرار .

وكان زواجهم بعقد يكتب وبدون كما هو الحال في احدث الشرائع السماوية وعند ارقى الامم اليوم وكانت حقوق الزوجية عندهم متبادلة على نحو قريب مما هو معروف عن الشريعة الاسلامية ومن احكامهم عقوبة الزاني بالقتل ذبحاً ويستثنى من ذلك المرأة التي يغيب زوجها في الاسر ولا تجد من ينقذها فيسوغ لها ان تلجأ الى من تختذه زوجاً فاذا عاد الزوج الاول كان احق بها وان اولدها الثاني اولاداً فهم له وكان الزوج يقدم مبرراً يسمى ثمن العروس والزوجة تحضر من بيت ابائها ايضاً وكلا المالين يحفظ للزوجة عند الزوج للحاجة .

ومن احكام هذه الشريعة ان الطلاق بيد الرجل فقط وجبنا يستعمله يرجع مهر الزوجة اذا كان محفوظاً عنده ويطلقها اما هي فيجب عليها تربية الاولاد في مقابل حصة معينة من كسب الاب فلا يحق له طلاقها في حال المرض بل يزوج سواها ان اراد وتبقى نفقتها عليه طول حياتها .

ثم ان الزوجة اذا كانت متضررة من معاشرة الزوج ترفع امرها للقاضي فيزعمها من الزوج جبراً اذا ظهر صدقها والا طرحت في الماء .

ثم انه يتشكل من الزواج في هذه الشريعة عقد كفالة متبادلة بين الزوجين في جميع الحقوق المدنية . ولا تفرق هذه الشريعة في الارث بين الذكر والانثى وللوالد ان يمنع من اولاده من وقع منه سبب معقول يوجب منعه من الميراث من ارثه ومن احكامها في المعاملات العامة تسعير الحكومة لقيم السلع وتقدير اجور الصانع حتى من ذوي الحرف الرفيعة مثل الاطباء والمحامين .

وكان عندهم عقود وصوك للمعاملات العامة .

ثم مضت اعصار وادهار ما بين هذه الدولة صاحبة هذه الشريعة وبين عرب الحجاز الذين ظفر فيهم الشارع الاعظم محمد صلى الله عليه وسلم وقد كانت حالتهم الحقوقية على درجة من الانظام ارق بكثير من حالتهم الاجتماعية العامة والادارية وقدور ثوائع هذه الدولة ومن بعدها من الدول الشرقية العربية كثيراً من قواعد الزواج والطلاق غير انهم ساء نظام الطلاق عندهم وصاروا يستعملونه مع عدم شدة الحاجة اليه بل اخترعوا الظهار والايلاء لقهر واعانت الزوجات وفشا عندهم تعدد الزوجات بداع ويدونه بسبب توالي الحروب ما بين قبائلهم وما نتج عنها من ازدياد عدد النساء على عدد الرجال في القبيلة الواحدة من سيايا الحرب اما في قسم الحقوق المدنية العامة فقد كان نظامهم جيداً جداً لا يوجد له نظير عند دول الارض العظيمة في ذلك العهد مثل دولة الفرس والرومان .

ومن ذلك ان اصول القضاء عندهم كانت من اعدل ما يمكن في ذلك العصر وقد كانوا يأخذون عن منابع الحقوق الثلاثة المتقدمة ما يحتاجون اليه من الاحكام المدنية

يسن ان يدونوا شيئاً من تلك الاحكام الجزئية وطرق القضاء واثبت الحقوق انحصرت في قول شاعرهم : فان الحق مقطعه ثلاث شهود او يمين او جلاء وقد كان عندهم حكام في الاموال وآخرون في الدماء وحكام في النسب لاثبات من يكون من الابناء متولداً على غير عمود النسب واصول الزواج العامة وحكام في دعاوي تجاوز على العرض . ومع ذلك فقد كانت حالتهم الادارية ونظام حياتهم الاجتماعي على درجة من البساطة بسبب قلة المقتنيات وضعف الصناعة والتجارة والخصار الكسب في طرق بسيطة كقتيل من النج وتربية المواشي وما شاكها .

الحقوق المدنية عند الرومان من قبل القرن السادس الميلادي

« لاواسط القرن الحادي عشر »

اما الرومان اصحاب الملك الفخيم والممالك المسيحية فقد كانت الحقوق المدنية وفي جملتها دلائل القضاء عندهم على انفس ما يمكن ان يتصوره الانسان . فقد اعتبروا من اولة القضاء المضاربة ما بين شخصين فوهين من اخصاء المتداعيين وامتحان الحق من الباطل في الدعوي بالحديد المحنى في النار الذي كان يستعمل للاقرار بالجرائم مرة وبالحقوق أخرى والطرح في الماء البارد في الشتاء حتى وبالصاب احياناً وهو ان يقف الشخص على هيئة الصليب ماداً يديه مدة معينة من الزمان لامتحان الصدق من الكذب في دعواه او التهمة او البراءة فيما يدعى عليه من الجرم كما بسطه المؤرخ الشهير موسيم الجرمي في تاريخ الكنيسة .

ولا يستراب في ان الرومان اخذوا ذلك عن برايرة افريقيا .

وقد بقي القانون الروماني على هذه الحالة لم يغير في اساسه تغيراً يذكر لاواسط القرن الحادي عشر الميلادي اي بعد ظهور الاسلام باربعة قرون ونصف .

الحقوق المدنية في الاسلام ومنابعها الجديدة

سبق القول في ان البحث عن القوانين المدنية ليس لازماً من لوازم الشرائع السهادية ولا مطرداً من كافة الرسل العظام .

ومن الدواعي على انه اوحى للشارع العربي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم جملة صالحة في الحقوق المدنية انه قد اكمل عمله الاساسي وبعد التطوير الاخلاقي المحيط الذي ظهر فيه في الثلاثة عشر سنة التي اقامها بمكة بعد ما بعث رسولاً وعليه وجد عنده من الوقت متسع لان يعلم الناس اصولاً عامة في الحقوق المدنية كما فعل التكليم سيدنا موسى صلى الله عليه وسلم لعين السبب .

غير ان ما اوضحه الشارع العربي من ذلك كان اغزر مادة واطول حياة بنسبة رقي الانسانية المطرد حسب سنة التدرج .

ومن الدواعي ايضاً ما كان عليه جيران محيطه الفرس والرومان من فساد النظام القضائي كما مر التنبيه على بعض ذلك . وعدم تمام استفادة العرب مما كانوا عليه من النظام القضائي بداعي فساد نظامهم الاجتماعي والادبي بما كان قد حمل اليهم عمرو بن لحي الخزاعي حاكم مقاطعة الحجاز قبل بعث الرسول محمد صلى الله عليه وسلم . بقرنين ثانياً من عادات وعقائد الهنود عندما توجه لطبريا مستطباً من مياهها المعدنية .

ثم ان الاسلام بعد ما نظر نظرة عامة للشرائع الماضية قبل ما وجده منها ملائماً لمصالح العامة من ذلك المضاربات والشركات والرهون وعقوبة الزناة وقتلة النفوس والبغاة وهذا النوع لا يمحصر كثرة .

وعدل ما يصير نافعاً وصالحاً ببعض تعديل كالهبوعات والاجارات التي ادخل عليها من الشروط في المعقود عليه والعاقدين ما يضمن مصلحتها ويرفع النزاع فيما بينها ومن هذا النوع القسم الاعظم من احكام الشريعة الاسلامية كما يتضح لمن احاط بفروعها ملماً بما كانت عليه حالة العالم القديم في هذا النوع من المعاملات كما انه ابطل ما هو مضر من الاحكام القديمة من ذلك ابطاله حكم تأييد الظهار والايلاء وابداله بايقاع الطلاق على المظاهر والمولى فيما لو بقي مصرأ على قوله ولم يرجع عنه واوجب عليه عند الرجوع كفارة غليظة يقصد منها الزجر عن الدخول في مثل هذا العمل والتجاسر عليه .

وشرع احكاماً جديدة لا عهد للعالم القديم بها نافعة جداً مثل اللعاب ما بين

الزوجين الذي تاقته الفراق الدائم فيها ينشأ عندما يرمي الزوج زوجته بتهمة الفاحشة من دون ان يكون له على قوله دليل تقع به القناعة .

وقد كانت حرب الجامعة تبرع في مثل هذه الحادثة للكهان يستطلعون رأيهم اعتقاداً بان لم سلق مع الملاء الاعلى في الوقوف على الحقائق العامة التي فقدت الاسباب الطامعة للوقوف عليها .

وسرع الاخذ بالشفعة وحدود درجات الاهلية والمسؤولية في كافة انواع الحقوق وسائر اصناف الجرائم .

ووسع طرق القضاء ووضح ادبياته على وجه لم يعرف في شرائع العالم القديم وتفصيل ذلك والاحاطة به متيسر لمن وقف على المدونات الحقوقية الاسلامية وعرف ما كان عند العالم قبل الاسلام من ذلك .

ثم ان الاصول والمنايع الحقوقية في نظر الشريعة الاسلامية اربعة اربعة تندمج فيها الاصول الثلاثة العامة المتقدمة لكافة الامم وهذه الاصول هي الكتاب اي القرآن المجيد والسنة اي اقوال الرسول واعماله وتقريره ما يراه من عمل غيره ويعبر عن هذين الاصناف بالنص التشريعي وما في معناه .

والاجماع وهو عبارة عن اتفاق علماء الشرع الواقفين على اصوله على الحكم في الحادثة الغير الواضح حكمها بوجه خاص من النص التشريعي ويعبر عن هؤلاء العلماء ايضاً بأهل الاجتهاد القادرين على استنباط احكام الحوادث الجزئية من المنايع العامة والسبع الرابع القياس المختص الاستناد منه هؤلاء العلماء المتقدمين بهم في الاجماع ومن هذا وضع ان الشريعة الاسلامية اثبتت اصولاً ثابتة للاحكام المدنية يمكن ان يستفاد منها كل ما يحتاج اليه في كل عصر كما ان نصوصها قد صرحت بموافقة الاعراف والعادات في التشريع ونماشة الحاجات والمصالح المختلفة باختلاف العصور المتحددة بتجدد احوال الحضارة وال عمران .

الحقوق المدنية الرومانية من اواسط القرن الحادي عشر الميلادي للآن

في اوائل هذا القرن وجد غريوت اي السوفستر الثاني الافرنسي الذي جلس

كرسي ماري بطرس لغاية سنة ١٠٢٤ ميلادية وكان مع اخوان له من انصار العلم والحق معاً يتلقون سائر العلوم التي كان سوقها رائجاً في مدارس الاندلس الاسلامية وفي جملتها الفقه الاسلامي المأخوذ من منابعه الاربعة المتقدمة في العنوان قبل هذا بعد ان برعوا في اللغة العربية وكانوا يترجمون دروسهم الى لغتهم فبسبب ذلك وبسبب رداءة حالة القضاء عندهم كما تقدم الاشارة الى بعض ذلك في هذه المقالة .

وعليه فكروا في ان ينقلوا ما يلائمهم ويوافق محيطهم من احكام تلك الحقوق واقنعوا بضرورة ذلك ملوك الجهة الجنوبية من بلادهم .

وبعد ان اتفق رأيهم على ذلك بشرط عدم عزو المأخوذ عن الشرائع الاسلامية لمنبعه الاصيل خوفاً من نفرة العسامة من المسيحيين الذين كانوا بواسطة رؤساء الدين ينفرون من كل شيء مصدره الاسلام معاً كان حسناً ونافعاً فاجمعوا من اجل ذلك على تسمية ما يأخذونه عن الشريعة الاسلامية من تلك الحقوق (الشرائع الرومانية) او القانون المدني (وان يعزوه لاجتهادات علماء الحقوق منهم بفتيحة البحث والدرس .

وهذه الحقيقة على هذا الوجه ثابتة من مصدرين احدهما مصدر شرقي اسلامي وهو ما يأتني :

قد جاء في مجموعة رسائل في شوارد المسائل للعالم الباحث المنقب مفضل بن رضى الاسفركاني ما نصه :

كتب ابو العباس الكركري من تلامذة بهمنيار وهذا تلميذ الشيخ الرئيس البجلي بن سينا في رسالته لمفتي مرو احمد بن عبد الله السرخسي في معنى كمال الفقه ان ابا الوليد محمد بن عبد الله بن خيرة نقل في تعليقاته على النهاية شرح الهداية ان طلبه العلم من الافرنج الذين كانوا يسافرون الى غرناطة لطلب العلم اهتموا كثيراً بنقل فقه الاسلام الى لغتهم لعلهم يستعملونه في بلادهم لرداءة الاحكام فيها خصوصاً في المالة الرابعة والخامسة من الهجرة فقد برعوا في اللغة العربية منهم صربرت والبرت فانها طلبا مساعدة العلماء لا يراز مقصدها وقد ساعدوها حتى دونوا الفقه كاملاً وحوروه الى ما يوافق بلادهم ولذلك ترى احكام القوانين والقضاء لاتزل رديئة وسيئة في العدو الشمالية من بلاد

الافرنج اه المقصود نقله من عبارة الاسفركاني من علماء الفرس المعبر عنهم بعلماء ماوراء النهر . والمصدر الثاني غربي وغير اسلامي وهو ما يأتي :
قال العلامة المؤرخ الشهير موسيم الجرمني في تاريخ الكنيسة المترجم للعربية بعرفة العالم هانري جب الاميركاني المطبوع في بيروت في كلامه عن القرن العاشر الميلادي ما نصه : ان عربوت الفرنسي المعروف بين الاحبار الرومانين بسلفستر الثاني كان مديوناً على بعض معرفته ولا سيما الفلسفة والطب والتعاليم لكتب عرب اسبانيا ومدارسهم لانه مضى الى اسبانيا في طلب العلم وكانت تليد علماء العرب في قرطبة وسفلا (اشبيلية) وربما أثرت سفرته في الاوربيين المنشوقين للعلم وخاصة للطب والحساب والهندسة والفلسفة فكان لهم من ذلك الوقت فصاعداً رغبة عظيمة في ان يقرؤا ويستمعوا علماء العرب الساكنين في اسبانيا وبعض نواحي ايطاليا وترجم كثير من كتبهم الى اللاتينية وذهب كثير من التلاميذ الى اسبانيا ليتعلموا رأساً من خطب علماء العرب . وحق علينا ان نقول ان العرب ولا سيما عرب اسبانيا هم اصل وينبوع كل معرفة من الطب والفلسفة والفلك والتعاليم التي يزغت في اوربا من القرن العاشر فصاعداً اه كلام المؤرخ حرفياً .

ولا يخفى ان علم القوانين هو من أهم التعاليم التي اشتهرت في اوربا في تلك الاوقات وان ما أخذوه من القوانين المدنية والاحكام القضائية هو عين ما لقبوه بالقوانين المدنية الجديدة الرومانية للسبب الذي تقدم بيانه والذي يؤيد صحة هذا الاستنتاج البسيط الواضح من هذين المصدرين التدقيق في احوال وتطورات القانون الروماني الى ما قبل رحلة اولئك العلماء من الافرنج الى اسبانيا وذلك موضع قرناً بعد قرن في كتاب موسيم المحدث عنه وعدم تجويز العقل ما يلفقه بعض مؤرخي الافرنج من مسألة ظهور القانون الروماني فجأة بعد اختفائه مدة اربعة او خمسة قرون فانه من المحال ان تنهل أمة قانونها هذه المدة ثم يظهر فجأة على شكل لا يتفق مع القساوان المعروف قديماً بوجه من الوجوه ولولم بدون في صحيفة واحدة فان ذلك لم يعرض لامة من أم الارض القانونية في الغرب والشرق مع ان الحاجة لتطبيق القانون على الحوادث المستمرة داعية لدوام معرفته والوقوف على احكامه . والعلامة انه لا يوجد سند تاريخي ثابت

بدل على وجود القانون الروماني على الوضع الموجوده الآن او قريب منه قبل رحلة سلفستر ومن معه من الطلاب لمدارس اسبانيا .

ولا ينظر وجود مصدر من المصادر الافرنجية من صحة قولنا بان القانون الروماني أخذ من الفقه الاسلامي اصرح مما تكلم به المؤرخ موسيم مع الجزم بانه ما كان من الممكن للاخذين التصريح الواضح بنسبة ما أخذوه لمصدره المأخوذ عنه لانه تقوم عليهم قيامة رؤساء الاكايروس الكبرى وتضطرم ضوضاء الامة المنقصادة اليهم للعدول عما يرونه من انفع الاعمال لبلادهم ومن اكبر الخدمات لمصلحتها ولو كان في الطب والفلسفة المصرح بانهم أخذت من علماء العرب شيء من الصبغة الدينية لما رأينا التصريح يأخذ ذلك عنهم .

كما ان عبارة مغفل الاسفركاني المنقولة عن تلميذ تلميذ ابن سينا الذي هو من علماء اواسط القرن السادس اثمادونت لتدوين حقيقة ما كان يختلف فيها اثنان في ذلك العصر الذي لم يقل من علمائه احد بخلاف هذه الحقيقة وان علماء الافرنج انما اكتفوا عن قومهم قصداً لمقصود سام لا يعاينون في الكتمان من أجله بل يمدحون واتماحدث الاصرار على اخفاء هذه الحقيقة من القرون الوسطى فصاعداً تارة بدون قصد لعدم وجود التصريح بها في مأخذ علمائهم وأخرى بقصد ملن وقف عليها من المأخذ العربية حباً في الصيت وتدوين المؤرخ الآثار الحسنة لامته ولا يخلو التاريخ من هذه الوصمة على جماله حتى فيما بين الاحزاب المختلفة من أمة واحدة ناهيك بما يكون من ذلك ما بين الشرق والغرب .
وانني لموقن بانه قد قرب الوقت الذي يعترف فيه الشرق بكل ما للغرب من المزايا ويعترف كذلك الغرب بكل ما للشرق من المزايا ويجلس الفريقان على سرر متقابلين متأخين متحابين بقوة الله وانتشار العلم وحسن المقصد .

حقائق تاريخية

عن دمشق وحضارتها (١)

توطئة في بلاد الشام وسورية — دمشق — اسماء دمشق واشتقاقها — سكانها
واجناسهم — حضارتها وعمرانها .

توطئة في بلاد الشام وسورية

ان قطر الشام العزيز منسوب الى سام « بمعنى اسم (٢) » ابن نوح (راحة) ف قيل
في اسمه الشام لان السين والشين تبدلان في اللغات الشرقية الشقائق . ولما اشتهر
بغره الذي كان مدينته صور (مصر) سمي سورية نسبة اليها . وقيل ان اليونانيين
التحقوه فراءوا الاشوريين يتولون شؤونهم فلبسوه اليهم وقالوا (اشورية) ثم حذفت
الحذرة وأبدلت الشين سيناً ف قيل فيها (سورية) واول من ذكرها بهذا الاسم
هيرودوتوس المؤرخ اليوناني وبني الاسمان متعاقبين الى يومنا . على ان الشام اكثر
استعمالاً عندنا لقدمها والافرنج يستعملون الثاني منها اي (سورية) .

وكانت سورية تقسم بحسب موقعها الطبيعي الى ثلاثة أقسام: (أولاً) سورية
الشامية وهي تبندى من جبال طورس شمالاً وتنتهي عند مدخل حماة جنوباً ومن
أمهات مدنها الداخلية انطاكية وحلب وحماة . ومن أمهاتها الساحلية اسكندرونة
ومرسين واللاذقية . (ثانياً) سورية المتوسطة وهي التي أطلق عليها الكتبة
الآخرون اسم سورية الجوفية تعريب كلمة (Célé-Syria) والاولى ان يقال —

(١) الخافرة التي ألقاها الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف أحد أعضاء مجمعنا
العالمين مساء الجمعة في ٢٧ تشرين الاول سنة ١٩٢٠ م .

(٢) وضع الخافرة معاني بعض الاسماء بين هالين أئمة للفائدة .

حقائق تاريخية عن دمشق

في تعريبها وادي سورية كما قيل وادي النيل في ارض مصر ووادي الرافدين اي
الفرات ودجلة في العراق . وهي تبندى من مدخل حماة شمالاً وتنتهي جنوبي صور
جنوباً . ومن أمهات مدنها الداخلية دمشق وتدمر وبعليك وحمص . ومن أمهاتها
الساحلية طرابلس وجبيل وبيروت وصيداء وصور . و (ثالثاً) سورية الجنوبية وهي
ما بقي من سورية ويدخل فيها ما عرف قديماً باسم بلاد كنعان (المنخفض) واليوم فلسطين
(المتغربين) وسميت بعد ذلك بارض الميعاد والارض المقدسة . واشهر اسمائها اليوم
فلسطين عند العرب والافرنج وتمتد من ميساه الحولة شمالاً الى العريش جنوباً ومن
مدنها الداخلية اورشليم اور القدس الشريف وحبرون اي الخليل والناصرية وطبرية
ونابلس . ومن الساحلية عكا وحيفا ويافا وغزة والعريش .

ومعدل طول هذه البلاد جمعاء من الشمال الى الجنوب نحو سبعمائة كيلومتر
وعرضها من الشرق الى الغرب نحو اربعمائة وخمسين فيكون مجموع مساحتها
١٠٩'٥٠٩ — اميال مربعة . وبلغ عدد سكانها في القديم من عشرة ملايين الى خمسة
عشر مليوناً واليوم لا يتجاوز المليونين والنصف فمعدل سكانها ٢٥ نساً في كل ميل
مربع . ولقد حددها الشيخ عبد الغني النابلسي قدس سره بقوله :

وحد الشام طولاً من عريش الى ارض الفرات المستجار

ومن جسر السج يقال عرضاً الى طرسوس للبلد المرار

ومن يافا كذلك الى معان فشم كل ذلك من بلاد

وقيل لسكان هذا القطر الآراميون تغليبا نسبة الى آرام (المرتفع) وهو ابن سام
ابن نوح الذي اشتهرت فيه قبائله ولا سيما انها كانت آخر سكان القدماء عند فتح
اليونانيين فبقي اسمهم متداولاً . ولكن اليونانيين والرومانيين سموا القسمين سورية .
والعرب جاروهم بذلك ثم غاب اسم الشام . ومما يؤثر عن هذا القطر ان الملك هرقل لما
غادر انطاكية الى القسطنطينية على اثر فتح العرب في عهد خلافة الامام عمر بن الخطاب (رضه)
ودع البلاد بلغته اليونانية قائلاً (سوزة سورية) اي (كوفي بسلام يا سورية) .
وكانت عاصمتها منذ القديم دمشق .

دمشق

ان مدينة دمشق هذه موضوع الكلام في هذه المحاضرة هي اقدم مدن سورية لان القبائل التي هاجرت الى هذه البقاع اقامت اولاً في هذه الانحاء لتوفر خصبها بكثرة مياهها ثم تفرقت وسترى في ما يأتي ادلة قاضية تثبت قدمها حتى ان استرابون المؤرخ ذكر مغاورها في العصر الطرقي (الحجري) ولا تزال آثارها فيها وحولها فلهذا كانت هذه المدينة العريقة في القدم اشهر مدن سوريا وانحطت آثارها (ماعدا مدينة بعلبك) ووافرها خصباً واغناها خيرات واكثرها مزارعاً واغزرها مياهاً ولقد ذكرتها آثار قصر الكرك المحصورة على جدرانها في مصر منذ القرن السابع عشر للميلاد ثم مراسلات قل العارنة بعد قرنين كما ذكرتها التوراة وكثير من الكتب التاريخية القديمة . وعلوها عن سطح البحر الرومي الفان ومائتان وستون قدماً وموقعها في مستوى من الارض يشرف عليها جبل قاسيون المعروف بجبل الصالحية نسبة الى الصالحين الذين هم من بني (جماعة) من الكنعانيين النابلسيين المنتسبين الى مسجد ابي صالح (١) خارج الباب الشرقي منها لنزولهم فيه ولما انتقلوا الى سفح ذلك الجبل نسب اليهم فقيل له جبل الصالحية والى هذا أشار الشاعر بقوله :

الصالحية جنة والصالحون بها اقاموا

وبقيتهم هي اليوم آل النابلسي عندنا . وعلو قاسيون ٣٧٠٢ اقدام . ويشرف عليها ايضاً من الغرب الجنوبي جبل الثلج او جبل الشيخ المعروف قديماً بجبل حرموت (القمة العالية) وعلوه ٩٤٠٠ - قدم وهو يربط جوها بندا البليل المحمول

(١) ان مسجد ابي صالح قديم كان يلزمه ابو بكر ابن سيد حمدي الزاهد وقيل انه جدده ثم خلفه فيه ابو صالح صاحبه فنسب اليه ويسمى الآن قبر الشيخ صالح وهو بين الباب الشرقي وباب توما قرب الشيخ ارسلان خارج السور ولما حوصرت قرية جماعيل النابلسية في ايام الحروب الصليبية ترك آل جماعة هؤلاء بلادهم وهاجروا الى دمشق فنزلوا فيه كما ذكرت اعلاه .

على اجمة النسيم وحولها الغوطتان الشرقية والغربية وهما من مزارع الدنيا الاربعة لانها حدائق رائعة وجنان غناء ينساب فيها نهر بردى (البارد او اللودي) (١) وينضم اليه نهر الفيجة (الينبوع) فيدخل المدينة ويتوزع عليها انهاراً سبعة بهندسة بدية فيروي جميع الارض التي حوله والمدينة بجميع احيائها ولذلك سماه اليونان بلعتهم مجرى الذهب (Chrysorrhoeas) لخصب ارضه وبه لقب يوحنا الدمشقي من قدماء العلماء الدمشقيين الذين نبغوا في ايام الدولة الاموية لفصاحته فليل له (مجرى الذهب) . والمدينة مسورة بسور عظيم منبع فيه ابواب حديدية ضخمة وبقي سورها وابوابها الى زمن ابراهيم باشا المصري (١٨٣١-١٨٤٠ م) فسلمه السكان مفتاح المدينة عندما فتحها ودخل من (بوابة الله) مع حاكم لبنان الامير بشير الشهابي الكبير وولده الامير خليل وامن الاهلين فبقي الآف بعض السور والابواب وكانت قلعة دمشق قديمة محصنة بابراج ولها سور وحولها خندق يرد عنها الغارات تجددت في العصور المتوسطة ولا تزال ابنيها ماثلة في غربي المدينة .

ولقد جمعت اسماء المؤلفات في هذه المدينة مما سمي باسمها فكانت اكثر من خمسين واكبرها تاريخ ابن عساكر المشهور وهو من مخطوطات المكتبة الظاهرية الشهيرة طبع منه خمسة مجلدات مؤخراً مختصرة ورأيت في كثير من تلك المؤلفات تاريخ الشام ودمشق وعمرائها وحوادثها . ولكن كل واحد نقل عن قبله في الغالب دون تحقيق وتحقيق فنكر الكلام والخطأ وخطب الباحثون في تفسير الاغلام وبقي الاشكال غامضاً فجددوا اعتمدنا على فلسفة التاريخ ودرسنا علم الآثار القديمة او العاديات ومعارضة اللغات واشتقاقها فان في ذلك مغناً للمؤرخ يحقق فيه الآراء ويصحح النقول فيعتمد لا تون على اقواله . والله در لوقيان القائل : « من العيب العظيم في التاريخ ان لا تفرق بين ماهو حقيقي ثابت وما هو خيالي واهن » . وياقوت الحموي الذي عقب على قول من نقل الكلمة اصهبان وجوهاً غريبة في اشتقاقها (معجم البلدان ١ : ٢٧٠) بانصه : « وما اشبه قوله هذا الا باشتقاق عبد الاعلى القاص حين قيل له : لم سمي العصفور . قال : لانه عصي وفر . قيل له : فالطفيل . قال : لانه طفا وشال - اه » .

(١) نسبة الى (لود) اخي ارام وهو الذي يسميه المصريون (روت) كما ستري .

فرايت في اول محاضرة اندبت لالقاتها على منبر هذه الزهدة بعد عودتي الى هذا الجمع العلمي ان اتخذ تاريخ دمشق موضوعاً لي محمداً - على قدر ما فسح لي الوقت ووصل اليه المدرج - بعض ما كان مستوراً بحجاب الاملال في تحليل الاسماء والتعليل عن الحوادث - على اني لم اتعرض الا لتحليل الاعلام الاعجمية لاننا ندر كها بلهذه راجياً من لطفكم ايها الكرام الاغضاء عن الغفوات - فليس ما تسمعون الان من الآراء الحديثة في التاريخ الا نبيهاً الى البحث والتنقيب للتحقيق والتخصيص ليكون تاريخنا كاملاً مبنياً على الحقائق والراعيين الدامعة - فلا تحملوه يارعاكم الله على غير حسن القصد والله حسي .

٣

اسماء دمشق واشتقاقاتها

من القوائد التاريخية الدالة على تحقيق بعض الآراء في التاريخ الصحيح تحليل الاسماء القديمة ومعرفه معانيها وأصول مبانيها واشتقاقها فهي اشبه بالآثار القديمة في تأييد الحقيقة او التقرب منها على قدر الطائفة وعلى هذا أحلل الآن اسماء هذه المدينة وهي كثيرة ذكر منها القلقشندي المشهور في معلقته (صبح الاعشى) المطبوعة حديثاً - دمشق وجلت وحكي في الروض المعطار تسميتها جيرون والمذراء . . الخ .

اولها الشام = ان هذا الاسم اقدم اسمائها لانه اسم أب الذين احتلوها واختطوها من اللوذين والاراميين كما سترى قريباً . وهو الغالب على السنن الى اليوم . ولا سيما عند العامة حتى انهم قلما يقولون (دمشق) . ومعنى سام بالعبرانية اسم فهو بلا شك اب الاسماء واسم آباء الذين تديروها . ولقد ذكره النابغة الجعدي عند فتح هذه المدينة في ايام العرب وتبهر الي الزهراء القشيري باصابة رجله سيفه . فقال النابغة يخاطب المعير :

فان تكن قدم (بالشام) نادرة (١) فان بالشام اقداً واولا
وان يكن حاجب ممن نغرت به فلم يكن حاجب عما ولا خلا

(١) اي زاله وواقعة .

فتكون تسمية عاصمة الشام باسم بلاد الشام من باب تسمية الجزء باسم الكل مجازاً . وقال صاحب مرصد الاطلاع : مسجد الشام في بخاري العم . والشام موضع في بلاد مراد . والشام محلة في تبريز مشهورة وهو يدل على انتقال هذا الاسم مع سكات البلاد الساميين الذين حملوه في هجرتهم وسماوا به الاماكن التي نزلوها تيمناً باسم جدهم (سام) .

ثانيها دمشق = لقد أول المؤرخون هذا الاسم تأويل شتى والاقر في هذه التسمية انها لودية او ارامية (اي كلدانية او سريانية قديمة) ذكرتها آثار الكرنك وكتابات تل العمارنة باسم (تماسكو) باللغة الهيروغليفية (اللغة المصرية المقدسة) ومعنى الكلمة المزهرة او الثمرة تسمية بغوطتها الحصينة . ولقد ذكرها كثير من العرب بهذا الاسم منهم ابو عبادة المجتري بقوله .

اما دمشق فقد ابدت محاسنها وقد وقى لك مطربها بما وعدا
اذا اردت ملأت العين من بلاد مستحسن وزمان يشبه البلدا
ومن هذا الاسم اخذ اليونانيون كلمة (Damascus) وعنه نقل الاقربج تسميتهم للمدينة وصناعاتها كما سيأتي .

واما قولنا (دمشق الشام) فليس الا تمييزاً لها عن غرناطة الاندلسية المسماة (دمشق الغرب او الاندلس) لان سكانها كانوا من طواري دمشق الذين ذهبوا اليها مع من ذهب الى المغرب فاختراروها سكناً لهم لكثرة مياهها وحدائقها ولجبل الثلج المطل عليها فكانت اشبه بمدينتهم الاصلية . ولكن ابن جبير الكنتاني الرحالة فرق بين الدمشقيين بقوله :

يا (دمشق الغرب) ها تيك لقد زدت عليها
تحتمك الانهار تجري (هي) لنصب إليها
وورد اسمها مؤنثاً في شعر عبد الرحمن بن صهيل الحميمي لما حاصر عسكر يزيد ابن ابي سفيان هذه المدينة بقوله :

فبلغ ابا سفيان عنا باننا على غير حال كان جيش يكونها
وانا على بابي (دمشقة نومي) وقد حان من بابي (دمشقة) حينها

الثالث جلق = لقد غمض اشتقاق هذه الكلمة عن كثيرين فلم يهتدوا الى اصله والذي اراه (إمامنا) يونانية تحريف (Jinic) ومعناها امرأة اذ كان فيها كنيسة بهذا الاسم ذكرها ابن عساكر وغيره ولعلها كنيسة باسم مريم ام المسيح (عيسى) وهي غير المريمية الكبرى وقرب الكنيسة باب الجنيت المسدود في زمن ابن عساكر فقبل فيها (جريق) ثم بالابدال (جريق) و (إمامنا) فارسية من كلمتين هما (كل) اي زهرة او وردة و (لك) بمعنى مائة الف فيكون يحمل معناها مائة الف زهرة اشارة الى غوطتها ثم عدلوا عن الضم في اولها الى الكسر واتبعوا اللام للتخفيف فقالوا (جلق) وعلى هذا الرأي تكون من تسمية الفرس الذين امتلكوها في القرن السادس لبلاد ولذلك كانت شائعة في زمن حسان بن ثابت الانصاري فذكرها بهذا الاسم في قصيدة وصف بها آل جفنة العاسنة حكام دمشق اذ ذاك منها قوله:

لله در عصابة نادمتهم يوماً (بحلق) في الزمان الاول

يسقون من ورد (البريص) عليهم يردى بصق بالرحيق السلسل

واما البريص او البر يص الذي ذكره حسان هنا فهو اما منزله او قصر وربما كان محرفاً عن كلمة (Baradisos) اي براذيسوس اليونانية ومعناها المنزه او الفردوس ولعل اسم يزره من هذا وكان البريص يسبح ايضاً المفسلات (ولعله منخوت من مقام الصلاة) وهو موضع النحاسين الآن. وارى اسم يردى من هذه الكلمة وقال في مرصد الاطلاع: (جلق) ناحية بسرقسطة بالاندلس يسقي نهرها ٢٠ ميلاً وقيل واد في شرقي الاندلس. ثم قال: (جليقية) ناحية قرب ساحل البحر المحيط من ناحية شمال الاندلس في اقصى من جهة الغرب. (اه) وهذا دليل آخر على حمل الدمشقيين لهذا الاسم معهم الى الاندلس تحبياً وحينئذ الى وطنهم الاول.

الرابع جيرون = أطلقه بعضهم على المدينة من باب تسمية الكل باسم الجزء مجازاً لانه من ابواب جامعها الكبير ايام كان هيكلاً لليونانيين فالكلمة يونانية Jiron بمعنى فناء الدار او الهيكل ومنها اسم فناء الكنيسة او سورها عند الافرنج اليوم. وكان اسم جيرون للباب الشرقي من ابواب الهيكل وهو المعروف اليوم بباب (النوفرة) وهي القوارة المشاة سنة ٤١٧ هـ ١٠٢٦ م. ولا تزال آثار السور الذي كان يحيط به

ظاهرة في الزقاق الذي على يمين الداخل الى الجامع من ذلك الباب وهو الموصل الى الظاهرية وقبله زقاق آخر الى يمين الداخل وفيه أعمدة تمتد حتى المدرسة الباذرائية. وفي داخل باب جيرون «محل الجيرونية» كما تسمى الآن. وعلى جانبي باب جيرون عمودان ضخمان يدلان على عرض السوق في ذلك العهد وكانت الاروقة قائمة على هذه الأعمدة لسير الناس والسوق بينهما للعجلات والحيوانات. وحوله كتابات يونانية على يمين الداخل في موضعين (١) وعلى اليسار حائوت صغير فيه باب على اسكفته «عتبة العليا» نقوش بدية يدل على ان الارض قد ارتفعت عن مساحة ارض الشارع القديمة الى أكثر من نصف الباب علواً: ومثلها الى شرقي الجامع عند باب البريد ثلاثة أعمدة عليها طنن وكثيراً ما ذكر الشعراء باب جيرون فقال بعضهم فيه:

ياكر «دمشق» بشق افلام الحيا زهر الرياض مرصعاً ومكلاً

واجور «بجيرون» ذبولك واختص مغنى تآزر بالعلى ونسربلا

وقال بعضهم ان اصل جيرون فارسي تعريب «جروند» بمعنى السراج وهو بعيد

كما لا يخفى.

ومن اغرب ما وصفت به جيرون قول صاحب مرصد الاطلاع: جيرون سقيفة مستطيلة على عمد وسقائف حولها مدينة تطيف بها وهي بدمشق في وسطها كالحلة. وقيل جيرون قرية الجبابرة في ارض كنعان «اه» ولا تزال آثار الأعمدة حولها ظاهرة.

(١) في ربيع سنة ١٩١١ م كنت في دمشق فرأيت كتابة في بيت ابي عثمان الحموي في القميرية بجوار البئر الذهبية على يمين الداخل الى الجامع من باب النوفرة «جيرون» ظهرت في الجدار الغربي عند ترميم البيت وهي يونانية تدل على ان تلك الغرفة بناها مينودورس الابن الاصغر لزينوفوس امين صندوق الهيكل. وهناك حروف غير ظاهرة. وفي بيت الدردري على يمين الباب في اول بيت كتابة يونانية وراء الدرج الذي يؤدي الى البيت طمست البناء فوقها. وكذلك في بيت السمان في القميرية كتابة أخرى يونانية كنت اول من اطلع عليها ونسخها وفيها اشارة الى عبادة المشتري «جروتير» وهي على قاعدة عمود من الحجر الابيض.

قلت : واما جيرون فلسطين فلم نرها اثرأ في ما وصلت اليه يد البحث ولكننا نظن انها فصلحت على المؤلف فالاولى ان تكون هي « جيرون » المسماة قرية اربع بل مدينة اربع وتعرف اليوم باسم « خليل الرحمن » وتحتلف جيرون « جيرون » .
الخامس اسماؤها الاخر = سميت دمشق باسماء اخرى كثيرة نشير اليها نكتة للبحث فساها يوليانيوس الروماني « عين الشرق كله » امرائها . ومن اسمائها العربية « ارم ذات العباد » والكر ذلك كثير من المؤرخين وقالوا ان اسم ارم هو لقبيلة لالمدينة والذي اراه ان العرب لما رآوها كثيرة الاعمدة وعرفوا شأن الاراميين فيها سموها « مدينة ارام ذات العباد » ثم حذفت كلمة مدينة وعبرت ارام الى ارم . ومنها « عاصمة ارام » و « ارام دمشق » تميزا لها عن « ارام صوبة » في وادي سورية المخوفة . و « مدينة العازر » وهو خادم ابراهيم الخليل المنسوب الى دمشق و « مدينة زمان السرياني » وهو احد سكانها . و « بيت رامون » نسبة الى هيكلها الذي كان باسم الاله رامون اللوودي ومنه اسم يرمانة في ظاهر دمشق . و « حاضرة الروم » و « حصن الشام » و « بيت ملكهم » و « باب الكعبة » و « فسطاط المسلمين » و « العذراء » ولعلها نسبة الى مريم العذراء التي فيها كنيسة القديمة المعروفة بالبريحية . و « قاعة وادي سورية » المعروفة بسورية المخوفة في اصطلاح مؤرخينا الآن . ومن القبايا « الفيحاء » لاتساعها و « الغناء » لانتفاف اشجارها الكثيفة و « جنة الارض » لكثرة حدائقها و غزاره مياهها .

وفي تسميات احبائها وضواحيها اشتقاقات تكشف القناع عن وجه كثير من الحقائق الغامضة التي تتحلبها المؤرخون ويتكهن بها اللغويون . فمن الاسماء باللغة الفينيقية « دمر » تحريف دامور او نامور او نامار وهو عديم الاله المحامي فكأنهم اتخذوا حصنا له فيه مثاله للدفاع عن المدينة التي كانت محطة لتجارهم الشهيرة . و « بلاط » تحريف « بل باليت » . وفي جبل القملون قرية « فليطة » وهي من هذا الاشتقاق .

والاسماء الآرامية اكثر من غيرها مثل « بيت ليا » اي بيت الالهة . و (المعرة) بمعنى المغارة . و (ديرة ران) اي موران بمعنى سيدنا و (آيون او قابون) بمعنى ايننا لدير كان فيها و (حلبون) بمعنى الحصينة و (معربا) بمعنى المغرب و (تلفيتا) اي تل النبي

لكثرة غاياته . و (معرونة) اي المغارة الصغيرة .
ومنها الاسماء الحثية مثل (الشاغور) بمعنى الصغير . و (قطننا) تحريف (كتننا) وهو اسم الحثيين وكذلك (العوطة) فانها تحريف (الكتننة) .
واليهوسية مثل (يوس) و (كفر يوس) نسبة الى اليهوديين من الكنعانيين . و (جديدة الجرش) نسبة الى الجرجاشيين منهم ايضا .
واليونانية مثل (بلاس) بمعنى قصر . و (بيت اوراس) اي بيت السماء وهي الآن اطلال خربة . و (عين ثوما) اي الحمة وهي العين الحارة المياه . و (اقريس) تحريف (فارا تريس) اي ضارب الاعداء ومبدد هم وهو من اسماء المشتري . و (القية) وهي تحريف (بيجه) بمعنى اليبوع . و (مقرا) من مشتقاتها اصلها يوناني (مكر) بمعنى المستطيلة . و (نهر ثورا) اي نهر النظر في اليونانية وقيل انها باسم حكيم اسمه (ثورا) او نسبة الى تاج الملك (ثوري) .

والرومانية مثل جبل (القلون) بمعنى المناخ اي جودة الهواء . و (بانياس) من بان اله الغابات وهو من اسماء انهارها اليوم .

والعبرانية (المزرة) وهي باسم حفيد عيسو ومعناه « الخوف » او هي يونانية بمعنى النلة او الربوة و قربها (الربوة) المدينة الخربة الآن بعد احراق الصليبيين لها .

والفارسية (جوبر) من جو بار بمعنى مسيل النهر الصغير . و (خرسنا) من (خر) بمعنى الشمس او حور اسم اله و (روستا) بمعنى سواد وقرى اي قرى الشمس ومنها « عرب الرستاق عندنا » و (متين) فانها مركبة من (مه) كبير و (تين) زحل فمعناها زحل الكبير او من (مي) بمعنى الحجر فتكون بمعنى ياخوس .

وذكر ابن عساكر كثيرا من اسماء القرى العربية مثل (صنعاء) وهي خربة الآن دون المزرة مسماة باسم (صنعاء اليمن) العربية ومثلها قرية (الحمر بين) الخربة وفيها مسجد كان مشهورا وهذا من الادلة على ان اليعنبيين تديروها .

(١) هو زوج زمرد خاتون ام شمس الملوك اخت الملك دقاق توفيت سنة ٥٥٧ هـ (١١٦١ م) وهي مؤسسة المدرسة الخاتونية البرانية في دمشق المنسوبة اليها .

سكانها وأجناسهم

كانت قبائل العالقة وفروعها محنة سورية منذ أوائل الزمن التاريخي . ومنهم الجرجاشيون وغيرهم من أبناء أعمامهم كالبوسيين . ولما حدثت زلازل شديدة ارتعدت لها فرائص الأرض على ضفاف خليج العجم وما إليها في القرن العشرين قبل الميلاد علمت قلوب سكانها من القبائل السامية والياقينية والحامية فقرتوا منذ عشرين من نقوبيض مساكنهم وتدمير عمرانهم فباحوا في الأرض إلى أن رأوا نجعتهم ضواحي دمشق لخصيا واتساعها فاستظفروا على سكانها من الكنعانيين وتولوا شؤونها ومنهم الفينيقيون الذين ظلمهم اللوذيون والآراميون والعبرانيون فتنازجت أصول قدماء السكان في سورية ووثقت أوامر النسابة بينهم المصاهرة ولكنها لم تغنهم قليلا فنشبت بينهم مشاحنات وفت ضغائن قست عليهم بالحروب المستطيلة .

ومن سكت عنهم المؤرخون أو أغفلوا أو أشاروا إليهم من طرف خفي (١) اللوذيون اخوة الآراميين لأن سام بن نوح رزق خمسة أبناء هم عيلام وأشور وأرفكشاد ولود وأرام .

وبما أن مملكة آرام كانت المملكة الأخيرة من هذه القبائل شاع ذكرها على ألسنة المؤرخين فأشاروا إليها بالتفصيل وأغفلوا ذكر مملكة لود الذي كان أكبر من آرام فلما قبله واشتهر . وكان لبني لود مواقع حربية عظيمة وآثار عمران كثيرة في شمالي سورية ومتوسطها وجنوبها . فأسسوا مملكتهم الفخمة ونزلوا دمشق قبل اخوتهم الآراميين أو معهم وأسسوا حضارتها وشيدوا أبنيتها العظيمة ولا سيما هيكل رامون المنيع الذي حوّل إلى هيكل المشتري (جوبيتر) ثم إلى كنيسة القديس يوحنا المعمدان ثم إلى الجامع الأموي الكبير المشهور بآثار بنائه الفخم وهندسته الرائعة . ولهذا أفرد هذه الصفحة لتفريق تاريخهم وحسر اللثام عن أصلهم ولم أر أحدا تعرض لوصفهم بالتطويل

(١) راجع لرمات ومسيرة المؤرخين الفرنسيين وبعض تواريخ مصر ولا سيما الأثرية منها . وكتب السياحة ونحوها .

غيري في ما نشرته في مقتطف السنة الماضية بعنوان (أقدم سكان سورية اللوذيون) وهو بحث مستفيض .

نقرر في هذا العصر تحقيق التاريخ بالآثار القديمة وتحليل الاسماء ونحوها فلهذا إذا استنطقنا هيكل الكرنك في مصر أرونا صفحات جدرانه لنطالعها فنقرأ فيها أخبار غزوات الفراعنة لهذه القبيلة التي يسمونها (رولنو) لأن اللام والعال تبدلان في اللغة الهيروغليفية بالراء والهاء فيقال في اللودان الروتان . مما يثبت أن سكان سورية حين غزا نخونومس أو توطميس (الاول من الدولة الثامنة عشرة المصرية هذه البلاد سنة ١٦٥٠ ق م كانوا هم اللوذيون أو الروتينيون لا غيرهم وان شئت فقل اللودان أو الروتان .

وقد شمل اسم اللودان القبائل التي لم تخضع للمصريين . وكانت قبائلهم تنقسم إلى لودان المغرب أو الأسفل وهم سكان دمشق هذه وما إليها وبلاد فلسطين . وإلى لودان المشرق أو الأعلى وهم سكان سورية الشمالية وجزء من غربي ما بين النهرين . فلهذا كانت دمشق عاصمة اللوذيين وحصنهم المنيع في (لودان) أي بيت اللوذيين وهي مشهورة بمناعتها الطبيعية فارفعها ٤٥٠٠ قدم . وموقع قلعة الشقيف على عا ٦٨١٠ — أقدم منها فهي تشرف على جميع المضائق والطرق التي تأتي منها جيوش الأعداء ولا سيما المصريين الذين حاربوهم . وكلمة الشقيف كلدانية بمعنى الصخرة وأرادوا بها الحصن المنيع كالصخر أو المشيد على الصخر . ومثلها شقيف تيرون في جنوبي سورية .

ولما استظفروا المصريين على اللوذيين وملكوا منهم وادي سورية أي سهل بعلبك والبقاع وما يتصل به أقاموا حصنا على مضائق وادي يحنوفا لدفع غزوات اللوذيين لهم من دمشق وضواحيها وسموه (بربتان) أي بيت الروتينيين بلغتهم المصرية كما سبق وهي إلى اليوم قرية عامرة . وفر بها قرية (حور تعله) وهي مركبة من (حور) الإله المصري الذي يقابل (ابولون) عند اليونان و(تعله) بمعنى تعالى . مما يدل على نزول المصريين فيها واتخاذها هيكلًا لألهتهم . ومن غريب ما قرأت في تاريخ ابن عساكر أن قرية (حور تعله) من ضواحي دمشق كان فيها مسجد ينسب إليها وذلك يدل على أن نفرا من الروتينيين جاؤا من بعلبك واستمروها وسموها باسم بلدتهم كما هو الحال في كثير من التسميات مثل (تربل) في البقاع . فإن سكانها في زمن الإبطوريين (الجيليين) الذين ظلمهم يومي القائد

الروماني في منتصف القرن الاول للميلاد وكانت حاصرتهم كلثيس او خلقيس (مدينة النحاس) اي عجر اليوم في البقاع . امتد ملكهم الى السواحل فجاء نفر من جبل تبول فوق مدينة طرابلس الشام وسكنوا هذه القرية فسموها باسم موطنهم الاول .
وانا اردنا التوسع قليلا بامتداد الامة الرومانية في انحاء سورية نرى ان اسم بيروت (بقرب من ابيروت) فكأنها كانت تغرم البحري للدفاع عن بلادهم . وهذا اولى من نسبتها « بالايار » كما يقول المؤرخون لان معظم المدن الساحلية لا يباع فيها بل ايار فقط فلما خست بيروت بذلك الاسم دون غيرها . واسمها في الآثار المصرية « باروتا » وهو اقرب الى هذا الوجه منه الى الايار .

ومن اوجه ما عدنا ان نهر البطاني الذي اتخلل سهل بعلبك والبقاع ليس الا تحريف كلمة لوداني اوروناني وان شئت فقل « لوتاني » فهو منسوب الى هذا الشعب القاطن في ذلك السهل الاصح . وكذلك نهر الرز في الشمال زحلة ونهر يردى الذي ينساب في هذه المدينة يرجح انهما من هذا الاشتقاق فقبل نهر « يت روده » ثم نحت وايدل فصار يروده او يردى وحذفت كلمة النهر . ويوجد في سهل بعلبك قرية تسمى حوش يردى (حوش الذهب) والاسمان من اسماء نهر دمشق كما مر . وتوجد قرية يرتي في جزين ايضا وهي من هذا القبيل وقس عليها .

والرجح ان اللوذين هم الذين شيّدوا الحصون والمعاقل الفخمة في مشارف سورية وفلسطين مثل قلعة كركيش وحلب وشبر وقدس وحماة وحمص ودمشق وكرك الشوبك وغيرها لكثرة غزوات المصريين لهم . وكانت لهم عاصمتان عظيمتان هما (كركيش) المركبة من (كركو) اي حصن و (ككوش) الاله القاهر . ومثلها قرية (عرجوش) في البقاع قرب زحلة وهي خربة اليوم تعرف بالبيضة . وعرفت كركيش هذه باسم هيرا بوليس اي المدينة المقدسة عند اليونان ثم حرف اسمها الى جيرا بوليس فجرا بوليس كما هو الآن .

واسمها الثانية كانت قادش او قدس بمعنى المقدسة وهي على ضفة بحيرة باسمها تدعى الآن (قطيفة) نسبة الى الحثيين الذين سمو (كتيين) وهي سيف محل النبي مندو والحثية وغيرهما .

في جوار حمص حيث البعثة الاثرية الفرنسية تحفر الآثار الدالة على حضارة تلك العصور (١) .

ومن البراهين الدامغة على صحة رأينا في هذه القبائل اللودية او الرونية ان الآثار المصرية لم تدون في مادونته من اخبار غزوات ملوكها الاولين الا اسم الروني اسي اللوذين . ولم تذكر الحثيين والاراميين الا في زمن الدولة التاسعة عشرة . وذلك لان الحثيين استظهروا على اللوذين بعد ان دانوا لهم زمنا طويلا ودفعوا لهم الجزية التي خسروها عليهم فالتهمز الاراميون - الذين امتزج بهم أبناء عمهم اللوذيون - الفرصة للاقتصاص من غالبي انسابهم فغزبوا الحثيين ضربات قاضية واشتهر ذكر الاراميين من القرن الثامن قبل الميلاد الى فتح اليونانيين للبلاد في القرن الرابع قبله . فذلك نقل اليها اليونان ذكر الاراميين في منازلهم ايامهم ولم يذكروا اللوذين لانهم كانوا غدا اندغموا بهم وزالت مملكتهم بيد الحثيين كما مر .

وكان من تأثير غلبة اليونان للاراميين انهم بدلوا اسم بلادهم (ارام) باسم (سورية) كما سبق لنا تعليل ذلك في صدر الحاضرة فذكره يروودوس البلاد بهذا الاسم الجديد وشاع بيننا .

فبهذا كانت حضارة دمشق القديمة من قبائل العمالقة ولاسيما الحرحاشيين والبيوسيين كما مر ثم توالت عليها ملوك اللوذين والحثيين والاراميين واليونانيين والرومانيين الى الفتح العربي وتمازجت اصول تلك القبائل بالمصاهرة .

وكانت قبائل اليمن العربية قد اندفعت الى هذه البلاد على اثر اندفاق سيل العرم في بلادها اليمنية فكانت منهم قبائل النجاشي والفسانة والقضاة والاباديين والايطوريين وغيرهم مختلفين حكم تلك الدول باماراتهم وملوكهم .

(١) راجع صفحة ٣١٦ من الجزء العاشر لمجلة المجمع العلمي سنة ستمائة الاولى وهذا تفصيل ما وعدنا به هناك . ولقد جاءت بعثة افريقية سنة ١٨٩٤ م الى هذا المحل واحفرت في ربيع السنة الماضية . واستأنفت عملها في خريف هذه السنة وستزيل اكتشافاتها كثيرا من الالباس والاشكال في تاريخ الامم اللودية والحثية وغيرهما .

وغزا ملوك اشور وبابل هذه البلاد ولا سيما صمتها دمشق هذه. وكان لغت فلاسر ثاني ملوك اشور قد حاصرها وافتحها سنة ٧٣٢ ق م وجلا ثمانية آلاف من سكانها الى بلدة فير في العجم وقتل ملكها وصين. ثم حاصرها شلناصر وصايق اهلها وقطع اشجارها. وكانت الدول العبرانية قد صحت تقوسها اليها ففتحها داود الملك وحالفته ثم انقضت عليه بارسال نجدة من قومها الى هدد عزز ملك صوبة الذي حاربه داود فاوغر ذلك صدره عليهم وقتل من اراميين دمشق ٢٢ الفا واستولى على البلاد واقام محافظين في ارام دمشق فاستعبد سكان هذه المدينة الاراميون مدة طويلة للعبرانيين وادوا الجزية لهم.

وكانت دمشق مدة بيد الاشوريين الى سنة ٧٢١ ق م فالتق سكان دمشق مع اليهود على الاشوريين ثم استولى عليها البابليون والفرس. وقال استرابون: ان دمشق كانت اشهر مدن سورية في الدولة الفارسية. وكثرت الجاليات الى دمشق من البلدان التي لها علاقة بفتحها. وانتقل بعض سكانها الى تلك الاصقاع سنة الله (وان تجد لسنة الله تبديلا).

ولما ملكها اليونان كانت هذه الحاضرة مدينة عظيمة لا يفوقها الا انطاكية من بعض الوجوه.

وفي عهد استيلاء الدولتين اليونانية والرومانية عليها قدم كثير من رعاياها وامتزجوا بسكانها وخبث اصولهم الا بعض اليونان التي حفظت انسائها مثل آل سرجون الذين تقدموا عند الدولة الاموية في ديوان الانشاء ومنهم نشأ القديس يوحنا الدمشقي الفيلسوف الشهير الملقب باسم نهر يردى (مجرى الذهب) كما سبق القول آنفا. ويقال ان بيت هذه الاسرة الوطنية القديمة هو اليوم محل دير الالباء اليسوعيين قرب باب توما وان هذه الاسرة لها بقية في صافيتنا تعرف فيها باسم آل الخوري لكثرة الكهنة الذين تسلموا منها والله اعلم.

وكان انقلاب عظيم عند انصر اليونان والرومان في هذه المدينة ولا سيما في ايام نيوديسيوس الكبير الذي شدد النكير على الوثنية وابطل عبادة الاصنام وهدم بعض هياكلها ثم هدم ابنه اركاديوس بعض هياكل رامون في هذه العاصمة ثم رممه وجعله

كنيسة مار يوحنا المعمدان المعروفة اليوم (بمقام سيدنا يحيى) داخل حرم الجامع الاموي وفي وقت قصير انصر اهلها كاهن ما عدا اليهود فكثرت بينهم الخصومات. وفي سنة ٤٤٠ م فتحها الفرس ودمروا معظم ابنتها فزادوها خراباً ثم عادت بعد قليل الى الرومان وعمالمهم الفساسة لمجددوا شيدنا من حضارتها وابنتها.

ولما كان الفتح العربي سنة ١٣ هـ (٦٣٤ م) حدث انقلاب آخر في الحاضرة فهاجر منها واليهما كثير من العرب والامم الاخرى التي فيها فتازجت اصولهم. ولم يطل الوقت حتى هاجر كثير من سكانها ايضا الى المغرب والاندلس. ثم نكب فيها العباسيون الامويين فخرّبوا مساكنهم وقتلوا منهم خلقاً كثيراً فازدادت المهاجرة منها الى الاقطار السحيقة. وعند تشييد الجامع الاموي في زمن الدولة الاموية اسندم آلاف من الصنائع البيزنطية اليها وسكنوا فيها بأسرهم ونشروا فيها الصناعات الجميلة.

ولما كانت الحروب الصليبية وحوصرت الثغور والمدن وحل كثير من الاسر الاسلامية الى دمشق مثل آل النابلسي وبقياءهم فيها الى اليوم وقد سبقت الاشارة اليهم. وفي خلال تلك العصور القديمة وما بعدها كثرت الفتن بين اليهود والسوريين الوطنيين. والقيسيين او المضرين واليمنيين. والامويين والعباسيين. والمشارفة والمغاربة. والسنة والشيعة. الى ان كانت حوادث الانكسارية والقيسبول فاضطرب حبل سكانها وهجرها كثير منهم وحل غيرهم محلهم من امكنة مختلفة.

ومن اكبر نكباتها غزوة تيمورلنك (الاعرج الجديد) فضايق الدهشيين وشدد عليهم وأمنهم حتى سلّموا وبنيهم ابن خلدون المؤرخ المشهور وكان من دهائه انه قال له: دعني اقبل يدك التي اناملها الاقاليم الخمسة. وأراد بذلك انه كان قد فتح خمسة اقاليم. فدخل تيمور المدينة ولم يؤذها اولاً ولكنه حاصر القلعة ونكث بوعده. فنكب الاهلين شر نكبة وسلب أموالهم وأحرق البيوت وكان يعذب الامراء فيسقيهم الرماد ويعطيهم الماء والملح والكس ويكويهم بالنار ليقرؤا له بأموالهم فاستخرجوا منهم استخراج الزيت بالمعاصر. ثم امر بالنهب العام والسبي والقتل والاحراق والاسر على الاطلاق فمزق شمل السكان كل ممزق وسبي المخدرات وبقي على هذه الحالة من الضغط ثلاثة ايام فاحرق المدينة وغادرها ملتبهة غيظاً ونقل جميع صنائع السيوف والزجاج والوان

الفاخرة والاعيان . ففر من بقي من سكانها خوفاً وبعد ان وثقوا بعدم عودته الى البلاد عاد قليل من سكانها للتدعم . وجاء المدينة اقوام من المدن الاخرى ولا سيما حماة فان كثير من سكان دمشق اصلم منها منذ ذلك العهد وكذلك من الانحاء الاخرى . وكانت الذن قد كثرت في حوران ولا سيما بين القيسيين واليمنيين فقصدها كثير من الاسر المسيحية فلبثوا فيها مدة وبعضهم عادوها الى حمص وحماة وحلب وعكار والحصن ولبنان وغيرها . وفي اليوم معظم الاسر . وكثرت المهاجرة اليها والى لبنان على اثر الفتح العثماني في اوائل القرن السادس عشر للميلاد . فلماذا نشأت اصول امرها وسكانها متمازجة في الغالب . فهي مختلفة الاجناس والمذاهب بين عرب وشراكسة واكراد وتوركوفرس ويهود وكرج وقبطوسريان وارمن ويونان واووربيين . وبين هذه الاسر المختلفة كثير من ارباب النسب الصحيح واهل البيوت المأهولة واليهود العلمية على اختلاف فروعها ولا سيما الطبية فيقال ان آل مختبشوع المسيحيين لم فيها بقية قليلة في الساحة اليوم تعرف بال الحكم قدمت اليها من بلاد العميم . وآل الرحي من اطباؤها المسلمين المشهورين نالوا منزلة رفيعة في خدمة مستشفياتها ومدارسها . واشتهر من غير هاتين الاسرتين كثير من اطباؤها وعلمائها ومؤلفيها ومشاهيرها من العالفتين .

اما الصناعات فيها فكانت راقية كاستري ولذلك ترى معظم اسماء اسرها مما يدل على صناعاتها القديمة مثل آل بولاد والسيوفي وجوهرو جوهري ومسابكي وصيقل وحداد ونحاس وفراز ومباردي وفساطلي وساعاتي وهواو بني ومنيرة وخوام ومراياقي وجرائحي وطرايشي وحفاروطبايع ونحات ومساميري ومشاطي وصباغ ونوبلاقي ومحاريبي وسائغ وخياط وترزي وبارودي وبنا وحكيم ومسدية ودقاق وتقاش وحجار وسماك وفراة وفراية ونجار وقصار وحائك ومخس وقبافي وشواتي والشباهي . وكلها مختلفة الاجناس والاصول كثيرة الفروع والاسماء متلبسة احياناً بصناعاتها المتوافقة واسوطلا المتخالفة مما فصلته في كتابي الاخبار المروية في تاريخ الاسر الشرقية) وهو في ثمانية مجلدات كبيرة لانزال مخطوطة معدة للطبع .

٥

حضارتها وعمرانها

لقد اسس حضارة دمشق اللوذيون والروميون والاراميون والفينيقيون والحثيون والعبرانيون والاشوريون والبابليون والماديون (الفرس) والمكدونيون (اليونانيون) والرومانيون والعرب ومن جاء بعدهم من الامم الاخرى . وما يدلنا على قدم الممالك الاولى ان اسم دمشق والشام ارامي والشامور (الصغير) والغوطة وقطنا حتي ودمر بمعنى نامار اي الاله القادر فينقي . وهكذا بقية الممالك التي تعاقبت عليها . على ان الدول اليونانية التي بقيت ٢٤٨ سنة والرومانية التي تولت شؤونها ٧٠٠ سنة والعربية التي اتخذت هذه المدينة حاضرتها احدى وتسعين سنة (١) كانت حضارتهم اساساً لما بعدها لانهم استجروا في العمران .

ومما لا ريب فيه ان حضارة دمشق القديمة كانت وثنية فشيدت فيها الابنية الفخمة منها « هيكل رامون (٢) » ونحت التماثيل ونقشت الكتابات مما ذكره كثير من مؤرخي العرب وفي مقدمتهم ابن عساكر في تاريخه المطول فانه ذكر وجود تماثيل وكتابات يونانية وكذلك باقوت في معجته والارمن تازي في تاريخه اذ تعززت حضارتها في عهد السلوقيين خلفاء الاسكندر المكدوني . وفيها محل كان يعرف « بصفة بقراط » حيث كان يجلس هذا الفيلسوف فيه كاقبل وهو في غربي الساحة تحت قبة السيار .

ولكن الرومانيين تساهلوا مع سكان سورية ولا سيما الفينيقيين والاراميين بعبادتهم فكرموا هياكلهم اخصها هياكل دمشق وبعلبك فامتزجت العبادات الفينيقية باليونانية والرومانية امتزاجاً تدل عليه الاساطير القديمة وتحليل اسماء المدن والقرى الباقية الى عهدنا مما فصلته في كتابي « تاريخ سورية الجوفية (٣) » فكان الفينيقيون يعبدون علهيون وهو

(١) من سنة ٤١ - ١٣٢ هـ الموافقة لسنة ٦٦١ - ٧٤٩ م .

(٢) كان محل الجامع الاموي الكبير .

(٣) هو تاريخ مطول في نحو ٨٠٠ صفحة مخطوطة بقطع كامل يشتمل على تاريخ

وادي العاصي وبردى والبيطاني وما اليها بحسب علم الآثار القديمة والاساطير الدينية

زُحل عند اليونان فكرمه هو لاء كما اكرموا مينرفه الهة الحكمة عند اليونان وهي سيبه عند اللاتينيين . وفي اسمي قريتي (طين) قرب زحلة التي منها اسمها و (سبمة) في وادي الزبداني وغيرهما دلالة صريحة على هذا الامتزاج .

ولما انصر اليونان والرومان تقضوا الحضارة الوثنية وهدموا هيكلها العظيمة وحطموا تماثيلها واستبدلوها بالحضارة المسيحية فعوضتها القبائل المنصرفة . معظمها كان من غسان وقضاة واياك من السلاسل العربية .

ومن آثار النصرانية فيها الكنيسة المارونية الكبرى وهي من بناء اركاديو من قيصر المتوفى سنة ٤٠٨ م ذكرها كثير من المؤرخين مثل ابن عساكر والرحالة ابن جبير . وخرت مراراً ورممت الى ان احترقت في حادثة سنة ١٨٦٠ م فذهب ما بقي من روتقها القديم طعمة للنار فرمت على طراز حديث ولا تزال المحلة القريبة منها تسمى (القيصرية) وهي على ما يروح لي بقية كنيسة (ايكوز - ماريا) اليونانيتين اي بيت مريم . وكذلك محلة (الاسية) بقية كنيسة (كليسية) اليونانية بمعنى الكنيسة . ومنها كنيسة القديس يوحنا (في الجامع الاموي) ايضاً وقريباً محلة (الكلاسة) ولعلها تحريف لكليسية اليونانية بمعنى الكنيسة ايضاً الى غيرها من الديارات (الاديار) والكنائس التي في دمشق وخارجها مما وصفه المؤرخون مثل دير خالد او دير صليباً مقابل باب الفراديس . ودير مران ودير هند ودير ايا (ولعلها هي اليوم داريا) . ودير قانون ودير مقرن في وادي بردى الغربي .

وفي دمشق من هذه الآثار الباقية مقام (بولس) الرسول حيث تدلى من السور لما سخن في دمشق وهو باب مسدود له مقام . وكذلك محل (حنانيا) الرسول في الزقاق الى يمين الداخل من الباب الشرقي وفيه كنيسة يهد الآباء الفرنسيسكان وقربها جامع خرب .

ولكن الفرس غزوا هذه البلاد ولا سيما نحو سنة ٥٤٠ م فخرّبوا ابنيتها وغيرها ومعارضة اللغات وفيه تراجم العلماء وتفصيل الحوادث على اسلوب عصري في التاريخ والجغرافية والتراجم والمباحث العمرانية وفلسفة التاريخ .

اسماء مدنها (١) بلغتهم وصادروها حتى كاد ذكرها يمحى . ولما فتحها العرب سنة ٥١٤ « ٦٣٤ م » اشتهرت حضارتها في عهدهم ولا سيما في

زمن الدولة الاموية التي اتخذت دمشق حاضرة لها فصكت فيها اول النقود العربية بوزن عبد الملك بن مروان . وانشأ معاوية الاسطول المؤلف من ١٧٠٠ سفينة مجهزة بالاسلحة والجنود وزعه في سواحل الشام والمغرب والاندلس . وذكر ابن النديم في الفهرست : ان اول من حفل بجمع الكتب من امراء المسلمين خالد بن يزيد الاموي فانشأ « مكتبة » في هذه الحاضرة وامر بترجمة كتب الطب والكيمياء من اليونانية والقبطية فانشأ (دار الترجمة) وكان عنده راهب مسيحي يتولى ذلك . ولقد ظهر في قبة الجامع الاموي كتب واوراق قديمة على رفوف بالعربية والسريانية والعبرانية والقبطية واليونانية نقلت الى المانية وبعضها في متحفنا السوري في دمشق (٢) . ثم بنى الوليد الجامع الاموي الشهير بفخامته ورواقه وانفق عليه خراج مملكته تسع سنوات مما تعادل قيمته الف الف ريال من نقودنا اليوم . وذكر ياقوت الحموي وغيره : انه تم عمله في تسع سنوات كان يشغل فيها عشرة آلاف رجل كل يوم يقطعون الرخام . ولما شكوا الناس من انفاقه هذا من يهوت مال المسلمين اجابهم : نقولون ونقولون وفي بيت ماكم عطاء ثمانى عشرة سنة اذالم تدخل لكم فيها حبة قمح . فسكت الناس . وقال الجاحظ في كتاب البلدان : وهو مبني على الاعمدة الرخام طبقتين التحتانية اعمدة كبار والتي فوقها صغار ، في خلال ذلك صورة كل مدينة وشجرة في الدنيا بالقصيفاء والذهب الاخضر والاصفر . فاذهب حريق سنة ٤٦١ هـ روتقه . وقد نوات عليه الحرائق

(١) لقد مر بنا من تسميات الفرس (جلق) او (جوير) و (حرساومنين) في صفحة ١٤٩ و بقيت اسماء كثيرة منها اسم (الزبداني) ومن رأي صديقي ورحبني الاستاذ انيس افندي سلوم انه فارسي مركب من كلمتي (سب) بمعنى رائحة التفاح و (ستان) او (دان) بمعنى محل اي مغرس التفاح فحرف بالزبداني . ويعضد ذلك قول العرب : من زار الزبداني فاحت منه رائحة التفاح . وقيل ان الاسم عبراني بمعنى الهبة مثل كفر زبد وزبدل ويزبدين في انحاء سورية ولبنان . وروى غير ذلك ايضاً .

(٢) راجع صفحة ٣٩٥ من المجلد الاول من مجلة المجمع العلمي العربي .

فتوهت محاسنه وفي حريق ماحوله في ٢٦ نيسان سنة ١٩١٣ م ظهر كثير من
الاعمدة الكبيرة التي كانت حول الهيكل وجدران رومانية كثيرة .
ولقد شيد الوليد ابنة اخرى فاستقدم الصناع الى دمشق من بزنطية (القسطنطينية)
ومن العم وغيرهما فاشتهرت فيها الصناعات النحاسية منذ ذلك العهد ولا سيما الترصيع
بالسيفس . ومن الابنية التي شيدها بيت المال والدار الخضراء الى جنوب الجامع
وبلاط معاوية ودار سليمان بن عبد الملك ودار عمر بن عبد العزيز ودار هشام ودار
ابنه سبيلة وهذه كلها حول الجامع الكبير ايضا . وعقد الوليد ميدانا لسباق الخيل كما
هو جار اليوم عند الافرنج ولا يزال ذلك المصارع الى يومنا يعرف (بالميدان) وهو من
احياء المدينة المشهورة في غربها الجنوبي .

وحولت فيها الدواوين من اليونانية الى العربية فثبتت على نمط جديد ووضع ديوان
العلم وعزم الكتب والبريد وغيرها .

وكان الفينيون الذين احتلوا دمشق منذ القدم قد تعلموا اليها صناعة الشنار والنصال
اي السيوف وهم مشهورون بها فالتفت اليها دمشقيون على يد عم وذاعوا بها شهرة فكانوا
يخرجون حديد من سواحي المدينة ولا سيما من داريا حيث آثار المعامل . ولا تزال
محلة المسبك في احياء النصارى من شرقي المدينة تدل على سبكها وكذلك اسم بني المسابكي
من أسرها السجية . واشتهر فولاذ دمشق بغرابته سقايته وصلابته ورواقه حتى يقال
ان بني (فولاذ) الاسرة السجية اشتهرت بعتقه فنسبت اليه ، ولهم حارة باسمهم ولعلها
كانت معملا لصنعه .

ولقد كثرت معامل السيوف في دمشق ونسب الى هذه الصناعة بنو السيوفي من
مسلين وسجيين ونقل الصليبيون الى بلادهم سر هذه الصناعة ولا سيما عمل الجوهر .
وفي دمشقيون متفوقين بها على الجميع الى ان ساهم تيمورلنك في اوائل القرن الخامس
عشر فقامت هذه الصناعة هنا واحياءها في العم .

ومما كانت مشهورة في دمشق القاشاني نسبة الى مدينة قاشان وهي قرب اصفهان
العم كان اهلها قد ورثوا عن البابليين هذه الصناعة فاشتهروا بها وسبت الى مدينتهم
ولقد دلت الآثار القديمة المحفوظة في فلسطين ان الكنعانيين عرفوا ومن هذه الصناعة

بقايا في بعض الجوامع والحمامات وفي مخفنا . وكذلك السيفس وهي نقوش من الزجاج
الملون المرصوف على الجدران والسقوف وفي القبة الظاهرة ابداع مثال لها بلوان جميلة
واصباغ مزخرفة ورصف يأخذ بمجامع الابصار .

وكذلك الميناء اي جوهر الزجاج والتجربها دمشقيون من العم ولها بقايا تدل
على قناتها هنا . وتزويق الجدران والسقوف بالنقش والاصباغ وفي دار اسعد باشا
العظم امثلة رائعة منه . وكذلك الزجاج الذي وصفه كثير من المؤرخين والرحالة .
والخزف المنقوش . وترصيع الآنية المعدنية بالذهب والفضة وقد اشتهرت في زمن
الملك الظاهر البندقداري في القرن السابع للهجرة . والترصيع بالصدف والقطع الملونة
على الخشب . وفي عمل النعسان في الباب الشرقي امثلة رائعة من هذه الصناعة .
وعرف دمشقيون نسج الديباج وغيره وصناعة الورق والصبغ وغيرهما مما له بقية قليلة
الآن لها بعض مزايا الانقان . ولعلي افرد محاضرة خاصة لصناعات دمشق ومزاياها
المشهورة باكثر تفصيل وادق استقراء .

اما تجارة دمشق فانها بعد سقوط تدمر محط رحال القوافل التجارية بين الشرق
والغرب تحولت الى هذه الحاضرة ولا سيما تجارة الهند والعم والعراق وحلفت تدمر
(ملكة البر) واشتهرت بنساج ارضها الخصبية فتوطدت فيها دعام العمرات واهمها
الزراعة والصناعة والتجارة . فقصدتها تجار اوربة وغزرت ثروتها . فضلا عن انها
كانت مجتمعاً للعجاج الذين يذهبون الى القدس الشريف والى مكة المكرمة والمدينة
المنورة في طريقها البرية . وبقيت مزهرة في تجارتها الى ان فتحت ترعة السويس
في اواسط القرن التاسع عشر الماضي فانحطت تجارتها وقل عدد الحجاج الذين يقصدونها
لسهولة الطرق البحرية وتحويل القوافل البرية الى بواخر بحرية .

وكانت للامويين مجالس ادب مع شعرائهم وعلماهم ومحاضرات ومساجلات
ومكاتب ومتاحف لطرائفهم واشتهر كثير من النساء بادهين الرائع في ذلك العصر
ويبين الخطيبات والشواعر اللواتي جالسن العلماء مثل سكتة ابنة الحسين التي انتقدت
الفرزدق وجرباً واثنت على كثير وجميل . وصديقتها ام البنين زوجة الوليد التي
ساعدته بتعزيز العدل والشفقة على الرعية وشاركته في السياسة والادب بمصافاة عقلها

مقدمة له الآراء السديدة . ورابعة العدو به المشهورة بزهدا وبرها وادبها الى غير ذلك مما كانت يهتجن به السالك ادب وسوق عكاظ للغة والشعر .

هذه لمعة من الحضارة الاموية في دمشق تشعب منها كلام الى ما بعدها لعلاقتها بها . على انه لما اضطرب حبل الامويين بظهور السفاح العباسي الذي حمل عليهم وخرب دورهم وشتت شملهم فجا كثيرا من آيات حضارتهم التي انتقلت الى الاندلس واوربة وازهرت طويلا فيها .

ولقد حل في دمشق المأمون بن هرون الرشيد العباسي مرتين . والخليفة المتوكل الذي نوى قتل دواوينه اليها ثم نقض ما برمه من هذا الرأي لاسباب لا محل لتفصيلها .

ودخلها سيف الدولة بن حمدان يتولى شؤونها سنة ٣٣٤ هـ فحدث له في الغوطة ما اوغر عليه صدر الدمشقيين فرفضوه واليك القصة : لما ملك سيف الدولة دمشق خرج يتنزه في غوطتها مع الشريف العتيقي (صاحب الدار التي هي اليوم المكتبة الظاهرية) فقال له الملك : ما تصلح هذه الغوطة الا لرجل واحد . فقال العتيقي : هي لاقوام كثيري العدد . فقال سيف الدولة : لو اخذتها القوانين السلطانية لتبراوا منها . فاعلم العتيقي الدمشقيين بالخبر . فتغبروا على سيف الدولة . وكتبوا كافورا يستقدمونه اليهم فجاء واخرج سيف الدولة منها .

وكانت بغداد في هذه الفترات تنازع دمشق الحضارة ونافسها في التجارة ونقف في طريق عمرانها اقتصادا من الامويين الذين شيّدوا حضارتها ورفعوا اعلام مجدها فتفوقت وانحطت مدة طويلة .

فلما صارت شؤونها بيد الدولة الايوبية ورأسها السلطان صلاح الدين الشهير ارتفع منار حضارتها وتبسط عمرانها واتسع نطاق مجدها فأسست فيها المدارس الكبيرة والمستشفيات والملاهي واختلف اليها العلماء والاطباء والصيدا . حتى كان عدد مدارس القرآن الشريف سبعا والخديث ثمان عشرة والشافعية سبعا وخمسین والحنفية احدى وخمسین والحنابلة عشرا والمالكية اربعا والطيبة ثلاثا . وكان فيها البيمارستان النوري وصيدلية والبيمارستان القيمري . وبين تلك المدارس تسع استسما فاضلات النساء

من المديكات والاميرات . ذلك فوق ما كان فيها من الربط والحوادث والزوايا والتكايا مما له بقايا دارسة واطلال عافية .

وشيدت فيها الدور الفخمة والقصور الشائخة . وانشئت الخزائن العاصة بالكتب المخطوطة النادرة ولا سيما في المدارس المذكورة ونبع منها العلماء والشعراء والادباء والمؤلفون على اختلاف ازماتهم ومراتبهم .

واشتهر فيها ملوك وامراء رفعوا اعلام حضارتها بانية منيعة مثل الملك الظاهر والعاقل ونكز والاشرف ومصطفى لالا باشا ومراد باشا وسنان باشا . فكانت دولة المالك المصريين التي اولها الملك الظاهر بهبرس البندقداري والجراكسة الذين اولهم الظاهر برقوق والدثاني بن الذين اولهم السلطان سليم وامراء القيمرية كلهم يجوبون العمران .

ومن متأخري هؤلاء الامراء الحكام آل العظم الكرام فانهم ولعوا بالعبادة فشيّدوا القصور الباقية وعززوا المدارس وجمعوا خزائن الكتب فكان منهم بضعة عشر واليا في انحاء سورية ولا تزال آثارهم تحدث بمجدهم الباقي مثل دار اسعد باشا وبعض ابنتهم وكتب الخزانة الظاهرية المطرزة باسمائهم ووقوفهم .

واشتهر بين الدمشقيين من ارباب الصناعات الاخرى والحذاق من ذاع اسمهم في التواريخ وحفظت آثار اعمالهم شاهدة على براعتهم ولا سيما في صناعة الساعات التي تفوقوا فيها ومن قدمائهم الذين ذكرهم ابن ابي اصيبعة في كتابه (الحكام) مهذب الدين احمد بن الحاجب الدمشقي فانه كان قوي النظر في صناعة الهندسة وخدم في الساعات عند الجامع . وكذلك فخر الدين الساعاتي الذي عمل الساعات عند باب الجامع الاموي في دمشق . ومن ذكرهم غير ابن ابي اصيبعة علي بن عريف النحاسين الدمشقي النحاس الذي ركب مواد التجارة نصف بها الابراج الصليبية في حصار عكا .

ولقد انشأت دمشق الحرائق والزلازل والفن والفنون وغيرها من التكنيات فمحت كثيرا من آثارها . ودفن معظم عمرانها القديم في الشوارع والبيوت فاذا ارى بظاهرها احتيج الى نصف الاماكن وتقويض الابنية لاستئثار دفائن مجدها القديم ويكفيها انها كانت آية البناء الشرقي قائمة على اجمل طراز هندسي اشبه بمدينة تدمر الشهيرة

ايام عمرائها فكانت دمشق بضفة الشكلى مستطيلة يحدق بها سور عظيم منيع ويحرقها من الشرق الى الغرب الزقاق المستقيم وهو السوق القائمة من باب الجابية الى الباب الشرقي وطولها نحو ميل وكان على جانبيها رواقان قائمان على الاعمدة الضخمة وبين الواحد والاخر نحو اثني عشرة ذراعاً في الرواقين تسير المارة وفي الشارع العريض بين الرواقين تسير العجلات والحيوانات ولا تزال بعض هذه الاعمدة بين البيوت الى يومنا ومنها اثنان على جانبي باب جيرون (التوفرة) وعشرات حول الجامع ولا سيما في زقاق الباذرائية على يمين الداخل من باب التوفرة . ولما حفر اساس التكنة في حي النصارى امتد الى باب نوما سنة ١٨٦٢ ظهرت آثار اعمدها . وكذلك شارع طويل تحت الارض من مأذنة الشحم الى الباب الشرقي باعمدته وهندسته . وكان عند مأذنة الشحم ملعب روماني مدرج (مقبياتر) . وكان الجامع الاموي في قلب المدينة وحوله سور له اربعة ابواب معروفة بقيتها باب البريد في غربيه وباب جيرون (التوفرة) في شرقيه . وهناك اعمدة ضخمة بديعة . وكان للمدينة ثمانية ابواب في كل جهة بايان حتى قيل فيها :

دمشق في اوصافها جنة خلد زاهيه

اما ترك ابوابها قد جعلت ثمانية

وكانت سوق باب البريد اجمل اسواق المدينة عتقر في وسطها مرادباشا قبة جميلة قائمة على اعمدة عظيمة عليها كتابات واشعار بالعربية والكوفية .

ووصف مؤلف (محاسن الشام) ابو اليقظ عبدالله البدرى ابواب المدينة بقوله : وغالب هذه الابواب القديمة بنى عليها نور الدين الشهيد منابر على مساجد وجعل لكل باب باشورة كالسوق بها حوانيت مملوءة بالبضائع فاذا حصنت المدينة وأقفلت الابواب ، يستغي اهل كل باب من هذه الابواب بما عندهم .

وامام السور في شرقي المدينة بين الباب الشرقي ومقام الشيخ ارسلان بيت (نعان السرياني) وهو مجذمة اليوم (مستشفى للجذام) وفي صدره اربعة ابواب ضخمة منحوتة بالحجارة وبينها قنطرة وفيه مجذومو المسلمين . والمروي في التوراة ان نعان هذا كان ايرس او مجذوماً فقصد ايليا النبي مستشفياً فقال له اغتسل بالاردن . فقال له : عندي امانة (بردى) وفر فر اي (الاعوج) ومعناه السريع وعاد الى بلده . وفي داخل

الباب الشرقي مجذمة (قعاظلة) المسرى ايضاً وهم المجذومون الذين تسميهم العامة بهذا الاسم (مقعل) او (مقلعل) وهي حظيرة المسبك الآن .

وفي احياء المدينة آثار اينية مثل الجامع المعلق قرب المناخيلية وكتابات كثيرة ولا سيما حول الجامع وفيه وعلى ابواب المدينة والمدارس والجامع . واعمدته ومدافن للصالحين والمشاهير واضرحة للعلماء في الجهات ما عدا غربي المدينة فانه لم يدفن فيه صحابي .

ومن اهم ما فيها هندسة مياهها وتوزيعها على بيوتها واحياؤها توزيعاً ذا اصول بضبط والتقان فتدور المياه باقية وانابيب نافذة من دار الى اخرى بنظام معلوم وعند آل الشطي في المدينة اصل قاعدة نهر بريح المياه وتقسيمها يعتمد عليه من يتولون اصلاحها والمياه موزعة من سبعة انهر هي اقسام بردى النهر الكبير الذي يخلل المدينة بفرع . وفي هندسة ساعاتها القديمة ومزاولها وابوابها ونقوشها ما يشهد بعمرائها . وقد وصف بعض المؤرخين ساعة من ساعاتها عليها عصفير من نحاس ووجه حبة من نحاس وغراب فاذا مضت ساعة من الوقت خرجت الحية وصفرت العصفير ونعب الغراب وسقطت حصاة . وباب الساعات من ابواب الجامع يسمى اليوم باب الزيادة .

وسور المدينة ضخمة تظهر بقاياها في بعض ارباض المدينة وحوله خندق عميق للتحصان فضلاً عن ابراجها وقلاعها وآثارها ومرصدها الفلكي على جبل قاسيون الذي اشار ابن النفطي في تاريخ الحكماء الى الرصد فيه . ثم اتخذ منارة للتخاطب بالنار . ودار العدل التي شيدها نور الدين الشهيد للنظر في ظلم عماله للرعية وكان يجلس فيه لاستماع المظالم والشكاوي وهي الآن قصر المشربة . وكذلك دار السعادة بجوار القلعة وغيرها . ولقد نقلت الدول التي توالت عليها كثيراً من آثارها وطرانقها ومكاتبها فجمعت تلك البقايا اليوم في متحف هذه المدرسة المعروفة بالعادية وفي المكتبة الظاهرية ازامها . وفي اوائل القرن العاشر للهجرة احترقت سوق باب البريد وابواب الجامع الكبير كذكر النجم

الغزي في الكواكب السائرة وتوالى الحريق مراراً قبل ذلك الوقت وبعده . وخربت دمشق ضربات كثيرة منها المظالم التي اجتاحتها سنة ١٠٦٨ م (١٠٦٨) وبزمن ولاية الامير حصن الدولة الكتاني بجلا السكان عنها واقفرت وخلت الغوطة من

فلاحها فلما حكم صلاح الدين ونور الدين ابطالا المكوس والمظالم وخففوها عن عائق السكان
بجهد عمراتها يعودتهم اليها .

اما عمراتها فانها اشتملت على غوطة عدت من مشرقات الدنيا الاربعة فكان عدد بساطتها
في القرن الثامن مائة وواحد وعشرين الف بستان كاذ كرشج الربوة في كتابه (نخبة الدهر)
على انها لا تتجاوز اليوم الالفين عددا وهي التي وصفها المأمون العباسي بقوله : انها خير
مغنى على وجه الارض . وفيها المياه الغزيرة والسهول التسيجة والخصب الطبيعي فبذا
لو اشترك معه الخصب الصناعي .

ولقد كان خراج دمشق على عهد معاوية اربعمائة الف وخمسين الف دينار . وكان ارباع
دمشق سنة ٢٠٤ هـ (٨١٩ م) ثلاث مائة الف وستين الف دينار . وفي زمن المأمون كان
خراجها اربعمائة الف دينار وعشرين الف دينار .

فلهذا كانت المظالم والتضييق على الفلاحين من اسباب تأخر زراعتها . واعراض
الوطنيين عن معاضدة صناعاتها وحصرها باسر معلومة انقضت او اتممتها من اهم الضربات
في تأخر الصناعة ومنافسة المدن والثغور لها باخطاط تجارتها . ومعلوم ان التجارة تقوم
بجناحيها الذين هما الزراعة والصناعة فصارت مهبطة الجناح متأخرة .

ولعلنا نتسابق الى رفع شأن اسباب العمران فنعيد الى هذه المدينة القديمة مجدها
او شيئاً منه بمعاضدة رجال الدولة المنشدية والحكومة الوطنية وارباب النهضة استعادة
لجناحيها الغابر وتوطيداً للمدينة الحديثة فيها والله ولي التوفيق بمنه وكرمه .

عيسى بكندر
المدرسة

أحيحة بن الجلاح (١)

دُعيت ايها السادة لاستماع محاضرة في موضوع تاريخي أدبي . وسيكون المحور
الذي يدور عليه هذا الموضوع رجلاً من عظماء عرب الجاهلية اسمه (أحيحة بن الجلاح) .
واذا كنتم ايها الاخوان لم تستعذبوا هذا الاسم فاني ارجو ان تستعذبوا المسمى .
ويجبكم ما اقصته عليكم من اخباره . ومختلف اطواره .

نحن بصفة كوننا عرباً ولنا حرص على لغتنا وآدابها ينبغي لنا ان ننتفع اشعار
عرب الجاهلية وما يؤثر عنهم من الاقوال والامثال . وبذلك نفقه أسرار لغتنا وآدابها .
وبصفة كوننا مسلمين يجب أن ندرس اخبار العرب التاريخية ، واحوالهم الاجتماعية .
لنعرف ماذا نسخ الاسلام من ذلك وغيره . وماذا أبقي وقرّر . وفي الكلام على (أحيحة)
يمكننا أن نستخرج فوائد من كلتا الوجهتين : الوجهة اللغوية الادبية ، والوجهة التاريخية
الاجتماعية . وهو فوق ذلك يعطينا صورة للتوابع الذين كان في وسع ذلك المحيط
العربي الجاهلي أن يبرزهم للوجود .

إنكم ستعلمون من ترجمة هذا الرجل العربي - أن في تاريخ عرب الجاهلية رجلاً
كثيرين ذوي أعمال عظيمة وهم عالية كان الواجب أن يكونوا مشهورين بيننا . لكنهم
لم يُرزقوا السعادة في الشهرة كما رزق غيرهم .

ينبغي أن لا نقل شهرة أحيحة عن شهرة اصحاب المعلقات الذين توصلوا بالشعر
وخيالهم الى تداول اخبارهم فاشتتروا . اما أحيحة فأنكل على التاريخ في نقل خبره .
وكثيراً ما يُبطي التاريخ او يُقتصر في النقل . وان نسبة التاريخ الى الشعر في نقل
الاخبار . كنسبة الابل الى الكهرباء والخار . وقد مدت الاسماع ترديداً كراتها
من رجال الجاهلية كأصحاب المعلقات وقس بن ساعدة وحاتم طي والنعمان ، اما مثل
(١) محاضرة الاستاذ (المغربي) التي القاها في ردة الجمع ليلة الجمعة في ١٠ تشرين

(أحيحة) قالت اخباره لم تزل كمعدن ماس ، لم يسته ماس . ولم يضرب فيه بناس .

(موطن أحيحة ونسبه)

موطن أحيحة مدينة (يثر) في الحجاز ، وهي التي هاجر اليها نبينا محمد (صلم) وعُرِثت بعد ذلك بالمدينة المنورة وكان سكانها الاقدمون عمالقة أرسل اليهم موسى (ص) على ما قاله مؤرخو العرب جيشاً وأمرهم ان لا يستبقوا أحداً ممن بلغ الحلم الا من دخل في اليهودية . فقاتلوه وقتلوهم كلهم . لكنهم ابقوا على ابن ملكهم وكان شاباً من اجل الناس ، فعادوا به اسيراً . وكان موسى قد قبض قبل قدومهم ، فقال لهم خليفته يوشع من هذا النقي ؟ فأخبروه خبره فقال لهم : ان هذه معصية ارجعوا عن ارض الميعاد . فأروا ان يرجعوا الى البلد الذي فتحوه فعادوا اليه وأوطنوه .

ثم لما حدثت في اليمن حادثة سيل العرم وجلا عنها سكانها الى شمال جزيرة العرب كان فيمن جلا بطون من قبيلة الأزد اليمانية وهم الأوس والخزرج فأموا يثرب ونزلوا فيها ، فقاومهم اليهود في أول الامر . فاستنصر الأوس والخزرج اليمانيين اخوانهم الذين تزحوا معهم الى الشمال . فعانوهم عليهم ، واصبحت لهم العزة في يثرب لكنه وقع الشقاق اخيراً بين الحزبين : الأوس والخزرج ، وما زالوا في حروب وكروب حتى ألف الاسلام بينهم ، وامتن القرآن بذلك عليهم .

وكان (أحيحة بن الجلاح) سيد قومه الأوس ، ولم يعرف الزمن الذي عاش فيه لكنه كان قبل البعثة بنحو سبعين سنة على الأقل كما سيأتي بيانه . اما اسمه (أحيحة) فهو تصغير (أحة) بمعنى حرارة الغيظ التي يجدها الانسان في صدره . وقد قال ابن دريد في كتابه (الاشقاق) انه تصغير (أحاح) وعلى هذا ينبغي ان يلفظ (أحيحة) بتشديد الياء . وليس كذلك اذ المشهور في اسمه التخفيف ولا سيما أنه ورد اسمه في الشعر عطفًا كما سيأتي في مدح خالد بن جعفر له . والأحاح ايضاً مصدر (أح) اذا سعل . ولعل من قال (أح) اي سعل توهم ان همزة (أح) محولة عن (قاف) كما يفعل في اللغة العامية

مذ تحول القافات الى همزات ، وان (أح) مأخوذة من (أحجب) بمعنى سعل . ومن هنا سميت القحبة نقبة .

اما أبوه (الجلاح) فهو من الجلاح ومعناه انفسار الشعر من مقدم الرأس ويحتمل ان يكون من الجلاح بمعنى السيل الجراف وهو الذي يجري على كل شيء يضادفه أمامه .

كان أحيحة ذا دماء وعقل ، كما كان ذا بجد وعمل . وقد توصل بالخلقة هذه الى أن أصبح من نوابغ رجال ذلك العصر فكان رجل حرب أكيد . رجل أدب وشعر ، رجل مال وإقتصاد ، رجل تنظيم وعمران . ونعني بالعمران العمران الدسية تستطيع بلاد الحجاز في ذلك العهد .

(أحيحة رجل حرب وكيد)

روى مؤرخو العرب ان (أحيحة) الاخير ، ملك اليمن واسمه (ابو كرب بن حسان) مر بيثرب قاصداً الشام والعراق فحاذى فيها ابنه ، ثم بلغه ان اهل يثرب قتلوا ابته ، فكر راجعاً اليهم . مجتمعاً على استئصالهم . فنزل خارج المدينة سبغ أسنح أحد . ودعا اليه أشرفها من الأوس والخزرج ، فقالوا غلبا بينهم انه يريد أن يتركنا على اهل يثرب . أما أحيحة فقال لهم : والله ما دعاكم لغير . فذهب الأشراف اليه واستصحب أحيحة معه خباء وخمراً وقينة له تسمى (مليكة) فغضب الخبساء وترك فيه نخمرة ومليكة . ثم استأذن على تبع فاذن له . وانجلسته معه على زريته (بساط متقوش بالالوان جمعه زرابي) وجعل يحادثه او يسأله عن امواله بالمدينة . فأخذ أحيحة يخبره عنها . وتبعه يقول له : « كل ذلك على هذه الزريته » ففهم أحيحة من قوله هذا انه يريد قتله فخرج من عنده الى خبائه وقينته . فنظم لها قصيدة وداعية . وجعل يشرب وهي تنيته بها . ومن هذه القصيدة قوله :

(يشثاق قلبي الى مليكة لو أمست فريباً ممن يطالبها)

(ما أحسن الجيد من مليكة واللوات إذ زانها تراثها)

(باليتني ليلة إذا جمع الناس من ونام الكلاب - صاحبها)
(في ليلة لا يرى بها أحد يسعى علينا - ألا كواكبها)

وهذه الأبيات مما كانت أغني به القينات في عهد الخلفاء . ولما نام حرس الملك أزمع أحيحة الحرب . وعلم فيننه مليكة ما تقول لتبع إذا سأها عنه ، ثم انطلق إلى حصنه واستعد للدفاع . وبعد أن قتل تبع الاشراف الذين دعاهم إليه أرسل حراسه في طلب أحيحة ، فلم يأتوا به . وانما اتوا بمليكة . فاخبرته ان سيدھا التھا إلى حصنه ، وأنه يقول له : « اغدُر بقينة اودع » وقد ذهبت كلمته هذه مثلاً في كثير من كلماته الاخرى . تخاف الملك السبئية والعاربقتلها فتركها وأرسل كتيبة من خيله إلى أحيحة فحاصروه ثلاثة أيام كان يرميهم فيها بالنبل والحجارة نهاراً . وبالتمر والزاد ليلاً ، فرجعوا إلى الملك وقالوا نحن ما فعلنا معنى هذه الحرب التي يقاثلنا فيها هذا الرجل نهاراً . ويضيفنا ليلاً . فامرهم بالكف عنه . واكتفى بتحريق نخله ، وبقي الملك يقاثل عرب المدينة ويهودها ايماً ثم رحل عنها أخيراً عملاً بنصيحة حبرين من اليهود أخبراه انها ستكون مهاجرة . يظهر في آخر الزمان . وذهب إلى مكة فكسا الكعبة البرود اليابانية عملاً بإشارة الحبرين أيضاً اللذين اخذهما معه إلى اليمن . وتهود هو وقومه . ويقال ان هذا هو اصل دخول اليهودية في اليمن .

هذه خلاصة ما رواه مؤرخو العرب عن تبع وحربه في الحجاز . وكيف تخاض أحيحة منه بدعائه وشجاعته . ومن ثم كان قومه يشهدون له بانه ادهام رجلاً . وكانوا يزعمون ان له تابعاً من الجن يعدّ له الخبر ، وذلك لما رأوا من ذكائه وكثرة صوابه . ولعمري ليس تابعه سوى عقله ودهائه . والعرب ان كانوا يقولون ان مع من نبع من رجالهم جنياً فان الافرنج يسمون الفراسة والذكاء والناطقة المنفوق من رجالهم « جيني Génie » ألا ترون ان بين السكيتين او بين التسميتين نسباً واضحاً . واتصالاً ظاهراً ؟ والعرب ايضاً يسمون الذكي الذي يكثر صوابه ويصدق حدسه (ألمعياً) وقد قال شاعرهم :

(اللمعي : الذي يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمع)

و يسمون الذي يفوق غيره ولا يعلوه شيء - عبقرياً . فيحسن بنا اذا ان نعرب

كلمة (جيني) الفرنسية بكلمة (اللمعي) لقرينها منها أو (العبقري) . هذا اذا لم تعجبنا كلمة (ناطقة) .

ما مر من حرب أحيحة مع تبع هو من قبيل الحروب الخارجية . أما حروبه الداخلية فهي حربه مع بني عمه الخزرج وكيف قهرته السيدة سلى الخزرجية جدة النبي (صلم) : قتل رجل من الأوس قوم أحيحة رجلاً خزرجياً من بني النجار قوم سلى زوجته فشبت الحرب من جراء ذلك بين الحبتين . وكان أحيحة قائد قومه فعز م على تبييت الخزرج ، واخذهم على غرة . فشعرت بذلك زوجته سلى بنت عمرو الخزرجية النجارية . وكانت امرأة شريفة لا تنكح الرجال الا و امرها يدها : اذا كرهت من رجل شيئاً تركته . فدبرت حيلة أنقذت بها قومها من كيد أحيحة : وذلك انها في تلك الليلة التي ازمع فيها زوجها تبييت الخزرج قومها ببط ابنها عمرأ من ذنبه يخط . وكان فطياً حتى اذا ارجعته تركته فبات يبكي ، وبات ابوه مؤرقاً ينقلب في فراشه . ويقول : « ويحك ياسلي ! ما عمرو لا ينام » فنقول « ما أدري والله ! » حتى اذا ذهب الليل حلت الخيط عن ابنها . ولكنه لم يكذب بام زوجها حتى صرخت سلى : « وارأساه » فقال أحيحة : « شرأ ما لقيت في هذه الليلة » وقام اليها فجعل يعصب رأسها ويدلك يراحتة ظهريها ويقول : ما بك من بأس . حتى اذا لم يبق من الليل الا أقله . قالت له قم فقم ، فاني أجدي مستريحة . وانما فعلت ذلك ليشغل رأسه . ويشدد نومه . فلما استغرق في النوم اخذت حبلاً متيناً واثقته برأس الحصن ثم تدأت منه إلى قومها . وانذرتهم بالذي اجمع عليه أحيحة وقومه من تبييتهم . فحذروا وتأهبوا . ولما جاءهم (أحيحة) لم يقدر ان ينال منهم شيئاً . فعاد خائباً وجعل يقول : (آه لك ياسلي !! خدعني حتى بلغت ما أردت) وسمتها قومها من ذلك اليوم المتدلية . ولأحيحة في هذه الحادثة اشعار كثيرة كان يعتب فيها على سلى . وسيأتي بعضها . ثم ان سلى لم تعد إلى أحيحة كما هو شرطها في ان تخنار نفسها متى شئت . وبعد ذلك تزوجت بسيد قرش وإمام البطحاء (هاتم بن عبد مناف) فولدت له عبد المطلب جد نبينا (صلم) ومن هنا جاء ما تروونه في كتب السير من ان ابا النبي عبدالله مات في المدينة عند اخواله بني النجار وان السيدة آمنة كانت تذهب به (صلم) وهو صغير إلى المدينة فتزيره اخواله بني

الخيار — يعنون بذلك احوال جده عبد المطلب من امه (سلي) هذه . واذا كانت سلي جدة عبد المطلب زوجة لأحيحة فيكون قد عاش أحيحة قبل البعثة بخمسة وعشرين سنة على أقل تقدير .

ومما له علاقة بالخيار (أحيحة) الحربية تنافسه في إنشاء الدروع واستكشافه من العدة آد والسلاح : وقد ذكروا انه لما قتل خالد بن جعفر العامري زهير بن جذيمة سيد بني عيس عزم ابنه قيس على اخذ الثار وجاء المدينة لشراء السلاح والعدة . فأخبر أن عند أحيحة من ذلك الشيء الكثير وان لديه درعاً لم يكن في يثرب درع تضاهيها فطلبها قيس منه فأبى وقال : كيف أعطيكمها وخالد بن جعفر الذي يقول :

(اذا ما اردت العز في آل يثرب فناد بصوت يا أحيحة فاسمع)
(رأيت أبا عمرو (أحيحة) جاره يبيت قريير العين غير مروع)
(ومن يأنه من خائف ينس خوفه ومن يأنه من جائع البطن يشبع)
(فضائل كانت للجلاح قديمة واكرم بفخر من خصالك الاربع)

(أحيحة رجل شعر وأدب)

مر في الكلام على أنه رجل حرب — شيء يدل على منزلته من الشعر والادب . من ذلك قطعه الادبية التي غننه بها قينته مليكة . واوّلها :

(ما احسن الجيد من مليكة والآيات اذ زانها ترائبها)

وان له كانت سارت في العرب مسيراً امثال من ذلك قوله لملك حمير بلسان مليكة (أعذر بقينة أودع) . ومن كان مثل أحيحة في اعماله الحربية كما سمعت واعماله العمرانية والزراعية والاقتصادية كما استمع — لا يتيسر له ان ينظم الشعر الكثير . على انه ربما كان له شعر كثير لم ينقل البنا كغيره من فحول شعراء الجاهلية : فمن شعره قصيدته المذهبة المعبودة بين المذهبات في كتاب (جزيرة اشعار العرب لابي زيد القرشي) وقد عدّ ابو زيد أحيحة في اصحاب المذهبات وقال انهم كلهم من اهل المدينة المنورة . ومطلعها :

(صحت عن الصبا والده رغول ونفس المرء آونة فنول)
(ولو أفي اشاء نعمت حلالاً وباصكرني صبح اوشيل)
(ولاعبني على الانماط أعس على أفواهم الزنجيل)
ومنها :

(وما يدري الفقير مني غناء وما يدري الغني متى يعيل)
(وما تدري وإن أفتحت شولاً أنلقح بعد ذلك أم تحيل)
(وما تدري وإن أفتحت سقياً لغيرك أم يكون لك الفصيل)
(وما تدري وإن أجمعت أمراً بأي الارض يدركك المقييل)
واشار في هذه القصيدة الى كيد زوجته سلي له واحتياها عليه فقال :

(اذا ما بت أعصيا فبات علي مكانها الحى النول)
(لعل عصاها يبغيك حرباً ويأتيهم بعورتك الليل)
واشار الى حصنه فقال :

(وقد أعددت للحدثان حصناً لو انت المرء لنفحه العقول)
(طويل الرأس أبض مشخراً يلوح كأنه سيف صقيل)

«أحيحة رجل عمران»

بقي علينا أن نشكم على أحيحة بصفة أنه رجل عمران . ونعني بالمران هنا القدر الذي يطيقه محيط يثرب في ذلك العهد . فلا يعترض علينا معترض باله لا يسي عمران عمراناً الا اذا كن مثل عمران لندره وباريز اليوم !! على انه لو كان امثال أحيحة في ذلك العهد كثيرين يسعون سعيه في الزراعة وجمع المال واتشاء القصور لكان للمدينة شأن غير شأنها المعروف .

(الاطم) في لغة العرب بمعنى الحصن والقصر العظيم . ويجمع على آطام . وكان اهل يثرب قبيل الاسلام يبنون آطامهم بالجنادل والحجارة . ويتخذونها أحياناً معاقل وقلاع دفاع . كما سمعت في خبر أحيحة مع تبع . وكانت هذه الآطام عن العرب

ومما تهم وحصونهم التي انخرزوا بها من عدوم ومن اشهر اطام العرب واعظمها شأناً
أطمان كانوا لأحيحة أحد مآبنا في المدينة وسماه (المستظل) وهو الذي تحصن فيه حين
قاتل ملك اليمن والآخر سماه (الضحيان) وقد بناه في مزرعة له يقال لها (الغابة) وهي
على بعد نحو فرسخ من المدينة. وكان له سماء (الضحيان) لانه ضاح بارز للشمس بخلاف
(المستظل) فقد كان مبنيًا في ظل المدينة وبين بيوتها.

وبني (أحيحة) أطمه (الضحيان) بججارة سوداء ثم بنى فوقه نبرة بيضاء مثل
النفقة والنبرة كل شيء مرتفع. ثم جعل على هذه النبرة نبرة أخرى مثلها بحيث
يراهم الرأكب من مسيرة يوم أو نحوه قالوا: ولما شيد (أحيحة) أطمه (الضحيان)
على هذه الصورة أشرف من فوقه ومعه غلام له وقال (لقد بنيت حصناً حصيناً ما بنى
مثله رجل من العرب أمنع ولا أكرم ولقد عرفت موضع حجر منه لو نزع لوقع الحذن
جميعاً) فقال الغلام المسكين انا اعرفه بامولاي. وأشار اليه فدفعه (أحيحة)
من رأس الأطم فوق مبيتاً. وانما قتله إرادة أن لا يعرف سر ذلك الحجير غيره.
وهذا ما حكى عن ستار المعمار الذي شيد الخورنق للنعمان وجعل فيه مثل ذلك الحجير
الذي وضع في حصن (أحيحة) فإن النعمان رماه من فوق ذلك القصر فمات لثلاث
بتكشفت سر الحجير. وقد ضرب بسنار المثل فيقال (جزاه جزاء سنار)

وكان من عادة أحيحة أن يجلس في ظل أطمه الضحيان. وكان في اوقات الخوف
يرسل حوالبه كلاباً له تنبع دونه على من يأتيه من لا يعرف حذرًا من عدو. يصيب
منه غرة. وقد نجته هذه الكلاب مرة من خصمه (عاصم) الخزرجي: فانه تسأل اليه
ليلاً يريد القتل به وجعل يرمي للكلاب تمراً فوقفت ساكنة فاحس (أحيحة)
بالشر وأمرع الى حصنه تحت وابل من السهام. وهكذا نجا من الموت الزوأم.

هذه عناية (أحيحة) بنشيد الابنية اما عنايته بالمزارع والبساتين فعظيمة
ايضاً: قالوا كانت له مزرعة تسمى (الزوراء) وأخرى اسمها (الغابة). وكان له في
(الجورف) وهو موضع على ثلاثة اميال من المدينة لجهة الشام أصوار من نخل قل يوم
تربه الا يطلع عليه. والأصوار جمع صور وهو النخل الصغير. ومعنى انه صغير ان جنسه

صغير. وانه فسيل يزرع ثم ينقل من منبته الموات الى مغرسه الدائم.
ومن شعر (أحيحة) في مزرعته (الزوراء):

(كل النداء اذا ناديت يخذلني الاندائي اذا ناديت يا مالي)

(اني أقيم على الزوراء اعمرها ان الكرم على الاخوان ذوالمال)

(استغن او مت لا يغرك ذو تشب من ابن عم ولا عم ولا خال)

ولما زار الوليد بن عبد الملك المدينة سأل عن الزوراء هذه واشتد الايات فدلوه
عليها فقال: (ان ابا عمرو يراه غنيابها) فعجب الناس من معرفة الوليد باخبار العرب
حتى علم ان (أحيحة) بكفي (ابا عمرو)

وكان لأحيحة في مزارعه تسع وتسعون بعيراً أكلمها ينضح عليها اي ينقل الماء على
ظهورها الى مزارعه وبساتينه. والبعير الذي ينقل الماء يسمى (ناضحاً) ويسعى ايضاً
(سانية) ومنه (سير السواني سفر لا ينقطع). ولم يقتصر أحيحة في الزراعة على
غرس النخيل وإنشاء البساتين بل كانت له حقول يزرع فيها الحنطة بكثرة بدليل قوله:
(قد كنت اغني الناس شخصاً واحداً ورد المدينة عن زراعة قوم)

ومراد به بالفوم الحنطة وهي لغة للعرب قديمة أو هي لغة بني هاشم وحكوا قولهم
(قوا موا لنا) اي اجتنبوا لنا خبز حنطة. ولا يمكن ان يريد (أحيحة) بالفوم الثوم
الذي هو معناه ايضاً، لان الثوم لا تزرع منه مقادير كبيرة لغني صاحبها لعدم حاجة
الناس اليها. بخلاف الحنطة فان الناس يحتاجون اليها. فيكثر ارباب الزراعة من زراعتها
وقوله تعالى عن بني اسرائيل (واذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك
يخرج لنا مما نبت الارض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها) اختلفوا في المراد
بالفوم هل هو الثوم او الحنطة؟ فذهب ابن عباس الى انه الحنطة وان العرب تعرفه
بهذا المعنى بدليل قول أحيحة «قد كنت اغني الناس الخ ولا يعترض على هذا بانه
قرى في الآية (وثومها) بالثاء مكان (فومها) بالفاء لانا نقول ان الثاء فيها مقلوبة
عن الفاء كما قلبت في (مغافير) و (جذف) فيقال فيهما (مغافير) و (جذث).
ثم يقال من جهة ثانية ان الفوم قرن في الذكر بالعدس. فيكون ضرباً من القطاني
يعني الحبوب. ولم يقرن بالبصل حتى يكون اخاه الثوم.

(أحجية رجل مال)

قالوا: كلن (أحجية) رجلاً صنيعةً للمال . شحيحاً عليه . ومعنى قولهم صنيعةً أنه حاذق بحصده . حرص على ثباته . وتكثيره . اذ يقال فلان صنيع اليدين وصناع اليدين . يعنون أنه حاذق . أما قولهم (أنه كلن شحيحاً) فلم ير بدواً أنه يخيل لا يوجد بالمال . كيف وقد تقدم في سابقه مع (أتبع) أنه كان يحارب عسكره في النهار . ويضيقهم بالتمر في الليل . ومصر أيضاً قول خالد بن جعفر فيه : (ومن يأت من جائع البطن يشبع) . فلا جرم أن يكون المراد بكونه شحيحاً على المال أنه حرص عليه فلا يدع شيئاً منه يذهب سدى من دون أن ينفعه . وينفع به . وهذا هو الاقتصاد أو التدبير المنزلي بعينه . ويروى أنه دخل حائطاً له فرائى ثمرة ساقطة فتناولها فعمت في ذلك فقال : (الثمرة إلى الثمرة تمر فذهب قوله مثلاً يضرب في اصطلاح المال .

وهما قولوه عن « أحجية » أنه كان يتبع بيع الربا في المدينة حتى كاد يحيط بأموال أهلها . أي أنه كاد يستولي على أموالهم بتواتر الفائدة وفائدة الفائدة . ومن هذا تعرفون مقدرة الرجل ومهارته في كسب المال والاحتياال على جمعه . ومثله في ذلك كثير من سادات العرب وأشرفهم في المدينة ومكة قبيل البعثة : فقد كثروا من المراهبة حتى كاد الفقراء يهلكون . ولم يكن أحد يقرض الفقراء قرضاً حسناً لموجه الله . بل كانوا إذا طلبوا قرضاً من غني طلب منهم الفائدة بطريقة الربا . وكانوا إذا ائحل الأجل . وعجزوا عن الاداء يقول المراهبون لم : نؤخر لديمك المال وزيدونا في فائدته . فما كانت تقضي سنون حتى يعجز هؤلاء المساكين عن الاداء فيضع المراهبون الأغنياء يدهم على عقارهم وأموالهم ويستغفونها لا تقسم . حالة مزعجة مخربة للعمران . مقوضة لراحة بني الانسان . جاء الاسلام فأنكرها على ذويها . ونهى عليهم فعلهم وقسوتهم . وحضهم على الرفق بالفقراء ورحمتهم . وإن أغرضهم القرض الحسن . وبذلك يعتدل الميزان . وتهب الأحمق والاضغان .

فأما ربا في الجاهلية كان مداره انظار الغني طروداً حاجته على الفقير وترقب ضائقته المالية . حتى اذا سفت له الفرصة استغل هذه الحاجة والفقير من دون رحمة ولا شفقة .

ومن العجائب أن يكون الفقير مصدر الغني : فغير محتاج فيقصد به الشكواه أو يستقرض منه فينتهز الغني الفرصة فيدينه بالربا ثم يجلبه كل سنة الى أن يترب ولا يبقى عنده شيء . فما أعدل الاسلام وما أرحمه من حرم الربا . وانفسد هؤلاء المساكين من براثن أولئك البغاة الظالمين .

هنا أيها السادة نختم القول عن حياة (أحجية بن الجلاح) الذي تبين لكم بحق أنه رجل حرب وشعر ومال وعمران في آن واحد .

ومعها سمعتكم أيها السادة أن نلتوا شيئاً من محاضرتي لا أسمح لكم أن تلتوا (سلى الخزرجية) التي ت بدأت من شرفات الحصن الشائع . وخاطرت بنفسها زاهدة في زوجها وابنها والثروة التي كانت تعيش سبب ظلمها . كل ذلك من أجل سلامة قومها . وتفضيل مصلحتهم على مصلحتها . فعليكم أن نقدوا بها في حب وطنكم . لا سيما أنها ليست غريبة عنكم . بل هي جدة نبيكم . (المغربي)



وهل يبرئ لنا التاريخ من هذا التقصير وقدمر علينا الدهر باحبابه المتطاولة ونحن
مهملون هذا الأمر الخطير ؟

وهل يصح لنا تاريخ أو يعرف لنا شأن أو تذكر لنا حضارة إذا لم توجد آثارنا أقوال
كتابنا عنها ؟

وهل تبقى سوريا المحبوبة بلامتحف يجمع عادياتها ويستقدم إليها السياح والمتفرجين
وفيهما من آثار المدنية ما فيها ؟

وهل ٠٠٠ ؟ وهل ٠٠٠ ؟

لا لعمري لا يسوغ لنا شيء من ذلك لأن الآثار تحقق التاريخ وثبت ما كان
صحيحاً منه ونقض الكذب فيه .

ما هو علم الآثار ؟

الآثار لغة ما بقي من رسم الشيء . والرسم هو اثر الدار ونحوها من الأعيان
المشخصة . فيكون الآثار ما بقي بعد الداهيين . واصطلاحاً هو ما تدرك به شئون
الأمم البائدة أو القديمة إما من ابنية شيدوها أو صناعات انقنوها أو تماثيل نحتوها أو
كتابات نقشوها أو نقود صكوها أو اختراعات ابتكروها أو علوم دوتوها أو فنون
اهتدوا إليها أو كتب خطوها ونحو ذلك .

فيدخل تحت الابنية المدن والهيكل والصروح والمدافن . وتحت الصناعات
التماثيل والنقوش والاواني والاسلحة . وتحت الكتابات ما على الصخور والغفار
(الآجر) والصفائح المعدنية أو العظمية أو البردية أو الرقبة من الانبياء . وتحت
النقود ما عرف من انواعها وصورها واجناس معادنها وطرق صكها واساليب طرازها .
وتحت الاختراعات ما عرفوه من آلات وادوات ونحوها . وتحت العلوم ما دون على الغفار
والبردي وفي الكتب من معارف الدارجين . وتحت الفنون ما عرفوا من التصوير
والموسيقى ونحوهما . وتحت الكتب ما تركوا لنا من المخطوطات على اختلاف انواعها
واساليبها ومباحثها سواء كانت بسيطة الخط او جميلة مثقنة التجليد او معملته .
فغاية علم الآثار اذن معرفة آداب من تقدمنا واستطلاع اخلاقهم وعاداتهم

كيف تحقق الآثار التاريخ (١) ؟

جزئيات المحاضرة

التمهيد - ما هو علم الآثار - ما هي انواع الآثار - كيف قسم العلماء الآثار -
ما فائدة الآثار - ما علاقة الآثار بالعلوم - هل عرف العرب التماثيل والصور -
كيف جمعت الآثار - ما هي قيمة الآثار - كيف تحقق الآثار التاريخ - الختام

تمهيد

تصف الدار لنا قُطانها والمعالي والمساكن والنجارات
واذا لم ندر ما قوم مضوا فاسأل الآثار واستنب الديارا
لله در الشريف الرضي في قوله هذا منذ قرون اذ اهاب بالناس ان يقتبسوا
تاريخ اسلافهم من آثارهم واطلالهم . كما فعل كثير من الشعراء والعلماء والمؤرخين
والاثريين من شرقيين وغربيين في الحث على حفظ الآثار . فهل من منكر اذن
فائدتها في تاريخ الامم والممالك والبلدان ؟

وهل يسوغ لنا ان نهمل آثارنا مطروحة في الحقول والبراري والانقاض ليحطمها
الجهلة . او ينقلها غيرنا الى متاحفهم ويسلفيدوا منها علماً وعملاً ؟
وهل يجوز ان نبهعها لغيرنا طمعاً في كسب دراهم تافهة ليزينواهم متاحفهم متجبرين
بها وراحمين اموالاً طائلة ونخسر نحن فوائدها التاريخية ؟

وهل بعد كلنا بجمع الآثار واحرازها بدعة كما يتوهم بعضهم وتلك آثار مصر
والغرب والقدس والاناضول والآستانة تملأ المتاحف وكلهم من جنسنا الشرقي ؟

(١) المحاضرة التي القاها الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف في ردهة المجمع
الكبرى يوم الجمعة في ١٣ تشرين الاول سنة ١٩٢٢ الساعة الرابعة مساءً .

وصناعاتهم واديانهم وخرافاتهم ومعارفهم . وبالجملة كل ما يعزى إليهم وبتعلق بهم مما عبط النقاب عن الحقائق الغامضة ويبدد غيوم الاوهام والخلط في المباحث التاريخية التي هي صورة الانسان المعنوية فلا يسوغ ان تنسوه او تحسن بل يجب ان لنقل كما هي لا كما يجب ان تكون مثلاً ينقل المصور الشمسي صورة الانسان الحي فيمثله بعلامته الطبيعية ومميزاته الخلقية حتى لا يشك من يراه انه هو هو بعينه ومثخصاته والآضاعت الاصول وقدت الحقائق والتبست الاعيان .

فالآثار انما هي السنة قوم قد مضوا تصرح بحروف غير مكتوبة احبائنا عن عمرانهم وذكائهم وصناعاتهم وما كانوا عليه من بسطة العيش او شظفه والعمران او الانحطاط الى غير ذلك من التطورات .

فلنا بالآثار عبر لنقدي بن احسن العمل ونعرض عن اساءه ونسفيد من المجتهدين والمتدين حضارة نضمها الى ما عندنا ونزيراً بقسنا عن الكسل والاهمال لانهما آفة البشر وعامل التأخر .

وسمي العالم بالآثار (أثرياً) . وعرف علم الآثار عند الافرنج باسم (Archéologie) اركيولوجي وهي كلمة يونانية مركبة من لفظتين (أرشيو) اي الآثار و (لوجيا) اي الكلام فاللغى (البحث عن الآثار) ومنها اشتقت بقية الصيغ .

اما كلمة (Antiquité) اي انتيكيته فهي لاتينية بمعنى شيء قديم فلذلك وضع لها المرحوم الشيخ سعيد الشرتوني كلمة العادي والجمع العاديات نسبة الى قبيلة عاد العربية المنقرضة لانها آثار المنقرضين . وقد شقوا منها الفاظاً في اصطلاحاتهم للتعبير عن هذه الاشياء . كما اخذنا نحن مشتقات مختلفة من تلك الأصول .

ما هي انواع الآثار ؟

لاخفاء ان من الآثار ما هو معروف وموجود مثل ما اكتشف ويكتشف . وما هو معروف غير موجود كمنقود ملوك الرعاة المصريين المعروفين بالمكسوس . وكنقود

ما علامة الآثار بالعلوم ؟

ان البحث عن آثار الانسان القديمة قبل زمان التاريخ يسمى علم الاركيولوجية ويجمع بين الجيولوجية اي علم طبقات الارض وبين التاريخ . والبحث عن الصور والرموز الأثرية يسمى الايكولوجية . والبحث عن التاريخ والآثار معا يسمى علم الاثروبولوجية اي علم طبائع البشر . والبحث عن الآثار الانسانية الكليولوجية . وسرد الحوادث بحسب وقوعها الكرونولوجية . والبحث عن النقود وصكها النوميستياتيك . والبحث عن الاحافير وما فيها من الآثار علم البليوتولوجية اي علم الرفات . والبحث عن خصائص الشعوب الايتنوغرافية . والبحث عن الديانات والعبادات علم الميتولوجية الخ . وبحسب هذه العلوم والآثار قسمت اعصر التاريخ الى ثلاثة (الاول) وهو العصر الظري اي الحجري الصواني و (الثاني) النحاسي و (الثالث) الحديدي . وعرفت فلسفة التاريخ او التاريخ الفلسفي وهو ربط الاسباب بالتواميس العامة في البشر والطبيعة . وفروع التاريخ بحسب الشؤون والابحاث والمواضيع الى فروع لا تحل الآن لسردها . ولكن التاريخ كيفما كان لاغنى له عن علم العاديات والاحافير لانها اركانه التي يعتمد عليها .

ومن احسن ما قيل في تأثير التاريخ على الانسان كلام الامام البخاري المؤرخ الشهير : « من حفظ التاريخ زاد عقله . ومن نظر في وقائع الزمان هانت عليه مصيبتة » . فالعلوم المساعدة للتاريخ اذن هي : علم الآثار . والكتابات الحجرية . والخطوط القديمة . وعلم الاوقات . والجغرافية . وانتقاد المصادر اي فلسفة التاريخ وغيرها .

هل عرف العرب التماثيل والصور ؟

عندنا ادلة كثيرة على ان العرب عرفوا التماثيل في اليمن وغيرها ووضعوها في قصورهم من انسان وحيوان . واشتهر بها الفرس والاندلسيون وصوروا النقود ولا سيما في عهد السلاجقة وربما كان اقدمها ما صك سنة ٥٩٧ هـ (١٢٠٠ م) وعليه صورة فارس منقطة . وقد ذكر بول كازانوفا : ان احد سياح العرب في آخر القرن التاسع للميلاد شاهد في الصين وغيرها صورة النبي محمد (صلعم) وكبار رجال الاسلام . وكان التصوير البيزنطي

الفينيقيين وكتاب سكنياتون اقدم مؤرخ مدني في العالم يعاصر موسى النبي . وكتابات العهد الاسرائيلي ونحو ذلك .

ومنها ما هو نادر الوجود كما نرى اديم ومواب ونقودهما ونقود تيطس قيصر النحاسية التي سكها في اورشليم تذكراً لانتصاره يوم حاصرها ولم يقف الاثريون الا على بضع قطع منها في متاحف اوربة

ومنها ما هو كثير الوجود كمنقود الاسكندر وهذه اكتشف بعضها الدكتور جول روفيه الفرنسي وكنقود قسطنطين الملك ونقود الرومان والموميا المصرية واشباهها .

كيف قسم العلماء الآثار ؟

لقد قسم الاثريون علم العاديات الى قسمين (احدهما بالنسبة الى القبائل واللغات القديمة) (الثاني) بالنسبة الى الزمان . فمن (اقسام الاول) آثار المصريين والفينيقيين والآشوريين والبابليين والكلدانيين والفسطيين واليونانيين والرومانيين والعرب والصليبيين والبندقيين والعثمانيين . ومن (اقسام الثاني) اقدم العصور المعلومة مثل عصر الخليفة الى زمن موسى النبي سنة ٢٥٠٠ ق م والعصور القديمة كالفيقية والآشورية والمادية والعبرانية والهندية واليونانية والرومانية والعربية الجاهلية . والعصور المتوسطة كالتيصرية الشرقية والمغولية والعوتية والعربية . وكالعصور المتأخرة كالصليبية والبندقية والافرنجية والمثانية . وفي كل منها ابحاث مستفيضة وافصيل اقية في الكتب والمجلات والجرائد عند الافرنج .

ما فائدة الآثار ؟

ان للآثار اليد الطولى في تصحيح التواريخ القديمة وتحيص الآراء المضطربة وكشف الحقائق الغامضة ومعرفة صناعات القدماء وشؤونهم .

فولاهما لما حققت كتابات قدماء المؤرخين مثل هيرودوتوس اليوناني وسكنياتون الفينيقي وما ليشون المصري وبيروسوس الكلداني ويوسيفوس العبراني وسالسته الروماني وديودورس الصقلي وفيلون الجليلي والتوراة . والتواريخ الاخرى كما ستري .

شائعاً في الدولة الاموية ومنه الفسيفساء . وذكر المقرئ يزي: الصور الاسلامية بتطويل ولا سيما في زمن الفاطميين وعدد اسماء المصورين ومنهم احمد بن يوسف ومحمد بن محمد الملقب كل منهما بالمصور وابن خرج البلنسي سمي بالذهبي لان جده كتب وصور بالذهب . وذكر ان شجاع الدين بن ضياء صاحب السلطان بيبرس قد حمل الى بركة امير المغول لما سار بسفارة اليه ثلاث صور صنع يده تمثل حياة الحج . ومن نقوشهم البديعة المخططات (الخارقات) ونقوش المرايا العربية وصور الافلاك والاسطرلابات وكتب مناسك الحج صوروا فيها الكعبة وغيرها وكذلك المعراج وميزان الشعراني ودلائل الخيرات وفي مكتبتي بعضها وفي المكاتب كثير منها .

ومن الدواوين العربية (ديوان الصباغة لثلساني) رأى منه نسخة فيها صور أبناء الامراء الاستاذ العلامة المرحوم الشيخ طاهر الجزائري وفي مكتبة باريز (المقامات الحريرية) بخط يحيى الواسطي سنة ٥٦٣٤ (١٢٣٦ م) فيها صور بديعة يمثل بعضها جيش العباسيين يحملون العلم الاسود وينفخون يا بواق فارسية ضخمة . وبعضها رعيال جمال امامها راع . وبعضها صور نساء ورجال امام قصر نفم ورسم آخر يمثلهم تحت شجرة وعند بعض امثالها منقولة بالتصوير الشمسي عن كتاب الفنون العربية في المدرسة الشرقية في زحلة نشرت بعضها في مجلة الآثار في مقالة (التصوير في انكسب) ومقالة (المرايا عند العرب) والباقي معد لل نشر .

وذكر ياقوت في معجم البلدان قصر المتوكل المسمى (المختار) كانت فيه صور بينها صورة بيعة فيها رهبان واحسنها صورة شهر البيعة حتى قال الواثق يصفها :
ما رأينا كهجة المختار لا ولا مثل صورة الشهاب
ووجدت ثياب وطنافس قديمة عربية منقوشة عليها رسوم حيوانات وآدميين وبعضها قبل الاسلام .

وصوروا في قصورهم الجيوش المتحاربة ونحوها كما في لسان العرب موصوفة بقول شاعرهم :
فيه الغواة مصورو ن فاجل منهم وراقص
والقيل يرتكب الرداء عليه والاسد القصاص
وقول ابي الصلت امية الاندلسي في وصف قصر (منازل العز) المصري :

وبارجله بحال طراد ليس لنفك من وغى خيلاده
تبصر الفارس المدحج فيه ليس تدمى من الطعام قتاده
وترى النابل الموصل للآزج - بعيداً من قرنه مرماه
وصفوقاً من الوحوش وطير الجوكل مستحسن مراده
سكنات تخالفاً حركات واختلاف كأنه أشباه
ومما يدل على تقوذهم الصورة قول البيهقي في تقود سيف الدولة المهدياً إليه:
نحن بجود الأمير في حرم نزع بين السعود والنعم
أبدع من هذه الدقائق لم يجر قديماً في خاطر الكرم
فقد غدت باسمه وصورته في دهرنا عوذة من العدم
وفي بعض المتاحف تماثيل من صنع ملوك الإسلام منها في بيزا بإيطاليا تماثيل بديع
النقش من صنع الفاطميين في مصر .
وفي معجم البلدان أن أوس بن ثعلبة التيمي صاحب قصر أوس في البصرة كان نادماً
إلى الشام فمر بتدمر فاعجبته فيها تماثيلها وحرك قريحته تماثلاً جاريين من حجر فقال:
فتاتي أهل تدمر خيراني أمّا تسأما طول القيام
فيامكما على غير المشايأ على جبل اصم من الرخام
فكم قد مر من عدد الليالي لعصر كما ونام بعد عام
والكأ على مر الليالي لا بقى من فروع ابني بشام
إلى آخر الآيات فلما انشدتها يزيد بن معاوية بن أبي سفيان في هذه العاشية قال:
يزيد: « لله در أهل العراق هاتان الصورتان فيكم يا أهل الشام لم يذكرهما أحد منكم
فمر بهما هذا العراقي مرة فقال ما قال » . ولقد وصفها أبو الحسن العجلي بقوله:
أرى بتدمر تماثيل زانها تأنق الصانع المستغرق الفطن
هما اللتان يروق العين حسنها يستعطفان قلوب الخلق بالفتن
وقال الجعفي في وصف صور ابوان كسرى في المدائن من قصيدة بديعة:
فاذا ما رأيت صورة النطاكية ارتعت بين روم وفوس
والمنايا موائل وأنو شروان يزجي الصفوف تحت الدرفوس

تصف العين انهم جد احيا لهم بينهم اشارة خرس
بغلي فيهم ارتيسابي حتى لنقراهم بداسيه بلس
وقال ابو عمران الكندي في تمثال ابرويز ملك الفرس ممطياً فرسه شبيذ ومربه
جار يته شير بن بالوان بديعة:

وهم نقروا شبيذ بالصخر عبدة وراكبه برويز كالبدر طالع
تلاحظه شير بن والحظ فائن ونعطو بكف حسنها الاشاجع
يدوم على كرا الجديدين شخصه ويلى قويم الخدم واللون ناصع
وقال شاعر اندلسي في تمثال مجري كان في حمام الشطارة في اشبيلية:
ودمية مرمر تزهو بجيد ناهى سيف التورد والبهاض
لما ولد ولم تعرف حليلاً ولا أمت باوجاع الخاض
ونعلم انها حجر ولكن نتيها بالخطأ مراض
وقال التطيلي الاعمى في اسد ينج الماء من فيه في بركة:

اسد ولو اني انا قسه الحساب لقلت صخره
فكأنه اسد الدما ينج من فيه الجره

وقال صاعد اللغوي في صورة جارية في سفينة تجذف:

واعجب منها غادة في سفينة مكحلة يهفو اليها المهائف
اذا راعها موج من الماء ثقي بسكانها ما اندرته العواصف
متى كانت المساء اربان مركب تصرف في يني يديها الجادف
ولم تر عيني في البلاد حديقة لنقلها في راحتين الوصائف

وحكى ابن خردادبه عن فرس نحاس بارض الاندلس باسطر يده كأنه يقول:
ليس خلقي مسلك . وقال: ان في مدينة طليطلة تصاوير افراس مكتوب عليها: لا تنفع
هذه الارض حتى يأتيها قوم يشبهون هذه التصاوير . وكانت تلك التصاوير تمثل
العرب على خيولهم بعائهم وقسيهم .
ومن صور اعضاء الجسم ما في مجموعة طبية في مداواة العيون في المكتبة التيمورية
نسخت سنة ٥٩٢ هـ (١١٩٥ م) بخط عهد الرحمن بن يونس ابن أبي الحسن الانصاري

في ثلث رسائل قديمة منها تذكرة الكعاليين للموصلي فيها دوائر رسوم للعين وأهمها «السابعة» وهي لحنين بن اسحق في تركيب العين وعللها وعلاجها ذات خمسة رسوم للعين ملونة بديعة رسم بعضها في تاريخ آداب اللغة العربية للحرجوم جرجي زيدان . ومن أغرب الكتب المصورة عندنا نسخة من (قانون ابن سينا) شيخ الأطباء في مكتبة السلطان محمود في الاسكندرية فيها رسوم نباتات وسمك وحيوانات نسخت في القرن الخامس للهجرة . (و غرائب المخلوقات) للقرظي رأيت منه منذ بضع عشرة سنة في دمشق في مكتبة آل الايوبي وهو مصور بالوان بديعة وقد طبعت ترجمته بالفارسية على الحجر في طهران بالقان في الرسوم والخط . (مسالك الابصار في سلوك الامصار) لشهاب الدين احمد انكرماني العمري المعروف بابن فضل الله من اهل القرن الثامن للهجرة وهو جزآن في الحيوان والنبات ووجد منه نسخة منقطة في دمشق بصور ملونة بالوانها الطبيعية كانت عند صديقي جرجس بك صفا في لبنان . (حياة الحيوان الكبرى) للدميري من اهل القرن التاسع للهجرة منه نسخ مصورة تميز الحيوانات وبعض الآدميين وطبع في العجم مصوراً .

وذكر باقوت الرومي الحوي في معجم الادباء (اي ارشاد الارباب الى معرفة الاديب) ما نصه : « و كنت سنة ٦٠٧ هـ (١٢١٠ م) قد توجهت الى الشام وفي صحبتي كتب من كتب العلم انجز فيها وفي جملتها كتاب (صور الاقاليم) للبلخي نسخة رائعة مليحة الناطق والتصوير فبعتها من الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف بن ايوب صاحب حلب بتخفيض المشتري من غير كسب » اهـ .

وفي مكاتب باريس وبطرسبرج وغيرها كتب عربية ورسوم رجال يرمون النفط وصورهم بالقان وتلوين . ومنها كتاب الكواكب والصور لابي الحسن عبدالرحمن الصوفي من اهل القرن الرابع للهجرة ونسخه المصورة المنقطة في باريس وبطرسبرج والاسكوريال واكسفورد . وادق نسخة في كونهاغ وهي ملونة الرسوم وكواكبها ما تمثله من آدميين وحيوانات وطيور بالوانها وطبع في روسيا بدون تلوين ورأيت منه نسخة في المكتبة الاحمدية بحلب سنة ١٩٠٩ م وقد كتبت ١٠٠٥ هـ (١٥٩٦ م) وفي المكتبة الظاهرية بدمشق قطعة من مخطوط قديم في علم الخيل وفيه صور

بقي منها رسم الحصان بعيوبه وقد كتب مقابل كل عيب اسمه بالعربية وهو رسم جميل دقيق . وفي مكتبة مدرسة (الثلاثة الافكار) الارثوذكسية في بيروت كتب فلكية مصورة . وفي مكتبة بطنا الهندية كتاب (التصريف في الجراحة) للشيخ ابي القاسم الزهراوي نسخ سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) وفيه صور الآلات الجراحية بالقان تام (١) ولقد ظهرت آثار قديمة في الانبيسة تحقق معرفة التصوير عند العرب من ذلك ان الدكتور هرتسفلد من اساتذة جامعة برلين الذي نقب عن آثار الصناعة الاسلامية في العراق سنة ١٩١١ وجد في مدينة سامرا اطلال جامع بناء المتوكل على الله كما ذكر اليعقوبي وعلى جدرانها نقوش وصور شرقية بارزة وغائرة في الجص (الجصين) وهناك تصاوير ملونة في مواضع الجص المغتلة من النقوش مختلفة الالوان والاشكال بينها صور الآدميين ملونة جميلة الطراز وكذلك قصور العباسيين المصورة .

كيف جمعت الآثار ؟

ولع الناس منذ القديم بجمع آثار من تقدمهم من الامم في متاحف وكن اليونانيون اسبق الناس الى ذلك وعدوا هذا من الفنون فسمي المتحف عندهم (Musée) باللغة الافراسية و (Museum) بالانكليزية منسوباً الى (موزه) إلهة الفنون . واقدم متحف انشئ في سورية متحف بيروت بزمين اغريبها الثاني الروماني انشأه في القرن الاول للميلاد في هذه المدينة السورية ونقل اليه نقائس التماثيل والنقوش والفنون الصناعية من جميع المدن السورية فاغناظ منه سكان المدن الاخرى ولاموه على ذلك ولكن سكان بيروت كانوا راضين عنه كل الرضى . والعرب انشأوا في دمشق متحفاً بزمين الامو بين لآثار القدماء معشرين بجمع آثار الادب والصناعة والدين سموه (سوق الطوائف) وكذلك كان في بغداد (سوق الطوائف) لبيع النفائس فضلاً عن اسواقهم في عكاظ ومربد البصرة مما كان اشبه بالمتاحف او المعارض .

واول متحف اعلمت به حكومة عربية متحف مصر بزمين الشيخ رفاعة الطهطاوي شيخ ارباب النهضة العلمية في مصر في اوائل القرن الماضي . (١) وهو الكتاب الذي اهدي اخيراً الى خزانة مجمعنا العلمي .

وفي بلادنا انشئ متحف القدس سنة ١٩٠١ م ومتحف بعلبك نحو سنة ١٩٠٥ م ومتحف صيدا في هذه الفترة ومتحفنا هذا في اوائل سنة ١٩١٩ م ومتحف بيروت سنة ١٩٢٢ .

ما هي قيمة الآثار ؟

لا تقدر قيمة الآثار بحسب كبرها او معدنها او نقشها او جمالها او اشكالها وانما بحسب قانديتها التاريخية فن الآثار ما هو نادر جداً فهو ذو قيمة ثمينة ومنها ما هو مفيد تاريخياً ومنها ما هو مفيد صناعياً ومنها ما هو مفيد علمياً الى امثال هذه التوائد الرائعة ولولا هذه القيم لما تبارى الافرنج بنقل الآثار وحشدتها في المتاحف والاتفاق على حفظها وجمعها وترتيبها وانشاء الجلات لوصفها ووضع المعاجم التفصيلية وتاريخها وحفظ صورها .

ففي سنة ١٩٠٤ م ظهر في قرية تل المنسل التابعة قضاء حيفا من بلادنا خاتم لي شمع (اسكندر بن سليمان) من حجر اليشب نقش عليه صورة سبع فاعمر فاه وعلى اطرافه اسمه بالعبرية وهو قبل الميلاد بنحو تسعة قرون فقدر ثمنه بخمسين الف فرنك اي الفين وخمسمائة ليرة افرسية .

وجمع احد اغنياء سان فرانسيسكو في اميركة الشمالية نقوداً قديمة قدرت قيمتها بعشرين الف ليرة انكليزية منها شافل فضة من ايام داود الملك وهو من نوادر الآثار واقدما .

وسنة ١٨٧٧ م نقل قائم (مسلة) كيبوترة من مصر الى لندن ونصب على ضفة نهر التيمس فالتقى عليه نحو عشرة آلاف ليرة انكليزية .

وفي المتحف البريطاني آثار منها جثة منكورع المصري بالي الحرم الثالث سيف الخيزة قدر ثمنها بخمسة وسبعين الف ليرة انكليزية . وحجر رشيد الذي قرئت به الهيرغليفية ثمن عشرة آلاف ليرة . ورخامات المجلس اشترها اللورد ايلجن سفير انكلترة في الاسكندرية بسبعين الف ليرة انكليزية ثم نقلها الى لندن سنة ١٨٠٥ م وباعها الى المتحف بنصف القيمة فنسبت اليه مكافأة له .

وفي متحف برلين الالمانى نحو سبع عشرة جثة مصرية مخططة أنفقت الحكومة

للحصول عليها ثمانمائة الف مارك . واتفق متحف الاسكندرية سنة ١٨٨٧ م على نقل آثار صيدا اليه نحو عشرة آلاف فرنك .

وبيع نحو سنة ١٩١٢ م كثير من الآثار بالثمان عقيمة مثل تمثال ابنة الذي يرجع انه من نحت فيدياس اليوناني الشهير بسبعة آلاف ومائة واربعين ليرة انكليزية . وتمثال انتينوس يحمل الكأس لاريانوس بقيمة ٥٨٨٠ وتمثال هيبه الهة الصحة بنحو ٤٢٠٠ ليرة وكأس خزفية كانت للملك هنري الثاني بقيمة ٣٧٨٠ ليرة وتمثال امرأة يونانية مما كان يوضع في المعابد تذكراً بثن ٣٥٧٠ ليرة .

وفي صيف سنة ١٩٢٢ م ثمت مجموعة النقود القديمة التي كان يحوزها (دوق) كليارا بنصف مليون فرنك تقريباً وعدد النقود المجموعة لا يتجاوز ألفاً ومائتي قطعة فقط .

وفي صيف سنة ١٩٢٢ ايضاً بيع بالمزاد في متحف القس مكروغور تحفة مصرية هي رأس صغير للملك امنمحات الثالث من الدولة الثانية عشرة وهو من السبع (الحجر الزجاجي الاسود) بقيمة عشرة آلاف جنيه .

كيف تحقق الآثار التاريخ ؟

من اقدم الآثار التي اثبتت العلوم والصناعات والاختراعات ما احتقر من عادات المصريين والبابليين والاشوريين والفينيقيين فحقق وجودها ان تلك الامم عرفت كثيراً من ذلك مثل الكبريات او العدسيات التي وجدت في اطلال بابل والخطوط الدقيقة التي كتبت على الآجر فانها تدل على اتخاذهم تلك البلورات المكبرة لهذه الغاية وعرفوا الزجاج الشفاف والظليل الملون واتقنوا التطريز والتجويد بالذهب وغيره المعروف في ايامنا بالطلي وصقلوا الحجارة الكريمة ونقشوها بالثقان وحفروا التبرع وحفظوا الموق و برعوا بعلوم الفلك والرياضيات فقسموها الى ساعات ودقائق وثوان لا تزال دستور العمل بها الى يومنا . وعرفوا السنة الشمسية والقمرية وعينوا الكسوف والخسوف واقاموا المراصد واخترعوا المزاول وبرعوا بالطب والكيمياء . والبناء المزخرف بالنقش والحفر والتصوير واقامة التماثيل واتخاذ المكاتب والنايف بالعلوم ووجود المعالم المعروفة اليوم

بالانسكلوبيديات او دوائر المعارف والمدارس العالية . ووضع الشرائع او الاشتراع والتدين بصور مختلفة الى كثير من امثال هذا .

وعثر بعض المتقنين في المكسيك (اميركا) على كتابات تاريخية تشير احداها الى اكتشاف خمسة من الكهنة البوذيين الصينيين لاميركا في القرن الخامس للميلاد فعول المؤرخون على هذا الرأي وعرفوا ان هؤلاء اكتشفوا اميركا قبل الاخوة المغرورين (Magrorim) وهم ثمانية من العرب تركوا لشبونة لاكتشاف اميركا كما صرح بذلك المؤرخ الاسباني كوندي والشريف الادريسي في كتابه نزهة المشتاق وسمي طريقهم في لشبونة (درب المغرورين) الى يومنا وذلك قبل كولومبوس بستين سنة . وكشفت كتابة اسكندرية على حجر بتاريخ سنة ١٣٦٢ م تذكر ان ٣٠ رجلاً من اسوج ونروج وطثوا اميركا ووصلوا الى بلدة (ميناسونا) قبل كولومبوس بمائة وثلاثين سنة ولكن الكتابة الاولى اثبتت ان فضل اكتشاف اميركا كان للصينيين . وربما ظهر ما ينقض هذا ايضاً .

ومن اهم ما افادت الآثار التاريخ قراءة الخطوط القديمة بمعارضتها والاطلاع على تاريخ الاقوام التي ظمت آثارها فكان اكتشاف بعض الآثار المكتوبة وحملها الى كروتند الاملائي سنة ١٨٠٢ م سبباً حاملاً على قراءة الخطوط المسمارية التي كثرت في وادي الرافدين اي دجلة والفرات . فقرئت اخبار الام التي ملأت تلك البقاع وعرف عمراتها وتقدمها . وكان هنري رولنسون الانكليزي قد قرأ خط صخرة بيهستون المسماري في كردستان سنة ١٨٣٧ ايضاً .

وهكذا كان الحال في قراءة الخطوط الهيروغليفية اي المصرية القديمة وكشف الاستار عن وجوه تاريخ الامة المصرية ومعرفة درجة حضارتها . والفضل في ذلك عائد لشامبوليون الفرنسي الذي قرأ حجر رشيد الهيروغليفي سنة ١٨٢٢ م وهو عمود منقوش بالقلم المصري واليوناني واللاتيني فحققت الآثار المكتشفة وستحقق ايضاً كل ما غمض من تاريخ المصريين وبلادهم .

وعرف من هذه الآثار وحل رموز اللغتين ان الخط المسماري له علامة تدل على الفاظ كثيرة والهيروغليفي له علامة تدل على لفظة واحدة .

واشتهر اوستن ليرد سفير فرنسي في الاستانة باكتشافاته الاشورية سنة ١٨٥٠

ولاسيما صفائح الاجر وهي نحو عشرة آلاف نقلها الى اوربة فتبارى العلماء في حلها وبرعوا بقراءة القلم المسماري فاجاز المسيو بولان ناظر المعارف الفرنسية المسيو اوبرت بعشرين الف فراك لانه نجح بقراءة اللغة المسمارية . وهكذا كانت الابحاث متواصلة في تحقيق ما غمض من توارىخ الامم القديمة بوجود آثار عمرانهم في الانقاض وعين موضع نينوى انه في محل كونيغيك في شرق الموصل الجنوبي . وكالح في محل اخربة نمرود في جنوبي الموصل الى جنوبي نينوى .

وجاء في التوراة حادثة الخلق والسقوط والطوفان . وبرز بابل ويوسف في مصر وتفسيره حلم فرعون وحديث سبع سني جوع ومثلها شيع وبناء سليمان الملك لبلدة ماجدو (تل الماسلم) التابعة حينها وحروب موآب واسرائيل واشور فاكشف جورج سميث الانكليزي سنة ١٨٦٧ م كتابات على الغضار ثبتت التكوين والسقوط والطوفان بنفاصيل اشبه بما دون في التوراة . وسنة ١٩٠٢ م اكتشف دي مېلي شيتان عن برج بابل يدل على بقائه في القرن الرابع بعد الميلاد وان يختصر ملك بابل ريمه في القرن السادس قبل الميلاد وانه مبني قبل ذلك العهد بأثنين واربعين قرناً وعرف ان قياسه كان غربياً فطول اساسه من جهة واحدة ١٨٦ متراً وعلوه ٢٢٥ وساحه التي يصعد عليها اليه ذات ٣٦٥ درجة وعين محله قرب طيسفون (المدائن) . ووجد الدكتور برغش سنة ١٨٩٠ م قرب الاقصر في مصر عند ثيبة حجراً عليه خطوط هيروغليفية منها كتابة لاحد الكهنة معناها : « ان النيل لم يفيض ماؤه سبع سنوات » وذلك يؤيد كدسني الجوع بزمان يوسف .

وسنة ١٩٠٤ م اعاد الحفر الدكتور شوماخر فاظهر في تل الماسلم (اي مجدو) اطلال قصر شيده سليمان وذلك يوافق كتابات تل العمارنة في مصر : ان سليمان شيده بلدة مجدو وبنى فيها قصراً .

وسنة ١٨٦٩ م اكتشف المسيو غانو فنصل فرنسي في القدس حجر دهبون (ذيبان) قرب مادبا شرقي البحر الميت وهو من الحري (Beselet — الاسود البركاني) وعليه كتابة سامية عبرانية بحرف فينيقي من ٢٤ سطراً محفورة تُنصن سرد حروب موآب واسرائيل على عهد يوشافاط ملك يهوذا ويورام ملك اسرائيل (٤ : ٣) .

كثبت سنة ٨٩٦ ق م فنقلت الى فرنسة .

وسنة ١٨٦٦ وجد جورج سميث الانكليزي كتابات على الحجر من عهد شلمانصر الثاني تؤذن بحربه مع حزائيل ملك الشام .

وسنة ١٨٧٤ م بحث الدكتور شليمان الالماني الاثري عن اطلال طروادة قرب جبل اوليموس في بروسه فوجد مدينة محترقة وعثر على قبر اثاميون في ميسينا . وشاهد كثيراً مما يؤيد قول اومبروس في الباذنة .

واكتشفوا منذ بضعة سنوات قرب بوردو (فراسه) ناووساً رومانياً من القرن الاول للميلاد ففحصوه ووجدوا هيكل عظام بالية واناخزقياً سورياً فيه خمر فاستدلوا منه ان العلاقات التجارية كانت متصلة بين اوربنة وسورية في ذلك العهد .

وسنة ١٨٧٩ - اكتشف الدكتور شليمان في طروادة كاساً مكتوبة تدل على ان التجارة كانت رائجة بين الصين واوربنة قبل الميلاد بالف ومائتي سنة . ووجد ضمن تلك الكاس نسجاً صينياً .

واكتشف في صيدا منذ سنوات قبر الاسكندر المكدوني ونقل الى المتحف العثماني في الاستانة . وبقي العلماء على شك من امره الى ان ظهر قبر هذا الفاتح العظيم في ممبيس في القطر المصري فقطعت جبهة قول كل خطيب وفسد الرأي الاول واثبت الثاني . ولما اكتشفت آثار تل العارضة قرب المنية في صعيد مصر سنة ١٨٨٨ م وهي سجلات الدولتين المصرية والسورية ومراسلاتهما في ايام امينوفيس الثالث وابنه امينوفيس الرابع قرأ الاثريون اسماء مدن سورية قديمة لا تزال على حالها الى يومنا مثل عكا وصيدونا (صيداء) وصورتي (صور) وبيرونا (بيروت) وجبله (جبل) واروادة (ارواد) ودمسقا (دمشق) وقطنا (قرب دمشق) فضلاً عن الاعلام اللبنانية مثل البترون وجونية وشكك الاعلام البقاعية مثل شتوره ومكس . فثبت قدم هذه المدن سنة ١٨٨٠ م ظهرت آثار بواسطة نقب المستر سمبسن المرافق للجيش الانكليزي الى وادي جلال اباد في افغانستان دلت على انه كان في ذلك الوادي قديماً من المتزهدين البوذيين أكثر من عدد سكانه اليوم .

واستدل هذا الاثري من تقود رومانية وجدها هناك ان بلاد الافغان كانت في القرون الماضية طريقاً للتجارة من اواسط اسيا الى بلاد الهند .

واستخرج الاستاذ سنفنسن آثاراً قديمة من بلاد المكسيك الجديدة في الولايات المتحدة بينها صنان مجنحان مصري الشكل وآثار أخرى تشبه آثار الشرق القديمة . وكلها دلت على شؤن ناريحية جديدة كان المؤرخون في ريب منها فتحقق لم امرها . وذكر بروشيوس المؤرخ الكلداني من اهل القرن الرابع قبل الميلاد ان مملكة العمالة العرب في العراق حكمت ٢٤٥ سنة وقام منها تسعة ملوك حكموا بين دواني الكلدانيين والآشوريين وذلك من سنة ٢٤٦٠ - ٢٠٨١ ق م . فبقي قوله مشكوكاً فيه الى ان اكتشف دهرغان الفرنسي سنة ١٩٠١ م آثار سوسة بين النهرين على الآخر فنقلت الى متحف اللوفر في باريس . وظهر منها ان الدولة الساموية العربية خلقت العيلاميين واشتهر منها حامورابي وشريعته وكانت القابله « ملك بابل وسومار وعقاد وملك اربعة الارباع » . فثبت رأي بروشيوس وصح تاريخه . وهكذا قل ان الآثار المصرية حققت اخبار دولها القديمة ومنها الرعاة (الهكسوس) الذين يترجح انهم من عمالة العرب ايضاً . فصحح تاريخ مصر بعد اضطرابه .

وهكذا كانت آثار فينيقية المكتشفة في الايام الاخيرة ناقضة لكثير من اراء رينان الفرنسي الذي جاء لبنات سنة ١٨٦٠ م ولقد آتاه والف كتابه (البعثة الفينيقية) فصحت الآثار المكتشفة ما كتبه في بعض المواضع متكهناً . ونحو سنة ١٨٩٥ م كان الارثوذكس في قرية مادبا في فلسطين شرقي بحيرة لوط يرممون كنيستهم فظهر عند الحفر فسيفساء كثيرة لم يسألوا بها اولاً فشيّدوا الكنيسة ثم بدأوا ببناء دار ملاصقة لها فظهر لهم قطعة فسيفساء جميلة جداً كانت من بلاط الكنيسة القديمة تمثل مخططاً او مصوراً (خارطة) لبلادنا من لبنان الى مصر ومن البحر الى ما بين النهرين وفيها المدن والقرى واسماؤها بديعة اللون والرصف ولكن بعضها مهشم فبعد ان كانت مساحتها نحو ٢٨٠ متراً لم يبق منها الا ١٨ متراً سائماً تمثل بعض فلسطين وهي من عمل القرنين الرابع والخامس للميلاد .

وفيها اسماء مدن مجهولة اليوم يمكن تعيين مواقعها فضلاً عن اسمائها القديمة والحديثة باليونانية مع دقة اشكالها وابعادها واخص آثارها وبيان السهول والرعان والجبال والانهار ملونة بالوانها الطبيعية . فترى جزءاً من نهر الاردن بتمجانه

وتعاريجه الكثيرة وفي مجراء الاسماك مع جسر شمالي اريحا الشرقي . وترى في بحيرة لوط المراكب الشراعية ثم تشاهد جزءاً من الغور وفيه غزالة بطاردها اسد الى اشباه هذه الشخصيات البديعة .

وامم ما بقي منها سورة اورشليم في ذلك العهد وتخطيطها باحيائها وشوارعها وابنيها بالوان تأخذ بتجامع الابصار رواه .

فالقداد هذا المخطط علم رسم الارض (الجغرافية) والتاريخ فوائد حمة وصحيح كثيراً من الاوهام في مواقع بعض المدن والقرى واسماؤها فهكذا تحقق الآثار التاريخ . وما تراه في غموض التاريخ العربي قبل الاسلام سيجلى باظهار بيئات بعد حفر آثار شبه الجزيرة والوقوف على ما هنالك من الكتابات والابنية والنقود وما شا كل من الآنية والآثار والعاديات على اختلافها . كما فعل الاستاذ موزل النموسي سنة ١٩٠٢ م باكتشافه قصر الخلفاء في صحراء البادية وقلعة العمرة وكثيراً من الاخرية والاتقاض القديمة وغيره من الاثرين والحفارين .

وسنة ١٩٠٣ م اكتشف في حوراث رسوم اوراق العنب وعناقيده يقال انها من نقش الحجر بين العرب قبل اليونان والرومان فدل على صحة حضارتهم ونقوشهم . وسنة ١٩٠٣ م ظهر في المدافن المصرية بردى يحتوي على قصيدة (الفرسي) لناظمها تيموثاوس الشاعر اليوناني يصف فيها بكل دقة معركة سيلاميس الهائلة التي اندحر فيها اخسرخوس الفارسي من وجه اليونان فثبت بها صحة المعركة تاريخياً .

وسنة ١٩٠٥ م ظهرت اطلال وادي موسى عند حفر الطريق للسكة الحجازية وصح تاريخ مدينة الحجر او بيرا اوسالع ومن اهم تلك الآثار (قصر فرعون) و (خزنة فرعون) وغيرها مما وصفه بعضهم .

وسنة ١٩٠٨ م ظهر في مدينة جبيل اللبنانية تمثال بديع يمثل (هرمس) الذي كان عند اليونانيين اله الطرق والمسافرين والتجارة ورسول سائر الالهة وهو فخر بديع من الحجر الكلسي الصلب وربما كانت من عهد خلفاء الاسكندر وهو يؤيد ما ذكره التاريخ من حراسة طريق البحر في القديم بالهة من اشباه هذه ولا سيما عند اليونانيين ولا يزال مضيق نهر الكلب شاهداً على ذلك الى يومنا .

ونحو سنة ١٩١٠ قرى بردى مكتشف حديثاً في مصر يؤيد ما في كتابي عزرا ونحميا من التوراة . وثبت صحة تاريخ العبرانيين في ذلك العهد . ومن عجيب ما رواه البردي المذكور ان ملوك يهوذا كانوا يبيعون رجالهم جنوداً للمصريين وبأخذون اثامهم خيلاً . وذلك يخالف الشريعة الموسوية ويدل على جور الملوك ومخالفتهم للشرائع . وفيه اقوال من سفر طوبيا والامثال واساطير ايزوب واشعار ديمقراطس . واغرب من هذا وجود اجزاء فيه من كتاب احيقار المعروف عند العرب وله اقصيص غريبة .

ووجد محراث اشوري في نقر (نبور) ومعه وعاء ابذر الحبوب مما يدل على انه عند الحراثة يهتز الوعاء فتسقط منه الحبة اثر الاخرى ونظم .

ونحو سنة ١٩١٢ م اكتشف هيلبرشت الاميركي قطعة آجر كتب عليها حادثة الطوفان تاريخها نحو التي سنة قبل الميلاد فوافق ما فيها بل تم ما رواه الكاهن البابلي باروز ونقله عنه يوسفوس وغيره .

ونحو ١٩٠٥ م اكتشف الدكتور سالين النموسي في تل تغك اي مرج ابن عامر ابنية واواني من القيشاني والصيني كانت تصنع في فلسطين ولا سيما في زمن الكنعانيين فثبت بهذا ان القيشاني لم يكن من عمل النجم بل اقدم منهم اتصل بقاشان ونقله الدمشقيون واشتهروا به .

وسنة ١٩١١ م كانت حكومة اسبانية تبحث عن مدينة عربية خفيت عن الاعين آثارها فوجدوها مغمورة تحت الارض واسمها (الزهراء) وضاحتها تسمى (الزهيرة) او (بليس) على بعد قليل من قرطبة . فظهرت اطلالها البديعة ونقوشها الرائعة فثبت ما رواه التاريخ من انها موجودة لا مكذوب فيها وان فيها مدرسة كانت تمثل الاحياء بالصور والرسوم وكانت الامير عبد الرحمن يعاضدها وامه المسيحية تنشطها وتدر عليها المال . ووجدوا هنالك كثيراً من انواع الخزف والمجرات والزجاج الملون من صناعات العرب في الاندلس .

وسنة ١٩١٣ م ثبت للاثرين موقع جرابلس او كركيش عاصمة الحثين على ضفة الفرات بين حلب وبغداد وهي التي اشار اليها (سفر الاخبار الثاني ٣٥ : ٢٠)

بقوله : « وسعد نيجو ملك مصر لقتال كركميش عند الفرات فخرج عليه يوشيا »
وكان رولنسن الانكليزي ومسيرة الافرنسي قد ظلها منج قرب حلب ثم قرر سكان
الانكليزي وجورج سمث وعلية انها جرابلس فحققتها الآن البعثة الانكليزية فيها
ولو قرئت الكتابة الحثية لظير بهذه الاكتشافات غرائب . وكلمة جرابلس تحريف
(هيرابوليس) اي المدينة المقدسة . وفي مجلتي الآثار وصف هذه المدينة وآثارها
المثبتة لتاريخها (٣ : ١٦١ و ٢٥٣ و ٣٥١) .

وسنة ١٩١٨ توفى الدكتور ريزو الانكليزي في حفريات في السودان المصري
الى تحقيق ملوك اشوية بين القرنين السابع والخامس قبل الميلاد فبعد ان كانت
المؤرخون لا يعرفون منهم الا ترحانا وخلفه نانوتامون اظهرت الآثار منهم اثنين
وعشرين ملكا حكموا من سنة ٦٦٨ - ٣٠٠ ق م وكشفت قبور كل منهم ومن
ملكاتهم والسياتهم فحققت سلسلتهم وعرفت أسرهم . وكذلك كان المؤرخون في
رية من امر الملك تسعين فحقق انه وجد بعد كميز بقرنين لا انه كان معاصره
فكانت الآثار ناقصة للاوهام التي كانت في تاريخ اولئك الملوك فسدت ثمة في تاريخهم
ومحا اليقين الشك بشأنهم .

وسنة ١٩١٩ م أعلنت المجلات الاثرية خبر اكتشاف مهم سيفعلم الآثار وهو
ان الدكتور فردريك هروزفي استاذ اللغات السامية في جامعة فيننه سيف التسه قد
اعتدى الى قراءة اللغة الحثية التي كانت قراءتها متعذرة كل هذه المدات على العلماء
وما ذلك الا لعدم وجود كتابة حثية مع كتابة أخرى معروفة ليتمكن مقابلتها وحل
رموزها كما جرى في قراءة الكتابة الهيروغليفية المصرية والكتابة المسماة
الاشورية . فعالج كثير من العلماء حروف الحثية مقابلة ودرسا وتحقيقا فلم يظفروا
منها بطائل الى ان بشرنا الصحف ان هذا الطبيب النمساوي قد قرأ الكتابات الحثية
ووضع فيها رسالة بين اصولها وصفاتها مما دل على ان اللغة الحثية هي اخت اليونانية
من اللغات الآرية او الهندية الاوربية مثل اليونانية واللاتينية . بعد ان كان العلماء
يعدها من اللغات الحامية . وكانت الحثية مستقلة عن اللغات الهندية الاوربية اي
اللغات المشابهة للاتينية والهندية الآرية والارمنية في القرن الرابع عشر والثالث

عشر قبل الميلاد . وان الحثيين انفسهم من سلالة هندية اوربية لاحامية ولكن
امتزج بهم دم غير الدم الهندي الاوربي على طول الزمن . وان عمرائهم كان يضاهي
العمران البابلي والاشوري . وكان اول ذكر لهذه الامة الحثية سنة ١٩٣٠ ق م .
وهم الذين قضوا على دولة السموآيين التي نبغ منها حمورابي المشرع الشهير فخلعهم في
العراق . وبلغت دولتهم اوج مجدها في القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد
في عهد صيلوليا وخلفائه وقد ملكوا كل أسية الصغرى حتى امتدوا الى سورية
وفلسطين واتصلوا بالقطر المصري . وان نجم مجدهم اخذ بالافول في اول القرن الثاني عشر
قبل الميلاد الى كثير من هذه التحقيقات .

وهناك امور كثيرة نحتاج في تفصيلها الى مجلدات اجتزأنا منها بهذا القدر .
ويحسن ان نختم هذا البحث بملاحظات ذات شأن في الآثار : ان المؤرخين حتى عهد
قريب كانوا قد اختلفوا بتسمية اسكندر المكدوني بذى القرنين فيعظمهم قال انه
كان له حصان بقرنين . وقيل كان للاسكندر ذؤابان مرافقتان تشبهان القرنين .
وقيل لتملكه قرني الشمس اي المشرق والمغرب . ولكن الآثار التي ظهرت فيها نقود
الاسكندر المصكوكه بعهد دلت انه صور نفسه فيها بصورة امون الذي كان يمثل
بقرنين كقرني الكبش فسموه بذى القرنين وهو اظهر الادلة على تلك التسمية .
وهكذا تاريخ العرب في شبه الجزيرة ما زال غامضا ولا سيما في زمن الجاهلية . ومع
ذلك فان ما حققه السياح وما اكتشفه الاثريون وقرأوه من الكتابات رفع حجب
الوهم عن اشياء كثيرة من عمرائهم . فاكشف أرنو سنة ١٨٥٣ خطوطا واثارا
حقيق بها اما كن صنعاء والغريبة وحرم بلقيس ومأرب فوضع مخططا (خارطة)
لآثار سد مأرب الشهير ثم تعقبه كثيرون مثل هالبي سنة ١٨٦٩ م فاكشف
بلاد الجوف التي مر بها اليوس غالوس الفاتح الروماني . ثم اكتشف في جهات نجران
مدينة (معين) عاصمة المعينيين من دول اليمن العظيمة . وكما كثرت الابحاث الاثرية
زاد تحقيق هذا التاريخ فعرفت الآن تواريخ دولة المعينيين والسبأيين والحيريين في
اليمن والانباط والتدمريين والغساسنة في شمالي بلاد العرب . والسموآيين

او الحوريين والشميين في العراق . وايدت ما عرفت عن القبائل البائدة مثل عاد وثمود وطسم وجديس وغيرها .
وهاكم الان مثالا مما حققته الآثار عن سكان بلادنا القدماء . فلولا الآثار — التي ظهرت في مصر ووصفت غزوة توميس (توميس) الاول ملك مصر الذي غزا سورية والعراق حيث ينوي وبابل سنة ١٦٥٠ ق م وهو من الاسرة الثامنة عشرة من الاسر الملكية في مصر — لما عرفت المؤرخون ان سكان هذه البلاد القدماء هم اللواديون او الروتيون ويقال اللواديون او الروتيون وهؤلاء السكان الذين كانوا في هذه البلاد جميعها هم اخوة الاراميين واقدم منهم في سكنى بلادنا . وايدت تلك الآثار القديمة ما نقش على هيكل الكرنك في مصر ايضا اذ ذكر ان توميس الثالث نحو سنة ١٦٥٠ ق م جاء سورية لتدويج الروتان الذين امتنعوا عن دفع الجزية التي صربها سلفه توميس الاول عليهم . وظهر في المتحف البريطاني اثر من حامية المصرية يمثل رجالا من هؤلاء السكان القدماء يقدمون الهدايا لفرعون او احد خاصته .

فنتقض هذا الرأي قول المؤرخين ان سكان سورية القدماء هم الاراميون والبت انهم هم اللواديون او الروتيون كما سبق في محاضرة (حقائق تاريخية) صفحة ١٥٠

الخاتمة

هذا قد من قطر ونقطة من بحر من فائدة الآثار القديمة في التاريخ لان تفصيل ذلك يحتاج الى مجلدات ضخمة ومراجعات مشقة على ان زبدة القول ان اسفار التوراة والاسيا اسفار موسى الخمسة منها وتواريخ المصريين والكلدانيين والاشوريين والبابليين والماديين والحثيين والروتيين والاراميين والفينيقيين والقرطاجيين والفلسطينيين والعبرانيين والفرس والعرب واليونان والاسبرطيين والمكدونيين والسلوقيين والبطالسة والمكابين وممالك آسية الصغرى والرومان والافرنج كلها اليوم مصححة بحسب الآثار القديمة والعاديات وربما ظهر اشياء جديدة لتتقض بها الآراء القديمة .

وكفى بهذه المجالة الآن شاهداً عدلاً وبرهاناً دامعاً على ان الآثار القديمة ليس جميعها من الكماليات بل من الضروريات وليس في جمعها والاستفادة من درسها الا تحقيقاً للتاريخ وتجديداً للذكرى الاسلاف .

فاناشدكم الله أيها الكرام ان لا يذهب بعضكم مع الهوى ويرمينا باللوم لعنايتنا بالمتحف والمكتبة فان في هذين ارتقاء الوطن وتحقيق تاريخه وترقية معارفه ورفع شأنه بين الامم المتقدمة .

فهلاً فنجاري الامم في حضارتها الراقية وهي شديدة الحرص على اتباع مثل هذه النفائس ونقلها واذا خارها في متاحفها حتى اننا نحتاج الى الوقوف عليها لمعرفة شؤونها . فسلام على من اعتنى بحفظ آثار بلاده وحرص على بقايا قومه الدارجين . وسلام على حكومتينا الوطنية والمنتدبة الحرصتين على احراز آثار الامة وابقاء ما تركته لنا الايام منها محفوظاً عندنا مع ان ماثات والوقفاً منها يجرها غيرنا وفقها الله وحفظكم خير ذخيرة للندية .

عيسى بكندر
المطروحة

العمل بالعلم (١)

قال ابن الوردي :

في ازدياد العلم ارغام العدي . وجمال العلم اصلاح العمل .
وقيل في منشور الحكم : « لم ينتفع بعلمه من ترك العمل به » . وقال الفيلسوف
ياكون : « من يقض عمره في درس العلوم فهو البليد الكسول . ومن اتخذها زينة
وحلية فهو المتصنع المتكلف فكال الدرس الاختيار . وكال العلم العمل به لا الاكتفاء
بمعرفة » . وكل هذه الاقوال صحيحة لان ثرة العلم ان يعمل به . والعالم بلا عمل
كالشجرة بلا ثمر او كالخلة بلا غسل . وكل الفوائد التي جناها المجتمع البشري من
حدائق العلم انما جنت بالعمل لا بالعلم وحده . فالعمل اساس التقدم والارتقاء
وسيلة السعادة واقتناء . وكل أمة ليس فيها ميل الى العمل والاعتماد على النفس تبقى
مخطئة شقية ولا بد من سقوطها . ان الخالق عز وجل لم يخلق الانسان للبطالة والكسل
بل خلقه للسعي والعمل . فوضعه في جنة عدن ليعملها ثم فرض عليه ان يأكل خبزه
يعرق وجهه . فالعمل اول الواجبات وهو ضروري لجميع الناس على اختلاف الطبقات
وتباين الاطوار والحالات . لا يعنى منه الا الذي أثبتته المرض ولا يستغني عنه
الا الذي لا تحبض به ولا تبغض . وذلك للأسباب الآتية :

(١) : انه قوام الحياة وقال بعضهم بل هو الحياة لان الانسان اذا انقطع عن
العمل ادركه الاجل . وقيل ان احد الاعيان سأل صديقاً له ما سبب موت أخيه
فاجاب انقطاعه عن العمل فقال السائل حقاً ان هذا سبب كاف لامانة اي انسان
كان . وقال صولون الحكيم : « من لا يعمل يجب ان يحكم عليه بالموت » وقد أصاب
بهذا القول لان الحركة والسعي من علامات الحياة وواقباتها وعدم العمل من

(١) خلاصة محاضرة للاستاذ انيس افندي علوم القاها في ردهة المجمع العلمي
في ٢٤ تشرين الثاني سنة ١٩٢١ م .

مفسداتها ومهلكاتها ولنا في عالم الطبيعة امثلة كثيرة توضح هذه الحقيقة . فالمااء المنحدر
من ينبوعه متدفقاً فوق الصخور او مترقفاً على حصى الاودية كالبلور يبقى صافياً
لامعاً عذباً مادام جارياً بقوة ولكنه اذا ركد أجن وأنجن وصار مأوى للحشرات
القذرة والافاعي السامة . والهواء المتحرك حركة لطيفة يشرح الصدور وينعش
النفوس ولكن اذا سكن فسد وتولدت فيه جراثيم الامراض . والآلات والادوات
الحديدية اذا استعملت بقيت صقيلة لامعة واذا أهملت علاها الصدأ وادر كها الفناء .
وكذلك الانسان اذا قام بالاعمال المطلوبة منه امتلاً نشاطاً وقوة وحفظ رونق شبابه
الى طور الشيخوخة واذا ترك العمل خسر صحته وقوته وشبابه وحياته لان اعضاءه
مخلوقة للاستعمال لا للاممال والاستعمال يحياها والاممال يميتها فالعمل احسن مقومات
الحياة والنفع مقويات الصحة وافضل الواقيات من الامراض المختلفة ولو تمرنت عليه
المترفون المترفهون لقلت تشكياتهم من الوبالة والرهل والسمن الزائد وسوء الهضم
ومتنعوا بكمال القوة والنشاط .

(٢) : انه غذاء العقل الذي يقويه وحصنه الذي يقيه فان العاكف على عمله
يتمكن من زيادة معرفته وترقية ادراكه بما يكتسبه من الدربة والاختبار فيكون
اقدر من غيره على تمهيز الدقائق وكشف الحقائق ودفع المغارم وجر المغام . والذي
يترك العمل ينفخ عقله للتفكر بالجرائم والآثام وتغريه الوسوس والاهوام فيهم في
اودية المصوم وتعتلج في صدره الغموم او يسي اسيراً لهواه او يأس من هذه الحياة
فيظلم الاختلاط في عقله وربما انتحر وجلب العار على اهله . ان يوماً واحداً من ايام
فيظلم الاختلاط في عقله وربما انتحر وجلب العار على اهله . ان يوماً واحداً من ايام
الهواجس والمصوم لاشد على النفس من شهر عمل واجتهاد لانت الاهتمامات لنهك
القوى وتشوش نظام العقل ولا شيء يحفظ ذلك النظام من التشويش غير العمل .
قال جانكورت : اننا بواسطة عمل العقل نضمن راحة القلب . وروت احدي الجرائد
قال انه عرض في فينا ذخيرة فاخرة مرصعة بالجواهر الكريمة وفي قلبها اربعة دبابيس عادية
ولهذه الدبابيس قصة غريبة وهي ان الكونت لفسكوفي زوج صاحبة هذه الذخيرة
اتهمته الدولة الروسية بكلام قاله في حق القيصر وقائلة الكلام امرأته لا هو فلم يبرر
نفسه فالتقاء القيصر في سجن مظلم لا يرى فيه شيئاً وإبقاء فيه ست سنوات . اما هو فلما

دخل السجن وضع يده على ثوبه فوجد فيه أربعة دبابيس فنزعها منه ورمها في أرض السجن ثم أخذ يلمسها حتى وجدها فرماها ثانية وعاد يفتش عنها واستمر يرميها ويحدها مدة ألت السنوات . وقد قال في سيرة حياته أن هذه الدبابيس شغلني كل تلك المدة الطويلة ولولاها لجنت فلا عجب إذا جعلتها زوجتي حيلة من حلالها لأنها حفظت عقل زوجها .

(٣) : أنه درع الفضائل التي نقي الإنسان سهام الرذائل . فإن تركه وقضى وقته بالبطالة فتح أوسع الأبواب للشر وتورط في أحوال البذاءة والاثم ولا سيما إذا كان من الشباب الأغنياء فيجتمع فيه أسباب الفساد الثلاثة التي ذكرها الشاعر في قوله :

ان الشباب والفراغ والجده مفسدة للمرء أي مفسده

فيختلف جسده وعقله وماله بما تجره تلك الأسباب من التجارب الشيطانية لأشباع الشهوات الدنية . ولذلك قال بعضهم رأس الكسلان معمل الشيطان . وقال سكوت الروائي المشهور : أنه كان يطرود شيطانه ويستعين من أبالسته بالعمل المفيد .

وحكي عن ريان أحد المراكب أنه كان لا يدع بحارته بدون عمل لأنه وجد أن البطالة تقودهم إلى الخصاص . فلو كان الناس كلهم يشغلون أوقاتهم بالأعمال النافعة لما بقيت لهم فرصة لارتكاب المنكرات ولفرغت السجون والملاهي والمراقص والحانات وهربت الشياطين وعمت الفضائل العالمين .

(٤) : أنه آية الشرف والنبل وعنوان المروءة والفضل . فلا شرف ولا مروءة للبطال الكسلان ولو كان أبا قابوس أو عبد المدان . فالفلاح الواقف على محراثه في حقله أعلى قدراً في نظر العقلاء من الأمير الجالس على السرير المنسربل بأثواب من حرير وهو بطل مكسال لا ينفع غيره بعمل من الأعمال . وقد جاء في بعض الأمثال قولهم كلب يعمل خير من أسد يكسل .

إن العمل لا يحيط شأن الرجل ولا يثلم شرفه كما يتوهم بعض المغرورين بأنفسهم المتفاخرين بعلومهم وأنسابهم بل يزيده مجدداً وكرامة فقد قام من كل أمة رجال اشتهروا بالعلم ورفعة المقام ومع ذلك كانوا من رجال الأعمال أيضاً . فمن اليونان .

طاليس رأس الحكماء السبعة وصولون المؤسس الشاب لاثينا وهيراثيس الرياضي وكثيرون غيرهم وكلهم كانوا يشتغلون بالصناعات ليكسبوا رزقهم . وأفلاطون الحكيم المشهور كان يبيع الزيت وهو يطوف بلاد مصر وينفق مما يربحه منه .

ومن العرب أبو بكر الصديق كان بزازاً وعمرو بن العاص كان جزازاً وأبو حنيفة النعمان كان خزازاً وكثيرون من أمرائهم وعلمائهم كانوا فلاحين أو نجارين أو حجارين أو قصارين .

ومن الإنكليز شكسبير رأس شعرائهم كانت يدير الملاعب وينفقوا بأدارتها وقيل إن أباه كان جزازاً وأنه هو نفسه كان يعمل في صباه على ممشطة الصوف واستحق نبوتين كبير فلاسفتهم كان مستخدماً في مضرب النقود والن الكجاوي كانت حائكاً . وفكتوريا ملكتهم المعظمة كانت تخطط يديها أقصة وترسل بها إلى الفقراء مع كثرة الشواغل السياسية والأعمال الإدارية التي كانت مطلوبة منها .

ومن الروسين بطرس الأكبر ملك روسيا كان يذهب متكرراً إلى أوربة ويدخل معاملها تحت اسم الصانع بطرس ويتعلم الصنائع ويرجع إلى بلاده ويعلم رعيته أياها !!!

ومن الأميركيين أبراهام لنكن رئيس الولايات المتحدة كان دباناً ورئيس كليفلند كان محامياً ورئيس ولسن كان استاذاً للتاريخ في جامعة مور بعد أن تعاطى فن الحمامة مدة . فكل هؤلاء العلماء والرؤساء والأمراء وكثيرون غيرهم من ذوي النفوس الكبيرة والمراتب الخطيرة لم يستكفوا من الأعمال اليدوية والأعمال العقلية ولم يحسبوها دون أقدارهم أو ثالثة شرفهم بل كانوا يسرون بممارستها ويعرفون أنها نافعة لهم ولأوطانهم ويحضون غيرهم على الشعور بواجب العمل والقيام به لأنه آية الشرف .

(٥) : أنه سلم الارتقاء إلى أعلى المراتب والترقي في أرفع المناصب فكم وضع حقير نال باجتهاده في العمل رتبة أمير كبير أو وزير خطير وحسبنا ثباتاً لذلك أن نذكر بعض الذين ارتقوا بأعمالهم من أصول وضيعة إلى مراتب رفيعة . فمنهم اللورد

لثرون قاضي القضاة في بلاد الانكليز الذي نبغ من حائوت الحلاق . قيل انه اخذ مرة ابنه بيده وأراه دكاناً صغيراً وقال له انظر الى هذا الدكان فان ابي جددك كان يخلق فيه للناس و يأخذ اجرة على الرأس ما يساوي عشرين بارة وهذا هو غري العظيم . ولويد جورج رئيس الوزارة الانكليزية المشهور الذي ارتقى من حائوت الاسكاف . واندروجنسن رئيس الولايات المتحدة المشهور بذكاء العقل الذي بلغ مقام الرئاسة من دكان الخياط قيل انه التي خطاباً في مدينة واشنطن واخذ يراجع فيه تاريخ حياته وكيف ارتقى من درجة الى درجة الى ان صار رئيساً للولايات المتحدة ففتح الجمهور بصوت عظيم قائلين من الخياط فصاعداً . قال مرة يعبرني بعضهم بانني كنت خياطاً ولكنني لا ارى في ذلك شيئاً من العار لانني وانا خياط كنت مشهوراً بالامانة والمهارة في صناعتي وكنت دائماً اخطط الثياب خياطة جيدة متينة وأسلمها الى اصحابها في الاجل المعين . وجيمس غارفيلد رئيس الولايات المتحدة المشهور بشجاعته وثقواه الذي كان يتيماً فقيراً ونشأ في مزرعة حقيرة ولكنه ظل يجتهد في اعماله المختلفة ويرتقي من فلاح الى سائق ومن سائق الى ربان سفينة ومن ربان سفينة الى استاذ مدرسة ومن استاذ مدرسة الى رئيس مدرسة ثم عضو مجلس ثم قائد جيش ثم رئيس جمهورية فتسنى بالعمل المستمر والجد المتواصل غارب العز والمجد وبلغ اعلى ذرى النجاح والسود . وكفى بذكر هؤلاء الرجال العظام دليلاً على ان العمل سلم الارتفاع من حضيض الفقر والهوان والدناءة الى قمة الغنى والمجد والعظمة ومن تتبع سير الاشراف والعطاء في كل أمة تبين له ان كثيرين منهم نشأوا من اصول وضيفة ونالوا يجدهم في الاعمال المختلفة مراتب رفيعة .

(٦) : انه سر السعادة الحقيقية فالعامل النشط سعيد وان كان فقيراً وبطلان البليد شي وان كان اميراً . مثل اديسون المخترع الاميركي المشهور ما هي السعادة ففكر قليلاً ثم قال : « هي العمل » وقال رسكن ما معناه : « احسن دواء يوصف للمقبط الصدر الكاسف البال الذي ومن من الهم عظمه وذاب من شدة الحزن جسمه ان يعمل من الصباح الى المساء فينجو من شر الحزن ويزول عنه الوهن . قال احد الفلاسفة : « السعادة بثلاثة اشياء — شي تعمله وشي تحبه وشي تأمله » . وقال احد الافاضل

بعد ان اختبر احوال البشر : « جيت البلاد وشاهدت صنوف العباد فلم ار اسعد ممن تحسن يده عملاً او توجد شيئاً جديداً فهذا الذي يحصل على مقومات الحياة و يفرح بعمله . نعم ان اكثر العملة ليسوا اغنياء لكنهم يسرون كالاغنياء بحصولهم على ما يحتاجون اليه و يفوقونهم مسرة بابتهاجهم بالثمن اعمالهم ولذلك نراهم يواظبون عليها بلا ملال و يودون ان تطول ساعات النهار كي لا يتركوا تلك الاعمال » . والخلاصة انه ليس للناس في الشبيبة والشيوخه احسن من العمل يسلون به آلام هذه الحياة وارزاءها و يزولون به همومها وشقاءها وقد تبين ان في الاعمال على اختلاف انواعها سلوى لا توجد في شي من لذات البطالة والكسل وان الكسل يتعب اكثر من العمل بل ان العمل يجدد الشبيبة و يبعد الشيوخه و يطيل العمر بما ينشئه في نفس العامل من اللذة والسرور وبه يعرف الانسان معنى الحياة ومعنى الراحة والسعادة فلا تكون حياته نافعة ولا صالحة ولا شريفة ولا سعيدة الا اذا انزله عن البطالة والكسل وقرن عمله بالعمل . ومع ان هذه الحقيقة واضحة كالشمس لذي عينين نرى الناس يختلفون في مراعاتها وهم بهذا الاعتبار اربعة اقسام :

الاول — الجهلاء البطالون وهم الذين لا يعرفون علماً صحيحاً ولا يأتون عملاً مفيداً وانما لتقضى عليهم الاوقات وهم مقولون في الاسواق والطرقات او منغمسون في الشرور والمنكرات او مواظبون على المراقص والحانات او متفخرون بالمظالم والتعدييات فيعيشون كالضوراي الجائلة في البراري و يتفقون مما ورثوه عن آبائهم من الاموال او سلبوه من غيرهم بالغش والاحتيال او النهب والاختلاس او التسول والالتباس فهم ادنى من الحيوانات الداجنة التي يستخدمها الانسان لركوبه وحمل اثقاله او مساعدته على القيام باعماله لان لهذه الحيوانات منافع حجة ومالاولئك الجهلة البطالين سوى الاصرار ولا فائدة لهم من الحياة الا القضيحة والعار فخير لهم ان يكونوا جثثاً هامدة او خشباً مسندة اوقطعاً من طين من ان يكون علقاً او عقارب او افاعي او شياطين .

الثاني — المتعلمون البطالون وهم الذين يتخرجون في المدارس العالية او الجامعات من فتيان وفتيات و يدرسون العلوم والفنون المختلفة ولكنهم لا يرغبون في عمل ولا يلتذون الا بالكسل مكثفين بنيل الشهادات مزدربين بالحرف والصناعات متسرلين

بالكبرياء والخيلاء مترفعين عن طبقة العمال البسطاء مزججين أوقاتهم بالتؤايب والمطوابع
فتردد الفتيان منهم بلا عمل على بيوت الاغنياء والعظماء ويتوقعون الرزق بلا سعي
ولا عناء ويرفلون بلباس العلماء وهم افرغ من حجام سباط وافلس من بن المذاق . وتقتصر
الفتيات على التباهي باحواز المعارف العديدة والاستنكاف من الاعمال البيتية المفيدة
واتباع الازياء الجديدة ويشغلن الاوقات الطويلة بارتداء الاثواب الجميلة ويحملن
آياهن او ازواجهن النفقات الثقيلة وربما كنوا من اهل الصناعات الذين لا يفضل
دخلهم عن الاوقات . وكل هؤلاء المتعلمين والمتعلمات البطالين والبطالات لا تقل
اضرارهم عن اضرار الكسالى الجهلاء بل ربما كنوا اوفر منهم اضراراً داكثراً اوزاراً
لانهم اقدموا على الافساد والابتداء واخير بقسور الحب والدعاء واعرف بوسائل
الشر والشقاق واساليب الخداع والتفاني بما اكتسبوه من انواع العرفان التي تقوي المدارك
وتتخذ الادهان . ولقد صدق من قال شر الفتيان المتعلم المتبطل المتناسف المتعطل .

الثالث - الجهلاء العاملون وهم الذين لا يعرفون شيئاً من العلوم العصرية
ولا المسائل الفنية لكنهم يعكفون على الاعمال بعمى لا تعرف الملل ليحصلوا رزقهم
ورزق العيال وهؤلاء اقل ضرراً من الفريقين الاولين لانهم لا يجربون الكسل
ولا يستنكفون من العمل ولا يطمعون في اموال الناس ولا يستعملون العش
والاختلاس وانما تبقى اعمالهم خالية من الاتقان بادية النقصان غير خارقة عن حد
التقليد ولا مزية بطلاوة الجديد لجهلهم الفنون التي تمكنهم من الاحكام والابداع
والنفن والاختراع فتمر عليهم السنوات واحوالهم المدنية لا تتغير وطرق معاشهم
لا تحسن ومن قابل بين الفريقين الذين اخترعوا آلات الزراعة والصناعية
واكبر السفن والقطارات البخارية والسيارات التي تسابق الرياح والطائرات التي تحلق
فوق كل ذبج جناح - والشرقيين الذين لا تزال آلاتهم وادواتهم الزراعية
كالغارث والمناجل والنوارج ومركباتهم التي تجرها الثيران كما كانت عليه من قديم
الزمان عرف ان السبب في تأخر الشرقيين انما هو جهلهم وان كانوا عاملين .
فالعمل وان كان ضرورياً وشرافاً لا يغني عن العلم ولا يضمن الترقى للامة ما دامت
تغرق في لجة الجهل .

الرابع - المتعلمون العاملون وهم الذين طبقوا حياتهم على المبادئ الشريفة التي
تعملوها وبرهنوا على صدق اقوالهم بحسن افعالهم وخدموا شعوبهم ووطنهم بمعارفهم
المختلفة واقادوا العالم كله بما توصلوا اليه بعلومهم من الاعمال العظيمة وما القوه من
الكتب النفيسة وما اخترعوه من الآلات النافعة وما اكتشفوه من الاقطار الشاسعة
والادوية الناجعة كالفارابي وابن سينا وابن رشد وابن زهر وثابت بن قرة وغيرهم
من علماء الشرق وكولمبوس وباستور وكوخ وجنر واديسون وغيرهم من علماء الغرب .
هؤلاء هم العلماء الحقيقيون الذين طبقت شهرتهم الآفاق وخلدت اسمائهم واعمالهم في
بطون الاوراق وعم فضلهم القريب والبعيد واكتسبوا الثناء الطيب والذكر الحميد .
الى امثال هؤلاء الرجال العاملين تحتاج الامة السورية في هذا العصر وباعمالهم الجليلة
ترقي وتنال العز والفخر . ان الجهلاء البطالين قد اوهنوها واخروها والعلماء الكسالى
قد افسدوها ومزقوها . والجهلاء العاملين لم يستطيعوا ان يرقوها . فلم يبق لها أمل
الا في المتعلمين العاملين الذين عليهم يتوقف رفع شأنها وثبيت أركانها . ان
سورية اجود البلاد هواءً واغذيها ماءً واطيبها تربةً واكثرها إخصاباً وقد كانت
في ما سلف من الازمان مأهولة بألوف الألوف من السكان الذين سبقوا الى المدنية
والعمران . واشتهروا بالفضل والعرفان . وكانوا ذوي عز وسطة ومجد وثروة
لانهم كانوا يعملون بعلمهم في الزراعة والصناعة والتجارة والادارة فكانت ارضهم
نفيس لبناً وعسلًا وكانت مصنوعاتهم الذهبية والفضية والححاسية والحديدية والزجاجية
والخشبية والحجرية والخزفية وملا بسهم الحر بركة الكنائس والصوفية واصباغهم الارجوانية
والاستمخجونية مما يتفاخر باقتنائه الشرفاء والاغنياء وتز بن به قصور الملوك والعظماء فاناروا
بمعارفهم الافكار وعمروا باعمالهم الاقطار . ولكنهم لما اخذوا يهملون العمل بعلمهم
اصبحت جبالهم جرداء وسهولهم جدياء وكل غلاتهم لاني بحاجاتهم وامسى اكثر ما عندهم
من حلي وثياب وعطور واطيب واثاث وآلات وامتعة وادوات حتى الاير والمسامير
والمنازع وزجاج الشبائك والساعات والمصابيح من صنعة غيرهم فهبطوا من قمة عهدهم الباذخ
وعزهم الشائع الى حضيب الدل والفقر ونسبوا ذلك الى جور الدهر وما الدهر بجائر
ولا مسي . ولكن العمى اذا فترت والبصائر اذا خسرت والابدي اذا قصرت .

فالقوة تتحول الى الضعف والعز يتبدل بالخسف . اننا لا ننكر فضل النهضة العلمية الحديثة في هذه البلاد ولا نبأس من تقدمها في سبيل العمران الى ان تسترد مجدها القديم وتجاري الامم الراقية برعاية الدولة المنندبة المعظمة وعناية الحكومة الوطنية الجليلة . ولكننا نشعر بأنه وان كانت الحاجة الى تكثير سواد المتعلمين شديدة فالحاجة الى العمل بالعلم أشد . وهذا ما أريد الكلام عليه وتوجيه الافكار اليه . وقد جعلت مدار كلامي على ثلاثة امور :

الاول العمل الواجب على المتعلمين ان يقوموا به لنفع الافراد والامر والامة والمجتمع كافة . وهو مختلف باختلاف نوع العلم الذي حصلوه ومقداره . فلا يطلب من المرأة المتعلمة ما يطلب من الرجل المتعلم ولا يجب على متعلم الطب ما يجب على متعلم الشرائع ولا يكلف المشارك في بعض العلوم ما يكلف المتبحر فيها بل يجب على كل متعلم ان يعمل بما تعلمه لاجل خير نفسه وتقع ابناء جنسه . واهم الاعمال التي تحتاج اليها الامة وثوقها من رجالها المهذبين ما يأتي :

(١) : الاهتمام بحفظ الصحة العامة وهذا مطلوب من اطباء والموظفين بدائرة الامور الصحية على الخصوص ومن كل متعلم على العموم فلا يليق بمن تعلم الطب واتقى في سبيل تحصيله السنين الطوال والمبالغ الطائلة من الاموال ان يترك هذه الصناعة الشريفة الضرورية لخدمة الامة ويتعاطى غيرها كما فعل بعضهم . ولا يجوز لموظف في دائرة الامور الصحية ان يكتفي بالحصول على الوظيفة لكي يتناول مرتبها دون ان يقوم بواجباتها بالامانة والشرف كأن تلك الوظيفة لم توجد الا لاجل معاشه . ولا يحسن من تعلم قوانين حفظ الصحة في المدرسة ان يخالفها بترك الرياضة البدنية او بالسهر المفرط او الشراهة او شرب المسكرات او التدخين او التعرض للامراض الخزية التي تجلب عليه العار وتلث حياته وحياة ذريته بعد ان عرف ان كل ذلك مضر بصحته وصحة المجتمع كله . بل يجب على كل هؤلاء ان يسلكوا بحسب القوانين الصحية بكل تدقيق ويقاوموا الاوبئة والامراض بالوسائل الواقية ويعالجوها بالادوية الناجعة فتحفظ صحتهم وصحة الامة وبذلك تسلم العقول ايضا لان العقول السليمة في الجسوم الصحيحة فان لم يعمل المتعلمون بعلمهم في هذا الشأن

نشرت في الامة الامراض والاسقام وفنك في افرادها الموت الزؤام فقل عدد رجالها وتشوش نظام احوالها وطمع فيها اعداؤها وازف سقوطها وفناؤها .

(٢) : السعي الحثيث لكل ما يرقى العقول وينير الازهان وهذا مفروض على المربين والمعلمين وخصوصاً الآباء والامهات المتعلمين والمتعلات لان المدرسة الاولى هي مدرسة البيت فلا يجوز للاب المتعلم ان يجعل كل اهتمامه بالدرس والمطالعة والتأليف والمراجعة ويهمل تربية اولاده العقلية والادبية ولا يحق للام المتعلمة ان تلهو بالاجتماعات العلمية والاحاديث الادبية والزيارات الحبية عن تثقيف عقول اولادها بل يجب على الوالدين كليهما ان يهيئا عقول اولادهما لقبول المعرفة باحباء قوة الملاحظة فيهم وثقوبتها وتلقينهم مبادئ العلوم منذ الصغر بالطرق المختصرة السهلة لكي يستعدوا لدخول المدارس ويكونوا فيها ناجحين لان التربية البيتية اساس التربية المدرسية ومن لم يتأسس على العلم والادب عند والديه يندر ان يذيق في المدرسة . ويجب على المعلمين ان يذكروا ان التلاميذ امانة الله عندهم وان يبذلوا جهدهم في تنوير عقولهم بالعلم الصحيح الكافل بتأهيلهم للرجولية الحقة ويجب على الموظفين بدائرة المعارف ان يهتموا بتكثير عدد المدارس وترقية شؤونها وتعيين المدرسين الاكفاء الوطنيين المهذبين الذين يعتبرون التعليم خدمة وطنية شريفة لا حرفة يقصد منها الارتزاق ومراقبة التدريس وتحسين اساليب بحث يكون صالحاً للنشئة رجال قادرين ان يقوموا بحاجات الامة وينهضوا بها الى مستوى الامم المتقدمة فانه مامن امة ارتقت الا بالمعارف وحسبنا برهاناً على ذلك ارتفاع اليابان السريع فانه لم يتم الا بيت العلوم بواسطة المدارس الوطنية الراقية .

وخلاصة القول انه يطلب من الذين تعلموا ووكل اليهم امر التعليم ان يهتموا بكل الاهتمام بالقيام بهذا الواجب المقدس باذنين كل قوام في تثقيف العقول وتنوير الازهان بالمعارف المختلفة الضرورية لنجاح الامة ادبياً ومادياً وبذلك يكونون قد عملوا بعلمهم . فان قصروا في هذا الواجب بقي الجهل سائداً والعقول مظلمة وارباب الاعمال عاجزين عن انقاذ اعمالهم فانحطت الافراد والامة جميعاً ولم يبق للتقدم فيها من اثر .

(٣) : اصلاح الآداب العامة وهذا مطلوب من علماء النفس والاخلاق ورؤساء الادباء والخطباء وارباب الصحف والمجلات الادبية فيجب على هؤلاء وامثالهم ان يجهدوا في ترقية الآداب الصحيحة ورفع منار الفضائل ومكارم الاخلاق لان الامم باخلاقيها وآدابها فان قصروا في هذا الواجب انتشر الفساد وعم الكفر والاحاد والمخاطات والجماعات والافراد وساءت الاحوال وخرت البلاد والتاريخ اعدل شاهد على صحة ذلك . والآثار القديمة على ضفاف دجلة والفرات والنيل وشواطئ بحر ايجة وجرش وتدمر وبعلبك والبتراء الدالة على ما كان للام السالفة من المدنية الزاهرة التي اضمحلت لفساد الاخلاق اي عدم العمل بقوانين الآداب الصحيحة وعدم السير في مناهج الفضيلة — تلك الآثار تؤيد شهادة التاريخ وتثبت صحة القول ان الآداب الصحيحة والاخلاق الفاضلة والعواطف الشريفة هي اساس تقدم الامم وارتقاؤها وسبب نموها وبقائها . قال احد علماء الجرمان : ان الحكم على مستقبل كل امة يعرف من حالة شبابها العقلية والاخلاقية .

فمن اهم الواجبات سعي المهذبين والواعظين لاصلاح الآداب والاخلاق العامة ومن الضروري ان يكونوا قادرين على اضرام محبة الفضيلة في صدور القوم حائزين اسمى المبادئ والصفات الحسنة سالكين بحسب قوانين التهذيب الصحيح وقواعد الدين القويم لتكون اعمالهم مطابقة لاقوالهم ويكونوا امثلة صالحة للذين يهذبونهم ويعظونهم والا صدق عليهم قول الشاعر :

يا أيها الرجل المعلم غيره هلا لنفسك كان ذا التعليم
نصف الدواء الذي السقام مطبياً كي ما يصح به وانت سقيم
لأنه عن خلق وتأتي مثله عار عليك اذا فعلت عظيم
وقول الآخر :

فكم انت لنهي ولا تنهي وتسمع وعظاً ولا تسمع
فيا حجر الشخذ حتى متى تسن الحديد ولا تقطع
(٤) : تحسين الزراعة والصناعة والتجارة وهذا مطلوب من الذين درسوا العلوم

والفنون المتعلقة بهذه الامور كالكيمياء والطبيعات والفنون الجميلة فيجب على هؤلاء

المتعلمين ان يبدلوا جهدهم في اتباع الطرق الحديثة الفنية وتطبيق ما تلقوه في المدارس وما طالعوه في الكتب على اعمالهم المختلفة . اني اعرف بعض الشبان الذين درسوا الفنون المشار اليها في مدارس اوروبا وعادوا الى وطنهم وبايديهم الشهادات الناطقة باكمال دروسهم لكنهم لم ينفعوا بلادهم بشيء اي لم يتبعوا اصول الفنية الحديثة في زراعة اراضيهم او في صناعاتهم بل بقوا تابعين الطرق القديمة التي كان عليها اسلافهم منذ قرون عديدة اما لانهم لم يتمكنوا من استحضار الآلات الزراعية او الصناعية بسبب غلائها وقلة مالم او لانهم آثروا الاستخدام في دوائر الحكومة على الاشتغال بالزراعة او الصناعة او التجارة فذهبت اتعابهم واوقانهم واموالهم التي انفقوها في سبيل تحصيل تلك العلوم سدى لانهم لم يعملوا بها . ولو عملوا لانفقوا الفلاحة والزرع والغرس والتخصيب والسقي وزادوا الاراضي المزروعة اليوم اضعاف مساحتها فعادت الى ما كانت عليه قديماً من الخصب ووفرة الغلال وتدفقت منها سيول الاموال وتحسنت بذلك جميع الاحوال والاعمال .

(٥) : احياء اللغة القومية وهي اللغة العربية في بلادنا وتخليصها من الالفاظ العامية والشوائب الانجليزية وهذا مطلوب من اساتذها وادبائها وخطبائها وكتابها والجامع اللغوية المؤسسة لهذه الغاية فلا يليق بالاستاذ ان يشرح لتلاميذه احكام اللغة الفصحى بالالفاظ السقيمة والتعابير الركيكة ولا يحق للخطيب ان يستعمل اللغة العامية في خطبه العلمية او يلحن في الفاظه فيرفع المجرور ويجر المنصوب او يحرف الكلم عن مواضعه راوضاعه ولا يجوز للكاتب ان يحشور رسائله ومقالاته بالتعابير السوقية والاعلاط اللغوية والنحوية والبيانية ولا لاعضاء الجامع اللغوية ان يتركوا لغتهم لتأخر عن مجاراة لغات العصر بل يجب على هؤلاء كلهم ان يجهدوا في مراعاة قواعد وسد ثلثها بوضع كلمات جديدة المستحدثات العصرية اما بالاشتقاق او بالتعريب او بالفتح لكي تحيا وتنمو لان اللغة التي لا تنمو تموت واذا ماتت اللغة ماتت الامة التي تنتسب اليها اذ لا بقاء لامة بدون لغتها واذا قصر علماءها عن السعي لحياتها لم يكونوا عاملين بعلمهم ولا نافعين لامتهم .

(٦) : المحافظة على حقوق الافراد والجماعات ونشر العدل والامن في البلاد وهذا

مطلوب من خريجي مدارس الحقوق الذين تبوأوا مناصب الحكومة أو تعاطوا
الحاماة فإن العدل أساس الملك والأمن علة استتباب الراحة والطمأنينة ودوران دولاب
الأعمال المختلفة فإن لم يجتهد هؤلاء الرجال في القيام بوظائفهم بالحكمة والرزانة والنزاهة
والأمانة ضاعت حقوق العباد وكثر الظلم والفساد وعم الخراب البلاد وإن قاموا هم
وغيرهم من المتعلمين بالأعمال المطلوبة منهم حق القيام ارتفع شأن الأمة وحسنت أحوالها
المادية والمعنوية واستطاعت أن تجاري الأمم الرافية في سلم المدنية . فإن قيل إن كل
أهل الصناعات والوظائف الذين مر ذكرهم عاملون بعلمهم وقائمون بوظائفهم قلت لأريب
إن كثيرين منهم ممنون الواجب فهم مستحقون الطيب الثناء ولكن كثيرين منهم
أيضاً مقصرون في أعمالهم فهم مستحقون النقيع واليهيم يساق الكلام ونحوهم تسدد أسنة
الملام عليهم ينتهبون من غفلتهم ويشعرون بخطاياهم فيبادروا إلى إصلاح أنفسهم
بإصلاح مبادئهم وغاياتهم فإن نتائج الأعمال لتوقف على غايات العمال فإن كانت
الغايات تحصيل المال أو المجد أو المدح بطلت الفائدة المنشطرة من أولئك المتعلمين
وأيضاً كذلك أقول إن الطبيب الذي لا يهتم إلا بقبض الأجرة من عياله والحاكم
الذي لا يبالي إلا بتعظيم الناس له وتسيجهم بحمده والخطيب الذي لا يهتم إلا بإظهار
ما عنده من البلاغة وحسن الالتقاء وسعة المعرفة ليحمل الناس على الإعجاب به وإذاعة
فضله على صفحات الجرائد والمجلات — هؤلاء كلهم وأمثالهم من المتعلمين لأفضل لهم على
الأمة ولا فائدة منهم لها . ولكن إن كانت غاية الطبيب انقاذ المريض من خطر الموت
وغاية الحاكم انصاف المظلوم من الظالم وغاية الخطيب تنوير أذهان السامعين وبث روح
الفضيلة فيهم وغاية الأستاذ انقاذ تلاميذه من مخالب الجهل وغاية المحامي المدافعة عن الحق
الصريح ومقاومة الباطل وغاية الإمام أو القسيس إرشاد الضالين إلى محجة الحق المبين
كانت النتائج حسنة مطابقة لحاجات الأمة متضافرة على حفظ كيانتها ورفع شأنها . قيل
إن أحد السباح مر بصرح غم حوله مئات من العملة يشغلون بترميمه ورأى على مسافة
قريبة منه مقطعاً للجارية فيه ثلاثة رجال يعملون فدنا منهم وسأل كلًّا منهم
قالوا ماذا تعمل في هذا المكان فقال الأول إني أشغل بنصف دينار كل يوم وقال
الثاني إني أقطع حجارة تطابق هذا الرسم الذي تراه أمامي وقال الثالث إني أساعد

رفاقي في بناء ذلك الصرح الذي سيكون مجلساً لنواب الأمة فسر السائل بالجواب الأخير
لأنه دل على أن غاية ذلك العامل لم تكن تحصيل المال ولا إطاعة أمر المهندس كما
كانت غاية رفيقيه بل الاشتراك في خدمة المصلحة العامة . وكل عاقل يجب عليه أن
يراعي في عمله هذا المبدأ أو بقصده هذه الغاية ذكراً أن عمله مرتبط بمصلحة الأمة والمجتمع
وأنه يجب عليه أن يساعد على قدر طاقته في بناء مجد الأمة وحضارتها . يندل جهده
في ترقيتها وإسعادها والحفاظة على كرامتها .

الثاني الأسباب التي توجب على المتعلمين أن يعملوا بعلمهم وهي :

(١) : إن العمل هو البرهان القاطع على صحة العلم والوسيلة الوحيدة لتكميل
الإنسان فمن لم يأت عملاً مفيداً لنفسه ولأبناء جنسه لم يكن علمه صحيحاً وقد ثبت
بالاختبار أن الإنسان لا يكمل بالعلم وحده أي أن عقله ومداركه ومعارفه وأخلاقه
إنما تصلح وتكمل بالاجتهاد في العمل لا بمجرد الدرس والعلم فيجب على المتعلمين أن
يعملوا بعلمهم لكي لا تكون دعواهم باطلة ولا سجاياهم نافضة .

(٢) : إن المتعلمين هم أعرف الناس بوجوب العمل وشدة الحاجة إليه ووفرة
فوائده وأقدرهم على إتمامه وإتقانه فيتوقع منهم أن يقوموا به أكثر مما يتوقع من
سواهم فإن قصروا في ذلك كان ذنبهم أعظم من ذنب المقصرين من الجهال وكانت
خسارة الأمة بسبب نقصيرهم أكبر من خسارتها بسبب نقصير غيرهم فيجب عليهم أن
يعملوا بعلمهم (ثلاً) يجنوا على أنفسهم وعلى وطنهم .

(٣) : إن المتعلمين هم هداة الأمة إلى الطريق الأقوم وقادة أفكارها إلى الخير
الاعظم بما اقتبسوه من أنوار العلم الساطعة وما عرفوه من حقائقه اللامعة وقد اجمع
أهل التحقيق على أن الهداية بالأعمال خير من الهداية بالأقوال وقيادة الجيش تستلزم
السير معه بل إمامه فإن اقتصر المرشد على الوعظ والتعليم دون أن يسلك في السبيل
المستقيم لم يكن وعظه ناجعاً ولا تعليمه نافعاً وإن ترك القائد جيشه يسير وحده ونام
عرضه للتشتت والانحزام فيجب على المتعلمين أن يعملوا بعلمهم ليتكثروا من هداية
الأمة وإصلاحها .

(٤) : إن غاية كل تعليم وتدريب وتثقيف وتدريب إنما هي الاستعداد للأعمال

المقيدة فإن أهمل المتعلمون هذه الغاية أو تكاسلوا في انتمامها وتحققها ذهبت الاوقات والاموال التي انفقوها في تحصيل العلم سدى وخابت فيهم آمال الوالدين والمربين والمعلمين والوطن وكان مثلهم مثل طماع يتجمل انفق عمره في جمع المال ثم دفنه في الارض ولم يخبر احداً بموضعه ومات غير مأسوف عليه فذهب ماله ضياعاً لم ينتفع هو به في حياته ولا تركه لاحد يستفيد منه بعد مماته . فيجب على المتعلمين ان يعملوا بعملهم ليقعوا الغاية التي لاجلها تخرجوا في البيوت والمدارس فيحصل النفع لهم ولغيرهم .

الثالث شروط النجاح في العمل وهي :

(١) : حبه واحترامه والشعور بوجوبه فالذي يحقره ولا يراه واجباً عليه ولا ضرورياً غيره وخير شعبه ويعتقد انه في غنى عنه وانه غير مكلف ان يخدم وطنه به لا يمكن ان ينجح في عمل من الاعمال اذا اضطر اليه او ارغم عليه ولذلك نرى بعض المدين كانوا اغنياء وبددوا ثروتهم بالعيش المسرف واضاعوا اوقاتهم باللهو واشباع الشهوات الجسدية ثم اضطروا الى عمل يحصلون به قوتهم الضروري فتعاطوا بعض الاعمال ولكنهم لم ينجحوا في شيء لانهم لم يتعودوا الا الازدراء بالاعمال والعمال بخلاف الذين شعروا بوجوب العمل واحترموه وتمرنوا عليه فانهم ينجحوا في كل ما تعاطوه . من الحرف والصناعات واقادوا اوطانهم فوائدهم . ان ملوك الغرب في هذا العصر يعثون باولادهم وحفدهم الى دوائر الاعمال المختلفة بعد تخرجهم في المدارس العالية والجامعات الكبرى ليتعلموا الحكمة العملية ويتأهبوا للجلوس على عروش الممالك وذلك دليل على احترامهم العمل وسبب نجاحهم فيه . فعلى الوالدين من عامة الناس ان يقتدوا باولئك الملوك في تربية اولادهم على حب العمل واحترامه والشعور بانه واجب وضروري لكي ينجحوا في أعمالهم المتنوعة ويشفعوا انفسهم واوطانهم .

(٢) : الاقدام بلا تردد ولا خوف من المصاعب لان الاجسام عن العمل دليل الخن والجبن لا ينجح ومن يتردد في عمله ولا يقفم كل صعوبة ولا بدوس كل عقبة في سبيل الوصول الى غايته يقدم راسخة تحبط مساعيه ويعود بالخيبة والفشل بخلاف الذي يستسهل كل صعب ويقدم على عمله بعزم شديد وهمة نفري الحديد فلا بكل ولا يمل حتى يكمل سعيه ويثابره فان نجاحه مؤكد وما احسن قول الشاعر :

اذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة فان فساد الرأي ان تترددا
وان كنت ذا عزم فأنفذه عاجلاً فان فساد العزم ان يتقيدا

(٣) : عدم التأجيل فالذي يؤجل ما يجب عمله اليوم الى الغد لا ينجح لان التأجيل يلد التهاون والغد مجهول امره وله عمل آخر واذا تأجيل عمل كل يوم الى ما بعده تراكت الاعمال وزادت الصعوبات فتعسر القيام بالواجب او تعذر وانقطع أمل النجاح . سئل احد وزراء فرنسا وكانت ينجز أعمالاً كثيرة في وقت قصير بم
تستطيع ان تنجز كل هذه الاعمال فقال بعدم تأجيلي الى الغد ما أقدر ان أعمله اليوم . وكتب احد الشبان الى السيد ولترسكوت يطلب نصحه وكان قد دخل في منصب جديد فأتاه الجواب بهذه الصورة :

« احترس من البطالة ولا تؤخر عملاً يجب القيام به ولكن اوقات الراحة بعد العمل لا قبله فانه اذا سار جيش واضطربت مقدمته قليلاً حدث اضطراب عظيم في ساقته وهكذا الحال في الاعمال فان لم تعمل عمل كل يوم في يومه فعلاً قليل تزدحم عليك الاعمال فتضيق بها ذرعاً فاحذر التأجيل » .

(٤) : اعتبار قيمة الوقت والمحافظة عليه فالطبيب او المحامي او الاستاذ او الحاكم او الرئيس الذي يسهر مع رفقاءه الى ما بعد نصف الليل ويبقى في سريره الى قرب الظهر لا يقدر ان ينجح في عمله لانه اضاع وقته بلا فائدة او في ما يضره وكذلك الذي يقضي ساعات النهار في اماكن اللهو لاعباً بالترد او الورق او غيره من الملاهي و يقتل وقته بما يضر ولا ينفع هو بعيد عن النجاح . قال الملك لويس الرابع عشر : « المحافظة على الوقت من كمالات الملوك » . والحق انها من واجبات الاشرف والعلماء والعمال أيضاً . ولا شيء يساعد على وجود هذه الصفة في الانسان مثل تعوده انجاز كل عمل في حينه فمن ارتبط في عمل ولم يأخذ فيه بالوقت المعين عد مخلصاً بل مجرماً ما لم يكن له عذر مقبول ومن لا يهتم بالوقت لا يهتم بالعمل ولا يستحق ان يؤتمن على اعمال ذات شأن وبالنسبة لا ينجح في حياته .

(٥) : الامل او توقع النجاح فالبنائس او الخائف او الفائر الهمة الذي يعتقد انه غير قادر ان ينجح وان ليس امامه الا الخيبة والفشل لا يمكن ان يفلح سعيه في عمل

مخلاف الرجل الواثق بنفسه كل الثقة المتوقعة الفوز الواضع السلاح نصب عينيه
المتيقن اقتداره على العمل السائر الى غرضه بخطى ثابتة وقلب كبير ونفس عزيزة
وهمة عالية فانه ينجح في مساعده وينال مناه لان الامل يقويه على اقتحام المصاعب
واحتمال المشاعب للفوز بالرغائب وتبيل المطالب ويدفعه الى السير في سبيل الواجب
ولو كان ملوفاً بالخطار كما يدفع البحار السفينة الى السير في وسط البحار . والامل
يشقى سروراً في النفس والسرور بالعمل يجعله هيناً . قال كارليل احد فلاسفة
الانكليز : « أروني رجلاً يتغنى في انشاء عمله وأنا أضيق منه في اليوم ضعفي
ما يحمله الغضوب العيوس لان من يسير على نعم موسيقى قلما يشعر بالتعب » .
فالمسرور بعمله ينجح والذي يذهب الى العمل حزينا متذمراً منقبض الصدر عابس
الوجه كأنه ذاهب الى السجن او الصلب لا يمكن نجاحه .

(٦) الاجتهاد والجد . قال الحكميم : يد المجتهدين تسود فما من احد احرز
السيادة او الشرف او التقدم او الثيرة الواسعة الا دفع ثمنها كدّاً وجداً عظيمين ولا
احد استطاع ان ينجح بالكسل والتواني وما احسن قول الشاعر :
تريدن ادراك المعالي رخيصة ولا بد دون الشهد من ابر التحل
وقول الآخر :

تروم العز ثم ننام ليلاً ومن طلب العلى سهر الليالي

ان الذين بلغوا اعلى ذرى النجاح بكدهم واجتهادهم لا يحصى عددهم فاقصر على
ذكر بعضهم بالاختصار على سبيل التمثيل . فمنهم ابو نصر محمد النصارايجي الفيلسوف
الشهير الذي اتبع الفلسفة افصاها واذناها والف فيها كتباً لا تعد لكثرتها مع ما كان
عليه من العوز فكان يسهر الليالي لمطالعة والتصنيف ويستفي بمصباح الحارس وبقي
على ذلك الى ان عظم شأنه وظهر فضله واشتهرت تصانيفه وكثرت تلاميذه وصار
اوحده زمانه كما جاء في ترجمته المذكورة في كتاب عيون الانباء . ومنهم اسحق نيوتن
اكبر فلاسفة الانكليز فقد قال صريحاً : « ان كنت قد خدمت العالم بشي فباجتهادي
وجلدي » . ومنهم دذرائلي الذي رقي الى اسمى المناصب بجده وكده . فانه لما كانت
مساعدته الاولى تحيط لم يفعل ككثيرين من الشبان الذين اذا خابوا مرة وهت

قواهم ووقعوا في لجة اليأس بل ظل يجتهد ويجد حتى نجحت اعماله وبلغ مراده
ومنهم برون الذي خدم شعبه اكثر من ستين سنة وتعاطى الفقه والانشاء
والسياسة والعلوم المتنوعة والتقن كل ما اشغله به . ومنهم نابوليون الاول والقائد
ولنتن وسائر الذين اشتهروا في العالم بالسياسة والعلوم والشرائع والصنائع والتأليف
وبلغوا اعلى درجات الفوز بجدهم واجتهادهم فلا يطمعن احد في نجاح اعماله ما لم يجتهد
كل الاجتهاد اي يصب كل قوته ويضع كل قلبه على كل عمل يأخذ فيه لانه (على
قدر اهل العزم تأتني العزائم) . ولا يفيد الانسان علمه ولا ذكاؤه ولا وسائطه ولا
مساعدات الاصدقاء له اذا هو لم يجتهد ويجتهد ويتعب عقله وجسده لانه لا شيء يثمر
الا بالتعب والحياة جهاد مستمر . غير انه يجب الاحتراز من الافراط في التعب لثلاث
لثلاث الحياة قبل بلوغ الامل فالاجتهاد غير الاجهاد كما ان الراحة غير الكسل
والحكيم من عرف ذلك ولم يفرط في الاجتهاد الى حد الاجهاد ولا في الراحة الى
حد الكسل .

(٧) : الامانة والاسقامة وهما من اهم شروط النجاح في كل الاعمال ولا سيما
الطب والصيدلة والقضاء والمحاماة والوظائف المالية فالطبيب الامين المستقيم يكتسب
ثقة الناس به وينجح ولكن الذي يخدع مرضاه ليستنزف اموالهم لا يمكن ان يكسب
ثقة الناس به ولا ينجح الا ريثما ينكشف خداعه . ان بعض الاطباء يضمنون
الشفاء للعليل وهم على يقين من ان داءه عياء غير قابل الشفاء . وبعضهم يوهمون المريض
بان مرضه عضال وحالته انذر بالخطر مع علمهم بان مرضه بسيط لا شيء فيه من الخطر
وكل ذلك الخداع ناشئ عن الاطماع . والصيدلي الصادق الذي يركب الدواء بحسب
وصف الطبيب بكل تدقيق ولا يستعمل الغش في ادوية هو الذي ياتمه الناس وينجح
في عمله ولكن الذي يغير المقادير ويبدل العقاقير الغالية بالرخيصة ليتوفر له الربح يظهر
غشه وابتعاد القوم عنه فيخسر مادياً وأدبياً . والحاكم العادل الذي يراعي في احكامه
الشرائع دون محاباة هو الذي يرضي الله والناس ويكتسب المدح ويرتقي في معارج
الفلاح . ولكن الذي يراعي مصلحته وعواطفه دون الحق والعدل لا يمكن ان ينجح نجاحاً
حقيقياً وان اصبح بالرشوة غنياً لان تذبذب البري وتبرئة المذنب بغية اتواع الجيوب من اكبر

لا تأنم وأعظم الذنوب وأول دواعي الفشل وموجبات الخزي والجليل والمحامي المستقيم الذي لا يدافع إلا عن الحق ولا يقبل وكالة المزورين هو الذي يريج الدعوى وينجح في عمله ولكن المحامي الذي يدافع عن الباطل ويعلم الناس التزوير ويقبل وكالات المزورين بغية تحصيل المال بالحرام لا بالحلال لا يمكنه أن ينجح إلا ريثما يتكشف أمره ويتضح سره فيسقط قدره ويكره ذكره ويحبه الناس من أصحاب الجرائم وينج من الدخول إلى المحاكم والكاتب أو المحاسب الأمين الذي يحافظ على الصدق في أقواله والأخلاص في أعماله هو الذي ينجح ويرتقي ولكن الكاذب أو المختلس لا يمكن نجاحه لأنه إذا ظهرت خيائته أو سرقة طرد من وظيفته وحرم حق الاستخدام قيل إن مدير مال رو كفار المثري الشهير كان في أول أمره كاتباً لصيرفي في ولاية كنساس فأمل يوماً عليه رقياً وأمره أن يقدم التاريخ ليخلص من تبعته فأبى هذا الكاتب الأمثال لأمره بأسلوب لطيف فأمره ثانية فأبى وحسب نتيجة الكذب شر النتائج فأمره ثالثة فأبى وتوقع أن يطرده وقال غير مهتم بالنتيجة لا أقدر أن أستخدم قلمي للكذب وإن ما تأمرني به هو كما مرك لي بالسرقه . وكانت النتيجة أن الصيرفي بدلاً من أن يطرد ذلك الكاتب زاد أكرامه وضاعف له مرتبه وأثمنه على كل شيء لأنه تحقق صدقه وأمانته فالأمين في عمله هو الذي ينجح .

(٨) الأكمل فلا يصعب على الإنسان أن يقصد الأمور السامية ويتبدى الأعمال العظيمة ولكنه يصعب عليه إتمامها إذا لم يكن من ذوي الرزانة والتعقل والدربة والمثابرة والثبات وما أكثر الذين يبدأون بمشروعات وأعمال نافعة ثم يفجرون منها ويتبركونها شاهدة عليهم بالطيش والجهل والثقل والتردد . أن العمل الزهيد المتمم بأحكام أفضل من الأعمال الكبيرة التي شرع فيها فاصدوها ولم يتموها . فالكوخ الحقير التام البناء انفع من النصر الذي وضعت أسسه ورفعت جدرانه ولم يكمل . أن كثيرين اشتبهوا بالمقاصد السامية والنصائح والبلاغة وحسن البيان وقوة الحجة ولكنهم لم يفيدوا جاهلاً ولا صلحوا فاسداً ولا تموا عملاً كبيراً ولا صغيراً فأين هؤلاء من أهل الدأب العقلاء الذين ملشعروا في عمل الائمه وما قصدوا أمراً إلا أدر كوه . أن خير الأعمال بالأكمل والحازم من تأمل في العمل قبل الشروع فيه فإن تيقن أنه قادر على إتمامه بدأ به والا

تغير له أن لا يبدأ به بل يبدأ بما يقدر عليه ويجتهد في أكمله فلا نجاح في الأعمال إلا بحسن الأكمل . ولا أجهل من الذين قادم الطمع إلى أعمال تستلزم إضعاف قدرتهم فقاموا بجزء منها وعجزوا عن أكملها فتركوها فتولاهم غيرهم وانتفع بهم .

(٩) : الائقان أو الأحكام وهو شرط جوهرى للنجاح في كل عمل فكما أن النجارين والحدادين والخياطين وغيرهم من أهل الصناعات لا يمكنهم أن ينجحوا ما لم يلقنوا مصنوعاتهم كذلك الأطباء والمحاسبون والكاتب والمنشئون والمعلمون والمهندسون وسائر المشتغلين بالعلوم والفنون يتعذر عليهم النجاح ما لم يحكموا أعمالهم . أن الائقان يستلزم التآني والثبات لأن العجلة تفسد العمل وأحياناً تفسد الحياة ولذلك جاء في الأمثال الشرقية قوطم : (في التآني السلامة وفي العجلة الندامة) فمن شاء أن يتقن عمله فعليه أن لا يسرع فيه ولا يتوقف عنه ولا بد من الانتباه التام إلى مواضع النقص بغية أكمله ومواظب الخلل لأجل إصلاحه حتى يكون العمل كامل الأحكام على أجمل ترتيب وأحسن نظام فإن من بلغ في عمله الائقان التمام لتوفيق على أقرانه ونال المقام الأول بين أهل صناعته وحصل على المجد والكرامة بين من يعرفون فضله ويقدرونه قدره . فالخطيب المنقن صناعة الخطابة إذا ذهب إلى لندن وألقى خطاباً في أحد أنديةها أعجب به السامعون وتحدث ببلاغته الراوون ورحب به العلماء والادباء والخطباء والعظماء وذكرته الجرائد بالحمد والثناء . ودعي إلى الخطابة في جميع الأندية الأدبية وازدحم عليه الجماهير لتلتقط منه الفوائد العلمية ونشرت خطبه المجلات الانكليزية وربما ترجمت إلى غيرها من اللغات الأوروبية . وما يناله الخطيب المنقن صناعته يناله الاديب والكاتب والطبيب والمحامي والاستاذ والمخترع وسائر العلماء إذا كان كل منهم منقناً لعمله .

(١٠) : التآني والابداع أو التحسين فلا يكفي أن يكون العمل كاملاً منقناً بل يجب أن يتحسن على توالي السنين والايام والتحسين يستلزم الابتكار والاختراع والا لم يتم الارتقاء فان أكثر العاملين بتقليد غيره في عمله ولم يزد عليه شيئاً من مبتكراته بقي عمله في آخر حياته كما كانت في اولها بل ربما بات أقل احكاماً في الشيخوخة مما كان عليه في الشببة لان مبدأ التقليد والاتباع مبدأ الضعف والتقهقر

وطريقة الابتكار والابداع طريقة القوة والتقدم . ان الطيب الذي لا يزيد معرفته بالمطالعة ولا يحسن اعماله الجراحية بالممارسة لا يلبث ان يحسب في عداد الدجالين وقس عليه غيره من العلماء العاملين الواقفين على درجة واحدة فان وقوفهم هو عين التأخر . وكل أمة تفقد قوة الفنون والابتكار في اعمالها لا بد من سقوطها .

ان العصر عصر تجديد فلا يحسن البقاء على القديم الا اذا كان مطابقاً للعقل الصحيح وفائدته محققة . ولا يجوز الاستغناء بالحديث او رفضه الا اذا كان فاسداً واضراراً ثابتة . ان العقل الصحيح يقضي بوجوب الارتقاء والارتقاء لا يتم الا بتربية قوة الفنون والابتكار لكي تحسن الاعمال وتصلح الاحوال وحينئذ يتم الفلاح ويزداد النجاح . فعلى المتعلمين ان ينفذوا عنهم غبار الكسل ويجهتدوا في زيادة العلم وصلاح العمل شاعرين بالواجب المترتب عليهم للوطن والامة مظهرين كمال النشاط وعلو الهمة مراعين شروط النجاح في كل الاعمال ساعين للخير في كل حين وحال . والله سبحانه وتعالى هو الفعال لما يريد . وبهذه التوفيق والاعانة .

لا يرقى البلاد الا علوم

فاعملوا صالحاً بما قد علمتم

تعالى بصالح الاعمال

فرجال الاعمال خير الرجال

(انيس سلوم)

ارتباط البلاد على اصول الاتحاد (١)

أيها السادة الكرام والاخوان الاعزاء .

دعاني صديقي المحترم رئيس المجمع العلمي الى القاء محاضرة في هذه القاعة والحج في الدعوة والطلب حتى لم يترك لي مجالاً للاعتذار وبالرغم من تراخي الزمان بيني وبين منابر الخطابة واستنار الذهن بغشاء من صدأ الجمود ضرب به عليه الترك المتجدي وجدت نفسي تجاه هذا الطلب المقرون بالحزم والتصميم مضطراً الى الاجابة بالقبول واخام ذاتي الى هذا المأزق الذي اعرف الآن دخولي فيه واجهل كيف يكون خروجي منه فاذا حصلت رغبتني بعدم تبرمكم ورضائكم عني حمدت عقبي امري واذا جاءت النتيجة على خلاف ذلك طلبت عفوكم هذه المرة ووعدتكم ان لا اعود الى مثلها تارة أخرى .

اوقفني هنيئة من الزمن اختيار الموضوع الذي احديثكم به فلم اتعرض لمواضيع اللغة وآدابها ولا للمباحث التاريخية او الاجتماعية لان رفاقي الافاضل اعضاء المجمع لهم في هذه الحلقات اشواط رابحة ابعد من ان تجاري فاخترت موضوعاً ما كنت آمل ان يكون مجلبة للرضى والامتناع لولا ما حصل له مؤخراً من العلاقة بامورنا الاجتماعية والاقتصادية واعني به الاتحاد . ولست اعني به اتحاد الافراد او اتحاد القلوب وتوحيد المساعي في سبيل النفع المشترك وانما هو بحث اداري حقوقي بشأن ارتباط البلاد على اصول الاتحاد فهو اذن يتعلق بالدولة وليس بالفرد .

قبل الدخول في هذا الموضوع لابد لنا من ايماء مختصر الى تعريف الدولة والاشكال التي تتألف منها . فقد عرفوا الدولة في الحقوق الاساسية بكونها شعباً متضامناً خاضعاً

(١) المحاضرة التي القاها الاستاذ السيد فارس الخوري من اعضاء المجمع المؤازرين

يوم الجمعة في ٣ تشرين الثاني سنة ١٩٢٢

لحكومة واحدة ذات قوانين مشتركة وعرفوها في حقوق الدول انها الشخصية الخارجية لشعب مستقل وام خواصها في معناها التام :
 (١) : الحاكمة الداخلية التامة وضعاً التي تستطيع بها ان تحمل الشعب على حفظ العلاقات مع الدول الاخرى ذات الحاكمة الماثلة لها .
 (٢) : الاستقلال التام الذي يجعلها بمنزلة عن كل تأثير او سيطرة خارجية .
 (٣) : السلطة التامة في اراضي ذات حدود معينة . يبدى ان هذه الشروط لم تكن على الدوام تامة في الدول المعروفة وكثيراً ما نقص بعضها واختل واحد منها وبقي العرف والتعامل جارياً على اطلاق اسم الدولة مع نقصان الشرط كما دخلت مصر وقبرس في الاحتلال البريطاني وبوسنة والمهرسك في الاحتلال النمساوي مع بقائها تابعة للباب العالي زمناً طويلاً فلم تكن سلطة الدولة تامة ضمن الحدود المعينة لها وكما كان الجيش التركي انشغالي بجول في اراضي الغير وتجري معه المفاوضات بصفته دولة وليس له ارض يحكمها . وحالة بلغاريا في عهد انصالحها الاسمي بالباب العالي انقاص لسلطة الدولة العلية ضمن حدودها بدون اخلال بحقوقها الدولية .

عند الاوربيين لفظة (Etat) توسعوا في استعمالها كثيراً فاطلقوها عند ارادة الدولة بالمعنى الذي ذكرناه واستعملوها بمعنى القوة التي تسن القوانين وتنفذها فاما ان تكون تلك القوة مجتمعة بشخص واحد كما قال لويس الرابع عشر (الدولة انا) واما ان تكون ممثلة بالشخص معدودين يؤلفون القوة الاجرائية والتشريعية كما هي الحال في بريطانيا . وهذه اللفظة لما في كل بلد من بلاد اوربا مفهومات : احدها المفهوم الداخلي ويراد به الحق العام الذي تنفله الحكومة . والاخر المفهوم الخارجي وهو الحاكمة القومية التي تمثل ذلك الشعب في الخارج . وعندما يعرفون اللفظة في معاجم اللغة يعرفونها بكونها شعباً مؤلفاً خاضعاً للحكومة واحدة . وهي عند الالمان معناها مدينة او ناحية من البلاد بدون مراد سياسي او اداري . اما كلمة دولة في العربية فمعناها اصبحت من معنى الكلمة الافرنجية ولا يفهم منها العرب الا الدولة المستقلة استقلالاً سياسياً وادارياً فاذا كانت غير متمتعة بهذا الاستقلال فهي ايلة او ولاية او مقاطعة او حكومة فان كان عليها امير فهي امارة والا فهي ولاية او جمهورية .

وعلى ذلك فترجمة كلمة (Etat) بالدولة تكون مصيبة في بعض الاحوال ومخطئة في البعض الآخر وترى المترجمين في كتب اللغات يترجمونها في كل مقام بالمعنى المراد منها في ذلك المقام .

اما اشكال الدول فنندمج في شكلين : احدهما الدول البسيطة او الموحدة او المنفردة . والثاني الدول المركبة . والمراد من الدولة البسيطة الدولة التي فيها حاكمة واحدة تمتد سلطتها المنفردة الى كل فرد من افراد رعيته ولا يعرف اولئك الافراد سلطة ما لغير تلك الدولة وهذا الشكل هو الاصل في تأليف الدولة وعليه جرت اكثر الدول في التاريخ القديم والحديث ويمثله في العصر الحاضر دول فرنسا وايطاليا واسبانيا وتركيا وغيرها من الدول الجارية على هذا النمط من الدول المركبة .
 والشكل الثاني هو اجتماع دولتين او اكثر ليكون منها دولة واحدة تغلغلها كل دولة من الدول المجتمعة عن بعض حقوق الحاكمة وتؤلف باجتماعها حكومة مركبة تقوم بتلك الوظائف التي تختل لها عن الحكومات المجتمعة وذلك مع بقاء حق السيادة والحاكمة في كل من تلك الحكومات .

وهذا التركيب الدولي له انواع مختلفة تتنوع بتنوع درجات الارتباط من هذه الدول ودرجة الحقوق الممنوحة للحكومة المركزية ولا يمكن حصر هذه الانواع ضمن قاعدة واحدة لانها تختلف باختلاف مذاهب الدول المركبة من جهة التوسيع والتضييق ولا يوجد دولتان من هذه الدول متشابهتان في قواعد اجتماعها متشابهة تامة وانما يوضع لكل تركيب دولي قواعد خاصة بحسب مصلحة المجتمعين واغراضهم من ذلك الاجتماع .

ليس من شأننا الآن ان نفصل جميع انواع هذا التركيب لان ذلك بطول شرحه وانما مرادنا ان نبحث عن نوع واحد من انواعه الاوسع انتشاراً وهو نوع الحكومات المتحدة الذي هو اقرب انواع الدول المركبة من شكل الدول البسيطة وهذا الشكل يجيء في الغالب بصورتين احدهما الاتفاق والاخرى الاتحاد .
 اما الاتفاق الدولي (Confederation) فهو انضمام دول مستقلة ذات سيادة تامة الى بعضها واتحادها بموجب معاهدة لاجل بعض المصالح المشتركة مع بقاء السيادة

الداخلية التابعة لكل دولة من الدول المتفقة ضمن بلادها ومن ذلك الاتفاق الجرمانى الذي تأسس سنة ١٨١٥ بمعاودة فينا وبقى الى سنة ١٨٦٦ ومنه اتفاق الرين الذي احدثه نابوليون واخذ على نفسه حمايته ودام من سنة ١٨٠٦ - ١٨١٣ وكذلك كان اتفاق المقاطعات الاميركية قبل حرب الاستقلال لحد سنة ١٧٨٩ وجرت على القاعدة نفسها الولايات الجنوبية المنشقة في مدة الانشقاق من سنة ١٨٦١ - ١٨٦٣ ومنها اتفاق النمسا والمجر والقاعدة الضابطة لاصول الاتفاق ان تكون السلطة الاولى والسيادة العليا الداخلية لكل دولة في اراضيها فلا تضع حكومة الاتفاق قانوناً لها مخالفاً لقانون احدى الدول المتفقة وعلى هذا تكون الروابط التي تجمع البلاد المتفقة ضعيفة وسلطة الدولة المركزية على الحكومات المتفقة محدودة .

والصورة الثانية هي المعروفة بالاتحاد (Fédération) وهي دولة تؤلفها حكومتان او اكثر للقيام بالاعمال التي هي ذات اشتراك دائم بين تلك الحكومات وفيها تخلى حكومات الولايات المتحدة عن بعض حقوق الادارة والحكم وتركها لدولة الاتحاد التي تقوم بذلك العمل وينتد تأثيرها وسلطتها ليس على الولايات المتحدة فقط بل على كل فرد من سكانها ايضاً . وهذه الصفة تميزها عن صورة الاتفاق التي فيها لا يعرف الفرد سوى سلطة واحدة وهي سلطة حكومته وليس لحكومة الاتفاق المركزية سلطة عليه مطلقاً ولا يشعر بوجودها في حياته الاجتماعية والاقتصادية واما في اصول الاتحاد فيكون السكان خاضعين لسلطتين في وقت واحد ومجهزين على العمل بموجب قوانين حكومة الاتحاد وقوانين مقاطعاتهم المحلية .

والمقاطعات التي تحد على هذا الوجه اما ان تكون قبل اتحادها دولاً مستقلة ذات كيان وسيادة تامة فتدعوا المصلحة المشتركة الى الاتحاد الاختياري وتسمى عندئذ الدول المتحدة . واما ان تكون قبل اتحادها ولايات تابعة لدولة واحدة فتنفصل عنها لسبب من الاسباب فتتحد معاً وتؤلف حكومة واحدة فتكون الولايات المتحدة . واما ان تكون في الاصل ولايات دولة واحدة جرت في ادارتها على قاعدة توسيع المادونية وتدرجت الى عدم المركزية حتى صارت ولايات متحدة ايضاً . وفي الحالتين الأخيرتين لا يطلق على مثل هذا الاتحاد عنوان الدول المتحدة لان العناصر المؤلفة

لهذا الاتحاد ليست دولاً مستقلة ذات سيادة تامة لا قبل الاتحاد ولا بعده . يشترط لتأليف مثل هذا الاتحاد وامكان انفاذه ونجاحه شروط :
اولها - المتاخمة وذلك ان تكون هذه الولايات المتحدة متاخمة بعضها البعض لا يفصل بينها اراضي دولة غريبة .

ثانيها - اليانس الداخلي واهم اركان هذا اليانس الوحدة القومية والوحدة اللسانية فان لم يكن ذلك حاصلًا كان الاتحاد ضعيفاً وبقى الحذر من تحكيم احد الجانبين على الآخر وتوقع احد اللسانين على الآخر فينقلب الاتحاد الى الغلبة والحكم .
ثالثها - سبق الانفصال بحيث لا يتم العهد الاتحادي الا بين قومين يملك كل منهما قياد نفسه .

رابعها - اشتراك المصالح والمنافع فلذا لم يكن بين البلادين مصلحة مشتركة يستفيد كل منها بالاتحاد لاجلها لا يكون في ذلك الاتحاد رابطة تجمعهم وتوئق اواصر الاتصال بينهما .

قلنا ان الاتحاد يتضمن سلطتين في وقت واحد وقد يكون فيه سلطة ثالثة ايضاً وانما هذه السلطة الثالثة عند وجودها ينحصر تأثيرها على الحكومة الاتحادية المركزية فقط ولا يتجاوزها الى حكومات المقاطعات ولا الى الافراد .

مثال ذلك حكومات استراليا المتحدة ففيها مقاطعات ذات استقلال داخلي في ادارة شؤونها الخاصة تجمعها حكومة اتحادية ذات وظائف معينة تختص بها المقاطعات عنها فيوجد في البلاد سلطتان احدهما للحكومات المحلية والاخرى للحكومة الاتحادية وهناك سلطة ثالثة للامبراطورية البريطانية بصفتها صاحبة حق السيادة والتثبيل الخارجي وانما هذه السلطة لا تمتد الى المقاطعات ولا تؤثر على الافراد . وهذا الشكل من تثليث السلطات انتشر في المستعمرات البريطانية وانما امكن تطبيقه بانفس الحكومة البريطانية عن التدخل في شؤون المقاطعات الداخلية في غير الامور التي احتفظت بها هذه الدولة لنفسها لتأيد سيادتها .

نظن البشر لهذا النوع من الحكومات قديماً جداً ولعله كان منتشرًا في اكثر البلاد وانما نصادفه لأول مرة في التاريخ القديم بالشكل المكتوب الواضح عند الامة

اليونانية حين اتحدت حكومات انديا او اسبرطا او قوراثيه او ارغوس مع جيرانها لاسباب دفاعية او اقتصادية وكانت هذه الاتحادات تختلف في صميماتها ودرجة التصاقها بعضها كان شديد الاتصال والبعض الآخر كان شكلاً ظاهرياً فقط لا يلجأ اليه الا عند اقحام الاخطار الخارجية .

جميع الحكومات في اول عهدا تكون ضيقة النطاق متقاربة الاطراف ضعيفة المواصلات مع جيرانها فتري نفسها مضطرة للاتحاد مع القريبين منها لاجل تقوية كيانها ثم لا يعم هذا الاتحاد ان يظل الى وحدة مائلة الى التوسع والفتح كما جرى لروما عندما اتحد اللاتين مع جيرانهم حول مدينة روما وكما جرى لانكيترا عندما اتحدت مع والس واسكوتلاندا .

الاتحاد يكون اختيارياً وذلك عندما اتحد المصلحة منه بين مقاطعات وأخرى فيكون نوعاً محضاً لجميع المقاطعات وفي مثل هذه الحال لنضم هذه المقاطعات بعضها الى بعض بدون حاجة الى الاجبار والارهاق . ويكون اجبارياً عندما تكون الصلات شديدة وروابط الاتصال متينة بين المقاطعات ويعسر على الأكثرية منها تحمل ضرر الافتراق فيحملون على المخالف ويكرهونه على الانضمام الى رأي الجماعة كما حدث في حرب الافتراق التي قامت بين الولايات الشمالية والجنوبية في اميركا المتحدة سنة ١٨٦١ حتى تغلب حزب الاتحاد واكره الولايات الجنوبية المنشقة على الانضمام وكما جرى في ألمانيا عندما تغلبت بروسيا على النمسا وهانوفر وساكس سنة ١٨٦٦ واكرهت الاخيرتين على قبول شرائط الاتحاد الالمانى الذي رتبته بسمارك .

انتشرت الاصول الاتحادية في الزمن الحاضر وقبلتها حكومات كثيرة من الحكومات المعروفة وبلغت تحت هذا الشكل من الادارة مبلغاً عظيماً من الرقي والنجاح . واوضح الامثلة على هذه الاصول الولايات المتحدة في اميركا الشمالية ودول سويسرا واوستراليا وكندا ومكسيكا والبرازيل والارجنتين وغيرها .

جمهورية سويسرا مساحتها نحو ١٦ الف ميل مربع وعدد سكانها نحو ثلاثة ملايين وثلاث مائة وهي مؤلفة من ٢٦ مقاطعة مستقلة استقلالاً داخلياً (Etat) وكل مقاطعة منقسمة الى اقصية والاقصية الى نواح او دوائر بلدية يزداد عددها او ينقص بالنسبة

الى جسامات المقاطعة وعدد هذه الاقسام ١٨٧ قضاء مقسومة الى ٣١٦٤ دائرة بلدية والوحدات السياسية هي هذه الدوائر البلدية التي ينتخب الشعب اعضاءها وهؤلاء الاعضاء ينتخبون ممثلين للهيئات التشريعية لمرآكز مقاطعاتهم وللحكومة الاتحادية في المركز العام . وهذه الحكومة مؤلفة من ثلاث قوى التشريعية والاجرائية والقضائية . فالقوة التشريعية ذات مجلسين احدهما مجلس الشيوخ ويسمونه ايضاً مجلس الدولة وهو مؤلف من نائبين عن كل مقاطعة فيبلغ عدد اعضائه ٤٤ عضواً والثاني مجلس النواب ينتخب كل ولاية نوابها بنسبة عدد سكانها بمعدل نائب واحد عن كل عشرين ألفاً من النوس لمدة ثلاث سنوات وعند انقضاءها يحدد الانتخاب وقد كانت عدد هؤلاء النواب في سويسرا قبل الحرب العامة ١٦٧ نائباً وهذا المجلس يجتمعان معاً عند الايجاب فيتألف منهما المجلس الوطني الكبير ولا يحق لرئيس الحكومة ان يفسخ هذا المجلس قبل انتهاء دورته فينتحل من نفسه ويعاد الانتخاب مجدداً . لجميع القوانين يسنها هذا المجلس ويودعها القوة الاجرائية لاجل انفاذها .

اما القوة الاجرائية فهي مؤلفة من لجنة قوامها سبعة اشخاص تسمى مجلس الاتحاد ينتخبهم المجلس الكبير اي الشيوخ والنواب مجتمعين و يشترط في انتخابهم ان لا يكون من ولاية واحدة اكثر من عضو واحد وعند انتخابهم ينتخب المجلس ايضاً رئيس الاتحاد ونائبه لمدة سنة فقط وهذا الرئيس يرأس مجلس الاتحاد ويتولى اعمال الخارجية المسماة عندهم الشعبة السياسية وسلطته محدودة فليس له ان يفعل شيئاً بدون قرار المجلس . واعضاء المجلس الآخرون يتولون ادارة الشعب الاخرى معتمدين في جميع اعمالهم على قرار المجلس ايضاً فعم المنفذون لهذه القرارات فقط وليس لهم ان يفعلوا شيئاً من عند انفسهم . قسمت حقوق السيادة في سويسرا بين حكومة الاتحاد والحكومات المحلية في الولايات فاختصت الحكومة الاتحادية بوظائف التشريع المتعلق بالقوانين المدنية والجزائية والتجارية والبريد والبرق وضرب النقود والمواصلات والجمارك والخارجية . القوة القضائية في سويسرا مودعة الى ١٩ عضواً وتسعة معاونين وهؤلاء القضاة الذين تذالف منهم المحكمة العليا ينتخبهم البرلمان ايضاً لمدة ست سنوات وينتخب الرئيس ونائبه لمدة سنتين . فيظفر من ذلك ان جميع قوى الحكومة تعود الى نواب

الامة اي المجلس التشريعي فهو الذي يلقب اعضاء القوة الاجرائية من بين افراده ورجال القوة القضائية ايضاً .

لم يشأ السويسريون ان تكون القوة مختارة في الحكومة المركزية فحسبوا كل ولاية من ولاياتهم ذات حق بالسيادة والسلطة في الاعمال المختصة بتلك الولاية وجعلوا خضوع سكانها الى حكومة البلاد العامة متعلقاً على منعتهم وتائداً الى اختيارهم فاصبح سكان كل مقاطعة اصحاب السيادة الاولى في بلادهم منفردين بالتشريع والقضاء والحماية في الامور التي تعينهم وحدهم واشتركوا مع سائر المقاطعات في الامور المشتركة التي تعني الجميع وتؤثر على جيرانهم ويكون الاتفاق فيها خيراً من الاتفاق في هذا هو الاساس الاصلي لتأليف الاتحاد خصوصاً اذا كان القربان الداخلي مفقوداً بين المقاطعات المتجاورة فيحصل الاضطرار لتنوع الادارة وتبدل الاحكام بحسب تبدل الاماكن وطبائع السكان .

تختلف الاقوام في تريق حقوق السيادة بين حكومات الاتحاد وحكومات الولايات فبعضهم من يجعل الاصل في حق السيادة للولاية وسكانها وعندها تكون سيادة الاتحاد فرعاً عنها فالمحقوق يرمتها تعود لحكومة الولاية في الاصل الا ما استثني منها وحصل التفلي عنه بالنص الصريح لحكومة الاتحاد فيدرجون في الدستور الاتحادي جميع الوظائف التي انفتت المقاطعات على تركها للحكومة الاتحادية وما سوى ذلك يبقى من حكومة المقاطعات بدون حاجة الى ذكر صريح ومن هذا القبيل الاصول الاميركية والسويسرية والاسترالية ومنهم من يجعل حكومة الاتحاد اصلاً في حق السيادة والسلطان فيعود اليها حق التشريع يرمته ماعدا الجهات التي تذكر بالنص الصريح انها تائدة لحكومات المقاطعات ومن هذا القبيل حكومة كندا الاتحادية . وهذا النوع ينطبق على الدول التي تؤسس في ولاياتها عدم المركزية .

ولما كانت الولايات المتحدة الاميركية اعظم حكومة اتحادية في الدنيا ارى من الموافق ان نخصها ببعض التفصيل عن وصف الاصول الجارية فيها فتكون مثلاً في هذا الباب خصوصاً وهي اقدم الحكومات الحاضرة من هذا الشكل وعندها اخذت اكثر الدول الاتحادية اصولها ونسجت على منوالها في اكثر جهات الادارة

ومنهم من تعددها حذو القذة بالقذة مثل جمهوريات اميركا الجنوبية واميركا الوسطى . مساحة الولايات المتحدة الاميركية السطحية نحو ٣ ملايين ميل مربع وعدد سكانها نحو مئة مليون نفس وبلغ عدد ولاياتها (٤٨) ولاية في الوقت الحاضر وقد بدأ بثلاث عشرة ولاية فقط منذ نحو ١٤٠ سنة عندما قامت هذه الولايات وحاربت بريطانيا لاجل استقلالها وقد كانت هذه الولايات تابعة لانكثرت وهي مستعمرات لا ارتباط بين الواحدة والاخرى منها الا بواسطة الامبراطورية البريطانية فبعد ان فاز سكانها بهذه الحرب ونقروا لم الاستقلال لم يوافقوا على الاندماج في دولة واحدة بسيطة وانما احتفظت كل ولاية بحقوقها الخاصة في ضمن حدودها واكتفوا باحداث اتفاق بينهم لاجل جمع كلهم وقوتهم في الامور الخارجية وبعض المصالح المشتركة مثل مصلحة البريد والبرق وضرب النقود . وبسبب كثرة المهاجرة الى اميركا انتشر المهاجرون في داخل القارة وغربوا في عرشها وطولها واستمروها رو يداً رو يداً وكما عمرت مقاطعة بهم اسسوا فيها حكومة مستقلة بحقوق مساوية لحقوق الولايات الاولى وانضموا الى الاتحاد وهم اليوم باقوت على تلك الحالة ولم ياتيك الحقوق التي ورثوها عن المقاطعات الاولى .

حكومة الولاية اليوم تمتع بجميع حقوق السيادة المستقلة ما عدا المستثنيات التي تحتل عنها حكومة الاتحاد . وكل ولاية لها قانونها الاساسي المتضمن الحقوق العامة لافراد الشعب تجاه الحكومة وكنية تشكيل الحكومة ومنابع الخزينة والميزانية . ولها مجلسها التشريعي المؤلف من دائرتين احدهما للشيوخ والاخرى للتواب ينتخب اعضاؤها من سكان تلك الولاية بالاقتراع العام وهذا المجلس يسن القوانين ويسيطر على الادارة بجميع اطرافها . ولها حاكمها العام الذي ينتخبه الشعب ايضاً لمدة معينة ويتولى رئاسة القوة الاجرائية . ولها محكمة العليا حيث تنهي درجات القضاء فيها . ولها ضرائبها ورسومها واصولها المالية وديونها العامة . ولها قوانينها الخاصة في الامور المدنية والجزائية واصول المحاكمات . ولها قانونها الخاص في قضية الجنسية حتى انك تجد هذا القانون الذي يقتضي الوحدة في جميع اجزاء الدولة مخالفاً في احدى الولايات عما هو في غيرها فترى الحقوق السياسية مثل حق

التصويت والانتخاب ممنوحاً لواحد في ولاية وممنوعاً عن امثاله في غيرها . فالفرد الاميركي قد يعيش دهره ضمن ولايته بدون ان يشعر بوجود الحكومة الاتحادية الا عندما يقدم شكوى من احدى الادارات الاتحادية كادارة البريد والبرق او عندما يدفع مكالمة عن البضائع التي يستوردها من الخارج وجميع دعاويه وقضاياه تحل ضمن ولايته وفقاً لقوانين تلك الولاية . والمهنة التشريعية التي تمثل الشعب تستطيع ان تدخل اي تعديل او تحوير كان على قانونها الاساسي استمد من ارادة الشعب فقط وليس السلطة الاتحادية حق الرقابة عليهم مطلقاً حتى في امور التشريع سوى ما كان من جهة النص الوارد في الدستور الاساسي من ان القوانين الاساسية للولايات يجب ان تكون جمهورية فلا تستطيع ولاية ان تجعل حكومتها ملكية او غير جمهورية وفي ما عدا ذلك هي مختارة باتخاذ الشكل الذي تراه في وضع قانونها الاساسي الذي يضمن في الغالب ايماناً معينة بأنها حدود الولاية وحقوق الشعب العامة وتشكيل حكومة الولاية والمجلس التشريعي وبها كيفية انتخابه ووظائفه وحقوقه واقامة القوة الاجرائية وكيفية ايجاده ودرجة مسؤوليتها امام نواب الشعب وحقوق القضاء واصول اجرائه وحرية الانتخاب وشكل حكومة المحققات في الاقضية وكيفية ادارتها والائتماء الى القوانين والانظمة الموضوعة والواجب وضعها وصيانة الامن الداخلي واصول الضرائب ومنايع الخزينة وكيفية الاتفاق والسجون والمستشفيات والاعتماد بالزراعة والمعارف والمواصلات وحقوق العمال وشرائط تعديل القانون الاساسي .

المجلس التشريعي في كل ولاية يتألف من الاعيان والنواب وجميعهم ينتخبهم الشعب بالرأي المشترك فالاعيان ينتخبون لمدة اربع سنوات والنواب لمدة سنتين وقد اخذوا جعل التشريع في مجلسين عن الاموال الانكليزية التي جرى عليها الشعوب الاخرى ايضاً والغرض منه ان يكون احد هذين المجلسين معدلاً للآخر فيكون ذلك ضمن من الخطأ او التسرع في سن القوانين فلا يبقى مجال للتمييز او الاستئثار او الغلط الذي يتركه احد المجلسين .

واما عدد الممثلين في كل من المجلسين فيختلف بالنسبة لعدد السكان في كل ولاية

ولنصوص القانون الاساسي فيها الذي يعين عدد الافراد لانتخاب النائب الواحد . حاكم الولاية ينتخبه الشعب عندما ينتخبون نواب التشريع ومدته في اكثر الولايات اربع سنوات وفي بعضها ثلاث او سنتان او سنة واحدة وهو يراقب انفاذ القوانين واحكام المحاكم وله حق العفو عن الجرائم وقيادة القوات المحلية في حفظ الامن الداخلي وهو يعين كبار الموظفين بعد ان يوافق مجلس الاعيان على تعيينهم ولكن هذا الحق محدود جداً لان اكثر كبار الموظفين ينتخبهم الشعب بالتصويت مثل حكام الاقضية الذين ينتخبهم سكان القضاء وكذلك القضاة فان انتخابهم يعود اما للشعب واما للحمكة العليا التي ينتخب الشعب اعضاءها . وهو يمثل الولاية في المراسلة مع الحكومة الاتحادية وحكام الولايات الاخر . وللمحكمة حق الابطال او حق الرد (Veto) وهذه صلاحية عظيمة جداً للذين يحسنون استعمالها وهي ان الحاكم يستطيع ان يرد كل قانون يسنه المجلس التشريعي وذلك لان الشعب قد جعل الحاكم معدلاً لحرارة الاحزاب ومبطلاً لنتائج التسرع الذي يقع في المجالس في بعض الاحيان فهو ينتخب الحاكم من ذوي الحكمة والاختبار الطويل واصحاب الدم البارد والحزم والروية ليحول دون الاسات التي تذهب اليها الاحزاب السياسية . فالحاكم بواسطة هذا الحق الممنوح اليه يسيطر على حركات التشريع ويستعمل هذه الصلاحية معتمداً على ثقة الشعب به .

اما القضاة فينتخبهم الشعب او مجلس النواب او يعينهم الحاكم بموافقة الاعيان وهم في الغالب يقلدون وظائف القضاة لمدة طويلة تبلغ العشرين سنة وانما رواتبهم قليلة بالنسبة الى شرف القضاء وغنى الاميركان . والقضاة مستقلون في كل ولاية وفيها تنتهي درجات المحاكمة بدون ان يكون لحكومة الاتحاد سيطرة على محاكم الولايات وقوانينها واصولها . الا في الامور العائدة للقانون الاساسي الاتحادي او في القضايا المودعة لحكومة الاتحاد .

في مبدأ الاتحاد الاميركي كانت عواطف الشعب مستقرة في الوطنية الضيقة وكان اهتمام الافراد وتحمسهم منصرفاً نحو مقاطعتهم فلم يكونوا يعبأون كثيراً بالدولة المركزية التي كانت منقطعة عن الشعب انقطاعاً تاماً غير ان هذه الحالة اخذت تتبدل

في غضون القرن التاسع عشر تبدلاً محسوساً وذلك بسبب الترقى الذي احرزته
اتجارة والعلاقات الخارجية فصارت مصالح كل شعب غير محصورة بالمنطقة الضيقة
التي يعيش فيها بل كثرت علاقاته مع الخارج وكان غنى الشعب الاميركي واتساع
ثروته وانتشار تجارته خادماً لاحداث انقلاب في عواطفه نحو الحكومة الاتحادية
التي تمثله في الخارج وتحسي تجارته ومصالحة الواسعة . كما ان انتشار الاحزاب
السياسية المؤسسة على اختلاف جهات النظر في الامور السياسية الخارجية والتدابير
الاقتصادية العامة جعل كل فرد من السكان مضطراً الى الانتماء لاحد هذه الاحزاب
التي جمعت تحت الوتراسكان الولايات كافة ووحدت ميول كل فريق منهم
فتكون منها فرق منتشرة في جميع انحاء البلاد وانظارها متجهة الى مقاصد معينة
وموحدة بين جملة الافراد المنسبين الى احدي الفرق فلم يعد للمنطقة الضيقة تأثير
على منافع المنطقة الواسعة واصبح الرد يساهل في تنمية المصلحة المحدودة في مقاطعته
لصيانة مصلحة حزبه وتأييد سياسته الرامية الى المصالح العامة الواسعة . وكذلك
الحرب الاهلية التي احدثها مجبو الاتصال في اواسط القرن التاسع عشر آلت الى
الغذالم وانصداع شأنهم وانتهت بنصرة القائلين بالاتصال والاتحاد فقيوت كلمتهم
واعززت مكانتهم وكان هذا من جملة الاسباب لخدمة مصلحة الاتحاد . كما ان
الحروب الخارجية التي جرت في آخر القرن الماضي مع اسبانيا وفي القرن الحاضر
مع دول اوربا آلت لدخول الاميركان في السياسة الخارجية التي تمثلها حكومة
الاتحاد وبما ان هذه الحروب ايضا انتهت بالنصار الاميركان وتعزز شأنهم فقد
قيوت بها كلمة الاتحاد وكاد تفوز به بتبع النفوذ المحلي .

ليس للحكومة الاتحادية الاميركية اراض تديرها رأساً ضمن الولايات سوى
منطقة كولومبيا الصغيرة التي فيها العاصمة وانما التوسع السياسي الاخير ألحق
بالجمهورية الاميركية جميع اراضي الاسكا الواسعة وجزائر الفيلبين التي اقتنصتها من
الاسبان وجزائر هاواي وبورتوريكو وترعة بناما فبقيت هذه البسلاد تدار من قبل
الحكومة الاتحادية رأساً وبقيت الحكومات المؤسسة في هذه المستملكات تأتمر بأمر
حكومة واشنطن .

عندما انفصلت الولايات الثلاث عشرة عن بريطانيا اعلنت كل منها استقلالها
سنة ١٧٧٦ وانفق بعضهم بعض بروابط ضعيفة جداً واقامت المجلس العمومي (Congress)
الذي لم يكن لديه قوة مطلقة ولم يكن له النفوذ على المقاطعات بشيء فشعر السكان
بحاجة باتحاد امين من هذا الاتفاق وقام المفكرون منهم بطلبون به حتى اجتمعت لجنة
في هذا المجلس ووضعت الدستور الاسامي سنة ١٧٨٧ فقبلته تسع ولايات وانتخبت
جورج واشنطن اول رئيس للجمهورية المؤلفة بموجب ذلك الدستور ثم لحقتها بقية
الولايات تدريجاً وانضمت الى الجمهورية . وكان لهذا الدستور الاميركي الاول تأثير عظيم
ليس على سياسة اميركا فقط بل على سياسة الدنيا ايضاً لانه وضع القاعدة القائلة
بالحماية الشعبية وان كل قوة او سلطة او سيادة ليس لها منيع الا الامة وارادة الشعب
فقط وان الامة لا تحكم الا بالصورة التي تريدها . وقد اشتهر هذا الدستور بصراحته
وانقاله ومثاليته التشريعية حتى قيل انه افضل دستور من نوعه وضعه البشر
الى العهد الحاضر وبموجبه تأسست الجمهورية الاميركية الحاضرة .

اما المبادئ التي أسس عليها فهي :

(١) : احترام ارادة الشعب .

(٢) : بقاء السيادة الاصلية للمقاطعات فكل حق من حقوق الحماية غير

مصرح بنسخه لدولة الاتحاد يبقى لحكومة المقاطعة .

(٣) : اعتبار مجموع المقاطعات الداخلة في الاتحاد دولة واحدة ووطناً واحداً

وتأسيس حكومة وطنية اتحادية لمصلحة هذا الوطن الواحد .

(٤) : تخلي المقاطعات لهذه الحكومة الوطنية عن كل وظيفة واجبة لحياة الامة

بصفتها شعباً مجتمعاً وهذا يشمل الامور المتعلقة بصلات الامة مع الدول الخارجية

ويشمل الامور الداخلية التي ادارتها من قبل دولة الاتحاد وانتم لمصلحة الامة من ادارتها

من قبل حكومات الولايات . وقد فضل الدستور وظائف الدولة المركزية وحصرها

بالامور الآتية :

(١) : تطرح ونجى التكاليف الواجب اطرادها على غطر واحد في جميع الولايات .

(٢) : تعقد القروض باسم الولايات المتحدة وتكون عقودها ملزمة لجميع الولايات .

- (٣) : تنظيم التجارة الخارجية والتجارة الداخلية المشتركة بين الولايات .
- (٤) : تضع قواعد مطردة للتابعة وللأفلاس تراعى اصولها في جميع الولايات .
- (٥) : تملك النقود وتضع معياراً للمقاييس والمكاييل والموازين .
- (٦) : تؤسس دوائر البريد وتنتشئ الطرق البريدية .
- (٧) : تشرد وصيانة حقوق التأليف والاختراع والعلامات الفارقة والحقوق الصناعية .
- (٨) : تؤسس محاكم تابعة للمحكمة العليا .
- (٩) : تعلن الحرب وتعقد الصلح وتتخذ على الغنائم الحربية .
- (١٠) : تجمع جيشاً وتنتشئ اسطولاً حربيّاً .
- (١١) : تدعو القوى الوطنية المعروفة بالميليس وتجزئها للخدمة اللازمة بحسب ما تقتضيه مصلحة الولايات .
- (١٢) : تلوى الملكية المنقودة في البقعة المعينة مقرأ لحكومة الاتحاد والاماكن المتخذة للاستحكامات الحربية .

- (١٣) : تسن الشرائع اللازمة لتنفيذ هذه البنود والقيام بهذه الوظائف .
 - (١٤) : تسن القوانين الواجبة لحماية الافراد تجاه اي تشريع كان تصدره مجالس الولايات خلافاً للحقوق العامة المنصوص عنها في الدستور .
- وقد اوجب الدستور على كل ولاية ان توفد مندوبين من قبلها يمثلانها في مجلس الشيوخ العام وان توفد مبعوثين الى مجلس النواب على نسبة عدد سكانها . ووجب عليها ان تنظم القوى الوطنية وتختارها وتجعلها عند الحاجة رهن امر رئيس الجمهورية ليستعملها في المصالح الوطنية العامة . ومنع ايضاً المحكمة العليا التي هي احد اركان دولة الاتحاد حتى تفسر مواد الدستور فكل قانون تسنه المقاطعات يعرض على هذه المحكمة حتى اذا رأت فيه مخالفة لروح الدستور تمنع عن اجازته فلا يكون نافذاً . وقد حفظت حقوق الدولة الاتحادية بما لها من حق الحكم المباشر على الافراد فكل مخالفة للدستور ولائحة الاتحاد يحاكم اربابها ويعاقبون لدى محاكم الاتحاد رأساً كما ان الاموال التي تنجي لحساب خزينة الاتحاد مثل المكوس ورسوم الاستهلاك يجبيها جباة الدولة

المنتشرون في كل بلد من بلاد الاتحاد الاميركي فلا تحتاج الدولة المركزية الى مراسلة حكومة الولاية وطلب انفاذ قوانينها منها وانما ترسل موظفيها الذين يجرون وظائفهم بدون حاجة لمناصرة من الحكومة المحلية . وقد اباح الدستور للحكومة المحلية ان تطلب المعونة من الدولة عند وقوع عصيان في الولاية او حصول تعدي خارجي عليها والدولة تلبي طلبها وتضمن لها ادارة جمهورية حرة مضمونة من العصيان الداخلي والغزو الخارجي .

قلنا ان المجلس التشريعي له دائرتان احدهما الاعيان او الشيوخ والثانية النواب فالشيوخ توفدهم الولايات بمعدل اثنين لكل ولاية مهما كانت عدد سكانها فولاية نيو يورك مثلاً التي سكانها نحو عشرة ملايين توفد اثنين وولاية نيسادا التي سكانها ٨٢٠٠٠ توفد اثنين ايضاً واما النواب فينتخبون بالنسبة لعدد السكان وهم مخترون اما بالتخابهم على اساس الناحية بنائب واحد او على اساس الولاية دفعة واحدة وانما جميعهم الآن الا واحدة اختاروا الشكل الاول وقد كان عدد النواب عند تأسيس الاتحاد ٩٥ حتى صار الآن نحو ٤٠٠ نائب .

رئيس الولايات المتحدة لئذ يخبه لمدة اربع سنوات هيئة خاصة تنتخبها الولايات لهذه الغاية فكل ولاية تنتخب عدداً من الناخبين بقدر ما لها اعضاء في المجلس الكبير (Congrès) من اعيان ونواب وهؤلاء الناخبون يجتمعون في كل ولاية يوم الاثنين الاول من شهر كانون الثاني من سنة الانتخاب وينتخبون الرئيس ونائبه بالرأي الخفي ويرسلون غلافات الانتخاب الى العاصمة فيفتحها رئيس الاعيان بحضور المجلس العمومي ولتم الاكثرية من العدد المرتب فاذا لم تتم هذه الاكثرية لاحد ينتخب النواب الرئيس والاعيان نائبه . والرئيس هو رأس القوى الاجرائية في البلاد وله حقوق معادلة لحقوق الملوك في البلاد النيابية ومجموع مخصصاته مئة الف ريال في السنة . وحقوقه تزيد في زمن الحرب حين يصبح مسيطراً على جميع القوى الوطنية وصاحب الامر المطاع في سبيل الدفاع الوطني وصيانة شرف البلاد ومجدها . والاجراء محصور فيه وليس هناك وزراء بل رؤساء الشعب الخارجية والخزينة والحربية والنائب العام والمحكمة ورئيس البريد العام في الداخلية والزراعة و (التجارة والعمل) .

القضاء في اميركا مستقل عن سائر القوى وقوامه المحكمة العليا التي تقابل محكمة

التبيز مؤلفة من تسعة فضاء يعينهم الرئيس بموافقة الاعيان لمدة الحياة و يوجد محاكم استئناف وبداية في الولايات لاجل رؤية القضايا المتعلقة بالاتحاد فقط وهي القضايا المتعلقة بالدستور او بالسفراء والوزراء والقناصل او بالبحرية والفضاء البحري والتي تكون الدولة فيها احد الخصمين او تكون احدى الولايات خصماً مع ولاية اخرى او مع احد سكان ولاية اخرى . والحكمة العليا لها تفسير معاني الدستور الاساسي وانما لا تفعل ذلك الا في معرض الخصومة والقرار الذي تصدره يسري على تلك القضية المحكوم بها . وقد نجحت الدولة الاميركية ضمن هذا الاتحاد وجاء موافقاً لمصالحها الداخلية والخارجية وسبباً لازدياد ثروتها وارتفاع عمرائها وان كان الفضل الاول في ذلك لاخلاق الشعب وخصب البلاد .

فارس الحوري

طرفة ادب من آداب العرب (١)

أيتها الاخوان !

اذا قرأتم مقامات الحريري سمعتموه يقول في فائحة كل مقامة « حكي الحارث ابن همام » راوياً أخباره عن « ابي زيد السروجي » . واذا قرأتم مقامات « بدیع الزمان الحمذاني » ألتفتوه يقول « حدثنا عيسى بن هشام » مخبراً عن « ابي الفتح الاسكندري » وها أنا ذا اليوم أستمعكم مقامة لم يروها الحارث بن همام . ولم يحدث بها عيسى بن هشام . وانما حدث بها « ابو المطهر الازدي » — عن « ابي القاسم البغدادی » .

فموضوع محاضرتي هذه مقامة من مقامات الادب . ابتدعها أحد كتاب العرب . وافرغها في اسلوب عجب . وقد أعثرنا عليها الدهر المكني ابا العجب .

المقامة في اللغة معناها المجلس يقوم فيه الناس . ثم أطلقت مجازاً على الخطبة او الموعظة التي تلتق في المجلس . وبعد ان ألف (البدیع) و (الحريري) مقاماتها اصبح للمقامة معنى خاص مراعى فيه الوضع والاختراع . فمن ثم يصح ان يُقال « فن المقامات » في آدابنا العربية بد « فن الروايات » في الآداب الافرنجية : من حيث أن كلا منهما يُفرغ في قالب قصة ذات وقائع خيالية . واشخاص او أبطال خياليين . لكن « فن المقامات » عندنا ذوى واصل . اما فن الروايات عند الافرنج فقد أخصب ونما . واصبح شجرة باسقة : اصلها ثابت وفرعها في السماء . والذي دعا البدیع والحريري الى انشاء مقاماتها وافرغها في هذا القالب المكيمة

(١) هي المحاضرة التي القاها الاستاذ (المغربي) في ردة الجمع في ٢٠ تشرين

الاول سنة ١٩٢١ .

المسلي هو ملل أهل عصرهما من حالة الأدب القديمة . ومن طريقة المؤرخين والملثمين في إيراد الحكم . وسرد الوقائع . ورواية الأخبار المختلفة . وإذا تأملنا في كل تجديد أو نهضة تحدث في الكون سواء أكانت دينية أو سياسية أو اجتماعية أو أدبية نرى معظم السبب المؤثر في حدوثها هو ملل الناس . فيملهم هذا الملل على تطالب شيء جديد يناسب حالتهم الاجتماعية والفكرية التي وصلوا أو ارتقوا إليها : وإذا ذلك يظهر النابغون والمصلحون والتجددون وعملاء النهضة . خذوا مثلاً النهضة المتوالية في آدابنا العربية : فأتى العرب قبل الإسلام بشحو نصف قرن مأوا سماع أساليب فصاحتهم الكلامية الأولى التي ربما كانت موروثه لهم من عهد حمورابي فنهض (قس بن ساعدة) و (امرئ القيس) و (الأعمش) الذي كانوا يسمونه صناجة العرب فشقوا الكلام وذهبوا فيه مذاهب أطربت العرب . واستهوت أفئدتهم .

ثم بعد نحو مئة سنة عاد الناس فمأوا طريقة أصحاب المعانيات وأجموها . ومما يروى في ذلك قول بعض العرب يعير بني تغلب :

(الهلي بني تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم)

(يروونها أبداً مذ كانت أولهم يا للرجال لشعر غير مستوم)

فكان من أثر هذا الملل أن نهض في دولة الامويين (عبد الحميد الكاتب) و (جرير) و (الفرزدق) فأحدثوا طريقة غضة كانت أشد التحاماً بجمالة العرب وأذواقهم وهم في طورهم الاجتماعي الاسلامي الجديد .

ثم كثر على ذلك قرابة مئة سنة وكانت قامت دولة بني العباس بخلفائهما ومجالس غنائها وتذمائها . وقد ملّ الناس طريقة (جرير) و (الفرزدق) ومتناقضاتها . و يروى من آثار هذا الملل أن الشاعر كان إذا وقف بين يدي جعفر البرمكي للإشاد قال له : « قل ولا تطول فاني أمل الأطلالة » . وكان المأمون لا يحب أن يسمع سوى البيتين أو الثلاثة في مدحه وشي من التشبيب والوصف .

فنهض (عبد الله بن المقفع) و (أبو نواس) و (بشر بن برد) الذي سماه بعضهم « أبا التجدد » فاستمعوا الناس عجباً . وأوسعهم طرباً .

ثم بعد مئة سنة ملّ الناس وصحروا من تكرير المعاد فنهض (أبو تمام) و (الجعفي) و (الجاحظ) الذي يدعى (مالك الانشاء) . وبكفني ان اذكر اسماء هؤلاء الثلاثة لتعلموا أيها السادة مبلغ تأثيرهم في تجديد الآداب العربية .

وقد أصبح الناس بتأثير حضارة هذا الزمن يميلون الى الغلو في النقد . والتفنن في الوصف . وذكر أخبار الناس . وما يقع للخلفاء والامراء في مجالس لهم . وكل مستملح من الحديث . ومفكك من الشعر . حتى قال الجاحظ : إن الناس في عهده ما كانوا يأنفون من إنشاد أغاني المعنويين وأهازيج اللصوص وأشعار اليهود .

ثم انتقل الناس من القرن الثالث الى القرن الرابع الذي نفجت فيه الحضارة العربية أتم تنفج . وبلغ الناس من التذرف حداً تطالبوا معه أقصى ضروب المفككات والمسائيات . بعد أن كانوا مأوا ترديد اقوال أدبائهم السابقين . وأحبوا ان يسمعوا غيرها الى حد أن كان يلذ لهم سماع أشعار السقائين الذين يحملون القرب . والمازين على جسر بغداد . والسحرة في رمضان . وأخبار سياحات البر . والنجر . التي كثرت في ذلك الزمن . وسماع عجائب الهند . وجزائر واق الواق . وما وراء جبل قاف . وكان حاملاً لواء هذا التجدد أو النهضة التي انتظرها الناس (المنيني) و (بديع الزمان الهمداني) فكان أسلوبهما في الشعر والنثر ونفائهما فيها عهداً جديداً في الأدب العربي . والشعر العربي . والتأليف العربي .

وامتدت هذه النهضة الى القرن الخامس الذي مات فيه أواسطه (أبو العلاء المعري) وبها أختت نهضات الادب الخمس . ثم كرت بعدها ثمانية قرون . أخذت تضعف فيها حياتنا الاجتماعية بالتدريج . وفي آخر الامر لم نعد نشعر بل ولا ألم . حتى كانت هذه العصور المتأخرة فأخذ يدب فينا ديب الحياة . وعاد لنا الشعور بالملل من أدبنا القديم . ونهض شبائنا يتلمسون أدباً عربياً جديداً . يناسب مدنية القرن العشرين . ويلتحم مع آداب الامم الراقية التي تعيش فيه .

وفي النهضة الادبية العربية الخامسة التي قلنا إنها هي الأخيرة عهد الأدباء والكتاب الى وضع تأليف تحدث في النفوس نسبية ونشاطاً . موافاة لرغبة الناس

وسدًا لحاجاتهم كذا ذكرنا. كذلك فعل البديع المعضاني في مقاماته المشهورة. والاصفهاني في كتابه الاغانى. وأبو العلاء المعري في رسالته «الغفران».
 لكن بعض المؤلفين والشعراء في هذا الدور تجاوزوا حدود الأدب الى المجون والمزبل ويسمونه (إحماضاً). وكانوا يعتذرون عنه أحياناً كما اعتذر الحريري في مقاماته عن بيتي كافات الشتاء مذ قال «وما قصدت بالإحماض فيه. الا لنشيط قارئه. وتكثير سواد طالبه».

والجوف في أدبيات الام أثر من آثار حضارتها وانعاسها في الترف. فليست الامة العربية بدءاً من سائر الامم: فإنها كلها — قديمها وحديثها — لها في آدابها من ضروب السخف والمجون واختراع وسائل للشهوات ما كان ليخطر ببال العرب.
 ومن لطيف المصادفات أنني بعد أن وصلت في كتابة المحاضرة الى هنا اطلعت على مقالة في مجلة (L'Annuaire) الفرنسية يشكو فيها كاتبها من كتب المجون والخلاعة التي طغافانها على الباريزيين. ولفت الكاتب أنظار الحكومة الى ملاءمة هذا الشر. فقلت في نفسي ها إن (باريز) التي هي عروس الحضارة الاوربية اليوم قامت تشكو مما كانت تشكو منه اختها بغداد عروس الحضارة العربية أمس. ولشد ما كان التاريخ بعيد نفسه.

في هذا الدور الاخير من حضارة بغداد كُتبت مقامة (ابي المطهر الازدي) التي جعلناها موضوع محاضرتنا هذه. وهي من الكتب التي أحجج فيها كاتبها وتخالع. وأودعها من القول ما لا يحسن ذكره. لكنه والحق يقال كتبها بأسلوب لا نظير له في كل ما كُتب واطلعنا عليه من نوعه. حتى أعجب به المستشرقون ايها العجائب. وليس عجائبهم به من حيث بلاغة أسلوبه. وتجو بد سبك عبارته فقط. بل من حيث ثقلته في وصف شؤون كثيرة من حضارة العرب. وطرق معاشهم في القرن الثالث الى أواسط الخامس.

وهذا ما نحب ان نضعني اليه نحن من هذا الكتاب العجيب. ونعرض عما فيه من المجون الذي لا يحسن ولا يطيب.

وفي الكتاب كلمات وأساليب لا يمكن ان نوفيها حقها من البحث الآن. فنجتزئ بالإشارة اليها:

من ذلك كلمات استعملها المؤلف منذ ألف سنة ونحن نظن أنها أحدث عهداً: نحو كلمة (نفضل) في الدعوة الى الطعام و (بقال) ابائع الجبن والزيتون ونحوها و (شوربا) لنوع من الطعام أظنه غير الحساء المعروف اليوم و (المان شجينة) أي مطربة و (له فرد كم) أي كم واحد و (كأس خمر يدوخ) أي يورث الدوار و (ماء الليمو وحمض الليمو) يعني الليمون ولما حذف النون يا ترى؟ ويظهر ان الليمون كان معروفاً في ذلك العهد كاللارج والتارنج و (بن) لكنهم كانوا يريدون به ضرباً من الكوامخ لا سيما الاسود المعروف ثم استعاروا كلمة (بن) لهذا الذي نعرفه كما استعاروا له كلمة القهوة وهو من اسماء الخمرة. وكلمة (أقيه) للدلالة على التفرز من الرائحة الخبيثة و (أشه) للدلالة على صوت العطاس.

ومن أغرب كلماته كلمة (شير) وأشبهها فقال (شيرة) والشير نسمعا في لبنات ويعنون بها الصخرة المشرفة من جبل. هذه الكلمة لم يذكرها علماء اللغة فهي غامية اي موأدة. ولعلها سر يائية عرفها العلماء في زمن العباسيين كما عرفناها بعد الف سنة مذسمعنا من اللبنايين. وربما كانت من جملة الكلمات السريانية الباقية في كلامهم وقد فسرنا في (الفرائد الدرية) بقوله: (الشير — Roc près de tomper).

ومن الكلمات الغريبة التي كانوا يستعملونها في القرن الرابع ومات بعد ذلك — كلمة (نفاط) للسراج الذي يستضاء به بواسطة زيت النفط اي زيت البترول غير المصفى. فبصلح لان سمي بها مصابيح البترول اليوم. وكلمة (جذور) جمع جذر وهي أجور المغنيات وكلمة (مفردات) في وصف الاشياء إذا كانت لا نظير لها فيقولون مثلاً (مفردات الاخبار) اي عيونها ونواذرها. وكلمة (متخلف) و (مدبر) يصفون بهما من كان مشغولاً في الحظ غير موفق في أمور حياته. ويجمعون (مدبر) على (مدابير).

ومن غريب ما رأيت فيه من الكلمات جمعه (الي) بالتين قياساً على الدين

واين مالك يقول : (بالآلات واللاقي التي قد جمعا) وأغرب منه استعماله (تا) بمعنى (حتى) فقال من يلبث شعر :

(لم يزل يفعل كذا تا تهورت الخ)

اي حتى تهورت . و (تا) اداة تركيبة كما لا يخفى . ولعل وزن الشعر هو الذي اضطره الى استعمالها ؟

ولنضرب صفحا عن تحليل الكتاب لغويا ولنعمد الى الكلام على مضامينه

اجتماعيا :

قلنا ان الكتاب مقامة اي رواية عربية . وأن بطلها اسمه (ابو القاسم البغدادي) وهو خيالي كما في زبد السروجي وعيسى بن هشام بطلي مقامات البديع والحريري . اما (ابو المطهر الازدي) الذي كتب هذه المقامة فهو — وان لم نظفر بترجمته فيما بين أيدينا من كتب التراجم — أديب من أدباء القرن الرابع . وربما امتد عمره الى أواسط القرن الخامس : بيان ذلك ان أبا المطهر المذكور من اصحاب (ابي عبد الله ابن الحجاج) الشاعر المشهور بفهم ذلك من مقدمة الكتاب التي كتبها ابو المطهر نفسه . وابن الحجاج المذكور مات سنة (٣٩١) فيكون ابو المطهر ولد في أواخر القرن الرابع . ثم ان ابا المطهر ذكر في كتابه بين الأدباء الذين روى شيئا عنهم (ابن غيلان البزاز) . وقال المستشرق ناشر كتاب ابي القاسم في المقدمة التي وضعها له — ان (ابن غيلان) مات سنة (٤٤٠) فهذا يدل على ان ابا المطهر عاش الى اواسط القرن الخامس . ولم يمكننا ان نعرف عن الزمن الذي وُلد فيه ابو المطهر ومات فيه اكثر مما ذكرنا .

وابو المطهر عاش في زمن البديع الحمذاني صاحب المقامات الذي مات سنة (٣٩٨) فيكون قد عرفه وعرف مقاماته . كما عرف ابا عبد الله ابن الحجاج وعاشره وسمع مجازاته . و (البديع) هو واضح فن المقامات كما شهد له بذلك الحريري منذ قال : (انه جرى في بعض أندية الادب ذكر المقامات التي ابتدئها بديع الزمان وعلامة همذان) ويعني بقوله ابتدئها اخترعها وسبق غيره الى تصنيفها . وكما أن

البديع كانت في ذلك الزمن (نابغة المقامات) كان عبد الله بن الحجاج (نابغة الخلاعات أو المجانات) . وقد عاشرها (ابو المطهر) كليها . فلا جرم ان يكون في مقامته التي سماها (حكاية ابي قاسم البغدادي) قد جمع بين ما استفاده من النابغتين : التفنن في سبك وقايح المقامة وتأليف اجزائها وهو أمر استفاده من البديع — والتفنن في السنف والمجون والخلاعة وهو ما استفاده من ابن الحجاج . فجاءت مقامته سيف البلاغة آية . وفي المجون نهاية .

ومما يستغرب ان (ابا المطهر الازدي) لم يسم مقامته (مقامة) بل سماها حكاية مع انه استعمل كلمة (المقامة) في مقدمتها التي كتبها لها فقال : (أشعار لنفسي دونتها . ورسائل سيرتها . ومقامات حضرتها) .

و يستغرب أيضا أن احداً من المؤلفين لاسيما كتاب الفهارس والتراجم وشرح المقامات لم يذكر (حكاية ابي القاسم) التي ابتدئها ابو المطهر مع أنها أعجب أسلوباً . واغزر شوباً . من كل ما كتبه (المقاماتيون) . وليس ذلك في غالب الظن إلا لما حوته من السنف والمجون . فلم ننداولها أيدي السخا ولم يكتب منها سوى النسخة التي ربما كانت نسخة المؤلف نفسه فعلقت بها أيدي المستشرقين قرأوا فيها من وصف الحضارة الاسلامية في القرن الرابع والخامس ما حملهم على طبعها ونشرها .

(وكنا كتبنا الى العلامة احمد تيمور باشا نسأله رأيه في حكاية (ابي القاسم) فجاءنا منه الجواب فيل إلقاء المحاضرة في (ردهة الجمع) فتلونا ما كتبه على الجمهور وهذا نص ما قاله :)

(حكاية ابي القاسم البغدادي) تحتوي على أحاديث مضحكة وضعها مؤلفها على رجل يقال له ابو القاسم البغدادي وقد جاء في (ص ٣) ان اسمه أحمد بن علي التميمي لكن في (ص ١٤٥) انه علي بن محمد التميمي وفي (ص ٨٧) انه كان موجوداً في سنة ٣٠٦ والظاهر انه شخص وهمي جعل وسيلة لوصف الحالة الاجتماعية ببغداد في ذلك العهد . وقد ضمن المؤلف هذه الاحاديث اشياء من وصف الخيل والبعال والحير والأطعمة وأنواع الفسافة والرياحين والأعطار وأسماء السفن وذكر الفاظاً

من لغة الملاحين والعيارين وغير ذلك . وذكر من كان ببغداد من القينات حوالي السنة المتقدم ذكرها باسمائهن واسماء من كانت يعاشرهن وكثيراً ما يستشهد بابيات لآلن حجاج : بعضها نسبها إليه وبعضها أغفل نسبتها . أما من المؤلف فلم نقف عليه غير أننا رأيناه ينقل في (ص ٨٠) أبياتاً لآلن ثبانة السعدي (المتوفى سنة ٤٠٥) فهو إما أن يكون عصره أو بعده بقليل لأن ما أتى به من الوصف في القصة يدل على أنه لم يكن بعيداً عن ذلك العصر اه .

وموضوع مقامة (أبي المطهر) أن رجلاً يدعى (أبا القاسم البغدادي) كان في أصبهان فزار مجلساً لبعض كبرائها وكان في المجلس طائفة من أهل الفضل والأدب فأخذوا يداعبونه . ويستنبشون دقائمه وهو يطرفهم بكل مستملح عجيب من نكتته ونوادره . لا سيما لتفضيل (بغداد) على بلادهم (أصبهان) وإنها كانت أرفع شأنًا . وأنصر عمرانا . وأكثر استجماعاً لمرافق الحياة . و'باهية العيش .

وكان أبو القاسم هذا أدبياً عجيباً في بلاغته . وقوة عارضته . غزير المادة في اللغة والأدب والشعر وصناعة الإنشاء والتفنن في صوغ الكلام وحوكه . ولكنه وبلا لاسف كان ماجناً خليعاً مفرطاً في السخف . فلم يكن يخاف من ذكر شيء منه في ذلك المجلس . وكان بدور الكلام بينه وبين القوم بشكل الخاورة والسؤال والجواب . ولقد طالع ذلك الحديث بينهم وامتد الدفء فيه فكان كتاباً استغرق نحو مئة وخمسين صفحة متوسطة القطع .

أراكم أيها السادة قد ظمتم إلى سماع شيء من تلك المقامة . فدوكم منها ما يسعه الوقت . ويليق بمجلسكم الكريم .

تذهب أولاً إلى أصبهان وتدخل مجلس ذلك العظيم الأصهباني . لكننا نقعد في معزل عن الجماعة كي لا تقع علينا عين ذلك الماجن البغدادي فيرشقنا بحديثاته . ويصيبتنا شيء من أذانه التي كانت تصيب الحاضرين . ولم يسلم منها رب الدار المسكين .

يجري ذكر أصبهان . فيذكرها (أبو القاسم البغدادي) فيقول له : الآخرون يا أبا القاسم ! قد أسرفت . بعض هذا !! فيقول لهم : أحاكمكم إلى شاهد منصف : إلى السمع . فأتاكم أولاً في الأساء . وإلى أن نصير إلى حقائق المعاني . فنتكلم فيها .

ثم يشرع يذكر لهم أساء . أما كن في بغداد . مثل (الرصافة) (درب الریحان) (سوق العروس) الخ . ثم يقارنها بأساء أما كن في أصبهان : مثل (كورسات) أي المقابر (موشكياذ) أي موضع القار . (كوي كدائي) (درب الضم) . (كوي كوران) (درب العشي الخ :

ثم يهيج شوقه إلى بغداد فيقول : هل أرى والله دجلة مشحونة بالمراكب والزوارق . مخفوفة بالتصور والجواسق . يرتفع ما بينها أصوات الأغاني . وخفقان النسايات والسواني . وأصوات الملاحين . وزعقات المؤذنين . إن رأيت تر والله جمالاً وكالا . ونسمع من ألفتها الشجيرة سحراً حلالاً :

(لعمري لقد فارقتم غير طالع ولا طيباً نفساً بذاك ولا مقور)

(ونالتم ما ذا تأي بك عنهم ؟ فقلت لها : لا علم لي . فأسألي القدر)

ثم يصف خيل بغداد فيقول وفيه المبالغة :

(مشترف الهادي كان أذنه تصفي الوسر حديث السما)

(فلم يكن يدرج إلا إذا وضعت سيف حاركة ساما)

ثم يصف النرس من خيل أصبهان فيقول : قد نفخ التين بطنه : فهو كالغرارة .

نسبه عند الركض الحمار . و'يفزع صوته القارة . وإما مهزول كالألف عجماء .

أو كالشئ البالي دافئاً . يعثر بالبعرة . ونقيته الشعرة . قدأكل الجرب جلده .

وحص ذنبه وناصبته .

(عظامه قد ظهت كلها كأنها من حطب يابس)

ووصف الحمار من حميرهم فقال : أسود مثل الرق . كالقرية البالية أو زرق

الدهس . إن وقفه راكمه على جماعة أدلى . وإن تركه أدبر وتولى . وإن أمسكه

أَتَعَبَ يَدَيْهِ . وَإِنْ حَرَكَه خَلَعَ رَجْلَيْهِ . مِنْ مَغَرَّرَ تَحْذِيرُهُ . وَإِنْ غَفَلَ عَنْهُ قَامَ .
وَأِنْ سَأَمَ عَلَى مَسْقِلِهِ جَنَّا حَتْمَهُ وَنَامَ .
ثُمَّ قَارَنَ بَيْنَ الدُّورِ وَالْأَثَاثِ وَالْحَصْرِ وَالثِيَابِ وَالطَّبِيبِ فِي الْبُلْدَيْنِ . فَقَسَالَ عَنْ
أَصْبَهَانَ : وَفَتَيَانِكُم بِالْأَبْرَادِ وَعِمَامَتِ الْقُطُنِ الْكَحْلِيَّةِ . تَعَالَى فِي أَهْدَابِهَا خِيُوطُ خَضِرٍ
وَحُمْرٍ . وَاهِلِ السُّوقِ : لَوْ عَصِرَ قَيْصُ أَحَدِهِمْ يَخْرُجُ مِنْهُ جُرَّةٌ دِهْنٍ .

وَوَصَفَ الْخِرْوَانَ وَصَحَافَهُ فَقَالَ لِأَهْلِ أَصْبَهَانَ :
وَلَا أَرَى بَيْنَ يَدَيْهِ أَحَدًا خَوْفَانًا قَوَائِمُهُ مِنْ خَلْنِجٍ ^(١) خِرَاسَانِي . يَلَا وَصَلَ
وَلَا كَسَرَ . كَأَنَّهُ طَبَقٌ مَشْوَرٌ . أَوْ قِطْعَةٌ بِأَوْرٍ . أَوْ ثَوْبٌ وَثِي . يَشْتَغِلُ الْإِنْسَانُ
بِالنَّظَرِ إِلَيْهِ . عَنْ الْإِكْلِ عَلَيْهِ . فَوْقَهُ رُغْفَانٌ مَحْبُوزَةٌ مِنْ دَفِيقٍ (فَانِقِ الْهُوَ يَدِي)
(وَالطَّنْسِيرِي) طَحْنُ (الْعُرُوبِ) . أَيْ بَيْضٌ فِيهِ صَفْرَةٌ . عَجِينُهُ مِثْلُ الْكَعْكَ : يَمْتَدُّ مِثْلُ
الْكَنْدَرِ ^(٢) . وَيَلْتَرَقُّ بِالْأَصَابِعِ . يَشْرَبُ الْمَكْوَلُ مِنْهُ دَجَلَةٌ . خِزْرُهُ يَصْرُ تَحْتَ الْأَصْرَاسِ .
وَيَتَعَلَّكَ حَتَّى يُوَجَّعَ الْفَكَ عِنْدَ مَضْغِهِ . النَّظَرُ إِلَيْهِ يُشْبِعُ . وَاللَّقْمَةُ مِنْهُ تَبْلُغُ الْقَلْبَ —
وَسَكَارِيجٍ ^(٣) : فِيهَا الْجَبِينُ الدِّينُورِيُّ الْحَرِيفُ الَّذِي يَفْتَقُ الشَّهْوَةَ . وَيَحْرَكُ الْمَعْدَةَ .
وَزَيْتُونٌ دَفُوقِي ^(٤) مَدَخْنٌ . مَخْلُوطٌ بِاللَّوْزِ الْمُقَشَّرِ وَالصَّعْتَرِ . تَنْشَطِرُ الزَّيْتُونَةُ عَلَى
الرَّغِيفِ فَيَمْلَأُوه زَيْتًا . وَيَتَدَحْرَجُ كَأَنَّهُ بِسَادِقٍ عَنَبٍ . وَجَبِينٌ رَوْمِيٌّ مَقْلُودٌ . تَدْمَعُ
عَيْنُ آكَلِهِ مِنْ حَرِافَتِهِ . حَتَّى كَأَنَّهُ فَارِقٌ أَحِبَّابِهِ . أَيْ بَيْضٌ مُشْرَبٌ صُفْرَةً . أَمْلَسَ .
حَدَّثَ . تَأْكُلُ الْقَالِبُ مِنْهُ بِرَغِيفٍ . لَا يَنْفُخُ وَلَا يُبْطِشُ . وَلَا تَشْمُ لَهُ
سَهْوَكَةٌ ^(٥) . يَنْتَقِي الْمَعْدَةَ . وَيَلْحَسُ الْبَلْغَمَ لِحْسًا . وَبِأَذْنَانِ مَخَالٍ بِمَاءِ حَبِّ الرِّمَانِ .
بَصْرَعٌ بِمَحْمُوسَتِهِ الطَّيْرُ مِنْ جَوْ السَّمَاءِ . وَيَقْلَعُ مِنَ الْمَعْدَةِ الصَّفْرَاءَ . وَتُشْمُ رَائِحَتُهُ
مِنْ فَرْسَخٍ . يُضْرَسُ قَبْلَ أَنْ يُؤْكَلَ . وَصُدُورُ الْبَطِّ بِمَاءِ التَّفَاحِ . وَمَاءُ حَبِّ الرِّمَانِ
وَالثَوْبُ الشَّامِي . وَارْزُ بَلْبِنِ حَلِيبٍ . قَدْ تَرَكَ فِيهِ الرُّغْفَرَانِ . وَرُصَّعٌ بِالْحَمْضِ .
وَذُرٌّ عَلَيْهِ سَكْرٌ مَدْفُوقٌ وَقَطَائِفُ لَطَائِفٍ . مَقْلُودَةٌ مَغْرَقَةٌ فِي الْجِلَابِ . مَنُضُودَةٌ
فِي جَامَاتِ الْبُلُورِ الْخُرُوطِ . وَالصَّحُونُ الصَّبْنِي الْمَلُونَةُ .

(١) خرب من الشجر (٢) هو الحصابان (٣) صحاف المشيمات (٤) نسبة إلى
(دقوقا) وهي بلدة بين اوربل وبنغداد (٥) رائحة كريهة .

وَيُرفَعُ الطَّعَامُ وَيَأْتِي بَعْدَهُ فَرَّاشٌ مَتَهَلِّلُ الْوَجْهِ . نَظِيفُ الثِّيَابِ . حَسَنُ الشَّائِلِ .
خَفِيفُ الرُّوحِ . يَهْدِيهِ خِلَالِ سُلْطَانِي مَقُومٍ . كَأَنَّهُ مَدَّارِي ^(١) الْفَضَّةِ . مِنْ عَمَلِ
(نَجَاحِ الْأَسْوَدِ) . فَيَتَنَاوَلُ الْجَمَاعَةُ مِنْهُ بِتَلَطُّفٍ .

ثُمَّ وَصَفَ الطُّسْتَ وَالْأَبْرِيْقَ وَالْمُنْدِيلَ الَّذِي يَتَمَسَّحُ بِهِ وَصَفًا عَجِيبًا ثُمَّ قَالَ :
هَذِهِ أَوْصَافُ مَوَائِدِ الْعِرَاقِ الَّتِي مَا أَرَى وَاللَّهِ شَيْئًا مِنْهَا عِنْدَكُمْ : إِنَّمَا أَرَى مَائِدَةً
بِلَا خَلٍّ وَلَا بَقْلٍ . كَشِيبٌ بِلَا فَعْمٍ وَلَا عَقْلٍ . مَبْسُوطَةٌ عَلَى سَفَرَةٍ رُؤُوسُهَا شَيْتَةٌ . بِسَاطُ
الْأَرْضِ أَنْظَفُ مِنْهَا . عَلَيْهَا عَوْضُ الْبُورَادِ ^(٢) بِأَذْنَانِ بَسْتَةٍ . شَلْجٌ بَسْتَةٍ . خِيَارٌ بَسْتَةٍ
قَثَا بَسْتَةٍ . زَعْرُورٌ بَسْتَةٍ . أَحْرَقَ اللَّهُ بَسْتَهُ . فَمَنْ بَسْتَهُ ؟ ! أَمَّا الشَّوَاءُ . فِي مَائِدَتِكُمْ
فَهُوَ وَاللَّهُ قُلُوبُ الْحَاضِرِينَ .

وَأَرَى قَدُورًا تُطْبَخُ بِلَحْمِ الْبَقْرِ الْغَلَاظِ . لَا يَنْفَسُ لَحْمًا بِالْيَدَيْنِ . يَأْخُذُ أَحَدُكُمْ
قِطْعَةً مِنَ اللَّحْمِ يَهْدِيهِ . وَيَجْذِبُهَا بِأَسْنَانِهِ . فَيَرْتَشِّشُ عَلَى وَجْهِهِ وَلَحْيَتِهِ وَثِيَابِهِ . يَمَزُوجُ ذَلِكَ
اللَّحْمَ بِمَرْقٍ . يَجْرِي عَلَيْهِ الزُّورُوقُ . لَغُوصٌ يَدُ الْإِنْسَانِ فِيهِ إِلَى الْمَرْفَقِ . حَتَّى يَجِدَ اللَّحْمَ . . .
مِمَّا يَأْكُلُهُ الْوَقَادُونَ وَالزَّبَالُونَ . مَخْتُومًا ذَلِكَ كُلُّهُ بِالْعَنْبِ الْأَسْوَدِ . وَبِحَلَاوَةِ مَدْلُوكَةٍ
بِالْيَدِ . يَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ قُرُوبِي سَوَادِي ^(٣) كَهْلٍ . سِفَةٌ قَدَرُ الْجَمَلِ . بِلُجِيَةِ شَمَطَاءٍ
كَثَّةٍ . وَحَالَةٌ رَزِيَّةٌ رَائِيَّةٌ . يَهْدِيهِ أَقْطَاعُ حَطَبٍ . يَتَنَاوَلُهُمُ التَّغَالُ . ثُمَّ يُسَوِّقُهُمْ إِلَى
صَحْنِ الدَّارِ . وَيَجْمَعُهُمْ لِعَسْلِ الْإِيْدِي . عَلَى بِالْوَعَةِ تُخَشَّمُ وَاللَّهُ الْأَنْوَفُ مِنْ رَوَائِحِ
الْقَادُورِيَّاتِ الْمَجْمُوعَةِ فِيهَا الْخ .

وَلَا أَرَى فِي فَوَاكِهِمْ عَنَبًا رَازِقِيًّا كَأَنَّهُ مَخَازِنُ الْبُلُورِ . أَوْ ظُرُوفُ النُّورِ .
(وَرَازِقِيٌّ مُخَطَّفُ الْخُصُورِ كَأَنَّهُ مَخَازِنُ الْبُلُورِ)
(قَدْ مَلَأَتْ مَسْكًا إِلَى الشُّطُورِ وَفِي الْأَعَالِي مَاءٌ وَرَدٌّ جُورِي)
(لَوْ أَنَّهُ بَقِيَ عَلَى الدَّهْورِ قَرَّطُ آذَانِ الْحَسَنِ الْخُورِ)
وَلَا رِمَانَ مَرْمَرٍ . كَأَنَّهُ صُرَّرَ . قَدْ مَلَأَتْ بِالْجَوْهَرِ . أَوْ الْيَاقُوتِ الْأَحْمَرِ .

(١) جمع مدرى سن من عاج أو فضة يخص به الشعر وهو غير المشط ذي
الأسنان الكثيرة (٢) المشيمات والمقبلات (٣) منسوب إلى السواد أي
بلاد الفلاحين .

ولا مشمشاً كأنه زقاق ذهب . قد حُشيت عـلاً . ولا الكأثرى الشامي . والسلطاني .
والزرجون والنهالندي الخ .

انما أرى ساق أمروء . وبهم روء . ونار مرود . وسلم روء . قد أوجعتني
والله الرود . مما أكل التروء الخ .

ثم ذكر مجلس الشراب . فقال : ما أرى والله لكم مجلساً مسجوراً بالند : فروائحه
تبلغ الهواء . وتعبير الى دور الجيران . ولا منارة ملوكية . يزهر مرجها بخمسة
قنايل . يزيت شاي . لا أشم فيه زعارة ولا مرارة . يصلح للقذور المطجئات .
والقلايا المحرقات .

ثم وصف الندامى والخمور . فقال عن نبيذ أصفهان : انما أرى نبيذاً أسود كالديس
أو القيس : (في لون زنجي ونكهة أنجر) .

(إذا صب مسوده في الزجا ج فكأس النديم به بحجرة)

ثم وصف الساق فقال :

(بديرها ساق له ركة كأنه محلاج نذاف)

(بيده باطية ضخمة كأنها مغرارة إسكاف)

وربما كانت الساق شجاً أبيض الرأس والحية . كأنه بعض المؤذنين أو أحد
الحمامين . طعم الكأس من يده طعم الزقوم . والحفاه ! سقى الله ديارك كـ (١)
ومنازل كسرى وقيصر :

(وسلام على مواخير بصرى وأواناوالقنص والبردان (٢))

(ليت شعري مذغت عنها على كم قرر البائعون سعر الدنان ؟)

قال : ولا أرى في جلسائكم رجلاً ظريفاً . مستطاب النوادر . حلواً في القلوب

(١) كورة بين البصرة والكوفة (٢) الثلاثة أساء دساكر ومواطن لهو في
سواحي بغداد ويشبه تشوقه هذا تشوق ذلك الذي قال :

(ليت شعري متى تحب لي الد ساقه بين العذيب فالصبيون)

(محققاً ذكره وخير رفاق وجهاً وقطعة من نوب)

و (الحباقي) جرزة البقل .

وانما أرى طفيساً (١) بارداً . منفيهاً منقعة راً بشق في الكلام : إنا في عو بص اللغة .
أو يتبظوم بعلى النحو . ساط الله عليه العلل . ولا أقاله منها . تبحر في الحلق .
وشوك بين الأخمص والنعل .

ثم ذكر المغنين : فقال لاهل أصفهان : لا أرى والله في شبلكم مطرباً معرباً :
يقول الشعر الفصيح . ويكسوه اللحن الصحيح . مثل قوله :

(يأنس الشال من نحو بصرى بأني أنت لانسيم الجنوب)

(أنت لما اعتلت داريت جرحي بأنسيم الصبا بعرف الحبيب)

(فتأملت من ضنى كان بيني كل يوم علي منه طيبي)

(يا فتاة شابهها أمتع الله به حسنبا عدو مشيبي)

(انما أنت ظبية في كئاس ليس ترعى سوى ثمار القلوب)

(انما أنت شمس دجن على طا قة آس مغروسة في كئيب)

(والقي الله وارحمي ضر صبر ورث الضر فيك عن أيوب)

(وعلمي بالكافيابوسف الحسن أما تشقبن من يعقوب ؟)

ثم وصف مغنيات بغداد ثم قال : هذه أحوال لا أراها بأصفهان . انما أرى
قردة كأنها مسورة (٢) عرضية . أو غول طلع من بركة . شعر كالعين
المنفوش . ووجه كملت المنبوش . شعرها فضة . وثغرها ذهب . كأنها
طاقة نرجس !!!

فيقال له يا أبا القاسم ! أين يذهب بك ؟ فيقول أخطأت أو أصبت ؟ فيقال وكيف
أصبت ؟ فيقول نعم : رأسها أبيض . ووجهها أصفر . وساقها أخضر . أعجبكم
هذا ؟ ! ما من شيء والله حسن محمود . إلا وفيها منه شبه أو معنى موجود : لها من
البدر كفته . ومن الورد شوكته . ومن الحمار نهقته . ومن الطاووس زعقته .

(ولا أستطيع الكحل من ضيق عينها وإن عاجلته كان فوق المحاجر)

تحت حاجبين يسج منها غرائر . ويعقد شعرهما صفائر .

(١) أي قذراً نجساً (٢) أي مخدة طولها وعرضها سوا .

(ترى شبيهاً تحت القناع كأنه جدابيل لبك في هدية سحاج)

ثم قارن بين غلمان الخدمة هنا وهناك فقال : في غلمان أصفهان : وإنما أرى والله دُبّاً في طول المنارة . وعرض الغرارة . قد خرج عن حد الاعتدال . وذهب ذات اليمين وذات الشمال . بارد ثقيل . كأنه روثة فيل . عابس كأنه عض على بصلة . أو أكل قُبْلَةً . بوجه قطرب . كأنه أسعط بالخرذل . جهم كأنما أنضح وجهه بالخل . له وجه كأنما تبرقع بالخنادس . أو كُسي قشور الخنافس . أو حش والله من أيام المصائب . وليالي التوايب . وسوء العواقب .

(خلقت هجة أهل الزندقة صارت به أقوالهم محققة) الخ

(ذو صورة شوها . إن لم تكن قرداً ففي قاله مفرغة)

(ثلاثة ليس لها رابع هذا الفتى والعش والمدبغة)

انن والله من هدم ميت . في جورب عفن . أثقل من هم الدين . وامر من وجع العين . كأنه صورة على باب حمام ؟ . سطل دمشقي عروته منه ؟ الخ . ثم عاد إلى وصف مقتنيات بغداد . وذكر طرف من نوادره . وحسن أجوبته . فقالوا يا أبا القاسم ! لو نفذت ببعض تلك النوادر لكنت قد أتممت الانس بأحاديثك . فيذكر لم على سبيل المثال (زادمير ^(١)) جارية (أبي علي بن جمهور) وكان ابن جمهور هذا متزوجاً بابنة عم له . فكان منها بين جهرتين : تحرقه هذه بنارها . وتلدعه تلك بأوارها . فأسكن ابنة عمه واسط . وجاربه داره في البصرة . وذهب هو إلى بغداد . وبغداد جنة الموسر . وعذاب المعسر . وأقبل على اللهو ومواصلة السرور . ففجرت زادمير . وكتبت إليه كتاباً من البصرة : وهاكم نموذجاً منها :

أخبرني علي من تركني في دارك المشؤومة بالبصرة ؟ . عولت بي على ضياعك الخراب . أو على وكلائك السفل . والله ما أشبه دارك إلا بدير هرقل ^(٢) . وأنا

(١) أي بنت الشمس وهي كلمة فارسية . (٢) وهو الذي قال فيه الشاعر أيضاً :

(أولى الأمور بضيعة وفساد امر بديره أبو عبّاد)

(وكأنه من دير هرقل مقلت شرس يجر سلاسل الأقياد)

محبوسة فيه كبعض الجانين . لا يرجع علي شيء إلا من أجرة دورك . خمسة وثلاثون درهماً في الشهر . لو شربت بها فغداً ما كفتني : يا ابن جمهور ! عليك بفلانة وفلانة اللواتي يشبهنك . ويفخرن بك ويقان : كذا عند (أبي علي) تاجر السلطان العظيم الجليل . أنت يصلح لك مثل الحمار البهاء ابنة عمك : تكسر الجوز على رأسها ولا تجسر تكبك . فهي تظن أنك الوزير ابن الزيات . أو إبراهيم ابن المدبر . فأما (زادمير) التي تدقّك دق الكشك . وتهينك هوان الكشان . فليست من أمثالك . خأصني الله من ذنوبي كما خأصني منك ومن رؤيتك :

(أنا في نعمة ببعذك عني أكّد الله نعمتي بالدوام)

وحياة أنفك المعوج . وكللك المذنب . وشوابيرك ^(١) المذففة . لا كافيتك صاعاً بضاع : فلا تمضي شهر حتى يحجي مغموطاً مدهوناً . أضع يده في زعفران على الكتاب وأوجه بالكتاب إليك . ويحك يا ابن جمهور كأن ملحك على ركبك ^(٢) . نسيتني واشتغلت عني . ابعت لستك العزبة ثقفة . واحملها إليك إلى بغداد . حتى لا يضيق صدرها . واشتر لي بحياتي عوداً بمحاشية ساج . منقوشاً بعاج . ويكون ظهري دهباج . حتى أحيي أغني به . . . الخ .

ثم جعل يسي جوارى بغداد المشهورات واحدة واحدة . ويذكر شيئاً مما كن يغتن به من الشعر . فيطرب لساعين شعراء بغداد وأدباؤها . مثل (ابن الحجاج) و (ابن نباتة) وغيرهما . ثم يقول : فلو ترون كيف كان يطرب (ابن غيلان البزاز) على ترجيعات (ريجانة) جارية (ابن البزدي) إذا غنت :

(١) مقلوب شوارب وهي لغة عامة بغداد شيء ذلك الحين . وعامتها اليوم يتلاعبون بالانفاط كذلك فيقولون : تحتر به وأصله تحرش به ويقولون : ريقان مكان يرقان . و (رقعته كف) مكان (قرعه كف) ومعاقبة مكان ملعقة وهكذا .

(٢) كناية عن قلة الوفاء فإن الركبة لا تمسك الملح ومنه قوله الآخر :

(لا تلمها إنها من نسوة ملجها موضوعة فوق الركب)

(أعط الشاب نصيبه مادمت 'تعدّز بالشباب)

(وأنعم بأيام الصبا وأخلع عذارك في التصالي)

فيقول له قائل : أيش كان يعمل ابن غيلان اذا جمع هذا الغناء فيقول : لنقلب حاليق عينيه . ويسقط مغشياً عليه . وهات الكافور . وماء الورد . ومن يقرأ في أذنه آية الكرسي . والمعوذتين . ويرقيه بشراهما مراهيا . أيش يعمل ؟ هكذا يعمل يا بارد ؟

أو لو رأيتم طرب (ابن غسان النصراني) اذا سمع حباية جارية ابي تمام الرزيني وهي تغني :

(وحياة من أهوى لاني لم اكن أبداً لأحلف كذباً بحياته)

(لاخلق عواذلي سيفي لذني ولأسعدت أخلي لذاته)

فيقولون له : هذا ابن غسان زيادة !! اي رجل كان يا ابا القاسم ؟ فيقول : هذا ابن غسان كان فتي مليحاً . ظريفاً . حسن الادب . محذفاً فيما بين الاطباء . وهو الذي يقول في ابي مضر العاقل . وقد عاجله من علة فلم يقض حقه :

(هب الشعراء تعطيهم رفاقاً مزورة كلاماً سيفي كلام)

(فلم صفة الطيب تكون زوراً وقد أهدي الشفاء من السقام)

وكان آخر امر المسكين أنه غرق نفسه في (كرداب كلواذا) وذلك لاسباب اجتمعت عليه : من صغر اليد . وسوء الحال . وجرب أكل بدنه . وعشق حرق قلبه . حتى جرت الى نفسه حينها بما اقدم عليه .

ولا يزال ابو القاسم يذكر المغنين . ويعدد الادباء الذين كانوا يطربون بغنائهم حتى يجتم هذا بقوله :

ولو ذكرت هذه الاطراب من المستمعين . والاغاني من الرجال والصبيات والحواري والحرائر لطلال ومل . وكنت كالمزاحم ابن صنف (كتاب الغناء والالخان) . واعهدي بهذا الحديث سنة ست وثلاثمائة وقد أحصيت انا وجماعة سيفي الكرخ اربعائة وستين جارية في جانبي دجلة . وعشر حرائر . وخمسة وسبعين من الصبيان .

(١) يريد بصفة الطيب ما نسميه اليوم (وصفة) أو (راشته)

يجمعون من الخندق والظرف . ما يفوت حدود الوصف . هذا سوى من كنا لانظر بهم . ولا نصل اليهم لعزتهم وحرسهم ورقبائهم . وسوى من كنا نسمعه ممن لا يظاھر بالغناء والضرب الا اذا نشط في بعض الاوقات (١) .

ثم يطلب ابو القاسم من صاحب الدار ان يعي له طعاماً . وقبل القيام اليه يلعب بالشطرنج مع بعض الحاضرين فيجري بينهما وهما يلعبان كلاماً لا يمكن أن تجمعه نحن اليوم لانه يتعلق بكيفية لعب الشطرنج في ذلك العهد . وقد استغرق وصف ذلك نحو ست صفحات من الكتاب .

ثم يقومون الى المائدة فتقدم اليهم ألوان الطعام واحداً واحداً . وهو يصف كل ذلك . ويورد ما شاء وشاءت براعته من النكت والنوادر . وفي خلال ذلك يذكر الطبّاخ . وما يجب ان يجمعه من الاوصاف فيقول :

والله لقد رأيت ببغداد في دور بني معن طبّاخاً حبشياً اسمه (نارنج) ما اظن آني شاهدت مثله : كان والله عتوان النعم . وترجمان المروءة . وطبيب الشهوة . أحذق من رؤي من اهل صناعته . واردهم سكيناً . واعدهم نقطيعاً . واذكاهم ناراً . واطههم أزراراً . كانت الموائد التي يعتيها . والثرائد التي يتنوّق فيها . رياض مزخرقة . او برود مغوّفة . كانت لا يجمع بين لونين . ولا يوالي بين طعمين . يخالف بين طعام الغداء والعشاء . ويباعد بين ألوان الصيف والشتاء . يكني بالحظّة . ويفهم بالاشارة . كأنه مطامع على ضمير الضيف والمضيف . كان والله يطبخ ما يوقظ شهوة النعسان والتمكّلان والمغموم . وكان اذا فرغ من إعداد الطعام يقال له (يا نارنج الى أي شيء تحتاج ؟) فيقول : الى قوم جياع .

ويجري على المائدة ذكر اثنين من فضلاء بغداد . فيسأل عن رأيه فيها وأيعا

(١) وذكر القاضي ابو علي الحسن النوخني المتوفى سنة ٣٨٤ في كتابه (التلّوار)

كلاماً عن عمران بغداد فقال : أحصي ما يزرع وينفق على أهلها من صنف الخس فوجد بخمسين الف دينار . فما ظنك ببلد يؤكل فيه في فصل من فصول السنة صنف واحد من صنوف البقل بخمسين الف دينار !!

افضل ؟ فيقول : بينها من البعاد . ما بين التجار والوهاد . ما بين الناهق والصال .
والناقص والفاضل . ما بين اللؤلؤ والمرجان . واللفت والباذنجان . من يسوي بين
رجل اغرر من البحر . ولو ضح من البحر . وبين آخر أبيض من القفر . وأوحش من
القفر . ذا والله أخف من النسيم . وذا أثقل من منة اللثيم . ذا أخشن من الخناجر
على المناخر . وذا أحسن من الخاجر في المعاجر . وذا سعد السعود . وذا سعد النايح
ذا والله أندى من القطر . وذا أجهد من العجر . ذا أعز من النبر . وذا أذل من
البر . ذا عود شقي مواضع السجود . وذا عود . نجور لحش اليهود .
ثم يقومون الى مجلس الشراب . فتصف الرياحين . ثم الفواكه . ثم القناني .
فيأله واحد يا ابا القاسم ! وهل تعرف شيئا من السباحة ؟ فيقول يا أحق ! وسوادي
لا يحسن أن يركب البقر ؟ وتركى لا يحسن أن ينزع في القوس ؟ أنا والله اسبح من
الصفدع . ومن النين أعرف من السباحة انواعاً لم يحسنها قط ستمك ولا بط :
أعرف منها الشق والموزون والمقرقص والذرع والعمر والاستلقاء والشككي .
والطاووسي والعقري . وكنت أستاذي في جميعها ببغداد (ابن الطوا)
(الزنابري) .

ثم يسألونه عن السفن والملاحين . فيعدد لهم انواعها . ويصف لهم ملاحاً سمعه يوماً
يخاطب رجاله أثناء الاستعداد للسفر : فذكر من ملابسه وأدوات سفينته واصطلاحات
مهنته ما لا يتسع الوقت لذكره بل لا نقه لو سمعناه .

ثم سأله سائل عن داره فأجابته : ويحك ! أيش تعمل بداري ؟ هي في سكة الجوهرى .
دار أسست على غير التقوى بحمد الله .

(فان ترد دار الخنا والحبوب ومعدن العصيان والذنوب)

(وموطن العادات والعيوب فاعدل اليها تحظ بالمطلوب)

ثم يأخذ في فنون من الحديث . ويسلك منه مذاهب مختلفة . حتى يسمع حديثاً
لبعض الحاضرين فيعجبه ويقول : ذا كلام كبير الشراب . ويرد الشباب . قطع
الزهر وعقد السحر . حسن الدهاجة . صافي الزجاجة . هو كالشمرى بالولد الكريم .
الى سمع الشيخ العظيم .

ويبلغت الى آخر يتكلم . فيذم كلامه قائلاً : ذا كلام أثقل من الجندل . وامر
من الخنظل هذيان المحموم . وسوداء المهوم . بمثله يتسلى الاخرس عن كآبه .
ويفرح الاصم بصممه . كلام انعز الاجماع من حذوته . وتغير الاوهام
من وعورته .

ثم يمدح بعض الحاضرين فيقول : شجرة طيبة أصلها في الماء . وفرعها في السماء .
أحلى والله من الوبل . في زمن الخلق . الخلق وصحي . والخلق رضي . والفضل
مضي . نحاسن انا والله منها في روضة وغدير . بل في جنة وحري .

ثم يبلغت الى آخر فيذمه قائلاً : كالكمأة لا اصل لها ثابت . ولا فرع ثابت .
لو قذف والله الليل بلومه . لطفت أنوار نجومه . هو في العين قذاة . وبين النعل
والاخص حصاة . الخس يطلع من جبهته . والخل يقطر من وجنته . ثم يخاطبه
قائلاً (رجلاً) :

(يا رفسة البغل على الطحال يا صفة بالنعل في القفال)

(يا لسعة الزنبور سيف الماقي يا غداة البين على العشاق)

(يا جمعة الحرة بالطلاق يا نهشة الافعى بلا ترياق)

(يا قبح شيب لاح في نضول يا كل شيء وحش مهول)

(يا شوكة في قدم رخصة ليس الى إخراجها من سبيل)

(يا حيرة المكروب في امره ويا صعود السمر عند المعيل)

(يا نهضة المحبوب في غفلة يؤذن فيها باقتراب الرحيل)

(يا رجعة المحروم من سفرة لم يحظ فيها بنوال المنيل)

(بل يا كتاباً جاء من مخلف للوعد مشحوناً بعذر طويل)

(يا دبله في الفؤاد قد تغلت من أسف قاتل ومن كند)

(يا ورمًا في المعى يدل على برد مزاج الطحال والكبد)

(يا فرحة سيف ناظره غلطوا عليها بالترور)
 (فخلخت مع ما يليها في الجفون من البثور)
 (يا غمة الكناس من شم الزرائر^(١) والعير)
 (يا سفرة سيف دجلة والريح تلعب بالجسور)
 (يا جلعة في شمس آب على الصخور بلا حصير)
 (تحت السما والشمس تو قد نار ما حر الهجير)
 (يا كل شيء متعب متعقد صعب عسير)
 (يا شؤم بخت شقية قد عمّرت عمر النور)
 (شق القوابل صدعها عن تسعة مثل البدور)
 (حتى إذا شربوا لها وتلاحقوا مثل الصقور)
 (وقعت عليهم شيرة^(٢) بالطول في يوم مطير)
 (فرأتهم ولحومهم في الدار تجرف بالمرور)

يا أول ليلة الغرب . اذا بعد الحبيب . يا يوم الاربعاء في آخر صفر . يا ثقل الكايوس في وقت السحر . يا وجه المستخرج^(٣) في يوم السبت . يا إفطار الصائم على الخبز البحت . يا أثقل من طفلي يعرّب على الندماء . ويقترح انواع الغناء . ويتشقى بعد أكل الغداء . طالباً ألوان الصيف في الشتاء . يا أشد على الاحرار من جفاء الحجاب . وعبوس البواب . وسوء المنقلب والاياب . يا أشد من كربة صاحب المتاع الكاسد . وضجرة المستمع الى المعنى البارد . يا أكره من هجران الصديق . ومن النظر الى زوج الأم على الربق :

(حوبت الشؤم حتى الك - ف عن صفك قد ننبو)
 (وحتى السحب انت جاور تنها لم تمطر السحب)
 (وحتى لو صحبت الوح - ش لم ينبت له عشب)
 (متى سميت إنسانا فان الناس قد سبوا)

(١) الدرائر الطيوب والعطور . (٢) اي صخرة وقد تقدم القول على هذه السكة في فاتحة المحاضرة . (٣) هو المحصل اي الجاني وبالتركية (التحصلدار) .

و يذكر أبو القاسم أصدقاؤه فيسأله أحد الحاضرين كالمستهزئ : ومن هم أصدقاؤك ؟ فيقول - وقد جن جنونه - وتوقدت بالغضب عيونه : « واللك ! أصدقاؤي أكثر من خوص البصرة . وبلوط الجبل . وخردل مصر . وعدس الشام . وحاصل الخيرة . وشوك القاطول وحنطة الموصل . ونبق الاهواز . وزيتون فلسطين . واللك ! أصدقاؤي » مخططة ابن أبي البغل » و « موسى ابن سلحة » و « جعيف بن الكلبة » و « كردويه بن وردان » و « عاقول الارمني » الخ الخ .

ولك ! أنعرفني أم لا ؟ انا الموج الكدر . انا القفل العسر . انا الباقعة الشاطر . انا قلاع القناطر . والله في اضمك في جبي وانساك حتى تعفن . أقطع رأسك واجعله زر فيصي . استنشك فلا اعطسك الا في الجحيم . وابلعك فلا الفظك إلا على الصراط المستقيم .

عندها ضحك الحاضرون ضحكا عاليا . ثم خافوا ان يغضب أبو القاسم وبادروهم بالسباب . ففضلوا الرحيل . وابتدروا الابواب .

انتهى ايها السادة ما استحسنتم عرضه عليكم من عبارات هذه المقامة . ومختلف اساليبها في الانشاء وحسن التصرف والبراعة في الثفن . وأرى ان هذا الثفن في النقد هو الذي أجاد فيه من المعاصرين العلامة احمد فارس في كتاباته لاسيما كتابه (الناريق) وكذلك ابراهيم بك المولي في كتاباته لاسيما كتابه (ما هنالك) وهو ابو محمد بك المولي صاحب الكتاب الخيالي المشهور الذي سماه (عيسى بن هشام) وربما سبقهم في هذا المضمار الفاضل احمد فؤاد المصري صاحب (جريدة الصاعقة) ولا يصح ان ننقل هنا ايضا ذكر الكاتب المصري المعروف في دمشق (محمود بك زكي) فان هؤلاء في عصرنا الحاضر يشبهون في طريقته في النقد - ابا المطير الأزدي صاحب هذا الكتاب . وهذه الطريقة وصفوا بها (ابا محمد الاعرابي) المعروف بالاسود الذي تصدر في القرون الخامس للرد على العلماء والاختذ على القدماء قال ياقوت عنه : كان علامة تامة عارفاً بأيام العرب وأشعارها لا يقنعه أن يرد على أهل العلم رداً جميلاً انما يجعله من باب السخرية والتهكم وضرب الامثال . فالكتاب على هذه الطريقة يستعمل الكنايات والامثال

والفطن في الوصف والتشويق في الكلام مفرغاً كل ذلك في قالب التهمك بخصمه والتخجيل له .

وللمعري في رسالة العفران أسلوب في النقد التهمكي يشبه أسلوب (حكاية أبي القاسم) . من ذلك قوله يصف كتاب (الناسخ) الذي وضعه ابن الراوندي معارضاً به القرآن — وأما نأجه فلا يصلح أن يكون نعلًا . ثم قال : (وهل نأجه إلا كما قالت الكاهنة : أف وتنف . وجورب وخف . قيل وما جورب وخف ؟ قالت : واديان في جهنم اه . ويعني المعري أن ما ذكره ابن الراوندي في كتابه الناسخ مختلف وصرف للحقائق عن وجهها كما فعلت الكاهنة مذ زعمت أن (الجورب والخف) هما واديان في جهنم . وزعمها كذب صراح .

(المغربي)

الكتب والمطالعة (١)

أقبح على الإنسان حين الدهر لم يكن فيه يعرف الكتابة ولا يفكر إليها لاقتصاره على بساطة العيش واكتفائه ببعض اشارات والفاظ للدلالة على ما يريد من المعاني . ثم لما تحسنت احوال معيشته وارتفعت شؤونه الاجتماعية شعر باحتياجه الى نقل معانيه من مكان الى آخر وتداول افكاره واعماله وحوادث حياته ليطلع عليها من يأتي بعده واشتدت به الحاجة والحاجة أم الاختراع فاخترع الكتابة في زمن مجهول لم يستطع العلماء ان يتوصلوا الى معرفته مع كثرة البحث والتقصي .

وكانت الكتابة في اول امرها صورية اي قائمة بصور تدل على المعاني ثم تحولت على توالي العصور الى صوتية اي قائمة بعلامات تدل على الصوت البشري . اما الصورية فكانت على ثلاث درجات : الاولى ما كانت فيها الصور تشابه مصوراتها مشابهة حقيقية كصور الرجل والمرأة والطفل والحمل والكلب والذئب والزهرة والشجرة والسكين والفأس وغيرها للدلالة على هذه المذكورات بعينها .

والثانية ما كانت فيه الصور تشابه مصوراتها مشابهة مجازية كصورة رأس رجل على بدن اسد للدلالة على الشجاعة . وصورة امرأة حامل يدها حمالة للدلالة على الوداعة . وصورة ريش الطاووس في الخط المبروغلي للدلالة على الصدق .

والثالثة ما كانت فيها الصور غير مشابهة لمصوراتها وانما هي كنايات عن المعاني التي يراد التعبير عنها كصورة الطائر صاعداً او نازلاً للدلالة على الصعود او النزول . وصورة الساقين للدلالة على المشي او الركض وصورة العين والماء بقرنها للدلالة على البكاء . فهذه الصور الحقيقية والمجازية والرمزية توصل الناس الى التعبير عن الدوات والمعاني والعلاقات التي بينها . ولكنهم وجدوا ان هذا التعبير قاصر كثير

(١) خلاصة محاضرة للاستاذ السيد انيس سلوم القاها في ردهة المجمع العلمي في ٢٧

تشرين الاول سنة ١٩٢٢ م .

الغموض والالتباس حاولوا ان يجدوا طريقة اسهل واوضح منه وما زالوا يعملون افكارهم حتي تيسر لهم الانتقال الى الكتابة الصوتية او اللفظية . وهذه ايضا كانت على ثلاث درجات : الاولى ما كانت فيها كل صورة او علامة تدل على كلمة كاملة فاستلزمت ان تكون العلامات فيها كثيرة على قدر كلمات اللغة كما في الخط العيني والخط المكسيكي .

والثانية ما كانت فيها كل علامة تدل على مقطع واحد كما في الخط الحبشي والمراد بالمقطع حرف متحرك او حرفان اولهما متحرك والثاني ساكن فقل فيها عدد العلامات بحيث لم يتجاوز خمس مئة علامة كانوا يكتبون بها كل كلمات اللغة كما تبين من كتابات قدماء الاشوريين والبابليين .

والثالثة ما كانت فيها العلامات تدل على ايسر الاصوات البشرية لا على المقاطع وهذه العلامات صارت حروفاً سمي مجموعها بحروف الهجاء او حروف المياني وهي التي نستعملها اليوم . وبواسطة الكتابة الصوتية وتسجيل الحوادث واسماء محدثيها وزمن حدوثها ابتداء عصر التاريخ البشري الحقيقي وكان لهذا النوع من الكتابة شأن عظيم في تمدن الجنس السامي مدة اربعين قرناً . اما الحروف الهجائية فلا يعلم بالتحقيق ايسر الشعوب اخترعها فقد قيل ان مخترعها المصريون وقد عثر من عهد قريب على كتابات ترجع هذا الرأي وقيل الكلدانيون وقيل الهنود وقيل العرب وقيل الفينيقيون والقول الاخير هو المرجح عند الاكثرين لان الفينيقيين هم الذين نشروها في الشرق والغرب فانهم كانوا اشهر امة باتساع متاجرهم وطول اسفارهم فاشاعوا استعمال هذه الحروف بين العبرانيين والعرب والهنود ثم حملوها الى اليونانيين فشاعت عندهم ثم انتقلت الى الرومانيين والاسبانيين والسلاف القدماء والجرمانيين وغيرهم وكان لها شأن عظيم في تمدن الجنس الآري مدة ثلاث آلاف سنة .

اما المواد التي كانت القدماء يكتبون عليها فكانت مختلفة باختلاف الشعوب والازمنة والامكنة والاحوال فالمصريون كانوا يكتبون الحوادث على صفحات الجبال وحجارة الاهرام وغيرها ولما اشتدت حاجتهم الى الكتابة وشعروا بصعوبة النقش في الحجارة اخذوا البردي المعروف بالبايبروس (وهو نبات كان يكثُر في المستنقعات

على ضفتي النيل وفروعه) وتالجوء بما يجعله صالحاً للكتابة وكتبوا عليه ما شاؤوا . والاشوريون كانوا يكتبون حوادثهم على الواح من خزف قبل ان يشوي ثم يشوونه ليبقى متيناً على عمر الازمان . واهل الهند كانوا يكتبون شؤونهم واغراضهم على نسج من حرير . والعينيون كانوا يطبعون كتبهم على قطع كبيرة من الخشب يصورون على اوجها الحروف بالنقر . واهل المكسيك كانوا يحفظون تاريخ بلادهم ومعارفها على منسوجات قطنية مصبغة بالوان مختلفة مرسوم عليها احرف وعلامات غريبة . قال احد المؤرخين « لما فتح الاسبانيون بلاد المكسيك وجدوا فيها كتباً قديمة وكتابات ورسوماً وصوراً في المنسوجات وجلود الحيوانات وقشور الشجر وسجلات قديمة فالتفتوها غير مبقين على شيء منها ويطن انه لو كانت هذه الآثار باقية الآن لتوصل العلماء الى حل رموزها وعرفوا اصل الامة المكسيكية وتاريخها وكيف وصلت الى العالم الجديد » . واليونانيون والرومانيون والعبرانيون كانوا يكتبون الحوادث على الرقوق المتخذة من جلود الحيوانات وبقيت الرقوق تستعمل للكتابة بعد ظهور الورق الباقي بقرون عديدة وفي مكاتب اوربة وسجلات وعقود واحكام وغيرها كتبت على الرق بعد القرن العاشر للميلاد . ويقال ان رقيق الغزال لا يزال مستعملاً عند بعض الفقهاء لهذا العهد . اما العرب فكانوا يكتبون على عسب النخل والواح العظام وبعض انواع الحجارة المعقولة التي كانوا يجدونها في بواديهم (وعرب وادي الفرات وبلاد اليمن كانوا يكتبون على الحجارة الصلبة ايضا) . ولما انتشروا في البلاد في عهد الخلفاء الراشدين اخذوا عن ادملها اساليب الحضارة واخضعوا الى التبسط في الكتابة فكثروا في بغداد على الحرير وفي مصر على البردي ثم استخدموا الجلود بعد ترفيقها ثم لما طاب بحر التأليف والتدوين وكثرت ترسيل السلطان وصكوكه وضافت الرقوق عن ذلك اشار الفضل ابن يحيى بصناعة الورق وصنعه وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه واتخذها الناس من بعده صحفاً لمكتوباتهم السلطانية والعلمية وبلغت الاجادة في صناعته ما شامت وكانوا يسمونه بالكاغد على ما ذكره ابن خلدون ثم سمي بالقرطاس ثم شاع اسمه المستعمل اليوم وهو الورق وما الورق في الاصل الا اسم لما يخرج غالباً على الاغصان ويكون للنبات بمنزلة الرئة للانسان .

قال أحد علماء العرب : « الورق لم يوجد في الكلام القديم بل هو اسم لجلود رقائق يكتب فيها وهو مستعار من ورق الشجر » . وقد كثر استعماله وانتشرت له معامل في سمرقند وبغداد والقاهرة ودمياط ثم انتشرت صناعته في الشام وشمالي افريقية وانتقلت منها الى بلاد العرب فضررت فيها اطنابها وارقت فيها ارقاؤها باهراً لهذا العهد . وقد نظر بعضهم في معامل ورق الارض فوجدوا نحو اربعة آلاف معمل يصنع فيها كل سنة نحو الف الف وسق انكليزي من ورق الخرق وورق التبن او ببس العشب وغيره وينفق نحو نصف ذلك في المطابع وينفق من هذا النصف نحو ثلاثمائة الف وسق مطبوعاً جرائد مختلفة والنصف الآخر ينفق في اعمال ارباب الحكومة والمدارس والتجارة وغيرها الا ان الفضل في ادخال هذه الصناعة الى بلاد العرب راجع الى مستبطينها الاولين وهم العرب كما كان الفضل في ادخال الحروف العجائية اليها راجعاً الى الفينيقيين سكان هذه البلاد الاقدمين .

واول قلم كتب القدماء به هو الازميل الذي كانوا ينقشون به ما يريدون كتابته نقشاً في صفائح الحجر والخزف والمعادن ثم استعملوا اقلاماً محددة الرؤوس من الحديد والنفاس والفضة والعاج وكانوا يكتبون بها على صفائح الرصاص والخشب والشمع ولما أبدلت تلك الصفائح بالرفوف المصنوعة من جلود الحيوانات والقراطيس المصنوعة من البردي واوراق الشجر أبدلت اقلام المعدن باقلام القصب ولم تزال مستعملة في الشرق الى هذا اليوم . اما اهل الغرب فأبدلوها باقلام من ريش الاوز ثم باقلام معدنية ثم تفتنوا فيها تفتناً بديعاً حتى اخترعوا آخر اقلام الحبر وهي التي يوضع الحبر فيها فيستغنى بها عن الدواة وقد سماها بعضهم الاقلام المدادة اي ذات المداد وهو الحبر . وكان حبر القدماء ماء الصمغ والشمع او الكائن وهو (لغخ الدخان) قيل ان كتبة اليونانيين والرومانيين كعرجيل وزينفون كانوا يكتبون رواياتهم وقصائدهم بذلك الحبر .

وكانت الكتابة شائعة بين الامم الشرقية القديمة في وادي النيل ووادي الفرات وسورية وبلاد العرب والصين والهند وغيرها وذكرت في اقدم اسفار التوراة وهي

اسفار موسى الكليم وسفر ابوب الصديق باسلوب يدل على انها كانت معروفة منذ زمان قديم .

واقدم الخطوط التي اكتشفها علماء الآثار الخط المصري المعروف بالهيروغليفي والخط الكلداني المعروف بالاسفيني او المسماري والخط الحيري المعروف بالمسند اما الخط الحثي فهو من نوع الهيروغليفي الا ان معناه لم يكشف الى الآن .

واول من غني بجمع الكتب سرجون الاول الذي انشأ مملكة بابل القوية قبل المسيح بنحو اربعين قرناً وكانت ظهيراً للعالم لجمع كتب العصور الخالية وتحتها ووضعها في المكتاب العظيمة التي شادها او كبرها وهي اقدم المكتاب واثنائها . وذكر ديودورس المؤرخ الصقلي ان احد ملوك المصريين من الاسر الاولى انشأ مكتبة في قصره بمدينة طيبة عاصمة ملكه وكتب فوق بابها « هنا دواء النفوس » .

وفي عهد ملوك الاسرة السادسة في مصر قبل المسيح بنحو ثلاثة آلاف سنة كان احد كتاب الدولة يتفخر بأنه تولى ادارة الكتب في المكتبة الملكية وطلب الى ذويه ان ينقشوا ذلك على قبره لتتويهاً بفضلهم واحياء لذكراه . وقد عمت العناية بالكتب اكثر الشعوب القديمة كالاشوريين والفينيقيين والحثيين والعبرانيين والعرب والفرس والهنود واليونانيين والرومانيين وغيرهم وبواسطتها حفظت اقوال الفلاسفة في كل العصور فمن المكتاب القديمة المشهورة عند اليونان مكتبة اثينا التي احرقها دارا ملك الفرس حينما اجتاحت بلادهم وقيل انه نقل كتبها الى بلاد فارس .

ومكتبة جزيرة ساموس التي انشأها بوليكرات . ومكتبة اريسوطاليس التي استولى عليها تيوفراستس واشتراها بطليموس فيلادلفوس ونقلها الى الاسكندرية عاصمة ملكه . وكانت مكتبة الاسكندرية اشهر مكتاب العالم بلغ عدد مجلداتها سبعمائة الف مجلد على رواية وتسعمائة الف مجلد على رواية أخرى .

ومن عجيب ما روي عن بطالسة مصر انهم كانوا ينسخون كل كتاب يصل اليهم على نفقتهم ويأخذون من كل اجني يدخل مصر كتبه وينسخونها بكل ضبط ويعطونه نسخها ويضعون الكتب الاصلية في مكتبة الاسكندرية المارذكراها ويدفعون الى صاحبها مالا يرضيه . وكانت العرب من اشد الامم الشرقية ولوعاً

بالكتابة وجمع الكتب فتركوا آثاراً كثيرة من كتاباتهم في أرض بابل كشرائع حمورابي الذي أنشأ الامبراطورية البابلية القديمة (نحو ٢٢٥٠ ق م) وكانت هذه الشرائع منقوشة بالحرف السامري على مسلة من الحجر الأسود الصلب وهي من أقدم الكتابات التي وصلت إلينا وأقدم الشرائع المعروفة لهذا العهد. وكذلك تركوا آثاراً من كتاباتهم في بلاد اليمن وغيرها مما لا تطيل باستيفائه.

ولما توفرت لنسيم الأسباب المادية والعقائمية ابدعوا في التصنيف واغربوا سيفي التأليف وأولعوا بجمع الكتب وتطلبها من كل حذب وصوب وأول من اعتنى بذلك الخلفاء الأمويون بدمشق فأثأروا المكاتب وانتقوا عليها الأموال الطائلة ووقفوا لها الأوقاف الكثيرة فانصب أهلها على العلم فالتحقوا وأنبع منهم عدد وافر من العلماء الاعلام. ثم جاء بعدهم الخلفاء العباسيون فملاوا بغداد بجزائن الكتب النفيسة ونقلوا إلى اللغة العربية كثيراً من كتب اليونانيين والهندود والنرس وغيرهم فازهرت فيها اشجار التمدن وابتعت اثمار الحضارة. ولولا عنايتهم بجميع مصنفات اليونان والسريان وترجمتها لما بقي منها بقية في الشرق كله الا ما كان في كنيسة يوحنا المعمدان بدمشق من الكتب اليونانية والسريانية فان المسلمين لم يستوها عند فتحهم المدينة. ولما حول عبد الملك بن مروان الكنيسة إلى جامع جعل هذه الكتب في قبة مقام النبي يحيى (يوحنا) فبقيت محفوظة لم ينقد منها شيء إلى ان فتحها الالمان باذن السلطان عبد الحميد وقيل انهم نقلوا كثيراً من كتبها إلى برلين.

ولم يكن الخلفاء بالاندلس اقل عناية بجمع الكتب من العباسيين بل جمعوا منها مئات الألوف. قيل ان عبد الرحمن الأموي حشد في قرطبة من افرقية وبلاد فارس ومصر والافاق العربية نحو اربعمائة الف مجلد وقيل ستائة الف مجلد كتبت اسمائها في اربعين مجلداً وكان بالاندلس عدا هذه المكتبة سبعون مكتبة عامة وكان فيها ايضاً مكاتب خاصة بعضها كبيرة جداً. قيل ان احد علماء الاندلس رفض دعوة سلطان بخارا له لان حمل كتبه كان يقتضي اربعمائة جمل ولعل في ذلك مبالغة غير ان فيه دليلاً على كثرة كتب ذلك العالم واتساع مكتبته وهو رجل واحد فقط فما أكثر عدد الكتب التي كانت عند باقي الناس في قرطبة وغيرها من بلاد الاندلس.

وكان في مكتبة الفاطميين بالقاهرة مئة الف مجلد وقيل مئتا الف مجلد وفي قصر الخلافة اربعون خزانة فيها من الكتب انفس النواذر واثمن الدخائر وكانت الخليفة الفاطمي يتردد على المكتبة العامة فيجيئ اليها راكباً ثم يترجل عندها ويدخل غرفها فيطالع ما يشاء ويجول بين المطالعين ينقد شؤونهم ويلاحظهم فكان احسن مشجع على مطالعة الكتب باقواله ومثاله. وكان بين بغداد والقاهرة مسابقة علمية ادبية اذ كانا يتباريان الى العلم وتنافسان في اقتناء الكتب المفيدة استئثاراً بالفضل. ومما يروى ان ابناء العراق اوفدوا رجلاً إلى مصر فالتقى مع احد علمائها على اتياع عشرة آلاف مجلد من نفائس كتبه العربية وهي ثلث مجموعته. وانصل الخبر بوزير مصر الافضل فاستكبر الخطب واستنكره وقال كيف تحرم مصر ذخايرها وهل يصح انتقال كنوزها إلى غيرها ونحن احق بها واهلها اعرف الناس بقدرها ثم بعث من ماله الخاص إلى العالم المصري بحملة الثمن الذي ساومه عليه رسول العراق ونقل الكتب إلى خزانته وكتب عليها القابه. وكان في مكتبة ابي الفداء المؤرخ الشهير سلطان حماه مالا يزيد عليه من الكتب المختلفة النفيسة وكان في خدمته نحو مئتي عالم وفقه واديب وفيلسوف وكاتب. وكانت في مكتبة آل عمار في طرابلس نحو مئة الف مجلد وقيل ثلاثة آلاف الف مجلد ولكن ذلك مما لا يصدق. وبالجملة كان في كل البلاد الشرقية والغربية العربية مكاتب عامة ومكاتب خاصة حوت الوف الألوف من الكتب النفيسة ايام كان اقتناء الكتب يستلزم النفقات الطائلة لصعوبة تحيها قبل اختراع فن الطباعة فابن ذهبت تلك النفائس! يجوزنا ان نقول ان أكثرها ذهب طعمة للنار وان كثيراً منها نقل إلى مكاتب اوربة وبعضها لانعلم اسماءها ولم يبق في بلادنا الا العدد القليل. ومن ذلك ما في دار الكتب في مصر ودار الكتب بالاسكندرية ودار الكتب بدمشق وما في بعض المكاتب الخاصة كمكتبة احمد تيمور باشا ومكتبة احمد زكي باشا بمصر ومكتبة الاستاذ السيد محمد كرد علي بدمشق ومكتبة الاستاذ السيد عيسى المعلوف بزرحلة وبعض مكاتب في بيروت وحلب وغيرها من مدن سورية.

اما الغربيون فعنايتهم اليوم بتأليف الكتب وجمعها أوضح من ان توضح في فرنسا فقط ثلاثون الف مكتبة وقلما تخلو مدينة فيها من مكتبة او مكتبتين وفي مدينة

باريس وحدها عدد الكتب اربعة اضعاف عدد السكان . وعدد الكتب في برلين مضاعف عدد سكانها وعدد الكتب في لندن مساو لعدد سكانها او يزيد قليلاً . وقد عم الولوع بجمع الكتب كل الافطار الغربية فلا مملكة فيها ولا مدينة ولا قرية خالية من الكتب وقد اصبح جمع الكتب فرضاً على كل مذهب والمكاتب من لزوميات القصور الفخمة فكل قصر لا توجد فيه مكتبة كبيرة يحسب ناقصاً اهم الرياش والدخائر والنفائس ولم يقتصر الغربيون على العناية بجمع الكتب الغربية بل عنوا ايضاً بجمع الكتب الشرقية ولا سيما العربية فقد زينوا بها مكائهم وطبعوا كثيراً من نفائسها النادرة وحرصوا عليها اكثر من حرص العرب في هذا العصر على ما عندهم من آثار اجدادهم . ولم يزل اغنياؤهم يهبون الاموال الطائلة لنشر الكتب وتأسيس المكاتب في اوطانهم وغيرها تعميماً للعلم . ان كارنجي وحده أسس في سنة واحدة باميركا ٧٥٠ مكتبة وزاد عليها مثل هذا العدد في السنين التالية لها .

واعظم مكاتب الدنيا اليوم مكاتب لندن وفيينا ورومية وبرلين وبطرسبرج وستوكهولم والاسكوريال في مدريد . واغنى المكاتب بالمخطوطات القديمة مكتبة الفاتيكان في رومية ثم مكتبة باريس ولندن .

والذي ساعد الغربيين على زيادة نشر الكتب فن الطباعة التي بواسطتها امكنهم ان يطبعوا في ساعة واحدة ما لا يمكن نسخه في شهر بل في سنة . ومن يقدر ان يحصي الكتب التي تطبع كل سنة في انحاء العالم . ففي بلاد الانكليز وحدها طبع في سنة واحدة اكثر من مئة الف الف مجلد . واذا كان نشر الكتب والمجلات والجراند هو مقياس العمران فالبعد بين عمرانهم وعمراننا شاسع جداً واكن العمران لا يقاس بكثرة المطبوعات وان كانت احدي مقوماته بل بمقومات أخرى تفوقها شأنًا اهمها التربية التي لتقف العقول وتهذب الاخلاق .

وهنا لابد لنا من السؤال لماذا غني العلماء في الشرق والغرب قديماً وحديثاً بتأليف الكتب وجمعها في المكاتب الخاصة والعامة وظهرت هذه العناية من ملوك الارض وعظماؤها ورجالها ونسائها كينت الملك العادل وغيرها ممن لا يسعنا ذكرهم في هذا المقام . والجواب لانهم عرفوا قيمتها وشدة الاحتياج اليها فانها هي الاساس الذي

تشاد عليه قواعد الصلاح والركن الذي به لتوثق دعائم الاصلاح والسبيل المؤدي الى الخير والنجاح والمرقاة الموصلة الى ذروة الفوز والفلاح والمصايغ التي لتفتح بها الرموز والآثار والمفاتيح التي لتفتح بها الكنوز والاسرار بل هي محنطات عقول الحكماء ومراني تصورات الشعراء وخزائن آراء العلماء ومجلات اقوال الخطباء واثار افكار العقلاء وحافظة احكام الدنيا والدين وعلوم الاولين والآخرين .

فلا غرو ان اولع بها اهل الدكاء والفضل وآثروها على كل قنية فاحرة وحلية ثينة .

قال كنفوشيوس الحكيم الصيني كنت لفرط رغبتي في طلب المعرفة بالدرس والمطالعة انسى جسمي فلا اطلب له طعاماً واشدة سروري بالوصول اليها اسلو احزاني فلا احسبها موجودة بل اني ادركني الكبر وحل بي الهرم ولم احسب لها حساباً . وقال شيشرون الخطيب الروماني (غرفة بلا كتب جسم بلا روح) وقال المتنبي الشاعر المشهور :

اعز مكان في الدني ظهر ساج وخير جليس في الزمان كتاب
وقال آخر :

حيبي من الدنيا كتابي فليس بي الى غيره ما بي اليه من النقر
وقال آخر :

اذا غاص في بحر التفكير خاطري على درة من معضلات المطالب
خففت ملوك الارض في نيل شرقي ونلت المنى بالكتب لا بالكتائب
وقال آخر :

لنا جلسة ما نمل حديثهم الباء مأمونون غيباً ومشهدا
يفيدوننا من علمهم علم ما مضى ورأياً وتأديباً ومجداً وسوددا
فان قلت اموات فلم تعد امرهم وان قلت احياء فليست مفئدا

وقال الجاحظ : من كلام طويل في وصف الكتاب « هو الجليس الذي لا يطرك والجار الذي لا يستبطنك والصديق الذي لا يقلبك والستيع الذي لا يؤذيك والرفيق الذي لا يملك والصاحب الذي لا يريد استغراج ما عندك بالملق

ولا يعاملك بالكر ولا يخذلك بالنفاق بطبعك في الليل طاعته في النهار وفي السفر طاعته في الحضر . وهو المعلم الذي ان افترقت اليه لم يحقرك وان قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة . ولا اعلم نتائجاً في حداثة سنه وقرب ميلاده ورخص ثمنه . يجمع من التدابير العجيبة والعلوم الغريبة ومن ائمان العقول الصحيحة ومجموع الاذهان اللطيفة ومن الحكم الرفيعة والمذاهب القديمة والتجارب الحكيمية والاخبار عن القرون الماضية والبلاد المتراخية والامثال السائرة والامم البائدة ما يجمعه كتاب . ولولا الحكم المخطوطة والكتب المدونة ليطل اكثر العالم ولغلب سلطان النسيان - لمطالع الذكر .

وقال فلون : « لو وصعت ثمان ملوك اورية كلها عند قدمي بدلاً من كني لرفضتها » .

وقال كارليل الكاتب المشهور : « اهم ما يصنعه الانسان في الدنيا وابقاء واثمنه هو الكتب » .

وقال مكولي الكاتب الاقتصادي المعروف : « افضل ان اكون فقيراً في كوخ وعندي كثير من الكتب على ان اكون ملكاً في قصر بلا كتب » .

وقال ادورد كين المؤرخ : « افضل كني على كل كنوز الهند لان التلذذ بها بهجة حياتي ونجاح مجدي » .

وقال ملن الشاعر : « الكتب ليست جماداً بل اجسام ذات حياة . فانها حياة مؤلفيها والمذكورين فيها فمن يتلف كتاباً كمن يقتل نفساً بل قد يكون اعظم اثمًا لان من الناس من في قتلهم راحة للعالم ولكن ائلاف الكتاب المفيد فيه ضرر للعالم » . وقال نيل : « اكتاب دليل الشباب الى سبيل الصواب وسلوة الشيخوخة عن قوة الشباب » .

وقال هرشل الفلكي ما معناه : « ان غاية ما اتمناه في هذه الحياة واطلبه من ربي في الصلاة ليكون لي ينبوع مرور وهناء وترساً يقيني سهام البلاء . وسيقا اطلب به جيوش الازياء كتاب ينفعني في السراء والضراء ويرافقني حيث اشاء » . وقد شبه بعضهم الكتب بالاساندة وشبهها بعضهم بالاصدقاء والحق انها افضل

من الاساندة والاصدقاء باعتبارات كثيرة لا يتسع الوقت لبيانها وهي افضل من كل ما يقلنيه الانسان من الخوف والطرائف والجواهر والنفائس حتى قال بعضهم انها الغنى كله وتمتاز على كل ما يخافه الانسان من الآثار الدالة على عظمته وقدرته كالحياكل الجيلة والمدن الحصينة والقلاع المنيعية وغيرها مما يبقى قروناً عديدة شاهداً بمجد من بنوه ولكنه يفقد رونقه الاصلي على تمادي السنين بل قد يزول ولا يبقى له اثر . وم من مدينة تهدمت وقلة دكت وهيكل اصبح ركناً مراكوماً .

اما الكتب النفيسة فاذا لم تمسها يد الانسان بالاذى بقيت قروناً عديدة بروقتها وجمالها وفائدتها وتأثيرها في نفوس قارئها . وهي خير ميراث يتركه العلماء للجنس البشري وافضل واسطة لاهياء الذكر الى الابد .

ان هوميروس وارسطو وافلاطون وسقراط والمنيني وابن سينا والفارابي وغيرهم من الشعراء والحكماء يبقون ذكرهم حياً ما دامت كتبهم بين ايدي الناس . والملوك والعظماء الذين لم يتركوا اثرًا نافعاً قد باد ذكرهم . ان الكتب لتجدد وتعدد بالنسخ والطبع على توالي العصور كلما نفدت نسخها الاصلية ومع ذلك تبقى قيمتها وفائدتها كما كانت سيفي عصر مؤلفيها بخلاف الآثار القديمة فان قيمتها تزول بتجديدها فتحسب مزرورة وكفى بذلك دليلاً على عظمة شأن الكتب وامتيازها على كل مصنوعات الانسان .

وهنا وصلنا الى القسم الثاني من موضوعنا وهو المطالعة التي هي الغاية العظمى من تأليف الكتب وجمعها . ان كثيرين يرغبون في اقتناء الكتب وجمعها اما بقصد المتاجرة او بقصد المفاخرة فهؤلاء لا يستفيدون منها علماً ولا ادباً فلا يزالون الغاية من وضعها مثلهم الا كمثل من يملك مزرعة واسعة ولا يذوق شيئاً من غلاتها او يجمع مالاً كثيراً ولا ينفق منه فلساً على قوته فيموت جوعاً واهراؤه مملوءة قمحاً وصناديقه طائفة ذهباً . ان المطالعة ضرورية لتغذية العقل كما ان الخبز ضروري لتغذية الجسد فكل الناس منفقرون الى المطالعة لانماء عقولهم بالعالم واحياء نفوسهم بالادب والفضيلة فالذي لم يتيسر له التخرج في المدارس في صغره يستطيع ان يكسب بالمطالعة ما خسرته من الفوائد بعدم دخوله المدارس . ومن الخفاة ان يتخذ عدم درسه في الصغر حجة لعدم المطالعة في الشباب وما بعده من اطوار الحياة بل احر بذلك ان

يكون حجة للمطالعة لتدارك ما فات . والذي وفق الى دخول المدارس في صغره ونال حظاً صالحاً من العلم لم يزل محتاجاً الى زيادة المعرفة والحكمة وتوسيع المدارك ومن الخطأ الواضح بل الغرور الفاضح ان يكتفي الكتاب والخطباء والمحامون والاطباء وغيرهم من ارباب الصناعات والفنون بما حصلوه في المدارس ويعملوا المطالعة النافعة بحجة انهم قد اكملوا دروسهم ونالوا شهاداتهم فلم يبق بهم حاجة الى المراجعة او الدرس ولذلك يعملون الكتب ويستحقون بالمجلات ولا يبالون بتوسيع معارفهم حتى تتناقص رويداً رويداً وتضمحل في النهاية فيعجزون عن القيام بوظائفهم ويخسرون كرامتهم وميزاتهم بين العلماء ويفقدون ثقة الناس بهم لان الطيب الذي لا يكتسب في كل يوم معارف جديدة ولا يقف على سير الطب الاكتشافات المتعلقة به لا يلبث ان يصح دجالاً والحامي الذي لا يطالع المجلات الحقوقية ولا يطلع على القوانين والزيادات والتفاسير الجديدة لا يلبث ان يصح محتالاً لانه لا يكون له غرض سوى كسب المال فيقبل كل دعوى وهو يجهل نيتها . والجهل قد يكون سبباً للاحتيال على الرزق لان من جهل صناعة وادعى العلم بها واتخذها وسيلة لاكسب كان خليقاً بان يسمى محتالاً . اما العالم بصناعته الذي يأخذ أجرته بحق علمه فلا لوم عليه .

ان الذين اشتهروا بالعلوم والفنون وحازوا قصب السبق في ميادين الفضل لم يبلغوا ما بلغوه من الشهرة والتفوق الا بكثرة المطالعة وتكرار المراجعة لا بما حصلوه في المدارس فقط ولا بمجرد الذكاء الفطري .

قال احد الخطباء : « ينسب الناس الي ذكاء ممتازاً والحقيقة اني است اوفر ذكاءاً من غيري وانما انا رجل مجتهد في انفسان صناعتي فاذا أردت ان اخطب في موضوع ما طالعت كل ما وصلت اليه يدي من الكتب المتعلقة به وملاأت ذهني بكل حقائقه واحطت علماً بكل تفاصيله فيأتي خطابي محكماً . فما يسميه الناس ذكاءاً ممتازاً وحذقاً عظيماً انما هو ثمر درسي ونتيجة تعبتي واجتهادي .

وقال الشيخ ناصيف البازجي في خاتمة مقساماته : « اني قد تلقيت هذه الصناعة من باب التطفل والمجوم اذ لم أقف على استاذ قط في علم من العلوم وانما تلقفت ما تلقفته جهل المطالعة وادركت ما ادركته بتكرار المراجعة .

وقال الاستاذ ابراهيم الحوراني في آخر حياته : « ما زلت منذ خدائني أطلع واتعلم الى هذه الساعة فاستفدت من تعليم نفسي اضعاف ما استفدته من معلمي » .
ونفج من ذلك ان المطالعة ضرورية لانماء القوى العقلية وتهذيب الاخلاق الغريزية واكتساب الفضائل النفسية ومعرفة الحقوق الاجتماعية والتأهب لاعمال الحياة الجوهريية . ولا تكون المطالعة نافعة الا اذا روعيت شروطها وهي :

(١) : الرغبة الشديدة في الحصول على المعرفة الصحيحة والارادة الثابتة في طلب الوصول اليها فمن لم يرغب في المطالعة ولم يقصد الاستفادة بكل قواه لم يمكنه الحصول على العلم ولا النجاح في طلبه لان الرغبة القلبية هي سر النجاح في كل عمل يعمل به المرء عقلياً كان او يدوياً وكل الذين نجحوا في العالم وبلغوا درجة سامية في الصناعة او العلم كانوا من الراغبين في ما اشتهروا به . ان الرغبة في الشيء تهوئ الصعوبات الشديدة وتقرب المسافات البعيدة وتجعل المستحيل عند بعض الناس ممكناً عند غيرهم . فمن اراد ان يتعلم لغة تعلمها ولو كان شيخاً طاعناً في السن ومن رغب في انقان علم انقنه ولو كان فقيراً سيء الحال .

اما الذين لا يرغبون في المطالعة فلا يمكنهم ان يستفيدوا شيئاً ولو قرأوا الوقت من الكتب ودخلوا أعظم المدارس .

(٢) : الانقصار على الكتب الصالحة المفيدة لان مطالعة الكتب الرديئة ليست عديمة النفع فقط بل هي كثيرة الضرر ومجزئنا ان نقول ان هذه الكتب منتشرة انتشاراً تصعب ازالته ومنها الكتب الكثرية التي تفسد الايمان وتقود الى التعطيل . والكتب المجنونة التي تفسد الاخلاق وتعلم الخلاعة والسفاهة والكلام البذي . والكتب الخرافية التي لا تضمن غير الاوهام والخزعبلات والفساف والحكايات الكاذبة التي لا يسلم بها عقل . والروايات الغرامية الخيالية التي تضع الاوقات بتلاوتها ويكتسب مطالعوها منها العادات السيئة والاخلاق الذميمة كالاحتيال والمبارزة والانحمار وطلب الخيال وغير ذلك من الامور التي يكثر ورودها في تلك القصص . فكل هذه الكتب وامثالها لا تجوز مطالعتها لانها تفسد المبادئ وتحشو الدماغ بالاوهام وتقود الى أعظم الرذائل والخسائر المادية والمعنوية فيجب على

العائل ان يتعمد عنها ولا يسمح بدخولها البيت ووضعها بين ايدي الصغار ولا يقرأها ولا يستمعها بل يتركها او يحرقها .

ويأيت الحكومة تهتم بهذا الامر كما تهتم بامر الصحة فتتبع طبع هذه الكتب ونشرها وبمعها وتعاقب مؤلفيها وناسريها وبائعها كما تتبع الدجالين من ممارسة التطبيب والعطارين من بيع السموم وتعاقب بائعيها .

ان اختيار الكتب النافعة لا يقل خطورة عن اختيار الاصدقاء الصادقين فكما انه لا يحسن الاعتماد على صديق الا بعد اختباره وتحقق صدقه ووفائه كذلك لا يحسن الاعتماد على كتاب الا بعد تحقيق ثقافته وفائدته . ان انتع الكتب هو الذي يترك في نفوس قارئيه افضل تأثير صالح ويفعل في الحياة العقلية ما يفعله نور الشمس في الحياة النباتية والحيوانية فينبه القوي والمدارك وينمي العواطف والسجايا ويحسن الاخلاق والمبادئ .

انا في عصر كثرت فيه الكتب المفيدة المزلفة باللغة العربية والمترجمة من اللغات الغربية فضلاً عما كان عندنا من الكتب الادبية والعلمية القديمة فلا يصعب علينا وجدان ما نحتاج اليه من المواضيع المختلفة واختيار احسن الكتب التي تبحث عنها . وما نفيد مطالعته المجالات العلمية كالمثلثات والاحلال وغيرها ومن كان ضليعاً من لغات اجنبية كالفرنسية والانكليزية والالمانية استطاع ان يجد ما لا يحصى من الكتب والمجلات النافعة التي تشمل على احدث الاكتشافات العلمية وافضل الاختراعات العصرية . ويحسن الراغب في المطالعة ان يستشير اهل الفضل ليرشدوه الى الكتب والمجلات الغزيرة الفوائد فيكون على بينة من نفعها قبل ان يقرأها ولا يبادر الى قراءة اي كتاب كان لجذته وحسن ظاهره فلما كل جديد حسن الظاهر ينساع . وما اكثر الذين نخدعهم الكتب بحسن ورقها وجمال تجليدها وطول عناوينها فيضيعون اوقاتهم بتلاوتها ويتناولون السم من دسمها وهم لا يشعرون .

(٣) : مراعاة الميل الخاص والدقيق والحال والسن في ما يختار من الكتب النافعة فبعضهم يميل الى التاريخ ولا يستفيد من العلوم الرياضية وبعضهم يميل الى الرياضيات ولا يميل الى العلوم الطبيعية . وما يناسب البسطاء لا يناسب الاذكياء .

وما يفهمه الكبار لا يفهمه الصغار فيجب على كل راغب في المطالعة ان يختار من الكتب الجيدة ما يلائم ذوقه ويناسب حاله ودرجة فهمه لان الكتب كالأطعمة منها ما هو لذيق الطعم سهل الهضم كثير الغذاء ومنها ما هو نافع عسر الهضم قليل الغذاء وكذلك العقول كالمعد منها ما هو قوي يهضم كل نوع من الطعام ومنها ما هو ضعيف لا يهضم سوى اللبن والحكيم من اختار لنفسه ولاولاده الاطعمة التي تناسب اذواقهم وتلائم معدتهم ومن فعل خلاف ذلك خسر الفائدة المطلوبة وعرض نفسه واولاده للأمراض الفتالة .

(٤) : عدم الافتقار على نوع واحد من الكتب لان الانسان يحتاج الى معرفة اشياء كثيرة لا شيء واحد فقط فيجب على المطالع ان يجتهد في معرفة كل ما يمكنه من العلوم وبعبارة أخرى ان يعرف شيئاً من كل علم فيطالع كتب الفلسفة العقلية لمعرفة حاجات العقل ومركباته وكتب الفلسفة الطبيعية لمعرفة سنن الكون ونواميس الطبيعة وكتب التاريخ لمعرفة احوال البشر وكتب حفظ الصحة لمعرفة قوانين المعيشة الصحية وتجنب اسباب الامراض وكتب المنطق والبيان ليحسن التعبير عن افكاره بجلالة وقوة وبالجملة يجب ان يلم بما يمكن الاثام به من المعارف المتنوعة وان كان اختصاصياً بنوع واحد منها .

(٥) : تخصيص وقت كاف للمطالعة ولو ساعة كل يوم وهذا لا يصعب على من يريد ان يجد وقتاً وان كانت أعماله كثيرة تستغرق معظم أوقاته لانه اذا اراد تخصيص ساعة للقراءة استطاع ان يختلسها من وقت فراغه او وقت راحته او وقت زيارته او وقت نومه او وقت طعامه او من مجموع هذه الاوقات كلها . والغرض من تخصيص وقت كاف كل يوم للمطالعة المداومة عليها لكي ترسخ فوائدها في العقل فاذا قرأ الانسان خمس ساعات في يوم واحد ثم أهمل القراءة شهراً او اسبوعاً نسي ما قرأ وأضاع فائدته ولكن اذا اعتاد ان يطالع كل يوم صباحاً قبل ان يذهب الى عمله فضلاً عن كتاب علمي او ادبي واجتماعي او تاريخي استنار عقله ونهت افكاره واغتذت نفسه وأصبح قادراً على القيام بأعماله بكل نشاط وترتيب ونجاح لانه قد استمد من معاني ذلك الفصل ومن روح مؤلفه الشريفة قوة معنوية عجيبة ترافقه كل ذلك

النهار . فكما انه لا يجوز للمرء ان يخرج من بيته باكراً بدون ان يتناول طعاماً يقوي جسده كذلك لا يجوز له ان يخرج من بيته بدون ان يتناول طعاماً عقلياً يقوي نفسه .

(٦) : قصد الاستفادة فلا فائدة من المطالعة بقصد التسلية او النوم او الجدل او الانتقاد او الاعتراض ولا بقصد التسليم الاعمي بكل ما يطالع ولست اعني بذلك انه لا يجوز المطالعة بقصد التسلية على الاطلاق فان في التسلية احياناً فائدة ولكنها اذا كانت هي الغاية من المطالعة نشأت البلادة ومنعت من الاستفادة ولا انه لا يجوز الانتقاد شيئاً لانه اذا روعيت قواعده افاد فائدة عظيمة وانما اعني ان تكون غاية المطالع الاولى ان يستفيد مما يطالع علماً او أدباً او تاريخاً او غير ذلك من الفوائد الجوهرية فان لم تكن غايته الاستفادة اضاع وقته سدى او ربما اضر بنفسه وبغيره اذا تفرغ على المجادحة والمجادلة ويقوده الغرور الى مجادلة من هم اوسع منه علماً واغزر فضلاً عما يترجمه في نفسه من قوة الحجة وبلاغة المنطق وبراعة الانشاء .

(٧) اتباع الترتيب اذ لا فائدة من المطالعة بدونه ونعني بالترتيب ان يقرأ المطالع الكتاب الذي يختاره من اوله الى آخره على التوالي فصلاً فصلاً ويقرأ الفصل من اوله الى آخره سطوراً سطوراً بالنسامل والانتباه فيجد لذة عظيمة وفائدة جسيمة . اما الذين يقرأون بضعة كتب في وقت واحد قراءة بلا ترتيب مقتصرين على بضع صفحات من كل كتاب وبضعة اسطر من كل صفحة فلا يجدون فائدة ولا لذة لانهم لا ينفقون شيئاً مما يقرأونه لعدم ارتباط المعاني التي يقفون عليها بعضهم ببعض وما مثلهم الا كمثل من يخطب في الظلماء خبط عشواء فلا يروى السداد ولا يبتدون الى المراد .

(٨) : فهم الالفاظ والمعاني التي يعثرون عليها في الكتب التي يطالعونها لان فائدة المطالعة لا تتوقف على كثرة الكتب التي تقرأ بل على فهم ما يقرأ منها كما ان فائدة الطعام لا تتوقف على كثرة ما يؤكل منه بل على ما يهضم منه وربما حصل ضرر من كثرة القراءة بدون فهم كما يحصل ضرر من كثرة الاكل بدون هضم . تخير الانسان ان يقرأ قليلاً ويفهم من ان يقرأ كثيراً وينسى لعدم الفهم .

(٩) : وعي الفوائد التي يفهمها المطالع في ذهنه او كتابتها في دفتر خاص حتى يرجع اليها عند الحاجة لانه لا يسهل ان لا يسهل كل ما يعثر عليه القارئ في أثناء مطالعته فاذا لم يدونه في مذكرة تحفظ عنده اضاع تعب المطالعة ونعسر عليه التفتيش عما يريد في الكتب التي كان قد قرأها . الا ان الاعتماد الكثير على المذكرات يضعف الذاكرة فلا يحسن الاكتفاء بها بل يجب الاعتماد التام على الذاكرة لانها حية ثبينة تقوى بالاستعمال كسائر المواهب فلا يجوز اهمالها ولا عدم الثقة بها الا اذا كانت المواد المطلوب حفظها فوق طاقتها فيحذف بحسن استعمال المذكرات . وما يقيد المطالع ان يدون ايضاً كل كلمة او عبارة لم يفهمها لكي يبحث عنها في مظانها ويقف على تفسيرها فنتم بذلك الفائدة التي يتوخاها .

(١٠) : استيفاء البحث عن الموضوع المراد العلم به في الكتب المختصة به وذلك بالابتداء من النقطة المركزية فيه وتتبّع كل الفروع المتصلة به والاحاطة بجميع اطرافه فاذا اراد المطالع ان يبحث عن قطر من الاقطار كسورية مثلاً وجب عليه ان يطلع على مصورها (خرائطها) ويقرأ تاريخها في كتب متنوعة بحيث يحيط علماً بدينها وقراها وسهولها وجبالها واوديتها وانهارها واجناس سكانها والدول التي تعاقبت عليها ومذاهب اهلها ونوع حكومتها والنهضة العلمية فيها وآثارها القديمة وصادراتها وغلاتها وسائر ما يتعلق بها وياقظتها وشعوبها القديمة والحديثة وعددهم واديانهم وعاداتهم وعلومهم وصناعاتهم ولغاتهم في كل الادوار التاريخية وحينئذ يستطيع ان يكتب مقالة وافية عن سوريته او يلقي محاضرة متمعة في تاريخها واذا اراد ان يعرف ترجمة احد العظماء او الشعراء كما في العلاء المعري مثلاً وجب ان يبحث عنها في تراجم الشعراء الموجودة بين يديه ويتتبّع اقوال المؤرخين وغيرهم ممن ذكروا هذا النابغة العربي المشهور في كتاباتهم ويقابل بين تلك الاقوال ويحصي ثم يستخرج منها ترجمة صحيحة لذلك الشاعر الحكيم . وجملة القول انه يجب على الباحث عن المسائل التاريخية او العلمية او اللغوية او غيرها ان يستوفي بحثه ويتتبّع كل التفاصيل المتعلقة بموضوعه بالدقيق والتحقيق الى ان يمتلئ عقله به فيحصل على الفائدة التي يتوخاها ولا بد من الاعتدال في المطالعة وتجنب الافراط فيها الى حد نسيان الطعام واهمال شروط

الصحة كما كان كنفوشيوس يفعل . فان اجهاد العقل وتحميله فوق طاقته وعدم الاعناء بالجهد مما تنصيح به فائدة الدرس فلينذر طلاب العلم ومحبو المطالعة من ارتكاب هذا الخطأ .

اما الفوائد الناشئة عن المطالعة القانونية فكثيرة اذكر بعضها :

(١) : تسهيل الوصول الى معرفة الحقائق المتنوعة من كل المباحث والتدرج في مراتب الحضارة واجتناء ثمار العلوم بدون مشقة فلا يحتاج الانسان في هذه الايام الى السياحة حول الارض لمعرفة احوال الاقاليم والممالك والبلدان وغيرها ولا الى بناء المراصد واقتناء المراقب ومراقبة النجوم لمعرفة علم الفلك ولا الى بناء السفن وقطع البحار لمعرفة علم الملاحة ولا الى غير ذلك من الاعمال الشاقة التي تستغرق السنين الطوال لمعرفة العلوم الاخرى بل يمكنه ان يجد كل ما يريد من هذه المباحث وغيرها في الكتب المختصة بها فيقف على افكار الحكماء المتقدمين والمتأخرين والعلماء المحققين والشعراء المقلين والنوابع المخترعين والسياح المكتشفين وهو جالس في غرفته لا يبرح مكانه فيكون كل يوم من حياته بمثابة اعوام وكل عام بمثابة قرون كما أنه وجد منذ وجود الانسان الاول ولم يزل حياً لهذا العهد وكأنه خالط كل الامم ورأى كل البلدان وجالس كل العلماء وسمع كل الخطباء وعاش في كل عصر وسكن في كل مصر وكل ذلك بتعب يسير ووقت قصير فما اعظم فائدة المطالعة وما اجمل من يستغف بها ويهملها .

(٢) : تثقيف العقل وتهذيبه وتربيته وشحذه لان القوى العقلية كالنباتات التي تحتاج الى التشذيب لزيادة ثمرها وانماها ولا شيء يهذبها مثل المطالعة فالتاريخ يملأ العقل حكمة ودربة واختياراً والرياضيات تقوي الادراك والاستدلال والحجة والطبيعات تربي الافكار والشعر يرفق الشعور والمنطق والبيان يعصمان عن الخطأ في الدفن واللسان .

تحسين الاخلاق فلا شيء يمنع الانسان من فساد الاخلاق بعشرة الارباء ويصون فيه الفضيلة مثل المطالعة لانها تزجره عما يهتك القوس وتغله عن البطالة والملاهي التي هي اصل المعاصي وتمنع من التهاوت على اللذات المحرمة والاعمال المنكرة

ونكسبه الفائدة واللذة معاً فيعيش مبتعداً عن الرذائل متمسكاً بالفضائل طيب السيرة محمود السيرة .

(٤) : توفير المال لان الانصباب على المطالعة يمنع الانسان من اتقاق دراهمه في غير وجهها ويعلم قيمة الوقت وطرق الاقتصاد وبعده عن المبدن من اخوان الشياطين قال احدهم : « ان لم يكن اشغالي بالعلم قد زاد دخلي فانه لاشك قد ساعدني على الاقتصاد في نفقاتي لان انصبابي على المطالعة منعني من تبذير دراهمي بما لاخير فيه » .

(٥) : الابهاج في حالة الحزن او المرض او التعب او الشيخوخة لاشي يعزي الانسان ويخفف عند الآلام ويعينه على احتمال الاسقام ويسليه في بلائه ويسعده في شقائه مثل المطالعة فانها الوسيلة الوحيدة التي بها يذخر الشاب كنوز العلم الثمينة الى زمن الشيخوخة ولا شيء يحسبه الشيخ اكبر داع الى الشكر مثل تَعَوُّده المطالعة واعظم موجب للاسف خسارة الشيخ هذه النعمة .

(٦) انشاء محبة الوطن وجعل ابنائه اكثر استعداداً لخدمته فالذي يطالع اخبار المخلصين لاوطانهم الباذلين نفوسهم في سبيل تعزيزها وترقيتها يتولد في قلبه الحب لوطنه ويتأهب لخدمته بما يذخره من المعرفة التي ملأت عقله وأثرت في نفسه وهاجت خاطره ونهته الى الواجب ودعته الى العمل فما اعظم الفوائد الناجمة عن المطالعة الحققة وما جهل الذين يهملونها مع كثرة انتشار الكتب ورخص ثمنها وسهولة الحصول عليها وخفة حملها بالنسبة الى ما كانت عليه في الازمنة السالفة . ان الشاب بقدر اليوم ان يشتري كتاباً يقضي بمطالعة شهر أو بئس ذلّة لفائف للتدخين او بئس (اوقية شكولات) وهذه نعمة لم يعرفها المتقدمون فقد كانت الكتب في اول امرها باهظة الاثمان ونادرة كل الندور . قيل ان الملك الفرد بذل ولاية عظيمة في مجلد واحد . وبعث مقالة واحدة بمئتي غنة واربعين مد حنطة . وبعث نسخة من الكتاب المقدس بأربع مئة ليرة انكليزية فليعتبر المستحقون بالكتب والمطالعة من شبان هذا العصر الذين يؤثرون زجاجة من الراح على لسان العرب والمصباح ولا بدلي في الختام من ذكر بعض مبادئ عملية وهي :

(١) : على الآباء ان ينفقوا جزءاً من دخلهم في اتياع الكتب والمجلات

والجرائد المفيدة ويضعوها بين ايدي اولادهم ليعتادوا التلذذ بقرائتها من الصغر وتصبح مكتبة فيهم زمن الشيخوخة وقسماً كبيراً من مطالب حياتهم . ان اكثر الآباء مقصرون في هذا الواجب فاذا دخلنا بيوت اهل دمشق ولاسيما الاغنياء وجدنا فيها رياضاً فاخراً وتحفاً ونقائس مشوعة ولم نجد في اكثرها كتاباً مفيداً ويندر ان يوجد فيها مكتبة على حين ان الكتب من لوازم البيت الضرورية كالطعام والاثاث .

(٢) : على رؤساء المدارس ومعلميها ان يجلبوا المطالعة الى تلاميذهم ويربوا فيهم الميل الشديد اليها ويجمعون عليها ويساعدونهم على فهم ما لم يفهموه مما يطالعونه ويسهلوا لهم الحصول على الكتب النافعة ويهتموا بانشاء مكتبة كافية في كل مدرسة . ان اكثر معلمي المدارس لا يهتمهم سوى قبض الرواتب وقضاء ساعات الدروس بالحكايات النافذة وربما تدمروا بحضور التلاميذ من قلة الرواتب وعدم فائدة العلم فبغضوا اليهم الدرس والتحصيل وللدوا فيهم الكسل والامهال .

(٣) : على العلماء والاغنياء ان يتعاونوا على تأسيس مكتبات جديدة وجمع كتب مفيدة لكل الطبقات في احياء المدينة ليحني فوائدها العامل والناجر والموظف والشاب والشيخ في اوقات فراغهم بدلاً من ان يدخلوا بيوت القهوة ويقتلوا اوقاتهم بلعب الزرد وغيره . ان الحانات والملاهي وبيوت القهوة في دمشق تعد بالمئات ولكن المكتبات تعد على الاصابع . واللوم في ذلك على العلماء والاغنياء الذين ينفقون الاموال الطائلة على لذاتهم ولا يجهدون بالقليل من ثروتهم لعمل مفيد للجمهور . ان بعض الشبان الاغنياء النجباء اظهروا رغبة في معاضدة العلماء ونفسيط الكتاب فليت الباقيين يقنطون بهم فتصبح دمشق زاوية بعلومها كما هي زاوية بحداثتها .

(٤) : على الحكومة ان تشجع الشعب على هذه الاعمال وتمدله يد المساعدة كما فعلت الحكومة المنشدة اذ هنت مبلغاً كبيراً من المال لمكتبة بيروت الكبرى وكفعلت الحكومة الوطنية بامدادها المجمع العلمي بشي من المال لاقتناء ما يحتاج اليه من الكتب لفائدة الذين يقصدون المطالعة في المكتبة العامة وهذا مما استحققت عليه الشناء الطيب . الا اننا نرجو منها ان تزيد الاهتمام بهذا الامر الحيوي لكي لتعدد المكتبات العامة وغرف

القراءة في البلاد السورية فان في تنوير الازهار وتنظيم الجهال ترقية للبلاد وتغليلاً للجرائم واسعاداً للامة .

(٥) : على الشبان الذين لم يتمكنهم الاحوال من دخول المدارس والطلاب الذين نالوا حظاً صالحاً من العلم ان يثابروا على المطالعة في بيوتهم وفي المكتبات العامة وغرف القراءة كلما سنحت لهم فرصة لكي ينشأوا رجال فضل وادب ويخدموا بلادهم وامتهم احسن خدمة ويعيدوا الى وطنهم ما كان له في سالف الازمان من العز والعمران بفضل انتشار العلم والعرفان والله المسؤول ان يهديهم وايانا أقوم سبيل وهو حسبي ونعم الوكيل .

بني العرب زبدوا علمكم ما استطعتم لكي ترجعوا انجد الاثيل الى العرب
ولا تهملوا الكتب التي جل نفعها فافضل ما يعني مطالعة الكتب

انيس سلوم



والفواجم الطبيعية الى ان جدد بعضها في القرن الماضي وبقي الآخر منوطاً عن درجته الأولى ولكنه يبشر باستعادة النهضة في ظل الحكومة وعنايتها ان شاء الله .

ماهي الصناعة ؟

الصناعة هي كل ما اشغل به الانسان ومارسه حتى صار ملكة فيه . فالصناعة هي العلم المتعلق بكيفية العمل . والملكة هي الكيفية الراسخة في الذهن . ومن اسمائها الحرفة لان الانسان ينحرف اليها اي يميل . ولقد فرق بعضهم بينها . فقال الصناعة ما حصلت بالممارسة والتمرن فهي اخص من الحرفة التي لا تحتاج اليها . وقيل ان الصناعة ما كانت بالاعمال اليدوية حتى قيل فلان صناع السدين بخلاف الحرفة فانها تكون بدون ذلك . اما المهنة فهي الخدمة .

واسم الصناعة عند الاوربيين مشتق من كلمة (Industria) اللاتينية ومعناها (العمل مطلقاً) ثم خصصت ومنها اخذت اسمائها في لغاتهم .

فالصناعة والعلم متلازمان لا ينفك احدهما عن الآخر والصناعات التي أسست على مبادئ علمية اشتهرت بدقتها وفوائدها .

ولقد قسمت الصناعات الى ضرورية وغير ضرورية فالضرورية قسمان منها ماهي عامة الفوائد كالزراعة والبناء والحيطة والحياكة والنجارة . ومنها ماهي شريفة بموضوعها وخاصة بفوائدها كالتوليد والكتابة والوراقة والطب والغناء والموسيقى . ومنها ماهي ممتنة كبعض المهن التي يضطر اليها بعضهم ليرتزق منها ولا يأنف من ممارستها . وكلها في نظر العمران ضرورية له ونافعة وبدونها تكون الاعمال ناقصة وما احسن قول الشاعر :

وليس على عبد نقي نقيصه اذا صحح النقوى وان حاله اوجم

الصناعة عند القدماء

لقد نظر القدماء الى الصناعة نظرة غريبة فألوهوها واعتقدوا انها هبطت عليهم من العالم الآخر فأله المصريون الحراثة وعبدوا العجل ايبس . وفعل كثير من الامم التي عاصرتهم او جاءت بعدهم مثلهم بتكريمها وعدها من مواهب الآلهة . ولا سيما

صناعات دمشق القديمة (١)

تمهيد — ماهي الصناعة ؟ — الصناعة عند القدماء — كيف انتقلت الصناعات الى العرب فدمشق ؟ — صناعة السيوف — القيانة وسبك الحديد والفولاذ — القاشاني — المبناء — الفسفاء — الترسيع او التنزيل في المعدن والخشب — نقش البيوت والجدران — السج او الحياكة — الزجاج — البناء — الوراقة وما يتعلق بها — الصناعات الأخر — الختام .

تمهيد

زراعة وصناعة وتجارة تجدد البلاد تقدماً وفلاحاً

اركان عمران قشيد صرحها وخد العلوم لنيلها مفتاحاً

لاخفاء ان اسباب المعاش او العمران هي الامارة والزراعة والصناعة والتجارة وقد افاض كثير من مؤلفي الافرنج والعرب في اخص تلك الاسباب التي هي بعد الامارة وكان ابن خلدون الملقب (بسنسر العرب) يباحثه الفلسفية والعمرانية والتاريخية في مقدمة الذين حضوا على القان هذه الاركان وتوطيد دعائمها لرفع شأن البلاد مما لا محل الآن لتفصيله .

على انني افردت الصناعة من بين تلك الاسباب الآت لما كان لها من الشأن العظيم والقدر الجليل في هذه المدينة العريقة في القدم والشهرة . فكانت اعمالها ذائعة في الخافقين واتصلت بالاندلس واوربة والعجم حتى اغنتها بنفائسها . وملاّت خزائن متاحفها بذخائرها فضعف شأنها عندنا على اثر ما انشأنا من النكبات والغزوات

(١) محاضرة الاستاذ عيسى اسكندر المعلوف التي القاها في ردهة المجمع في ٢٢ كانون الاول سنة ١٩٢٢ م .

اليونانيون فاتهم عدوها موهبة من آتينة او مينرفه الهة الحكمة فاشتهروا بالصناعات والفنون . بخلاف الاسبرطيين الذين شغلتهم الحروب عنها فلذلك كان فلاسفة اليونان مشهورين بصناعات وفنون بدیعة وكذلك حكماء الرومان فوضع كل من سولون اليوناني ونوما الروماني المشرعين دستوراً لامتيعها بشأن الصناعات وانظمتها . فارثقت في ابامها الى عصر الاسكندر المكدوني نحو ثلاثة قرون قبل الميلاد المسيحي .

وكان الفرق بين اليونانيين والرومانيين ان الاولين اعتنوا بالفنون فارثقت في عهدهم . ولكن الرومانيين اشغلوا بالحروب مئات قرون كان الارقاء فيها هم الصناع فلم يتقنوها . لانت الحروب آفة الصناعات فاحتاجوا الى صناعات الشرق النفيسة . ولا سيما صناعات الصين والهند وما اتصل بها وانتقل عنها الى بقية الاقطار الشرقية وعرف العرب كثيراً منها ولا سيما في هذه الحاضرة العربية في القدم وعنها نقل أسرى الصليبيين وتجار سواحل البحر الرومي الاوربيون كثيراً منها الى بلادهم . فاشتهر من القدماء المصريين بنفن الحراثة ونسج القطن والكتان للكهنة وغيره لغيرهم والنقش وعمل الزجاج والبناء والتعدين والادوات الخرفية والمعدنية وهندسة المياه وفتح الترعة والتخنيط وجرا الاثقال وغيرها .

وعرف البابليون بالنسج والتطريز والحفر والصياغة والحجارة الكريمة والثايل والنقش على الغضار (الاجر) .

والفينيقيون بالنقش والحفر وعمل الطنافس ونسج الحرير والابنية العظيمة المتينة والتعدين وصنع الارجوان وبناء السفن وعمل الزجاج والتجارة .

والصينيون بالخرف المنسوب اليهم وتربية دود الحرير والوراقة والتعدين والاسلحة وعمل الحجارة الكريمة والبناء وكفى بسورهم العظيم شاهداً على براعتهم به .

والهنود بالانسجة الرقيقة والصناعات المثقنة ولا سيما الاسلحة والفولاذ المشهورين الى اليوم باسمهم ولا يزال فولاذ بنجوب من بلادهم متميزاً على غيره ولا سيما نوابض (زبلكتات) الساعات .

فانتقلت هذه الصناعات الى الامم الأخرى فاقبس اليونان من صناعات المصريين البناء والنحت والنقش ومن الفينيقيين الزجاج والملاحة والارجوان . واخذ العرب

عن الصيغيين الالبيرة المغناطيسية وعن النعم الورق والقاشاني الى غير ذلك مما ستراه مفصلاً في ما يأتي :

وكل من طالع الياذة هو ميروس كبير شعراء اليونان المنقولة الى العربية يجد فيها وصف المناخذ المتحركة . والحداد هيغت اله النار . ومعادن قبرس الحديدية . والحدادة . وكوب نسطور والخراطة وصنع العاج والبرفير . وصياغة الفضة في صيداء والتجارة وعمل المركبات والصيقل والغزل والنسج الفينقي وبناء السفن واشباهها حتى انه صورها بقلمه العسال وصفاً كأنه يمثلها بمنقاش المصور . فمن ذلك قوله يصف هيلانة تطرز بابرثها :

وجدتها بالصرح نسج ثوبا بجواشي البرفير والارجوان

وبرأس الخياط ترمم فيه واقعات ابلت بها الفتات

ومن ابداع اوصافه تصويره لترس اخيل من موشحة قال فيها :

اودعه نقشاً به تحار حسنه الانظار والافكار

فالارض والسماء والبحار منهن لاحت فوفه الآثار

وساطع الشمس وثم البدر

فذكرني جمال هذا الوصف بقول المعتمد بن عباد ملك الاندلس يصف مجناً اسيه

ترساً فيه كواكب فضة وقد امره ابوه المعتضد بذلك فابدىع وهو :

مجن حكي صانعوه السما لنقصه عنه طوال الزماح

وقد صوروا فيه شبه الثريا كواكب تقضي له بالنجاح

ولو انفسح لي الوقت لسردت كثيراً من اوصاف الصناعات عند الافرنج والعرب .

كيف انتقلت الصناعات الى العرب فدمشق ؟

لما احتك العرب بمجاورهم ومخاربيهم من الامم استفادوا منهم صناعات كثيرة برعوا بالتفاني فوق ما كان عندهم من الصناعات الوطنية في العراق وبلاد العرب والافطار الاخرى التي تفوقوا فيها ومن أقدمها بناء السدود مثل سد العرم وطبع السيوف

البانية وبناء القصور وعمل الأسلحة والخزف والقاشاني والزجاج وبناء السفن والنسج والحفر والنقش وعمل الورق واشباه ذلك مما لا يدخل تحت حصر فتشير الى اهمه .
ولما كانت دمشق وما يجاورها من ايام الجاهلية وما بعدها قطبا لرحلات الاقوام ومحطاً لرحالهم ومقراً لم اجتمعت فيها الصناعات المختلفة وترقت بحسب الحاجة اليها بل لغوت بها على غيرها لاسباب كثيرة أهمها رواج سوقها وانتان آدابها ووضع انظمة لها وروابط وثيقة العرى . والمحصنة كثير منها في أسر خاصة كتتمت أسرارها واحتكرت آثارها فألف بعض العلماء في كشف تلك الاسرار كتباً بينوا فيها غش الصناعات وحيل اربابها على اختلاف عملهم وتزويرهم وتقليدهم للشيء الطبيعي بالصناعي وتلاعبهم بالموازين ونحو ذلك . منها كتاب (كشف الدك وايضاح الشك) لابن شهيد المغربي . و (ارخاء الستور والكل في كشف الدكات والحيل) لسعيد التيسابوري ومما مخطوطان . و (المختار في كشف الاسرار) للشيخ عبد الرحيم الجوبيري الدمشقي وهذا طبع في دمشق منذ اربعين سنة وغيرها .

وللصناعات الدمشقية اصول تعرف بالشدها آداب وانظمة وموظفون بقواعد معلومة عندهم يتناقلها الخلف عن السلف . وقفت على وصف اهمها في بعض التعاليق والمخطوطات الموجودة في خزائني وغيرها وطالعت مقالة فيها لرصيفي الياس بك القدسي الدمشقي مطبوعة في اعمال مؤتمر ليدن (هولندا) الذي عقده المستشرقون سنة ١٨٨٣ .

فمن كل هذه المصادر استفدت انه كانت للصناعات رئيس أعظم يسمى شيخ المشايخ وكان هذا المنصب يتوارثه سادة بني العجلاني ^(١) الحسينيون من آل البيت النبوي الكريم خلفاً عن سلف وصاحبه بعين المشايخ لاكثر من مائتي حرفة في المدينة ويفصل الخلافات ويحسم المشاكل التي تقع بين ارباب الحرف آمراً وناهيماً ومقاصداً للتحالنين . وبالجملة فانه الحاكم العام الذي لا ينتخب بل ينال منصبه

(١) قال المحيبي في (خلاصة الاثر ٤ : ١٥٤) : « السيد محمد العجلاني شيخ مشايخ الحرف الذي يعقد الشدة والعهد لأهل الصنائع . وكانت صاحب هذا المنصب قديماً يعرف (بسلطان الحرافيش) ثم كني احتشاماً بشيخ المشايخ » اهـ .

بالارث عن اسلافه ولا يعزل ولا يترك منصبه الا بالموت او الاستقالة وبقيت سلطته هذه مرعية الجانب الى ان اعلن السلطان عبد المجيد العثماني التنظيمات الخيرية فبقي له من وظائفه التصديق على نصب شيخ الحرفة الذي ينتخبه معلوما واحترام نسبه الشريف وشخصه الجليل . ويشارك شيخ المشايخ النقيب وينوب عنه . والجلاويش ينفذ الاوامر . وآدابهم مع آداب المعلم والصانع والمبتدئ وشده الصانع حتى يصير معلماً هي آداب مرعية لقال فيها أدعية وتؤخذ عهد غريبة الامرار كثيرة التفصيل لا يسمع المقام باكثر من الاشارة اليها ولكنها تدل على احترام الصناعة كما احترمها القدماء وترقيها بهذه الاصول المتبعة .

فأهملت بكساد الصناعات وكثرة المصادر وبقيت بعض آثارها في قليل من الاسر مثل بني القصار الذين يبيضون الثياب قبل صبغها فلم آداب خاصة بهم يحافظون عليها الى يومنا . وبني الحصري الذين يصفرون الحصر وبني المنجد ونحوهم .

صناعة السيوف

افق ذكر اليمنيين بصناعة الشفار والنصال . وكذلك الهنود فليل سيف بنات وحسام هندي وهندواني او مهند . فلما قدمت قبائل اليمن الى مشارف الشام نقلت معها تلك الصناعة فانتشرت وانقنت فليل لسيوفها المشرفية والثامية . ولما أكثر الحديد في سورية وجبال لبنان كداريا والفرزل ودوما والثوير ومشغرة عمل منها الفولاذ وطبعت منه السيوف المحددة والشفار الموهرة . وكان الفولاذ الهندي الذي فيه قليل من الالومين والسلكا ينقل من الهند الى بلاد الشام منذ زمن بعيد فيتمخذ للشفار والنصال والجوارح .

فاشتهرت مصانع دمشق بعمل القواطع كالشفار والنصال والسهام والحراب والمدي وكانت هذه تخرج من بين أيدي الصياغة شديدة الصلابة مرهنة الغرار والكثيفة مرنة ذات فرند او جوهر يدبغ الثلويين والرسوم يغطي سطوحها الصقيلة بخطوط دقيقة كأنها عروق سوداء وبهضاء فضية اللون متحاذية او متقاطعة ذات اشكال مختلفة . فمنها ما هو كالالياف المتعارضة في زوايا كثيرة . او كالعقود

المنظمة او كالعناقيد المنضدة . ولقد اكتشف الدمشقيون امرار هذه الصناعة بموقين فيها حتى أغلقت عن سواهم فلم يبتدوا اليها حتى يومنا مع كثرة لغتهم وتجاربهم ومهارتهم .

واما هذا الجوهر الدمشقي او الفرند او الاثر فهو طرائق السيف التي هي على سطحه شبه الغبار او كمدب التل . وقد امتاز على الجوهرين العجمي والهندي بروائعه ونعوجاته وعدم تطرق الصدا اليه ولينه . فلذلك لا تقبل السيوف الدمشقية الكسر عند الضرب بها مثل غيرها . وسمي جوهرها الخاوي او الحنون . واتخذ الدمشقيون لكل فصل كنلة واحدة من الفولاذ . واما الاعاجم فيتخذون له اكثر من كنلة . فتميز النصل الدمشقي بثبات جوهره وتحمينه عند تحضيره اي احماه بالنار . او عند تطريقه . وبالتحليل عرف ان فولاده كان ممزوجا بمعدن آخر يسمى التيتان او الحزوم وهو موجود الآن في نواحي روما . ومنه اخذ ابراهيم باشا المصري كميات لعمل الاسلحة عندما استولى على البلاد سنة ١٨٣٠ .

فلذلك اشتهرت السيوف الدمشقية بجودة صفائها ومرونتها ومناة فولادها . وكانت صناعتها مشهورة بزمان الرومانين وفي عهد العرب . ومنها انتقلت الى طليطلة في الاندلس ومن هذه الى ميلانو في ايطاليا . وفي المتحف البريطاني وغيره سيوف دمشقية بديعة الصنع وفي متحفنا بعضها ايضا .

وصارت الناس تنغالي بالسيوف وبقية الاسلحة كالنصال والحراب والسهام والمندى والدروع والحوذ والبنادق الدمشقية حتى ان السلطان بيبرس البندقداري لما اراد تقديم هدايا سياسية لباراق سلطان المغول في تركستان اختار الاسلحة الدمشقية لنفسها وروقتها وندرتها .

وقال الجواليقي في المغرب : وبصرى موضع بالشام وقد تكلمت به العرب واحسبه دخيلاً ونسبوا اليه السيوف فقالوا : سيف بصروي . وقال الحصين بن الحمام :

صفايح بصري اخلاصتها فيونها ومطرذاً من نسج داوود محكما

ومن آثار هذه الصناعة النفيسة اسلحة وادوات وصفها بريس دافين

(Prisse d'Avennes) في كتابه الافرنسي (الفن العربي) (L'art Arabe) صفحة ٢٨٠ بما معر به :

« اسلحة طومان باي الاشرف اعني خوذته ونبله وخنجره وفاسه وجوكانه (اسبه عصاه المعوج) ودبوسه بتاريخ سنة ٩١٧ هـ و ٩٢١ هـ مصنوعة من الفولاذ الحراساني ومرصعة بالذهب ترصيعاً دمشقياً بذوق لطيف جداً . فالخوذة شكلها شرقي اسبه مستديرة وهي من الفولاذ الدمشقي ضاربة الى السواد ومرصعة بالذهب ترصيع دمشقي وأطال في وصف اجزائها وسلاسلها وشعارها والآيات القرآنية والعبارات الدينية التي على عصابتها مثل : لا اله الا الله . وعظمة عرشه تمتد على كل الكائنات ولا يمكن لحكومة ان تغيرها . ثم ادعية أخرى مثل امح النصر للمؤمنين الحقيقيين الخ . والدبوس كانت قبضته موشاة بالفضة الفرزني وعلافتها فولاذية مرصعة بالذهب بالصناعة الدمشقية . ثم تطرق الى وصف درع لرأس الحصان مصنوعة من فولاذ دمشقي مرصع بالذهب بالصناعة الدمشقية . » اهـ

وبقيت هذه الصناعة رائجة الاسواق بديعة الطراز الى ان غزا تيورلنك (الاعرج الحديدي) سورية ودخل دمشق سنة ٨٠٣ هـ (١٤٠٠ م) فسبى كثيراً من صناعاتها والماهرين في غيرها فتصوحت ازهارها وذوت نضارتها منتقلة الى بلاد فارس مزهرة فيها . ويقال انه اسر مائة وخمسين الفا من دمشق بينهم الاطباء والصناع والبنائون والحاكة والتجار وارباب الصناعات الاخرى ولا سيما الصياغة المشهورين الى سمرقند فبنوا في بلادهم مصانع خراسان الشهيرة واشتهرت بصناعاتها .

ومن الصناعات التي تحفظ اليوم اسم دمشق « صناعة السيوف الدمشقية » في مدينة فاس المرأ كشية في المغرب .

اما اصناف السيوف الجيدة الفولاذ المشهورة فمنها اليمنية والهندية والسلاجية والدمشقية والحراسانية وتتميز سيوف اليمن بخنجرها وثقوبها وتقوشها ولكنها لينة الغرار لتفلل سريعاً بخلاف الدمشقية فانها صلبة المضارب لينة الشفار حتى يمكن ليها بسهولة دون ان تنكسر ولا تزال آثار صناعة السيوف باقية في اسماء بعض الاسر الدمشقية

مثل بني السيوفي والصيقل والسكاكيني وجوه وبولاد . وفي مجلة المشرق مقالة مفيدة في السيوف الشرقية المجوهرة (٥٧٧:٣ و ٧٠٠)
ويظهر ان القدماء الفوا في الجوهر والصيقله فذكر ابن ابي اصيبعة في تاريخ الاطباء رسالتين للفيلسوف الكندي الشهير (الاولى) في المعادن والجواهر وانواع الحديد والسيوف وجيدها وموضع انتسابها . و (الثانية) في ما يطرح على الحديد والسيوف حتى لا تتلف ولا تنكس . ولا تعلم محل وجودهما الان . ومن الطف ما وصف به العرب جوهر السيف ما نفعه اسحاق بن خلف كما قال المبرد :

التي يحجاب خصره امضى من الاجل المتاح
وكأنما ذر الهباء — عليه انقاس الرياح

ومثل ذلك قول عبد الله بن المعتز العباسي :

وجرد من انعماده كل مرهف اذا ما نضته الكف كاديسيل
جرى فوق مثنيه فرند كأنما لنفس فيه القين وهو صقيل

القيانة وسبك الحديد وعمل الفولاذ

القين الحداد الذي يشتغل بالمبرد ويعرف عند عامتنا بالبندقجي والقرديجي والقرديجي وصنعت القيانة المعروفة عندهم بالقرديحة .

ولقد اشتهر الدمشقيون بهذه الصناعات واستخرجوا المعادن الحديدية من جوار دمشق كما مر ومن مشارف حوران ولبنان والقلون . ولا تزال آثار خبث الحديد الذي تسميه العامة (الكشته) تدل على اماكن المسابك وكذلك اسم المسبكين الجواني والبراني في دمشق . وكانت تقطع اشجار السديان لتذوب الحديد واستخراج الفولاذ فتعرت الجبال من حلالها النباتية وبقيت جرداء الى يومنا ومن التسميات بهذه الصناعات اسماء زيت بولاد وابي حديد والحداد . ولعل اسم قرية حلبون قرب دمشق من اليونانية بمعنى الفولاذ لاستخراجه منها .

ومما يروى ان أسرة الحدادين التي كانت مشهورة في اذرع (حوران) منذ القدم بهذه الصناعة نبت بها حوران فتفرقت في مطاوي القرن السادس عشر في

بلاد الشام ونقلت صناعتها اليها وفي دمشق اشتغل ابنائها بعمل البنادق او البواريد فصادرتهم الحكومة وفروا الى جبل القملون ولم يبق في دير عطية وبيروت وكان احدهم المسمى عبوداً قد اشتهر بعمل البنادق المتقنة فنسبت اليه وقيل لها (العبودية) وكذلك اشتهر بعمل الاجراس الحديدية فنسبت اليه ايضاً وقيل لها (الاجراس العبودية) وبقي حدادو دير عطية يشتغلون البنادق سرّاً بعقود تحت الارض الى زمن قريب .

ومما يتعلق بالحدادة عمل ادوات كثيرة كان لها في دمشق شأن كبير مثل عمل الابر والمسلات والقبابين ولا تزال سوق الابارين خارج باب الفرج تدل على ذلك ومثلها سوق المرادية لعمل المرادن وهي قضبان حديدية لدواليب الردن المتخذ للنسيج . وسوق الحدادين ايضاً .

على انه لما جلب الحديد السويدي من اسوج واشتهر استعماله بطل استخراج الحديد لوطني الذي كانت شائعاً هنا وفي انحاء سورية ولبنان ولم في اعداده طرق جميلة وتفتتات عديدة لا محل لتفصيلها الآن .

القاشاني

وهو نوع من الخزف الصلب المموه بالوان واصباغ بديعة وتقوش رائعة منسوب الى بلدة قاشان على ثلاث مراحل من اصفهان في بلاد فارس . قال ياقوت في معجم البلدان : منها تجلب غضاير القاشاني والعامية تقول القاشي اه . وعامتنا اليوم نقول القيشاني .

وهذه الصناعة التقنها البابليون وعرفها الكنعانيون كما دلت الآثار ونالوها الفرس واليونان والرومان واتصلت بالعرب في صدر الاسلام وتدرجوا بها فانقنوها في بلاد فارس وزين الملوك الاخمينيون قصورهم بتقوشها الرائعة التي توجد بعض قطع منها في متحف اللوفر الباريسي . وابدعها في بلاد فارس ابنة اصفهان شي ولا سيما في زمن الشاه عباس الاول . وفي قونية وبورصة آثار القاشاني السلجوقية . ولها ومتحف الاستانة ناووس بابلي مطلي بمينا اخضر . وانتقلت هذه الصناعة الى دمشق

وعرفت فيها بصناعة (الفضائر القاشانية) ومن الواحة المؤرخة قهرية في بيت انطون افندي ميخائيل السيوفي في دمشق بتاريخ ١٢٥٩ هـ (١٢٦٠ م) .
والقاشاني صنفان صنف بسيط من الخزف المزوج بالحديد يحمر عند شيه ويموه بتركيب قصديري ابيض سميك . وصنف من مواد انقى اذا شوي ابيض وصلاح لصبغه بالوان شفافة رائعة تأخذ بمجامع الابصار .
ولقد كانت في دمشق معامل كثيرة لهذه الصناعة النفيسة منها ما اكتشف امام الباب الشرقي خارج السور سنة ١٨٨٧ م اذ حفر هناك الطبيب النمساوي اورديشيانو قبلاً واستاش دي لوري الاثري الافرنسي نزيل دمشق الآت اخيراً فوجدوا معامل له وآثاراً منه .

ومما عرف من هذه المعامل مصنع بين آخر القيرية واول الجورة من احياء دمشق فيه اجران حجرية لحق الزجاج والتقوية به وله نوافذ لخروج الدخان عند ايقاد النار للتدوير والشي . وقد بقيت فيه قطع قاشانية بيعت منذ ربع قرن او اكثر وكذلك ظهرت آثار معامل في محل بيت المرحوم جبران اسبر حيث الآن مشغل في الآسية بجوار الكنيسة المريمية والدار البطريركية الارثوذكسية .

وقرأت في ديوان العلامة الشيخ عبد الغني النابلسي الدمشقي المخطوط انه ارخ عمارة مدرسة في القسطنطينية بناها الوزير ابراهيم باشا فجاء من قبله رجب آغا القيجي الى دمشق ليأخذ منها معلمين يصنعون له القاشاني وطلب من النابلسي عمل تاريخ يكتب على القاشاني لسنة ١٠٩٢ هـ (١٦٨١ م) فنظمه واخذوه معهم وهذا يدل على بقاء هذه الصناعة في ذلك العهد مشهورة .

وقد فقدت هذه الصناعة منذ قرن ونصف . وفي المعامل التي اكتشفت امام الباب الشرقي في حديقة الطبيب النمساوي ما يدل على ترك العمال اشغالهم فجأة وتخريب آنانين الشي بحادث فجائي لعله بالزلزلة العظيمة التي ارتجت منها اعطاف دمشق مراراً في سنة ١٧٥٩ م و (١١٧٣ هـ) فهدمت مآذنها وقوضت كثيراً من ابنتها فترك العمال اعمالهم وطمر المحل .

ومن اسباب انقراض تلك الصناعة ايضاً انحصارها بأمر خاصة فنقلص ظلها

بها . وفي حلب الى اليوم اسرة القاشاني التي يقال انها انحصرت فيها هذه الصناعة ثم انقرضت الصناعة وبقيت الاسرة جاهلة امرارها منسوبة اليها بالاسم فقط . وربما كانت منسوبة الى بلدة قاشان المذكورة او الى الاتجار بالقاشاني .

ولطالما تنافس الدمشقيون باقتناء هذه الآثار الفاخرة فعملت منها الصهاريج والسلبيلات والباذهنجات والقائم والزهريات والقلل^(١) واشباهها . ورصفت بصفائح جدران البيوت ومرافقها حتى انها بعد حادثة سنة ١٨٦٠ م صار السكان يتزعونها من البيوت ويستعيضون عنها بالرخام فانتقلت تلك اللوح النفيسة الى اوربة وقيل وجودها عندنا ولا سيما بعد تكرار الحرائق والتدمير .

وكان اشهر قاشاني في الجامع الاموي في دمشق وفي جامع المسجد الاقصى في القدس الشريف . ففقدته الاموي بالحرائق المتوالية عليه . وتجد في بعض المساجد والحمامات والبيوت آثاراً نفيسة منها اهمها ما في جامع الشيخ عبي الدين بن العربي الذي جده السلطان سليم الفاتح العثماني وفي حمام القاشاني المصنعة جدرانها بالواحة وقد حول الآن الى سوق . وفي التكتين السليمية والسليمانية . وفي قاعة القاشاني التي بناها البطريرك مكار يوس ابن الزعيم في دار البطريركية الارثوذكسية فاحترقت سنة ١٨٦٠ م . وفي سلسبيل جامع الدرويشية المؤرخ في سنة ٩٨٢ هـ (١٥٧٤ م) وفي جامع سنان آغا في المناخلية . وفي دار اسعد باشا العظم . وما في منحف الوطن من بقايا المخلقة الاشكال وبعضها نفيس عليه كتابات ومنها ادوات كالمرابا وغيرها . وكلها بدبعة اللوات والنقوش والطرز .

ومن قرأ وصف الرحالة والمؤرخين للجامع الاموي الكبير قبل ان تكب بالحرائق الكثيرة ولا سيما الاخيرة منها . عرف ما كانت عليه من الرواء النادر والزخرف النفيس .

(١) الصهاريج البرك والبحرات في وسط الدور . والسلبيلات هي المياه التي تنحصر بانبوب للاستقاء . والباذهنجات هي انابيب كأنبوب المدخنة او البخيري تستعمل للتهوية . والقائم آنية لرش ماء الورد في الحفلات ونحوها . والزهريات اوان لزراعة الزهور او وضعها فيها . والقلل جمع قلة وهي الجرة العظيمة .

واشتهر الاندلسيون بمعاملهم القاشانية في مدينة مالقة سنة ١٣٥٠م ومنها نقلت الصناعة الى ايطالية فعرفت اولاً في فلورنسة ثم اشتهرت بها مدينة فاينسة فسببت القطع القاشانية اليها فقبل المالقي (Mayolca) والفاينسي (Faïences) واقتبسها منهم الفرنسيون وتفقوا في معامل مدينة (روان) ثم افنى اثرهم الالماني والانكليزي.

ووصف ابن بطوطة وغيره من المؤلفين والسياح هذه الصناعة وذكر الادريسي خرف دمشق المطلي بالمينا.

ومما عرف من آخر اسرار هذه الصناعة انه كان يعمل آجر مختلف الاشكال والحجوم والزوايا مجبول من الرمل الابيض والجص مفرغ بقوالب حسب الحاجة فيكتب على سطوحها آيات واشعار وترق نقوش معدنية وصور بمواد ثابتة. وبعد ان تجف يذرع عليها مسحوق الزجاج الدقيق جداً او تطلّى به ممدوداً عليها بسائل غروي وتسوى في وطيس (نور) معد لها فيذيب الزجاج ويغشي تلك السطوح بطبقة رقيقة مناسبة لماعة تشف عما تحتها من الالوان والاصباغ.

المينا

المينا كلمة فارسيته (مينه) اي جوهر الزجاج وهي (أكاسيد) معدنية تصير بمادة زجاجية وتطلّى بها الاواني المعدنية والادوات لاجل اظهار رونق نقوشها وجمال رسومها. فهي في المعدن كالقاشاني في الخزف ولذلك يسمى القاشاني بالمينا أحياناً.

وصناعة المينا عرفها الطورانيون وتفقوا فيها واشتهرت في اشور ومصر وفنيقية ثم في الصين والهند قبل الميلاد بقرون. ثم عرفها الفرس ونقلها عنهم البزنطيون والدمشقيون واتجروا بها من فارس ثم اتقنوا عملها ولكنها لم تكن من صناعاتهم الوطنية الشائعة مثل غيرها ونقلها الصليبيون في القرن الحادي عشر للميلاد الى اوربة فبلغت كمالها عندهم في القرن السادس عشر المسيحي.

ولا يزال اهل الهند وفارس والارناؤوط ولا سيما الشيركس متفوقين فيها الى

يومنا حتى يقسال (ميناء شركسية) وهي من الطبقة الاولى من الصناعات الاخرى عند غيرهم.

وكان الفرنسيون يتغالون باقتنائها فذكرها المؤرخون كثيراً في زمن الصليبيين. وقال المؤرخ راي: ان المسيو (بيو) وجد سنة ١٨٧٢م انقاض معمل لهذه الآنية قرب مدفن اللاتين في دمشق.

واشتهرت معامل جزيرة ميورقة في الاندلس بهذه الصناعة قبل اشتغال اوربة بها. وعنما عرفه الصليبيون منها نقلوا صناعاتها الى بلادهم وانقوها.

الفسيفساء

ان كلمة فسيفساء يونانية اما تعريب (بسببوس - Psipsos) او من كلمتين هما (بسفي - Psifi) اي قطع و (ذونو - Zoto) بمعنى مرتبطة. فيكون معناها قطع صغيرة مرتبط بعضها ببعض وقد عربتها العرب بلقط (الفسفس) قال امين بن خزيمة في بشر بن مروان:

وبنيت عند مقام ربك قبة خضراء كالمثل تاجها بالفسفس

فساؤها ذهب واسفل ارضها ورق تلالاً في السهم الحندي

ومنها كلمة (الفص) و (الفصوص) للقطع الصغيرة العظمية ونحوها. وتعرف ايضاً بالزليج ومنها قال الاسبانيون (Azulejo) ويرى دوزي في تكملة المعجمات العربية انها محرفة عن لازورد الفارسية ومنها الواح القيشاني (فاينس) وهي ملونة ومطلية بالرونق (الفرنيش). والخزفيون كانوا يعملون بها الواحاً مطلية اسمها (Zelis) تتخذ

تغشية الجدران الداخلية ذات لونين ابيض واسود^(١) (اه).

اما الاقربح فيسمونها موزاييك (Mosaïque) نسبة الى (موزة) إلهة الفنون

ومنها اسمها في اللغات الاوربية.

والفسيفساء افلاذ مربعة غالباً من الزجاج الملون او الذهب او الحجارة الرخامية ونحوها ترصف على الجدران والسموك (السقوف الداخلية او الطوائف) وارض

(١) راجع تكملة المعجمات لدوزي (١: ٥٩٨).

البيوت ونحوها بطبقة من الجبس (الجفصين) فتؤلف اشكالاً هندسية رائعة من نقوش ورسوم وكتابات .

ولقد عرف هذه الصناعة الاشوريون والبابليون والفنيقيون وزينوا بها قصورهم ومعابدهم ثم عرفها اليونان والرومان فنفوقوا بها ورسفوا بها جدرانهم وارض قصورهم . واشتهر بها البرنطيون وهم الروم الذين كانوا في الأستانة فلا عجب اذا سموها بلغتهم . ولقد عملوا الفسيفساء البلورية مثل القاشاني وهي نقوش من الزجاج الملون والمذهب ترصف على طبقة من الجبس

وتقلوها الى دمشق أيام استقدم الوليد بن عبد الملك الاموي اثني عشر الف صانع منهم لبناء هيكل راموت او المشتري بعد نقضه وتحويله الى كنيسة ثم الى الجامع الكبير المنسوب اليهم فزينوا بأنواعها جدران الجامع وبنموكه حتى كان آية في الابداع والافتان وبقيت الى اوائل القرن السابع للهجرة والثالث عشر للميلاد . مع ما انتابها من الحرائق مراراً كثيرة . ولقد وصف ابو الفداء ملك حماة المؤرخ تأثير حريق سنة (٤٦١ هـ ١٠٦٨ م) في الجامع فقال : « فأتى الحريق على الجامع فدمرت محاسنه وزال ما كان فيه من الاعمال النفيسة » . ووصفه ابن جببر الكشاني الرحالة بقوله : « وانزلت جدره كلها بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء وخلطت بها انواع من الاصبغة الغريبة قد مثلت أشجاراً وفرعت أغصاناً منظومة بالفصوص بيدع الصنعة المعجزة وصف كل واصف نجاء يغشي العيون وميضاً وبصيصاً » .

وقال الجاحظ في وصفه : « وهو مبني على أعمدة الرخام طبقتين التحتانية اعمدة كبار والتي فوقها صغار في خلال ذلك صورة كل مدينة وشجرة في الدنيا بالفسيفساء والذهب الاخضر والاصفر وفي قبليه القبة المعروفة (بقبة النسر) ليس في دمشق شيء اعلى ولا ابهى منظراً منها » .

وقال الرحالة ابن بطوطة : « انه زين بفصوص الذهب المعروفة بالفسيفساء تخالطها انواع الاصبغة الغريبة الحسن » .

وافرق على الجامع أموال كثيرة لعمل هذه الفسيفساء وغيرها من الزخارف والبدائع والروائع فقال الامام عمر بن عبد العزيز : « اني ارى في اموال مسجد

دمشق كثرة أنفقت في غير حقها فلو استدركت ما انا مستدرك منها فبرد الى بيت المال لكنت انزع الرخام والفسيفساء وانزع هذه السلاسل واعيد بدلها حبساً » . فلما جاء وفد ملك الروم ودهش من محاسن الجامع ونقوشه قال عمر : « اني ارى مسجدكم هذا غيظاً على اعدائكم وترك ما هم به » .

وبعض الفسيفساء باقية في قبة الجامع الاقصى في القدس الشريف وفي كنيسة بيت لحم الكبرى وفي قصر الحمراء في الاندلس لان عبد الرحمن الاموي ملكها أخذ صناعات من الروم الى قرطبة لتزيين مسجدها وهو من الافتان بمكان سام . ومنها مخطط (خارطة) مادبا في فلسطين ونقوش قصر جرش . ومساجد القاهرة وفارس والهند وسورية وفلسطين .

ومما بقي من الفسيفساء بعض قطع في الجدار الشمالي من حرم الجامع الاموي في دمشق وبعضها غشي بالكس . وانفس ما هو باق منها برونقه القديم ما ازدانت به قبة الملك الظاهر بيبرس البندقداري من الداخل ومعظمها من الحجارة المذهبة الملونة البديعة الاشكال والهندام تمثل أشجاراً وأبنية وأشكالاً هندسية ورفوماً رائعة .

قال المسيو غوستاف ليون الفرنسي (Gustave le bon) في كتابه (حضارة العرب) ما معربه محصلاً : « فضل العرب النقوش القاشانية على الفسيفساء في اول عهدهم بالزخارف . فاستعملوا نوعين من الفسيفساء . (الاول) ما كانوا يرصفون به ارض الغرف واسفل الجدران الرخامية والاجرية بالوان كثيرة وحجوم مختلفة . و (الثاني) ما كانوا يغشون به الجدران ولا سيما جدران المحاريب وهذا من الطرز البرنطي الذي اقتبسه العرب عن صانعيه » اهـ .

وعلى عهد السلطان سليمان القانوني العثماني استعير عن قطع الفسيفساء بالقاشاني المحلي بالبناء . وبقيت هذه الصناعة في دمشق الى اوائل القرن السابع للهجرة والثالث عشر للميلاد . وكتب المستشرق رينو الفرنسي (Reinaud) المتوفى سنة ١٨٦٧ م رسالة في (فن الفسيفساء عند العرب) ضمنها فوائد جديدة بالمطالعة .

وقد اندثرت هذه الصناعة في سورية واستعير عنها بالفسيفساء المعدنية او الخشبية المعروفة بالتطعيم والترصيع . وهي مشهورة بنفن فيها صانعوها .

الترصيع او التزليل في المعدن والخشب

روى المؤرخ هيرودوتوس ان مخترع هذه الصناعة غلوسيبوس من ساقص وقيل اصلها من الموصل انتقلت الى سورية لكثرة نحاسها القديم واشتهرت بها دمشق . حتى اوصلها الدمشقيون الى اقصى درجة من الكمال .

وصناعة الترصيع او التزليل هي نقش الحديد او الفولاذ بالذهب او الفضة او معدن آخر واسمها الافرنجي (Damasquiné) والايطالي (Damaschina) الى يومنا . وهي نسبة الى دمشق لانهم اخذوها منها لتزيين ادواتهم واوانيهم واسلحتهم . وطريقة عملها : ان تحفر اثالام عميقة او اخاريد في المعادن ثم تحشي باسلاك ذهبية او فضية وهذا الغر انواع الترصيع وأجودها .

و يوجد ترصيع آخر بسيط يكون سطحياً اذ يحمي المعدن الى ان يزرق ثم تحفر فيه خطوط دقيقة بسكين ويرسم الشكل المطلوب بنقش حاد يعرف بقلم الحفر ثم يمد خيط ذهبي او فضي ويثبت في الثلم باعناء بآلة نحاسية . واما النقش فيتم بنقش حاد يحفر اشكالاً هندسية ورسوماً وصوراً تبقى فارغة الاثلام ومعظمه على النحاس

وكانت صناعة النحاس والترصيع بالغة حد الاتقان في زمن الملك الظاهر بيبرس البندقداري في تضاعف القرن السابع للهجرة والرابع عشر للميلاد فسببت اليه وقيل لها (الصناعة الظاهرية) وفي متحفنا العربي الدمشقي قنديلان عليها تاريخ سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٤ م) من هذا النوع البديع مع الاغطية المخروطة المعروفة (بكسر جفت) ومع الزجاج الذي يستصحب به وكلها من الصناعات الدمشقية المنقنة .

ولقد وصف المسيو بريس دافن (Prisse d'Avannes) الفرنسي في كتابه (الفن العربي) الذي مر ذكره بعض ادوات من هذه الصناعات مثل كاسات الصغراي النحاس الاصفر وآنية الشبه اي البرونز المغشاة بالنقوش الرائعة والكتابات العربية . وقال : ان اسماً خاصة كانت هذه الصناعات مخصصة بها فنلقن عملها للعلماء والاساطين والامراء في دمشق ومصر والموصل . وكانوا يصنعون الاباريق والطسوت والافساح والمصابيح مزينة بالرسوم واوراق الشجر والدوائر الهندسية

المتشابهة التي يسميها الافرنج باسم (الصناعة الدمشقية) اي ديماسكينه . وقال انهم كانوا يحفرون اسماءهم على صناعاتهم في القرن الثالث عشر للميلاد . ونقلت هذه الصناعة الى ايطالية في القرون المتوسطة .

وذكر ترصيع الاواني بخيوط ذهبية وفضية وتغشية الخشب البسيط بخشب نفيس كالجوز وغيره مما يعرف لعهدنا « بالتليس » او « التغشية » عند ارباب هذه الصناعات .

ثم قال : ولقد رحلت امر دمشق الى ايطالية وتديرت بيزه وفلورنس وجنوى والبندقية . واشتهرت فيها معاملها حتى تفوقت بها على معامل بغداد وصقلية (Sicili) . الى ان قال : ان اتخاذ تلك الاكواب المنقوشة في الحفلات كانت للنافس بهذه الصناعة الرائعة . ولكنه انتقد الكتابات المتشابهة التي كانت كلها ادعية لا يمكن حل الغازها » انتهى قول دافن .

ومن الآثار الباقية من هذه الصناعة الدمشقية ما في كاتدرائية بايو (Bayeux) وهو قنديل مرصع ومنزل بالفضة . وعلى قبر السلطان بيبرس الشافعي قنديل شعبي اي برونزي مذهب مزين وهو بغاية الاتقان عمله احد خاصه ذلك السلطان تذكراً له . وفي بعض المجاميع الصناعية في اوربة جام من الشبه « البرونز » الدمشقي المرصع بديع الصنع والنقش .

وبما ان هذه الصناعة تعلق بالنحاس ايضاً رأيت ان اقول كلمة في تعديسه من مناجم كثيرة حول دمشق . منها مدينة كاشيس او خلقيس وهو اسم يوناني بمعنى مدينة النحاس وتسمى اليوم « عنجر » في اول وادي الحرير المؤدي الى مدينة دمشق هذه بطريق الشام القديم وقرب عنجر قرية « جون النحاس » . وكذلك في محال أخرى آثار معادن نحاسية عدت قديماً .

وفي دمشق سوق النحاسين المسعي قديماً (البريص) التي ربما كانت تحريف (باراديسوس) اي الفردوس . ولعل اسم برزه منها ايضاً . وتوجد اسماء أسر كثيرة منسوبة اليه منها بيت النحاس على اختلاف مذاهبها ومواطنها واصولها . وما رواه المؤرخون : ان علي بن عريف النحاسين الدمشقي صنع ادوية مع

التقط في قدور من النحاس حتى صارت كأنها حجرة نار وخرب بها الابراج التي صنعها الصليبيون من خشب وحديد مغطاة بجلود مطلية بالخل حتى لا تنفذها النيران . وكان كل منها يسع نحو خمسمائة من الزقاقين والنفاطين وذلك في حصار عكا سنة (٥٨٦ هـ ١١٩٠ م) .

وكان النحاس يصنع سكباً او طرقاً وتعمل منه ادوات كثيرة لا يزال بعضها في المتاحف والبيوت والجوامع والكنائس . وفي متحفنا الدمشقي امثلة كثيرة منها . ومن معامل النحاس ما اكتشف في بيت سكر في محلة باب توما عند ترميمه اخيراً .

نقش البيوت والجدران

هي صناعة شرقية قديمة اشتهر بها الفرس والبيزنطيون فشاعت في مصر وسورية ونقلها السجوقيون الى بلاد أخرى . ولكن الدمشقيين تفوقوا فيها فزخرفوا بيوتهم باصباغ والوان ورسوم دقيقة بديعة واشتهر بها الاندلسيون في قصورهم المشهورة . وكانت تحتاج الى الذهب فاشتغلت به أسرة خاصة في دمشق تعرف ببني الذهبي الى يومنا لانها كانت تجر بالذهب وانواعه من محلول ومسحوق مما يصلح للدهان والنقش لتزين الجدران والاشباب بالنقوش والكتابات وكانت صنعتهم ايضاً التذهيب به .

ولقد فقدت هذه الصناعة منذ أقل من قرن ولها بقية صالحة عندنا وعرف بعض الذين مارسوها بالقاب الدهان والنقاش والمراش والذهبي والرسام والمصور ومن بقاياها الماثلة لنا اليوم ما في الدار العظيمة في البزورية . وغرفة حمة العظيمة ايضاً . وفي بعض البيوت مثل الغرفة التي بيد آل مردم بك قرب سوق الحميدية في زقاق الفخر الرازي المسماة (خركاه) وهي لفظة فارسية بمعنى المثانة سميت بذلك لتشابهها ومثل بيت القوتلي وشمعايا الاسرائيلي وبيوت أخرى معروفة وبعضها مرت عليه ثلاثة قرون وهي لا تزال بروقتها وروائها الجميل . ومن هذا النوع نقوش سقف الجامع الاموي الحديثة بعد تجديده على اثر احراقه الاخير فبعضها قديم الطراز

والآخر عجيبته واحداها ما في موقف (محطة) السكة الحجازية في آخر شارع جمال باشا الى جنوبي المرجة الغربي .

ومما يتعلق بهذه الصناعة التجارة لعمل الابواب والنوافذ والخزائن وما شاكلها مما يدهن وينقش ويحصى بزخرف نفيس . ولقد اشتهر بها كثيرون فنسبوا اليها وقيل لهم بنو التجار وهم من طوائف واصول مختلفة حتى لا يكون احدها من انساب الآخر .

واشتهر منهم بدر الدين بن حسام الدين التبريزي المعروف بالحسن الجوهري الذي صنع القماري الثلاث العظيمة التي فوق محراب الجامع الاموي الكبير بالمقصورة . كان في زمن السلطان سليم العثماني الفاتح ومن استقبله عند دخوله هذه الحاضرة . وهو من سلالة المنسل محمد الشهير بشيخ زاده الذي جاء من جهة اصفهان الى دمشق سنة (٧٨٤ هـ ١٣٨٢ م) وحمل معه جواهر ومعادن فلعب بالجوهري وبقي الاسم متعاقباً في سلالة كما ذكر الشيخ حسن البوريني في تاريخه من مخطوطات خزنة مجمعنا العلمي الدمشقي .

ونشأ بين المسيحيين أسرة بني النجار واصلها من بني البلدي فنسبت الى صناعتها النفيسة واشتهر منها وهبه النجار والد المرحوم صفرونيوس مطران طرابلس للروم الارثوذكس وله اعمال في القواطع (الايقونسطاسات) الكنسية منها قاطع كاتدرائية الروم الارثوذكس في بيروت وهو من خشب بديع ونقش رائع وتلوين يأخذ بمجامع القلوب وهندسة انيقة وقد كتب عليه اسمه بتاريخ سنة ١٧٨٣ م . ومثل ذلك منابر وقواطع كثيرة في كنائس لبنان ودمشق وسورية وفلسطين ومصر ونحوها .

ولا تزال بعض الدور الدمشقية عند جميع الطوائف من هذه الصناعات الانيقة التي اهممت منذ نصف قرن . وفي متحفنا اشياء منها . ومن ذلك التفتية بصفايح الجوز الخشبية وللدمشقيين افنانات بديعة فيه وفي نقوشه .

النسيج او الحياكة

اشتهرت دمشق قديماً بالنسيج الى ان فتحها العرب فحاكوا اقمشتهم على طراز ساساني فارسي اوقبطي او رومي فكانت ترقم عليه صور الطرائد والوقائع والفرسان والقناص وما يتعلق بها ويضاف اليها من الرسوم البديعة والرقوم الجميلة . واشتهرت بلاد فارس بعد ذلك بالاطلس والقطيفة (المخمل) والديباج الحريري الموشى فصار يرقم بصور الاثمار والازهار والحقول المديجة بالالوان والحيوانات السارحة في الغابات والحدائق وكلها من المشجر الغريب المهندسة والاشتباك فسماه الايطاليون (Damasco) لانهم اول من تناولوه عن الدمشقيين فسموه باسمهم (الدمشقي) ومنه اسمه الافرنسي (Damas) والانكليزي (Damask) .

اما كلمة (ديماس) للنسيج القطني المعروف فارجح انها مأخوذة من هذه الكلمة . او انها يونانية من (اندميا) بمعنى كساء او ثوب . واول من اخذها الى اوربة الهولنديون ونقلت الى انكلترة سنة ١٥٧٢ م من هولندة .

واري ان كلمة دمشق ودمقس ودمقاس ودمقس التي اطلقت على الحرير المنسوج ربما كانت محرفة عن كلمة دمشق هذه . وقيل انها معرب (دمس) اي الحرير الابيض بالفارسية . ومن الالفاظ التي قال البرقاليون انها عربية الاصل (Adereçar) وهي تقرب من كلمة طرز او درز ومعناها عندهم الوشي .

ولقد اشتهر الوشي والديباج في زمن الدولة الاموية وثفاخر به ملوكهم حتى روي انه كان عند هشام بن عبد الملك اثنا عشر الف قميص موشى واتخذ معاوية بن ابي سفيان (دار الطراز)^(١) في قصره المعروف بالخضراء^(٢) لنسيج الحرير

(١) كان (ديوان الطراز) و (صاحب الطراز) المسمايان بزمن الفاطميين (دار الكسوة) و (صاحب الكسوة) من شعار الملوك لعمل اثواب الخلفاء .

(٢) لا يزال محل هذا القصر اي دار الخلفاء الامويين في جنوبي الجامع الاموي الى الشرق يعرف بمصبغة الخضراء الى يومنا وكان فسيحاً تحديق به ابنة الامويين التي ادخل بعضها في دار اسعد باشا العظم عند تشييدها .

صناعات دمشق القديمة

المطرز ووشي الثياب الملكية المذهبة وبقيت دكاكين البزازين الى زمن ابن بطوطة وما بعده فذكرها في شوارع دمشق . وكانت على عهد الصليبيين حافلة بالانوال التي تنسج الحرير وانواعه البديعة . ولقد ذكر الشريف الادريسي رواجه في البلدات البعيدة في ايامه وما كان له من المقام الرفيع والمحسن الرائعة .

ووصف بريس دافن الافرنسي الانف ذكره هذه الصناعة في كتابه (الفن العربي) بما ملخصه معرباً فقال : ان النسيج الدمشقي باقية آثار روائه وبدائع زخرفته في المتاحف فصنع اولاً على اطرزة مختلفة مزركشة بصور الطرائد والحروب ولكن الفرس تطرقوا الى رسم الاشخاص فيه اه .

وذكر كثير من مؤرخي العرب وكتبة التراجم ما كان للنسيج من المنزلة . فقالوا : ان العنايةات اسم قماش حريري نسب اليه بعض العلماء لاشتغالهم به وكذلك الحرير فقيل العنايةات والحريري . وذكروا ان بني الفلاقي في دمشق منسوبون الى بلدة فلاقس من نواحي حمص اذ جاء جدم السيد محمود منها الى محلة القيمرية بنسج الآلاجه واشتهرت فيها صنعتها ونشأ من حفدته السيد احمد الكاتب الشاعر في القرن الثاني عشر للهجرة . واشتهر كثير من العلماء بنسج هذا القماش ومنهم احد الامراء الخوافشه في دمشق فلقب بالحريري .

وكانت الامر الكثيرة لنسب الى صناعات النسيج وما يتعلق بها مثل الفتال والرباط والطباع والرسام والمطرز والطراز والعقاد والغزال والغزولي والقطائف والحلاج والكبابية والحائك والكتاني والمنير ومسديه والحوام والطوا . وبعضها ينسب الى آلات النسيج مثل النوبلاقي والمكوكبي والمشاطي .

ولقد جلب معهم كثير من الوزراء العثمانيين الذين تولوا دمشق خياطهم وخدمتهم وارباب بعض الصناعات التي كانوا يحتاجون اليها وتديروا دمشق ونشروا فيها صناعات جديدة تركية او وطنية نسب بعضهم اليها مثل التريزي والفرايه وكركري وكركي والزنانييري والكبرافي .

ومما يتعلق بالنسج الصباغة ولقد اشتهرت بها هذه الحاضرة منذ القديم ومن اشهر مصابغها مصبغة الخضراء محل دار معاوية الاموي كما سبق . والى الصباغة نسب بنو

الصباغ . ومنها القصارة والبيها نسب بنو القصار . ومنها طبع القماش او الطباعة والبيها نسب بنو الطبايع والبصعجي .
ومما ضربت به هذه الصناعة سبي تيمورلنك لكثير من ساجيها ومع ذلك فقد بقيت الى عهد قريب بغاية الاتقان ولطالما كانت شائعة في انحاء سورية حتى ان كثيراً من تماثيل التدمريات في دار التحف العربية عندنا نرى في ايديها المغازل والغزل .
وهي اشارة هذه الصناعة عند النساء الشرقيات .

الزجاج

نقلت هذه الصناعة من صور الفينيقية الى دمشق الارامية فأنشئت فيها المعامل واشتهر الزجاج الدمشقي مثل غيره من الصناعات الدمشقية ولا سيما في زمن الصليبيين ولقد قال ابن بطوطة لما نزل دمشق مانصه : « وفيها شوارع مستطيلة فيها حوانيت الجوهرين والكتبيين وصناع اواني الزجاج العجيبة » . وقال الرحالة بوجيومي سنة ١٣٤٦ م : « انه رأى معامل الزجاج في دمشق تشتغل على طول الجامع الاموي » .
ومن ذلك الزجاج الملون المتخذ للقاري وله بقايا في بعض الدور القديمة . ونقلت هذه الصناعة الى الاندلس مع الدمشقيين واشتهرت بها مرسية ومالقة والمريّة .

ومن اشتهر في دمشق من الزجاجيين ابو اسحق ابراهيم بن محمد الخوي الملقب بالزجاج لانه كان في اول امره يخرط الزجاج فنسب اليه واشتهر بالادب وتوفي سنة ٣١٦ هـ ولما صحبه ابو القاسم عبد الرحمن بن اسحق الخوي البغدادي نسب اليه لا الى الصناعة فقبل له (الزجاجي) فتأمل الفرق في التسمية .

ولقد ضعف شأن هذه الصناعة فجددت منذ نحو اربعة قرون بعض التجديد اذ جاء نفر من (بني الدالي) من خليل الرحمن في فلسطين المشهورة بزجاجها فجددوا معالم الصناعة وهم المعروفون اليوم باسم بني (القزاز على لغة العامة في لفظ الزجاج) في محلة الشاغور .

البناء

اشتهر الشرقيون بالبناء وهندسته فتميزت كل أمة فيه بمزايا خاصة منها الطراز

الساساني واليوناني باشكاله الثلاثة الدوري واليوني والكورني . ثم وجد في بزنطية الشكل البزنطي . واخذ العرب طرازاً من الساساني والبزنطي اشتهروا به فجاءت ابنتهم بينهما وتميزت القناطر العربية بشكل نصف قوسين والقوطية بنصف دائرة . وعرف العرب بعقودهم المستطيلة وتزيين القباب باشكال هندسية مجسمة فبنوا قبابهم مئمنة الاضلاع ثم مربعها ثم ذات ست عشرة ضلعاً فانتقلوا تدريجاً من المربع الى المدور وكانوا لا يحفلون بالتزيين الخارجي ثم مالوا اليه بعد زمن ومن مميزات الشكل (المقرنص) مثل ما هو فوق مدخل الظاهرية في دمشق وغيرها من الابنية القديمة .
واما الكتابات على جدران الابنية فكانت بالكوفي والنسخي والمشبك على ابواب المدينة والصور والقلعة وابراجها والابنية الأخرى كالمساجد والمدارس فنماها ما هو آيات قرآنية كريمة ومنه وصف اوقاف كانت للجوامع والمدارس فنقشت اسمائها واما كتبها ومقاديرها لتخفظ من عبث الايدي بها . وذكر ابن طولون الصالح في (رسالة المزة) المخطوطة : انه عندما يبطل الحاكم طرح ضربية على الناس ينقش ذلك في الجامع والقلعة ودار السعادة اهـ . وكانت تنقش اسماء البانين ايضاً والمهندسين ونحو ذلك وقد جمعت كثيراً من هذه الكتابات لانشرها . وقد نشر كثير منها في كتب الافرنج ورحلاتهم ولا سيما بالالمانية ولكنها لا تخلو من مزائق ومغامز ولم في هندسة ابنتهم اشكال كثيرة مختلفة ^(١) .

ولما امتزج السوريون بالعثمانيين اقتبسوا شيئاً من طرازهم . وشاع في اوربة الطراز القوطي مقبلاً من الطراز العربي في الاندلس .

ومن أعجب الهندسة القديمة هيكل رمون (محل الجامع الاموي الآن) بزمين الاراميين ثم الرومانيين واسواق دمشق بزمين الرومانيين والكنيسة المريمية بزمين اليونانيين والجامع الاموي ودور الامويين والمدارس والقلعة وبعض القصور العرب وعلى بعضها اسماء مهندسيها مثل ابراهيم بن غثائم المهندس على باب ا وهو دمشقي . وكان لبعض ملوك دمشق شعار (رنك) خاص مثل (صور

(١) بين المسيو غايه في كتابه (صناعات العرب) اختلاف هذه الا

دمشق وبغداد وحلب والبصرة وغيرها .

الملك الطاهر يبرس البندقداري . وزهرة الزنبق بن اسدين لنور الدين الشهيد وغير ذلك مما نراه في خارج الابنية الباقية وفي داخلها . والآ خر ذهب بندهاب المباني

منذ عهد العباسيين الى ايامنا بالغريب والاحراق والزلازل والاهمال . وكان تحت التماثيل معروفاً لان مؤرخي الروم ذكروا تماثيل كثيرة بديعة النحت والزوا في قصور الخلفاء بدمشق والعراق ومصر والاندلس ولقد اشتهر الدمشقيون

بفتح الحجارة ونقشها وتصويرها ولم سوق تدعى (سوق النحائين) الى عهدنا . ومن بديع الابنية المتأخرة طراز التكتين السليبية والسلجانية وفيهما القاشاني النفيس والنقوش الرائعة . وكذلك ابنية سنان باشا ومراد باشا من حكام هذه المدينة ومنها قبة باب البريد . والقاعة المحكمية التي وصفها الشيخ حسن البوريني في تاريخه المخطوط في خزنة مجمعنا العلمي العربي الدمشقي بقوله : انها ليس لها نظير بناها امير الامراء محمد النجدي في دارهم لصيق الجامع الاموي من الشرق .

وفي الصالحية (بسفح جبل فاسيون) في باب السوق المواجهة لجامع الثابتية محلة (بين المدارس) وعلى ابوابها نقوش عربية بالحجر ذات رونق وثقافة وداخلها غرفتان الى الشرق وفيهما مدفن . وقبة محصنة بنقوش رائعة . واما التي على يسار الداخل فهي بديعة النقوش والكتابات محصنة الجدران قد اقتلع من جدرانها كثير من قطع القاشاني الثينة ونقوشها على علو نحو مترين وهي من أهم آثار دمشق الداخلية في نحو سنة (١٣٩٧ هـ ١٨٠٠ م) وقد زرتها مع رصفائي اعضاء المجمع العلمي اول مرة (في شهر حزيران سنة ١٩١٩ م) وحرصنا الحكومة على تنظيفها وحفظها لتكون ميادة للسياح وروام الآثار . ومن تلك المباني دار اسعد باشا العظم قرب الدار الخضراء التي كانت قصر الخلفاء الامويين وكان الراز فيها اي رئيس البنائين والعملة معظمهم من مسيحيي دمشق . قال الشيخ احمد البديري الخلاق في تاريخه المخطوط ما يحصله بلغته الاصلية : جاء محصل من قبل السلطان لتحصيل المال من سليمان باشا العظم . فأرسل خلف المعاصرة (اي البنائين) الذين عمروا السرايا وتعديهم . . . الخ وكان المعلم يطلق على رئيس البنائين . وفي ذيل القرماني من

مخطوطات خزنة مجمعنا : ان بانيه اتفق عليه اربعمائة كيس والكيس خمسمائة غرش اجرة العمال . واما الخشب والبلاط والتراب وغيره فكله من بساينه وارزاقه . وبقي العمال يشتغلون في دار الحريم سنين وما كملت . وعدد العمال من غير ضبط ثمانمائة . وحاصل الامر نقلوا عمن ساح في البلاد ورأى ابنتها ان ليس مثلها في ملك بني عثمان حتى ولا سراية الملك المعظم اه .

واخبرني احد المعمرين من بضع عشرة سنة اخباراً غريبة عن بناء هذه الدار وما جرى للبنائين الحلبيين الذين استقدموا لمساعدة الدمشقيين وغلبة الدمشقيين ايام بفن الهندسة البنائية . . . وان اجرة المعلم اليومية كانت نحو عشرة قروش واجرة الفاعل نحو ثلاثة . وهذه الدار جامعة لا خرفنون الهندسة والصناعات الدمشقية فهي احسن مثال لها وعندي وصف لها قبل خرابها الاخير . وكذلك كانت القيسارية العظمية المعروفة (بخان العظم) .

ومن محاسن الابنية الدمشقية ايضا قاعة في زقاق النحر الرازي من دور آل مردم بك الآن بديعة الهندسة والنقوش في الستمك والجدران من نوع (الحركاه) اي المثلثة واصلا لآل الكيلاني المشهورين في دمشق وحماه . الى كثير من امثلة البناء الدمشقي في بعض الدور الباقية على رونقها القديم واكثرها روم فقد طرازه . وعندنا اسر باسم البناء والنحات والحفار والدهان والرسام والنقاش تدل على صناعات البناء وما يتعلق بها .

ومما يدخل في صناعة البناء هندسة المياه وتوزيعها في الافنية الحلوة والمالحة الى الطوالع (اي محل توزيع مياه القنوات) والبيوت والمجاري بطرق فنية ولها مخططات (خارتات) لمعرفة توزيعها واصلاحها . ولقد ذكر التاج السبكي في كتابه (معيد النعم) شروط صاحبها . والذي يقسمها يعرف بالفرضي واشتهرت اخيراً أسرة آل الشطي الدمشقية بتقسيمها وعندهم اصول توزيعها والذين يتعاطون امرها يقال لهم القنياضي (واراها تحريف القناتي) والشاوي .

الوراقة وما يتعلق بها

ان صناعة الورق لناولها العرب عن الفرس كما يظهر من اسماء كثير منها مثل الكاغد والمهرق . فعرفوها اولاً واتخذوا الورق من الحرير ثم من القطن وانشأوا له المعامل الكبيرة في هذه المدينة وعنها نقلت الى الاندلس واوربه . ولقد كان عند المؤلفين وراقون وهم الذين يستحضرون الورق ويصفونه بمصافل من العاج ويقطعونها اذا لم يتخذوه مدرجات صفحات صفحات ثم يعدونه للنسخ ويصنعون الحبر بالوانه الثابتة الجميلة ولا سيما الاحمر والاسود والصفدي وهو اكثرها شيوعاً وقد يكتبون بالاصفر الزعفراني . ويرون الاقلام ويرسمون النقوش فينسخون الكتب بخطوط مختلفة اهمها السخى وهو المعروف عند النصارى بالكسبي لأن كتب الكنائس تنسخ به ويجلدونها باثقان ويبيعونها . فالوراقون هم الكتبة اليوم . ولم بهذه الصناعة اعمال بدیعة تدل على حسن ذوق ودقة تفنن وكثير من اعمالهم في دور الكتب ولا سيما الظاهرية .

ومن الكتب المؤلفة بهذا الفن (نظم تدبير التسفير) في صناعة الكتب اي تجليدها و (عمدة الكتاب) في صناعة الحبر والاقلام والخط للامير المعز بن باديس المتوفى سنة ٤٥٤ هـ وقيل انه الف باسمه فقط و (رسالة في صناعة الاحبار) و (النجوم الشارقات في عمل اللبقات) لمحمد بن ابي الخير الحسيني و (رسالة في الخط و بری الاقلام) لابن الصانع و (الاقلام القديمة) لابن الدالي وصف فيه مائة وخمسين قلماً اي نوعاً من الخط و (شرح ابن وحيد على منظومة ابن البواب) في صناعة الخط و (مقدمة في صناعة الخط) لابي علي بن مقلة مخرومة الآخر و (ارجوزة لمحمد بن حسن البخاري) في الخط ايضاً وكلها في الخزانة التيمورية في القاهرة عدا رسائل أخرى فيها وفي غيرها ومنها (انبى النطاقة في علم الوراقة) لابن مسك السخاوي من اهل القرن الحادي عشر للهجرة .

ووصف مؤرخو اليونان الورق الدمشقي القطني المعروف عند الافرنج باسم (كرتاداماسينا Carta Damascena) وانتقلت صناعته الى شاطبة وبلنسية وطليطلة

في الاندلس ومن معاملها المشهورة انتقلت الى اوربة كما ذكر سيديليو . ووصف ابن بطوطة الرحالة سوق الوراقين الذين يبيعون الكاغد والاقلام والمداد في دمشق .

وكان اسرى الصليبيين يؤق بهم الى دمشق فيشتغلون في معاملها الصناعية . وقد نشرت جريدة الف باء بتاريخ ١٥ كانون الاول سنة ١٩٢٢ م : ان جد الجنرال غوايه الافرنسي نقل الصناعة من دمشق الى فرنسا في ذلك العهد على اثر اطلاقه من اسره في الحروب الصليبية سنة ١١٤٧ م واسس لها معامل في بلاده وتفنن الافرنسيون بالورق .

وسنة ١٣٣٩ م احترق في شرقي الجامع الاموي سوق اللبادين وسوق الوراقين . وقال ابن طولون الصالح مؤرخ دمشق في رسالته في (المزه) ما نصه : « وكانت سوق الكتب في دمشق تحت شباك المدرسة الفاضلية بالكلاسة » اه وقوله يدل على ان اسواق الوراقة كانت حول الجامع الكبير .

ولقد اشتهرت دمشق بدور كتبها الكثيرة ومخطوطاتها النفيسة وخطاطيها المتفنين ووراقيها البارعين ولن تزال آثار الوراقة عندنا ولا سيما في كتب الظاهرية فضلاً عما نقل منها الى مكاتب اوربة والاسنانة ومصر .

ومن اشتهر من الخطاطين المتأخرين المقدسيون ذكرهم الشيخ حسن البوريني في تاريخه بقوله : « منهم الشيخ ابراهيم المقدسي كاتب المصاحف التي يتغالى بثمنها الناس لاسيما اهل دمشق وذلك لحسن الخط ودقة الضبط وقد كتب منها ما يزيد على مائة مصحف . ومنهم الشيخ خليل وعندى مصحف مسج كتبه بخطه سنة ٨٠٩ هـ » انتهى قول البوريني .

ومن عرفناهم من الخطاطين بين المسلمين بنو الحموي وفي مكتبتي نسخة من المقامات الحريرية بدیعة الخط والضبط والنقش والتذهيب صغيرة الحجم كتبها احمد بن محمد بن عبد الله الحموي الدمشقي سنة ١١٤٨ (١٧٣٥ م) .

ومن الخطاطين المسيحيين في دمشق بنو عطايا الاطباء وفي الظاهرية كتاب (تذكرة داود البصير) نسخة ميخائيل بن يوحنا بن عطايا الطبيب الشامي سنة ١٠٨٢ هـ

في ٨٨٠ صفحة بقطع نصف كبير . ومنهم بنو صروف وجبارة واليازجي والميداني وغيرهم ولم يخطوط يدعة في خزائن مختلفة احرزت بعضها .

الصناعات الأخر

وهناك صناعات احتاج في وصفها الى مجلد كبير فاجتزأ بالاشارة اليها :
منها (السباق والفروسية والمراوغة والمسايق) = اشتهرت هذه الالعب منذ القديم واولع بها الامويون حتى ان هشام بن عبد الملك كان في مربطه اربعة آلاف فرس اشتهر كثير منها بالسباق الذي كان يقوم في الميدان الباقي اسمه الى عهدنا في الغرب الجنوبي من مدينة دمشق ومن خيوله المشهورة بالسباق (الزائد) وذكر المسعودي : « ان رصافة الشام كانت مضمار السباق وكانوا يخرجون الى الحلبة باوقات معينة ويجيزون السائق ولا سيما في زمن الخليفة معاوية ابن ابي سفيان » وما الطف قول المعري في السباق :

اذا وفي الانسان لم يخش حادثا وان قيل هجم على الحرب اعوج
وان بلغ المقدار لم يخش ساج ولوانه في كبة الخيل اعوج^(١)
فلا تشهون سيفا لتطلب دولة فافضل ما نلت البسير المروج

واشتهروا بترويض الخيول والفروسية وعمل السروج وما يتعلق بها وصانعها السراج والعمامة نقول السروجي والدكديجي لما تحت السرج . وفي التواريخ أمثلة كثيرة تدل على عنايتهم بها . وكذلك الثمن بفنون الحرب والمسايق (اللعب بالسيف) والمراوغة (اللعب بالرمح) والمتاقفة (لعب الحكم) . ومما يحضرن في ذلك ما رواه الشيخ حسن البوري في تاريخه المخطوط وهو : « ان الحافظ الثاني امر جميع العسكر بالدمشق بالخروج الى الميدان الاخضر في الجانب الغربي منها وان يحمل كل منهم بندقية انكحلة لانها سلاح ممالك آل عثمان . وان يرموا البندق على الغرض

(١) الكبة بالضم جماعة من الخيل . والكبة بالفتح افلات الخيل على المقوس (خيط السباق) للجري او للعبة والصدمة بين الخيلين (٢) هو الفرس المطعم المعروف عندنا بالكحيلان .

فأحرز الجائزة كنعان بلو كباشي الجر كسي وهي عشرة دنانير من الذهب . فلما تم ضرب البندق امر بلعب الخيل في الميدان فاصطفت الخيل فريقين فكان كل من يصيب بضرب الجريدة يعطيه الوزير مل كفه درهم . اه .

وقال احمد البديري الخلاق في وصف احدى الحفلات : « وركب أهل الملاعب والاعوات والشربجية والاكابر والانكشارية ومثلوا شجعات العرب بملاعبهم وحر كاثمهم » وكذلك وصف شمس الدين بن طولون الصالح في مثل هذه التمارين والالعب مفصلاً في الجري على الخيل ورمي الشباب من على ظهورها وما اشبه ذلك^(١) . والاوجاقي من يتولى ركوب الخيل للتسبير والرياضة عند العرب .

ومنها (عمل الآلات الفلكية) = مثل المزاول اي الساعات الشمسية والساعات الاخرى والارباع الفلكية والاسطرلابات ونحوها . فاشتهرت دمشق بساعاتها وبمكاملاتها وببقية هذه الآلات التي صنعها كثير من سكانها . ومن ساعاتها القديمة واحدة عليها غصافير من نحاس ووجه حية وغراب فاذا مضت ساعة من الوقت خرجت الحية وصفرت الغصافير وصاح الغراب وسقطت حصاة ثم تجدد تلك الحركات على هذا النمط كلما تجددت الاوقات .

ومن تلك الساعات ما وصفه الرحالة والمؤرخون ولا يزال (باب الساعات) في الجامع او باب الزيادة دالاً على ذلك وهو الذي ذكر ابن بطوطة انه عن يمين الخارج من باب جيرون محدثاً عنها وكذلك ابن جبير فانه وصفها بدقة . وذكر ابن ابي اصيبعة : ان مذهب الدين احمد بن الحاصب الدمشقي كان قوي النظر في صناعة الهندسة وخدم في الساعات عند الجامع في دمشق . وقال : ان نضر الدين الساعاتي هو الذي عمل الساعات عند باب الجامع الاموي في دمشق وفي متحفنا بعض آلات منها صنعت في دمشق . الى غير ذلك من الاعمال الهندسية . وفي الخزانة التيمورية بالقاهرة (كتاب علم الساعات والعمل بها) وهو في الساعات المائية وفيه رسوم ألفه في القرن السادس للهجرة الشيخ رضوان بن محمد الحراساني وعندي مؤلفات فيها .

(١) راجع هذا الوصف في مجلة مجمعنا العلمي العربي « ١٤٩ : ٢ » .

ومنها (حك النقود) = وهو قديم وعرفه العرب في زمن الامويين . وذكر ابن عساكر ان رجلاً اسمه دواس رأى يده التي قطعت لضربه دراهم زغلاً . وآخر ما عرفنا من امر حك النقود ما رواه احمد البديري انه سنة ١١٥٢ هـ بطات الفلوس الرملية التي كانت ضرب الشام . وقال في محل آخر : ان كل ٢١ فلساً رملية يصرية . وذكر ايضاً تشهير بعض الدين زبنوا الفلوس الرملية .

ومن النقود المضروبة في دمشق ما هو محفوظ في متحفنا العربي : مثل قطعة فضية باسم المعتصم بن هرون الرشيد حكت سنة ٢٢٦ هـ وقطع فضية ونحاسية مختلفة منها ما حكت باسم محمود بن زنكي سنة ٥٧٠ هـ وصلاح الدين يوسف بن ايوب سنة ٥٨٦ هـ والملك الصالح اسماعيل ابن الملك العادل محمود زنكي سنة ٥٩٦ هـ وقطع أخرى كثيرة في زمن الدولة الاتابكية وغيرها .

ومنها (الغناء والموسيقى والضرب على الآلات) = لقد عرفت هذه الفنون منذ القديم في دمشق كما تذكر التواريخ اخبارها من ذلك ما ذكره الكتبي في (فوات الوفيات) من ان ابن السجف الدمشقي قال بصف (الكمال) وضربه على القانون :

لو انت أبصرت الكمال وجهه
أوتار قانون له في المجلس
لأيت مفتاح السرور بكفه - اليسرى وفي اليمنى حياة الانفس

وقال الشيخ حسن البوريني في تاريخه : انه حضر بعض المجالس وكان فيها عواد يقال له (سالم) وله عبد اسمه (سرور) يضرب بالدف . وروي عن جمال الدين ابن فرفور انه كان موسيقياً خطاطاً . وقال عن نسيبه عبد الرحمن بن فرفور : انه كان عارفاً بالنعمة باصطلاح الموسيقى حتى انه كان يخلو بنفسه ويدفع عنه الوحشة بصوته الرخيم .

ومنها (استقطار العطور) = وهي صناعة قديمة لكثرة ما في دمشق وغطتها من الرياحين والنباتات . ولقد وصف شيخ الربوة الدمشقي (١) : طرق استقطارها في قرية (المزقة) قرب دمشق حيث كثرت معاملها وصور المقاطر (الكركات) والانايق والقرعات . وأطال في ذكر طرق الاستقطار بها في عصره اي القرن (١) راجع (نخبه الدهر) طبع اوردية صفحة ١٩٤ .

الثامن للهجرة ووصف الرياحين وانواعها . ومما قاله عنها : « ويجعل الورد المستخرج بالمزة الى سائر البلاد الجنوبية كالجزاز وما وراء ذلك . ويسمى هناك الزهر . ومما ارخوه : انه كانت لقاضي قضاة الحنفية ولاخيه الحريري قطعة بارض تسمى (شور الزهر) طولها مائة وعشر خطوات وعرضها خمس وسبعون خطوة باع منها عشرين قنطاراً باثنين وعشرين الف درهم . وذلك سنة خمس وستين وستائة وهذا لم يستمع بمثله » اهـ .

ومن اسماء المشتغلين بهذه الصناعة الى الآن بنو الزهر او الزهوراتي والعطري اما بائع العطور والمتجر بها فيسمى العطار .

قلت هذا وصف اهم صناعات دمشق وقد بقيت هناك صناعات أخر كإدارة المطاحن المائية والحمامات والمدارس والمستشفيات والتعليم والجراحة والطب والكحالة والصيدلة والدباغة وعمل الادوات والحلويات الخ مما يملأ مجلدات فاجترأت عن وصفه الآن لضيق المقام .

ولا تزال اسماء أسر كثيرة تدل على هذه الصناعات الى يومنا لانها اشتهرت بها مثل الطحان والبراك والحامي والمدرس والمعلم والجرائحي والحكيم والطبيب والكحال والصيدلي والدباغ والحلواني والسكري او السكاكري . وفي كثير من الصناعات مؤلفات ورسائل أحرزت بعضها لا محل الآن لوصفها .

الختام

لقد راجت مصنوعات دمشق كما رأيت في مطاوي هذا البحث رواجاً غريباً وكانت دور الخلفاء الامويين مصانع لها وكذلك دور من جاء بعدهم من الملوك والامراء والاعيان الى ان ضربت الصناعات بالكساد فكثرت عليها الضرائب ونافستها المدن الأخرى ولا سيما تدمر وصور وحلب . وانتقل صناعتها الى بلاد أخرى وسبي الحاذقون منهم الى اقطار بعيدة . وتشتت شمل الامر في التكتبات الطبيعية كالزلازل . وفي الحروب الداخلية . والمصادرات والمهاجرة والتجارة الخ . وبالتالي كان انحصار بعضها في أسر خاصة وكتم اسرارها بين عمال معروفين

غير مجاوزة الى غيرهم من اهم اسباب انقراضها كما كانت هذه الشؤون في القديم من اهم ذرائع ارتفاعها .
فبما ان تبدل الاحوال ولا يتبدل . على ان النهضة الحديثة . في استعادة بعضها وانشاء معامل لها منذ نحو قرن قد بشرت باستئناف تجديدها .
وارجى ذلك البحث الى محاضرة ثانية في (صناعات دمشق الحديثة) ألقاها عليكم في فرصة قريبة وفيها التفصيل الكافي عن اصولها وطرق تجديدها وتحسينها . ولا سيما الشد الذي هو من اهم اسباب نجاحها . والسلام خير ختام .

عيسى بكندر
المعلق

صفحة من تاريخنا الاجتماعي (١)

أيها السادة !

موضوع محاضرتي اليوم (صفحة من تاريخنا الاجتماعي) . وقد أردت بقولي (صفحة) ان البحث فيها يقتصر على وصف حالتنا الاجتماعية في بعض أزمنة التاريخ اي في خلال السنة الواقعة بين (٢٥٠) و (٣٥٠) للهجرة اعني قبل الف سنة من وقتنا الحاضر .

وأردت بقولي (تاريخنا) أموراً وحوادث كانت تقع في بغداد بين رجال الطبقة العالية من وزراء وقضاة وعلماء واعيان .

أما قولي (الاجتماعي) بعد قولي تاريخنا فلاجل صرف الذهن من اول الأمر عن تاريخنا السياسي الذي انما يتضمن ذكر اخبار الملوك وقيام الدول والمنازعات حول العروش . وما يثور بسبب ذلك من الحروب .

وهنا موضع العتب على كتابنا او مؤرخينا العرب الذين كانوا اذا كتبوا في التاريخ شنعوا المجلدات بما ذكرنا من اخبار الحروب والملوك . حتى كانت الملوك هم البشر . واما الأمم فقطعان بقر .

فكتاب تاريخنا لم يصفوا لنا كيف كانت أصول الادارة في الدول الاسلامية ولا طرائق تأليف مجالس الحكم . وضبط الأمن . وجباية الاموال . ولا أنماط التربية والتعليم في المدارس . ولا طرز المعيشة العائلية والتدبير المنزلي . ولا طرق المعاملات المالية وتوزيع الثروة واساليب التجارة والزراعة . ولا غير ذلك من مظاهر الحياة الاجتماعية التي يتألف منها تاريخنا الاجتماعي .

(١) للاستاذ المغربي ألقاها في ردهة الجمع العلمي في ١٥ كانون الاول

والكم لتعلمون ان هذه الابحاث والموضوعات هي المادة التي لثألف منها كتب المطالعة ثم أعطى الأحداث والطلاب فيدرسونها ويستفيدون منها عقلاً وتجربة . وان مكتبتنا العربية لني حاجة الى أمثال هذه الكتب المترجمة في قالب كتب المطالعة الافرنجية المعروفة باسم (Lecture) .

ومن مواضع الأسف اننا نرى المتعلمين من شباننا فملين بالشؤون الاجتماعية عند الاوربيين وبسيرة في كل دور من أدوارهم التاريخية أكثر من معرفتهم ذلك عن أممهم العربية :

فهم يعرفون ان اهل المملكة الفلانية الاوربية في عهد ملكها الفلاني في قرنهما الرابع عشر مثلاً — كانوا يفعلون كذا . أو كانت عاداتهم كذا . او حالتهم العائلية او المعاشية كذا . بينما اذا سئلوا عن الحالة الاجتماعية في أحد عصورنا التاريخية قالوا ان السُلطة فيه كانت بيد الدولة الفلانية . أو الأسرة الفلانية . وقد جرى من الحروب في ذلك العصر كيت وكيت .

وليس هذا وحده كل ما يلزم من التاريخ لابنائنا وطلاب مدارسنا كما لا يخفى . وقد يستثنى من كتب التاريخ عندنا ما كتبه ابن خلدون في مقدمته . والمقر يزي في خطه . والفلقسندي في كتابه (صبح الاعشى) . وعبد اللطيف البغدادي فيما وصف من الآثار . ومواطن الاعتبار .

بل ما يدرينا أن يكون لعلمائنا السابقين اشباه هذه المصنفات الممتعة في وصف احوالنا الاجتماعية ثم أبادتها التعصبات الدينية . والحروب الطائفية . وما بقي منها انتقل الى مكتبات أوروبا . وخزائن علمائها المستشرقين .

وقد اتبه هؤلاء العلماء المستشرقون في المدة الاخيرة الى ما ينقص مطبوعاتنا من مكانها ويطبعونها ويعلقون عليها شروحا وهوامش ممتعة جداً . وقد جذاب جمعنا العلمي الى مكتبته طائفة من هذه الكتب . أدرك منها عجائب الهند للراموزمزي ونشوار المحاضرة للقاضي ابي علي الحسن النخعي وطوق الحماة لابن حزم والموشي لأبي الطيب محمد بن ابي وكذاب الولا والقضاة لابي عمر الكندي

ولأننا (مقامة ابي القاسم البغدادي) لابي المطهر الازدي التي كانت موضوع محاضرتي السابقة .

اذن يحسن بنا ان نخفف لهبة اللوم والعتاب على أسلافنا : فانهم رحمهم الله تركوا لنا ثروة عظيمة من التأليف في كل فن من فنون العلم والادب . لكننا نحن أحفادهم أضعنا الثروة . وقصرنا في حفظ التركة .

قلت ان موضوع محاضرتي التاريخ الاجتماعي لكن لا تحسبوا أنني سأخوض من هذا التاريخ في قواعده التي وضعها علماء الاجتماع . ولا سيغ نظرياته الدقيقة التي كثر الخصام حولها بين أفلاطون وأريستو وشيشرون في التاريخ القديم . وبين مونتسكيو وسبنسر ونيثشه وشوبنهاور في التاريخ الحديث . لا أخوض في ذلك كله اذ هو من دروس طلاب الجامعات العالية . وليس هو من مواضع المحاضرات العامة . وانما سأخطئ تلك القواعد والنظريات العقلية الى وقائع وجزئيات تاريخية جديدة لم تتناولها الافواه بعد : يلتزم بها محب التاريخ — وكلكم ايها السادة تخبون

التاريخ — فنقارنون بينها وبين ما يقع من اشباهها في زمننا الحاضر . كما يستفيد منها اخواننا الصحافيون والكتاب الاجتماعيون وطلاب المكاتب العالية من حيث يرون فيها مادة لمقالاتهم . ونموذجات اجتماعية يستشهدون بها في مباحثهم ومناظراتهم .

هذه الاخبار والحوادث التي أروها لكم منسقة على هذه الصورة هي مفهوم كلمة « المحاضرة » اي هو معناها الذي كان يفهمه علماء الادب . عندنا معشر العرب : فمحاضرات الراغب الاصفهاني . وحسن المحاضرة للسيوطي . ونشوار المحاضرة للقاضي ابن علي الحسن النخعي — لم تدم كذلك الا لأنها جمعت أخباراً مختلفة تفيد القارئ . وتلذذ السامعين . وهما انا في محاضرتي هذه أخذوا حذوم . واسلك طريقته .

ومعظم ما أرويه لكم فيها مقتبس من كتاب (نشوار المحاضرة) للقاضي النخعي المذكور مع تصرف قليل أو كثير حسب ما يستدعيه المقام .

طلات المقدمة فلتجربوا بما مر . ولتقبل على الموضوع فنقول :

يؤلفون اليوم كتباً في وصف أحوال المدن وإحصاء ما فيها من آثار الحضارة ومقومات العمران لتكون دليلاً للسياح ومحبي الاستطلاع . ومن ذلك الكتب التي يصدرها (محل يدرك) عند الأوربيين . وقد قلدهم فيها كتاب العرب وسموها (دليلاً) فيقولون : دليل الاستانة ودليل القاهرة . وبظهور انت العرب في العهد العباسي ألفوا مثل هذه الكتب : فان (احمد بن الطيب) ألف كتاباً عن بغداد وما فيها . وقد توفي أحمد هذا سنة (٢٨٦) هـ . وكذلك (يزجرجرد الكسروي) فانه ألف كتاباً بأمر ركن الدولة ابن بويه وصف فيه (بغداد) في عهد الخليفة المقتدر المتوفى سنة (٣٢٠) وقد أحصى ما فيها من الابنية والشوارع والدروب والحمامات والسكن والسفن والملاحين وما ينفق فيها من الخنطة والتعير وسائر الاقوات .

ومما ذكره على سبيل النموذج ان اصحاب المعابر كانوا يأخذون من الثلاثين في كل يوم ثلاثين أو اربعين الف درهم وهي تبلغ من تقود زماننا نحو مائتي الف قرش . والظاهر ان مرادهم باصحاب المعابر ارباب المكس الذين يقعدون على فوهات الطرق فيأخذون (مروريه) على الثلج الوارد الى بغداد .

وقد روا ما يأكله أهل بغداد من صنف الخس في زمن موسمه بنحو خمسين الف دينار اي نحو عشرين الف ليرة من تقودنا .

وأحصوا ما ينفقونه من سويق الحمص في كل سنة فبلغ نحو (٨٤٠٠) قفيز والقفيز اربعة ارطال او اكثر . فمجموع ذلك بالقناطير نحو (٣٣٦) قنطاراً . من الحمص السويق .

والسويق دقيق الخنطة والتعير ولكن بعد تحميصها على النار : يضعه المسافر في جرابه فيسفه سفاً او يجده (يخلطه) بالماء او اللبن فيشربه أو يأكله . قال أعرابي : « السويق » عدة المسافر وطعام العجлан والمغلة المريض .

فكانوا يحضون الحمص ويطنونه و يأكلون طحينه سفاً أو بصورة أخرى . ونحن اليوم ليس عندنا من سويق الخنطة والتعير . ولكن عندنا من سويق الحمص كما كان يصنع أهل بغداد : فاننا نضع الحمص ونسميه (قضامة) ثم نطحن

القضامة حتى تصبح ناعمة ونزجها بالسكر وهذا هو السويق بعينه كما لا يخفى .
وجرى في بعض مجالس بغداد ذكر دخل دولة الخلافة العباسية وخرجها والنقصان الذي طرأ عليها . فحدثهم القاضي ابو الحسن علي بن بهلول قال : اختبأ في دارنا الوزير ابو الفتح المعروف بابن حنزابه وكنت يومئذ حدثاً صغير السن فكان يناديني فتحدث ونلعب بالشطرنج . فجئ يوماً ببني وبينه ذكر الخليفة المقتدر ونقصان دخله عن خرجة بسبب كثرة إسرافه وتبذيره . فشرح لي ذلك شرحاً وافياً (على أصول البودجه) . ثم قال : ان مزارع عمي ومزارعنا كان دخلها يوم صادرونا فيها مبلغ كذا وكذا ثم أخذ بالنقصان حتى بلغ ثلث ذلك المبلغ . قال ولو مكشوف من إدارة ضياعنا وحدها لعمرتها وعاد دخلها الى ما كان عليه . وان فرق ما بين دخلها الآن ودخلها اذا سلموني اياها يعجز الدنيا كلها . وليست أملا كنا سوى شقص يسير من الارض . فكيف لو كان للدنيا من يهتم بعمرتها كلها ؟ اهـ .

هذا ما قاله الوزير وهو مختبئ خائف من الخليفة . وباليته يحكي اليوم فيرى بعينه كيف تستمر الدنيا وتستمر . فيخف أسفه قليلاً على ما فاته من أمر عمراتها واستثمارها بحسب طريقته الاقتصادية المدهشة .

وكانوا يحتفلون في أيام المواسم و ' بقميوز الزين والمهرجانات لاسيما يوم النيروز . واصل النيروز عيد للفرس قادم العباسيون والمصريون في الاحتفال له . وكانوا يهدون فيه للخليفة النفائس والطرف كما يهدي بعضهم الى بعض . ويشعلون النيران . ويضعون على شرفات الدور والقصور مجامر طين . ويأتون بحب القطن (اي جوزة) فيشربونه دهن البلسان وغيره من الادهان الطبية الفاخرة . ويشعلون هذه الحبات فتفوح رائحتها . وتثلاً في الظلمة أنوارها .

ولما حان زمن النيروز في بعض السنين أرسلت السيدة أم الخليفة المقتدر الى عميلها التاجر ابن اسحق الشيرازي أن يشتري لها من الآفاق ألف شقة زهرية خفاف جداً . وبعد طوبل عشاء في البحث عنها جلبت . فاستدعت الخياطين الى القصر وأمرت ان يفصلوا من هذه الشقة أزراراً على هيئة حبات القطن

ويحشونها خرقاً ويغيطونها ويشربونها دهن البلسان ويشعلونها مكان حبات القطن
ومجامر الطين .

ومن جملة لوم في موسم النيروز اتخاذهم ألعاباً بطول الصبيات يزبنونها بالحلي
وفاخر الثياب . ويسمي المصريون اليوم لعبهم هذه عرائس ويصنعونها من سكر .
ويسمون في بغداد هذه اللعبة (دوباركة) وهي ككة فارسية . واظن انها مركبة
من (دوباره) حيلة مكر . و (ككة) من كيمك وهو اللبس اي حيلة مستورة
مغطاة بالثياب . ويُخرجون (الدوباركة) وأمامها مشاعل النيران والطبول
والزمر . ومن اللطائف ان (عائدة بنت محمد الجهنمية) نظمت أبياتاً هجيت بها الوزير
أبا جعفر الكرخي فسيته بالدوباركة عصره وجمال ثيابه فقالت :

(شاور في الكرخي لما أتى النيروز . والسن له ضاحكه)

(فقال ما نهدي لسلطاننا من خير ما لكف له مالكم ؟)

(قلت له : كل الهدايا سوى مشورقي ضائعة هالكم)

(أخذ له نفسك حتى اذا أشعل ناراً كنت دوباركة)

وهكذا كان اهل المناصب في ذلك العهد يتأنقون في الثياب ويقننون فاخر
اللباس والرياش والاثاث ويسمون ذلك مروءة .

وبالغ أحد اهل الانبار في اتخاذ الثياب فكان يضع كل ضرب من ضروب
الثياب في صندوق : دراريع الذهباج سيف صندوق والدراريع الذهبية (١) كذلك
والقميص والسراويل والجباب والطيالس والعائم — كل ضرب في صندوق خاص .
وكانت للانباري سرية تزوجها فلم تله . وكان له أبناء عم فلما مرض وأشرف على
الموت أسرع فأخرجت من الدار جميع أمتعته وصناديقه سوى قليل منها تركته .
لكنها نسبت صناديق السراويل والجباب والطيالس والعائم ثم مات زوجها وجاء أبناء عمه فتحملوا
خزائن الدار بواسطة المحكمة . ولما انقضى العزاء فحجوها فوجدوها (أفرغ من فؤاد أم
موسى) ولم يجدها سوى صندوق السراويل فرفعوا أمرهم الى القاضي (أبي جعفر
البهلول) فأحضر الجارية (وافقت الجلسة) فقالوا له : انت تعرف مبلغ عناية ابن
(١) نسبة الى ديق قرية في مصر .

عمنا بالاثاث والرياش واللبوس فأين ذهبت كلها ؟ ولما ذالم يوجد من ثيابه الا هذه
السراويل الكثيرة ؟ ولما ذالم يوجد على نسبتها من الدراريح والجباب والطيالس ؟
قال فأقبلت الجارية على القاضي محدثة كأنها أعدت الجواب وقالت : (أعز الله
مولانا القاضي) أما سمعت ما حكاه الجاحظ من ان رجلاً كان يعشق هواوين فجمع منها
مائتي هاون . وابن عمهم كان يعشق السراويل (مثله) فضحك القاضي وانفض المجلس
من غير شيء . وكسبت الجارية الدعوى لقراءتها كتب الجاحظ .

أما الوزير (علي بن عيسى) فكان ينفذ من الملابس الأليق بالوقار والنقش
وكان يجب ان يبين فضله في ذلك على كل احد . فدخل عليه يوماً القاضي ابو عمر
وعليه قميص ديبقي فاخر . فأراد الوزير ان ينجله فقال له : (يا مولانا بكم اشتريت
شقة هذا القميص) قال بمائتي دينار (١) . فقال الوزير ولكنني اشتريت شقة
هذه الدراعة والقميص الذي تحتها بعشرين ديناراً . فأجابه القاضي على الفور :
الوزير أعزته الله يحتمل الثياب ولا يحتاج الى التأنق فيها . أما نحن فتجعل بثيابنا
ونتأنق فيها . والفرق بيننا اننا نخالط العامة وغيرهم ممن يلزم ان نقيم الهبة لنا سيف
نفوسهم . والوزير لا يدخل عليه العوام . وانما يخدمه الخواص الذين يعلمون انه
يترك التأنق بالثياب عن قدرة . فسكت الوزير مغلوباً .

هكذا كان شأن قضائهم من حيث التجميل ومراعاة اخلاق العامة والمحافظة على
الوقار والسمت : فقد حدث ابو الحسن ابن البهلول قال كنت وانا صبي احيى لألعب
بقرب جدي القاضي (أبي جعفر ابن البهلول) فيصبح علي . والسبب في ذلك انني
كنت اذا دخلت عليه وهو مكشوف الرأس أخذ قلنسوته من خلفه ولبسها وجلس
متوقفاً علي . وسني اذ ذاك نحو عشرين سنين . وبقي على تلك الجلسة الى ان
انصرف . فأراه اذا بعدت عنه رفع القلنسوة عن رأسه ووضعها حيث كانت .

سمعتهم وقار هذا القاضي (أبي جعفر ابن البهلول) فاستمعوا متأنقته في الحق : دعت السيدة ام
المقادر يوماً اليها . وكلفته إحضار بعض سجلات المحكمة وحك احد الصكوك فإني عليها وقال :
هذا والله لا طريق اليه أبداً ولو عرضت على السيف : انا خازن المسلمين على

(١) نحو مئة ليرة من نقود زماننا .

ديوان الحكم : فاما مكتتوني من خزنة والا فاعزلوني وغيروا وبدلوا ما شئتم . واخذ السجل وانصرف وهو لا يشك انه معزول . فشكته السيدة الى ابنها الخليفة المقنذر : ففي يوم الموكب سألته عن الخبر . فحكى له الواقعة وانه يفضل ان يعزل على ان يرتكب مثل هذا العمل . فقال المقنذر (مثلك يا ابا جعفر من يقصد القضاء . اقم على ما انت عليه . بارك الله فيك . ولا تخف ان ينلم ذلك عرضك عندنا) ثم عادت السيدة فتدبرت امام ابنها من القاضي فقال لها : (الاحكام مالا طريق الى اللعب به . وابن الهول مأمون عندنا محب لدولتنا . وهو شيخ دين مستجاب الدعوة . ولو كان ما طلبته منه شيء يجوز ما منعك اياه) فسكتت على مضض لكنها عادت فحدثت به رئيس كتابها وكان شيخاً صالحاً . فلما سمع منها ما فعله القاضي بكى . وقال لها (الآن علمت ان دولتكم تدوم اذا كان فيها مثل هذا القاضي الصالح الذي يقيم الحق على السيدة أم الخليفة ولا يخاف لومة لائم ^(١) .

وبقدر اتساع دائرة الحصار في ذلك الدور كانت دائرة الحرية الفكرية والدينية متسعة : فكان اهل كل مذهب يناضلون عن مذهبهم . ويعقدون المجالس في المساجد لتصرته وتأييده . وكانت تكثر بسبب ذلك المنازعات بينهم . وتتحول الى فتن أحياناً كمثل ما كان يقع بين الحنابلة والشيعة : فان الشيعة كانوا يجتمعون في الخاير لندب الحسين فكان الحنابلة يشيرون ويمنعون الناس عن المضي الى الخاير .

وكان قوم يعتصمون لسيدنا علي وآخرون لسيدنا معاوية . فاغتنم الفرصة صديقان أعميان من الشهابيين فكانا يقعدان على جسر بغداد : هذا في طرف . وذاك في طرف . وينسولان ويتوسلان باسم الصحابين الجليلين علي ومعاوية . فكان يتعصب لكل واحد منهما فريقه . وتنافس عليهما الدراهم . وفي المساء يجتمعان ويقتسمان غلة يومها وهكذا .

اما المعتزلة فكان لهم شأن وتقوى يومئذ : منهم وزراء وقضاة وأمرأ . وكانوا يشتهرون على القصاص لكثرة ما يروون من الاساطير . كما يشتهرون على الذين يصدقون ^(١) وفي تمام الخبر ان السيدة أم المقنذر كانت تجهل أن ما كلفت به القاضي من تغيير العك وحكم حرام حتى أخبرها كتابها بذلك فكفت وارعوت .

بكل شيء مما لا يدخل تحت العقل . ويقتخرون بانهم هم لا يصدقون الا ما يؤيده العقل الصحيح . وكانوا يعيرون السادة الصوفية واهل السنة لكونهم يصدقون بالكرامات التي كانوا يسمونها (المعونات) : فاما لانهم يجهلون عليها باسم (الكرامة) او لان كلمة (الكرامة) لم تكن تولدت في أوائل القرن الرابع . وكانوا يقتخرون بان فرقهم لا تعول على شيء من ذلك جميعه حتى قال أحدهم : (إن من بركة مذهبنا أن صبياننا لا يخافون الجن) وتباهوا بمجوز منهم كثيرة الصلاة والصيام وقيام الليل : كان لها ابن مسرف على نفسه في الليل ويتعاطى الكسب في النهار فكان يأتي مساء كل يوم بكيس دراهمه فيسلمه الى امه ثم ينصرف الى لجه . وكانت أمه تقوم طول الليل لتعبد في الغرفة التي فيها الكيس . فعلم بقضية الكيس والصبي احد المصوص فطرق العجوز ليلاً وانظرها للنام فلم تفعل . ثم اعياء الامر فعمد الى الحيلة وقتش في البيت عما يساعده على حيلته . فالتحف بازار ابيض وأوقد بحمزة بخور ونزل في السلم وهو يتكلم بصوت أجش موهماً العجوز انه ملك سماوي . قال المعتزلي راوي الخبر . ولكن العجوز كانت معتزلية جذدة ففطنت للحيلة فتظاهرت بالخوف وسألته من انت ؟ قال : ملك . وقد جئت انقم من ابنك لعصيانته . فتضرعت اليه أن يرفق بوحيدها . فقال لا بد من تأديبه : فانا اكتب بأخذ دراهمه ليتوب قالت : لك ذلك ولتحت له عن الباب حتى اذا دخل الحجرة اوصدت بابها عليه فاستغاث بها فلم تجبه وقالت انت . ملك يمكنك ان تنفذ من السقف . واقبلت على صلاتها . وجعل طول الليل يستعطفها وهي لا ترق ولا ترحم حتى سلمته في الصباح الى الشرطة .

ولكن المعتزلة ما كانوا اهل جلادة في عقولهم الى هذا الحد كما كانوا يدعون : فانهم كانوا يعتقدون بالنجيم والطالع . وقد نهى عنهما الشارع . وكان عالمهم ابو علي الجبائي يصدق المجيمين ويمارس النجيم بنفسه . ومن الغريب ان احد ^(١) قضاتهم أخذ طالع مولده فعيّن سنة وفاته ويومها . ونهياً للموت فتغص عيش اهله واصدقائه وتعبوا في صرفه عن هذه الفكرة الملعونة فلم يطعمهم حتى مات — كما رووا — في نفس اليوم . لكن من تأثير الوهم . لامن روحانية النجم . واعتقاد ذلك كفر لانه دين الصابئة عباد النجوم .

(١) هو القاضي علي بن محمد التتوخي والد القاضي ابي علي الحسن التتوخي مؤلف كتاب (نشوار المحاضرة) الذي غلصنا منه هذه الاخبار .

وكان المسلمون في ذلك العصر يعنون فضل عناية بطلاب العلم : فكانوا يواظرونهم بانفاق الرزق عليهم ثم لما اشتدت الصائفة المالية أخيراً في بغداد وطلب الجمل على أهلها وتجارها حتى ان بعضهم كان يسمي الجمل (احتياطاً) وبعضهم يسميه (اصلاحاً) وكانوا يتواصلون به . ويحذر بعضهم بعضاً من الاتفاق — أمسكوا عن الاحسان الا قليلاً . وكانوا قبل ذلك اذا جاءهم أحد من اهل العلم ينفقونه بالالف درهم معونة له على التحصيل .

قال احمد بن يوسف : قدم على بغداد شاب أردنا ان نربطه ليتعلم لجودة ترجمته ^(١) وكان يحتاج الى مئة درهم في الشهر . فكلمت ابن خفيف صاحب ديوان النقائت ورجلاً آخر من اصحابنا . فاجريا عليه مئة ^(٢) درهم في الشهر . فبقي بأخذها الى ان خرج من بغداد . قال : وشكنا الى بعض الفقهاء ان الطلاب الذين يحضرون حلقة الى الحسن الكرخي احتاجوا الى اكسية اذ قد قرس البرد . ففكرت فيمن اقصد ثم اجتزيت في طريقي دينار . فقال لي بعض من كان معي : هذه دار تاجر موسر من اهل الخير خاطبه . ولم اكن اعرفه . فدخلت عليه فقام واكرم وسألني حاجتي فذكرتها له فقال كم كساء تريدون ؟ قلت خمسين لحملها معي في الحال . ففرقتها على الطلبة . قال ثم نقلت الاحوال . وثحت النفوس بالاموال . حتى جاءني رجل من اهل البيهونات فشكا من حاجته ما أبكاني . وقال انت صلاح امره في نحو ثلاثين درهما . ففكرت فما عرفت أحداً يعطينها اذا سأله اياداً . قال ولعل السبب في ذلك الشح كلب الزمان وقلة المال : فقد حسبت يوماً ما يملكه سكان (درب مبرويه) فبلغ اربعة آلاف ^(٣) الف دينار . أما سكان هذا الدرب اليوم فلا يوجد فيهم احد يملك وحده اربعة آلاف درهم اللهم الا (ابو العريان)

وكما كانوا يهتمون بطلاب العلوم وإدراك الرزق عليهم كانوا يهتمون بالاسارى الذين يقعون في بلاد الروم من وقت الى آخر . ومن طريف ما حكاه أسير مسلم عن ^(١) يعني انه كان تابعاً في الطلاب لكنه فقير ومثله يجب الاتفاق عليه لئلا ينفع بنبوغه ^(٢) نحو خمسين ريالاً مجيداً من نفوذ زماننا ^(٣) اي اربعة ملايين دينار نحو مليون ونصف او مليون في ليلة .

نفسه قال : لما حملنا الى بلاد الروم مرت بنا شدائد واهوال فكنا لا نقدر ان ننام من شدة البرد حتى كدنا نثلث . ثم دخلنا قرية فجاءنا راهب باكسية وقطف (حرامات) ثقيلة دفيئة . فغطى جميع الاسارى . كل واحد بكساء . فأننا عن السبب فقالوا انت رجلاً من تجار بغداد اسمه (ابن رزق الله) أرسل هذه الاكسية الى الراهب وسأله ان يعطي بها من يصل الى قريته من اسارى المسلمين . وضمن له في مقابل ذلك ان ينفق من ماله على كنيسة معينة في بغداد مادامت الاكسية محفوظة للاسارى فالراهب يعني بالاسارى كما وصلوا الى القرية كما رأيت . قال الاسير فكنا نتمنى لو نصادف في كل قرية ما صادفناه في تلك القرية على يد ذلك الراهب . وكان كما الفحنا البرد تذكرنا (ابن رزق الله) واحسانه ودعونا له ونحن لانعرفه .

لا جرم ان هذا التاجر المسلم والكاهن المسيحي كانا مثالين حسنين لابناء ملتقىهما في عمل البر والتسامح وحسن التفاهم .

وحدث القاضي ابن مكرم قال : دخلت على الوزير (علي بن عيسى) فرأيت منعموا . قلت مالك ؟ نالك ما نكره من الخليفة ؟ قال الامر أشد : كتب عامل الثغور الينا يقول : ان أسرانا في القسطنطينية كانوا على احسن حال حتى نولى مملكة الروم شاب طائش فاضطهدهم وأجاعهم وأعرامهم . ولقد أحببت ان أجهز جيشاً ينقذهم فلم يطاوعني الخليفة المقتدر .

فقلت أوصح الله الوزير رأيت أحسن من هذا . قال وما هو يا مبارك ؟ قلت ان البطريرك الانطاكي وبطريرك القدس محترمان لدى ملك الروم وقولها نافذ عليه بحيث يحرمانه ويحلاناه ولا يمكن ان يجلس على العرش من دون موافقتهم والبطريرك كان في عهدنا وبلادنا . فعرفها الخبر . وانظر ما يكون من جوابها . فقال قد سررت عن قلبي قليلاً جزيت خيراً . ثم اقترعنا وبعد شهرين طابني جثته وقد نسبت خبر الاسارى . فوجدته مسروراً فقال يا هذا احسن الله جزاءك عن نفسك ودينك وعني . قلت : وما الخبر ؟ قال كان رأيك في الاسارى أبوك رأي . وهذا رسولنا عاد من القسطنطينية . وأشار الى رجل في المجلس ثم أمره ان يتحدثنا بما وقع : فقال اخذت رسالة البطريرك الى ملك الروم وقد كتبها له : « انك خرجت

عن ملة المسيح بما فعلته بأسارى المسلمين . فإما ان تكف عن الظلم والا لعناك وحرمانك . فلما قرأ الملك الكتاب حجبني أياماً ثم دعاني وقال ما بلغ ملككم من أمر الاسارى كذب . وهام أدخل عليهم في دار البلاط وشاهد حسن حالهم . قال فدخلت فاذا عليهم ثياب جدد لكن وجوههم كأنها وجوه أموات . فقالوا نحن للملك شاكرون . جزاء الله خيراً . ثم أشاروا لي برموز من حواجيبهم ان الامر على العكس . وانني إنما أخرت عن الاجتماع بهم ليرفها من حالهم . وسألوني من أين علمتم خبرنا فذكرت لهم ما كان من اهتمام الوزير (علي بن عيسى) فضجوا بالدعاء له . وقالت امرأة كانت بين الاسارى (امض يا علي بن عيسى لا نسي الله لك هذا الفضل) فلما سمع الوزير قول الرسول أجش بالبكا . وسجد لله شكراً .

وكان المرشحون للوزارات والوظائف الكبرى يجتهدون في الحصول عليها ولكنهم كانوا يترعون للاخطار بسببها . حتى كان العامل اذا عزل صادروه سيفه أمواله . وعذبوه لاستخراجها منه . ولم يصف أحد هذه الحالة بمثل ما وصفها به (ابو الحسين ابن عباس) مذحكي عن نفسه قال :

كان لي اختصاص بسلطان بن الحسن قبل ان يتولى الوزارة . فلما وليها قصده يوم الموكب . واذا ببابه عطاء المملكة محبوبون . فلما رأي حاجبه ادخلني على الوزير وهو في حجرة خلوته . يريد الركوب الى المقنن . فطاولني في الحديث الى ان فرغ وشد سيفه ومنطقه ونجس والى عليه سواده (١) وخرج وانا معه . فتلقاه الناس بالتبجيل وساروا خلفه واختلطت بهم . واذا واحد من اصدقاء ابي يجذبي من طيلساني . فالتفت اليه . فاشار علي ان اتبعه خارج الموكب . وقال يا فلان افي بيتك خمسون الف دينار ؟ قلت لا والله . قال : انقوى على خمسين الف مفرقة وصفعة ؟ قلت لا . قال : فلم تدخل الى الوزير وعلى باب العظماء أمثال فلان وفلان محبوبون يتمنون الوصول اليه . ثم خرج معه من خلوته وليس معه غيرك وغدا اذا نكبت نكبت معه (١) سواده اي لباسه الرسمي . ويكون اسود عادة لان شعار بني العباس السواد وعندهم اخذه العثمانيون .

بداعي انك من خواصه . وايس معك خمسون الف دينار تقدي نفسك بها . ولا تطيق خمسين الف مفرقة . فقلت : يا عم ! لم أعلم . انا رجل فقيه . ومن اولاد التجار ولا عادة لي بالتردد على هؤلاء العظماء . فقال يا بني لا تعارود . فان هذا يجر عليك نقاء . قال فمن يومئذ جعلت أنتخب الدخول على صديقي الوزير في مواكبه العامة . ولكن كانوا مع هذه المخاطرة في طلب المناصب لا يضيعون فرص الاستفادة وجبر المغام .

ومن شواهد ذلك ان ابا بكر الشافعي كان من اخصاء (علي بن عيسى) الوزير فلما عزل عن الوزارة وتولاهما ابن الفرات أمسك ابا بكر المذكور ونكل به . ثم عاد صاحبه علي بن عيسى الى الوزارة فكانت له عنده منزلة عظيمة بسبب ما وقع به من التنكيل . وجعل ابو بكر يستثمر تلك المنزلة . ويتوسط لدى الوزير بالشفاعات وتقديم رقايع اصحاب الحاجات . فكان يوقع فيها . ويغض عن كثرتها . الى ان قدم اليه يوماً رقايع كثيرة جداً أصحبرت الوزير وظير الفجر في وجهه . قال ابو بكر : فقلت له (ايها الوزير ! اذا كن حفظنا من اعدائك في ايام نكبتك الصنيع . وحفظنا منك في ايام وزارتك المنع . فمتى ياترى يكون النفع ؟) قال فضحك الوزير . ولم يعد يصبر منه معها كثرت الرقايع .

وهكذا كان العاقل منهم يستفيد بجواه صديقه بعد ان يكون اخلص في خدمته . ومساعدته في نيل بغيته : فقد حدث ابن ابي عوف قال : اختبأ عندي (عبيد الله ابن سليمان) فمارحته يوماً قائلاً : خبي لي هذا المعروف الى وقت انتفع به . وبعد ايام استوزره المعتضد . فقال لي ادلي اذهب اليه . قلت كلاً لا اطلب ثمن معروف صنعته . ولو كان في الوزير خير لدعاني اليه . فلما كانت يوم الاحتيال بالخلع طلبني فدخلت عليه فقام الي . وعانقني أمام جمهور الخلفاء وقال في أذني : هذا وقت نلتفع فيه بقيامي لك . ثم اجلسني على طرف الدست (١) فقبلت يده وهنأته . لكن لم ألبث ان رأيت حاجب الخليفة يطلبه اليه . فذهب . وامتدت الي عيون الناس وخاطبوني باجل خطاب ثم عاد الوزير ضاحكاً واخذ يهدي الى دار الخلة . وقال : ويحك يا فلان !

(١) الدست للوزير كالعرش للملك والمنابر للخطيب .

ان الخليفة استدعاني بسبب ذلك أنه كتب^(١) يخبر قياي لك في مجلس الوزارة وقال لي: لنبتذل مجلس الوزارة بالقيام لتاجر!! ولو كان قيامك لاحد عمال الاطراف لكان محظورا بل لو كان لولي العهد لكان كثيرا. فقلت اعرف هذا يا امير المؤمنين ولكن حكايي مع الرجل مذاستقرت بداره كيت وكيت. وقد قال لي وقلت له كيت وكيت. فقال اما الآن فقد عذرتك واما بعد ذلك فلا تعاود. فقلت نعم وانصرفت. ومع هذا فقد بقي الوزير يحسن الى صديقه.

وكانوا يذهبون كل مذهب في الوصول الى أغراضهم من طريق الشفاعات. وأخذ كتب التوصيات. ولكن كان بعض المنهزين لا يبالي تزوير كتب على لسان الوزراء لاجل نيل الأمانة وقضاء الوتر. ورووا في ذلك حكايات عجيبة:

منها ما حكاه القاضي ابو الحسن بن عياش. قال: رأيت صديقاً لي جالسا على زورق مربوط بجانب جسر بغداد على نهر الدجلة في يوم ريح شديدة. وهو يكتب فقلت له ويحك!! أفى مثل هذا الموضع؟ ومثل هذا الوقت؟ فقال أريد أن أزور كتاباً على رجل مرتعش الابدني. وبدي لا تساعدني. فتعمدت الجلوس ههنا ليتحرك الزورق بالموج في هذه الريح فيجي خطي مرتعشاً يشبه خطه.

ومع هذا التدليس والتزوير الذي كان يقع في تقليد الوظائف كان الوزراء وكبار القضاة يشددون في انتقاء العمال وينزلون الوسع في الجحف عنهم: فكانت القضاة مثلاً لا يقبلون شهادة كل أحد. فهم يعينون من قبلهم اشخاصاً مزكّين لديهم. ويعلمون أنه من أراد ان يعقد عقداً من عقود المبيعات وسائر المعاملات فعليه ان يشهد احد هؤلاء: لئلا يشهد غيرهم فلا يكون مزكّياً عدلاً. وتسمى هذه الطائفة المعينة للشهادة بالشهود والعدول. ولكن ما أشدّ عناية قضاة ذلك الزمن بانتخاب هؤلاء العدول.

قال ابو القاسم الهاشمي: قرىل القاضي ابو عمر شهادتي وأعلن اني من العدول. ثم بعد ذلك خلوت به مرة. فجاء ذكر الملاهي. فقلت: ان فلاناً يضرب بالرباب

(١) اي انه كان للخليفة في مجلس الوزير عيون وجواسيس ينقلون اليه الاخبار حتى خبر هشاشة الوزير وحفاوته بصديقه. وكان هؤلاء الجواسيس يسمون (اصحاب الاخبار)

فصاح قائلاً: هو ذا تهزأ بنا! هو ذا أنس^(١) علينا! ما هذا الكلام؟ قلت: ما الخبر ابدالله القاضي؟ قال: نقول (يضرب الرباب) كأنك لا تعلم ان الرباب يجز جراً ولا يضرب ضرباً (يعني انك انظر امامي بورعك وانك لا تسمع الملاهي). فخلفت له بأيمان مغالطة أفى ما رأيت الرباب قط. فقال: انت هذا آفة وسبيل الصالح ان يعلم طرق الفساد ليحذنبها على بصيرة لا على جهل^(٢). قال فعدت الى داري وقلت لاسائس دايتي: وبلك! اطلب لي رباباً. فجاء به بخزم بين يدي. فاذا هو كما قال مولانا القاضي. يجز جراً. ولا يضرب ضرباً.

الى هذا الحد بلغ نظرهم في الامور. ودقّتهم في ادارة الاعمال. فالتحسب^(٣) مثلاً كان يدور في الاسواق بنفسه ويهتم جد الاهتمام بايفاء وظيفته.

ولما تولى (ابو القاسم الجهنّي) الحسبة في البصرة قال المسنون من أهلها إنهم ما رأوا ولا سمعوا من بلغ مبلغه في ضبط العامة. ورفع الغش. وتفحص البضائع والامتعة. وقد طالب الناس بمطالبات صعبة. فانتشر له حديث جميل في البلد. وهيبة في قلوب العامة. ومما الفى له ان اجتاز يوماً في بعض السكك. وبين يديه أعوانه. وكان هناك مؤذن يؤذّن. فتصارع الناس الجهنّي الجهنّي!! فتطاع المؤذن فرآه فقال: (الحمد لله الذي لم يجعل لك عليّ طريقاً ولا يندس معاملته). وأقبل على أذانه. لكن الجهنّي كان سمع قوله. فقال لرجاله خذوه الى الدار (دائرة الحسبة) فضجّ المسكين وضجّ جيرانه. وذهبوا معه الى الدار. وقالوا للجهنّي: أمرت بأحضار هذا المؤذن المسكين فاي طريق لك عليه؟ فلم يرد عليهم. والثقت الى المؤذن وقال: (أريد أن تحلف لي انك لا تدخل المسجد بالنعل الذي تدخل به

(١) التمسيس والتلبيس والخداع. (٢) على حد قول الشاعر:

(عرفت الشر لا لا - شر لكن لتوقيه)

(ومن لم يعرف الخ - ير من الشر يقع فيه)

(٣) وهو الذي يتولى الحسبة أعنى ملاحظة ما يقع في الاسواق من أمور

المبيعات والمكاييل والموازين والاسعار وحمل العامة على التزام الحدود الشرعية والادبية وتشبه هذه الوظيفة قديماً أعمال المجلس البلدي اليوم.

الكفيف . وان لا تؤذن الا بطهارة — «ولا تطلع الى الجيران من فوق المنارة» .
فتصرع اليه المؤذن ان يعفيه من هذا الشرط . قال لا ! أو انك لا تؤذن . فما زال
الجولي به حتى حلت . فلما اراد الانصراف قال له : يا شيخ اعلمت ان لي اليك طريقتا ؟
وان ردتنا معاملة ؟ فقال : أخطأت أباك الله ولا أعلم هذا . فقال : لا تعاود

الكلام في لا تحتاج اليه . فان الفضول مضرة . والثروة معثرة .
تكن في مقابل هذه الشدة على الناس . والتشدد في ضبط العامة نجد من وزراء
ذلك العهد وكرانه كرمًا وسخاء ونواضعًا وحياء : فقد وقفت يوماً امرأة في طريق
الوزير (حامد بن العباس) وشكت اليه الفقر ودفعت اليه قصة (اي استدعاء) فوقع
لها فيها بآتي دينار . ولما ذهبت الى (الجهنم) ^(١) انكر المبلغ واستكثرت (لانه قريب من
مئة اية وهي ترضى باقل من ذلك) وراجع الجيهنم الوزير . فقال الوزير هو ما ذكرتك .
تكنني لما اردت ان اوقع لها بآتي درهم جرى قلبي بآتي دينار . ولن أرجع . فأعطها
الدنانير . فأعطها اياها . وبعد ايام رفع رجل الى الوزير قصة . يقول فيها : إني وامرأتي
فقيران . ومنذ ايام جاءني امرأتي بآتي دينار تقول ان الوزير حفظه الله وحبها اياها .
واخذت من يومئذ تستطيل علي وتكبر وتقول انها هي غنية وانا فقير معدم لا أصلح
لها بعلا وكنتني طلاقها إذ لم يعد بطيب لها العيش ولا العشرة مع مسكين مثلي .
فان رأى الوزير ان يكتب الي القاضي بأمره بحلب زوجتي وزجرها وانصح لها بطاعتي
فعل . ففحك الوزير ثم وقع له بآتي دينار أخرى . وقال له الآن صرت غنياً مثلها فلم
يعد حاجة للقاضي . فاستلم الرجل دنانير الذهب . ثم ودع القوم وذهب .

(المغربي)

مصانع الشام (١)

«منذ عرف التاريخ»

ان قطراً كهذا القطر البديع ، تعاقب الحكم عليه الحثيون والمصريون والبابليون
والاشوريون والفرس والفينيقيون والاسرائيليون والرومان واليونان والعرب والترك
والتر والجر كس ، وأعجب الفاتحون بخبراته ، واغلبوا بالاستيلاء عليه ، لموقعه
الممتاز بين الاقطار والقارات ، لجعلوه محط رحالهم ، ومجازاً الى فتوحهم ، لا يستغرب
منه اذا رأينا فيه مصانع تشهد لبانيتها بسلامة الذوق ، وجودة الابداع ، وعظمة
الباني . ان الشعوب التي انشأت مصانع البتراء «وادي موسى» وجرش وعمان
ومادبا وعلبك وتدمر والرقعة وأفاميا ودمشق وحلب والقدس كانت ذات معرفة
بالمهندسة لا تقل عن اهل هذا العصر بها ، لان ما شادوه صارح الايام وصرعها ،
وبقيت منه هذه البقايا على كثرة ما تناولها من الهدم والتخريق بايدي المحربين من
الغالمين والمظلومين ، وسطا عليها من عوامل الطبيعة القاسية .

يتناول بحثنا الآن آثار الشام قبل الاسلام وبعده . ونعني بالشام ما عرفه
العرب من البلاد الممتدة من عريش مصر الى نهر الفرات ومن سفوح جبال طوروس
او الدروب الى البادية . وتنقسم هذه المصانع قسمين : مدني ودهني فالمدني كالقلاع
والحصون والابراج والمتاور والمراسد والقصور والجسور والسكر والاقنية والمواني
والطرق والدور والقبور والمستشفيات . والدهني كالمعابد والبيع والاديار والكنائس
والجوامع والمساجد والمدارس والربط والخطاها والملاجي وما شاكلها . تتكلم على
المهندسة المتبعة في هذا القطر السعيد اجمالاً بحسب ما انتهى اليها من كتابات العرب
والافرنج . ولا نستفج الا حيث يصح الاستنتاج ، ونقدم القول بنصوص العلماء من اهل

(١) ألفت في ردهة المجمع العلمي يوم ٢٩ كانون الاول سنة ١٩٢٢ م .

(١) كلمة فارسية كانوا يربدون منها ما يريدون نحر اليوم بكلمة الصراف
او العاس

الاخصاء في العاديات والبناء ، وتقف عند حد ما رسموه لانهم المرجع وعلى كلامهم الفتوى .
لم يحدثنا التاريخ والحثيون والاسرائيليون من أقدم الشعوب السورية انه كان لهاذين الامتين هندسة خاصة ، بل كان الحثيون يقتبسون عن جيرانهم الاشوريين اصول بنائهم وليس فيه ما هو خارق للعادة في اشكاله ووضعه ، بل هو محرف عن الطراز الاشوري تحريفاً مهزناً . ولم يتمكن الاثريون الى اليوم من العثور على عاديات حثية حقيقية لبقيوا حق الوقوف على اصول هندستهم وبنائهم . وما اكتشف من هذا القبيل من الصور النصفية وغيرها لا ينم عن ذوق سليم ولا عن إبداع في حسن الهندسة .

ولقد انشأ الحثيون قلعة لم على الفرات في كركيش (جرابلس) بقيت حكمة في حلق ينحوى الى نحو سنة ٧١٠ ق م حتى استولى الاشوريون عليها وكانت هندسة مصانعهم على مثال مصانع الاشوريين والبابليين مقتبسة اقتباساً رديفاً لا تخلو من جفاء وسذاجة .

وبنو اسرائيل كالحثيين لم يتركوا في فلسطين منبتهم ومطلعهم ، سوى آثار ضئيلة ساروا في صنعها على تقليد الاشوريين والمصريين ، وقلدوا المصريين في الاكثر لقرب فلسطين من مصر ، بل لان مصر استولت زمناً على فلسطين . وأهم ما بقي من آثارهم معبد في القدس او معبد سليمان الذي جمع اليه الصنائع والمهندسين من صور بمساعدة الملك حيرام سنة ١٠١٣ ق م وقد حرق هذا المعبد فرم غير مرة على عهد ملوك يهوذا سنة ٥٨٨ ق م ولما عاد اليهود بعد اثنين وخمسين سنة من أسرهم في بابل جددوا المعبد على مثال الاول في الجملة وكانت دثرت محاسنه الاولى ثم وقع ترميمه في ادوار مختلفة ولم يصب هذا المعبد باذى على عهد السلوقيين خلفاء الاسكندر المقدوني في الشام ولا في زمن بومبيوس الروماني لانه كان من عادة اليونان والرومان ولا سيما الرومان ان لا يقاتلوا الامم التي يدخونها على اربابها . وربما اقتبسوا من فلوهم على امرهم عباداتهم من غير تكبر .

وسع هيرودوس ملك اليهود الذي نصبه الرومان معبد سليمان ، وانتهى على عهد

هيرون ، وكان عمل فيه الف كاهن والوف من العملة دهرراً طويلاً . وقد قيل ان سليمان خزن من غنائم ابناء معبده مئة الف وزنة من الذهب ومليون وزنة من الفضة فقدرت بسكة زماننا بثمانمائة وتسعة وثمانين مليوناً ونصف مليون جنيه ، وذلك ما عدا الحديد والححاس والخشب فكل بناؤه سنة ١٠٠٥ ق م وكان نجر أورشليم واجل بناء في العالم . وقد شيد بجانب الهيكل الشرقي رواق من السواري اي الممد فادار الملوك المتأخرون هذا الرواق حول جميع البناء وبقي هيكل سليمان ٤٢٤ سنة الى ان خربه ملك بابل . والهيكل الذي رمه هيرودوس في محل الحرم الشريف تحيط به عدة دور منها دار الامم وهي الدار الخارجية ثم دار النساء ثم دار اسرائيل ثم دار الكهنة ثم الهيكل . وهدم الرومان هذا الهيكل سنة ٧٠ م ولا يزال الباحثون منذ ثلاثة قرون ينقبون عن كل ما له علاقة بهذا المعبد وكان غاصاً بالخشب الثمين الذي جني به من ارض لبنان وغيره ومموهاً بالذهب والفضة ومجلى بالعاج والاحجار الكريمة وفيه من الاواني الثينة والمدى والاحواض وادوات البيوت ما صح ان يعد خلاصة علم الفينيقيين بالصنائع والفنون النفيسة . والفينيقيون هم في الحقيقة البانون للهيكل ولا غرو فمدينة صور مسقط رأس أفليدس المهندس كما ان دمشق مسقط رأس بولودر المهندس الذي اقام عمود تراجان في رومية وبنى جسراً هائلاً على الدانوب (الطونة) . هذا مع انه لم يشتهر الفينيقيون بانهم عنوا بالبناء والهندسة عنسايتهم بالريج والكسب وارتياذ القاصية ، وكانوا كالاسرائيليين والكنعانيين والحثيين ينقلون هندسة مصانعهم عن الاشوريين والمصريين . ولقد اعجب الغربيون لعهدنا بالمكاتب التجارية التي اقامها الفينيقيون في شواطئ يونان وايطاليا وصقلية وغاليا وايريا وافريقية ، بيد ان هذا الشعب لم يخلف من آثار مدنيته ادنى ما خلفته الشعوب القديمة . وربما كان الباقي منها بل ما ثبت قيامه على عهد حضارتهم ، اقل مما خلفته تدمر والبتراء . ولم يثبت ان بقي للفينيقيين معبد من معايدهم الى عهدنا على كثرة ما بنوا منها كما يقول التاريخ .

اما آثار الفينيقيين المدنية كالحصون والقبور وغيرها فان الباقي من اساس حصن صور الذي اعجز اقتحامه قدماء الفاتحين كسراغون وبختنصر والاسكندر لا يدل

على كبير امره ، وقد بنى الاسكندر بين البر والجزيرة فيها سدهم الغريب ، وكان بناء صور الى عصر ابن بطوطة « ليس في الدنيا عجب واغرب شأناً منه » وقال ابن جبير : انه يضرب المثل بمصانئها وذلك انها راجعة الى بابين احدهما في البر والاخر في البحر وهو يحيط بها من جهة واحدة ، فالذي في البر يفضى اليه بعد ولوج ثلاثة ابواب او اربعة كلها في ستائر مشيدة محيطة بالباب ، اما الذي في البحر فهو مدخل بين مرجين مشيدتين الى ميناء ليس في البلاد البحرية عجب وضعاً منها يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب ويحيط بها من الجانب الآخر جدار معقود بالجنب . ولا يزال سور بانياس بين طرطوس واللاذقية قائماً ولكن لا يعرف اذا كان من صنع الفينيقيين او البلاسجيين لانه اشبه بعمل البلاسجيين سكان ايطاليا ويونان القدماء . وهكذا يقال في اسوار بيروت وصيدا وجزيرة ارواد وعمريت ومعبد هذه على رأي رنان اقدم معبد بل يكاد يكون المعبد الوحيد الذي بقي من آثار العنصر السامي اما قبور الفينيقيين فهي اهم ما اكتشفت في بلادهم ، وكلها انقرباً ففقدت في الصخر وهي مثلاً في بلاد يهوذا والعرب ، اي عبارة عن عقود كبرى جعلت فيها النواويس لأسرة برأسها . والقبور التي ظهرت في عمريت هي اهم ما عرف من نوعها وكذلك ما ظهر في جبيل وصيدا ولا سيما النواويس الاربعة التي وجدت في هذه المدينة ولا تزال محفوظة في متحف الاستانة .

قلنا ان المصريين والاشوريين ادخلوا ايام استيلائهم على فينيقية عاداتهم واصول هندستهم ومصانعهم وكل ما هو من خصائص مدينتهم ، فكانوا اساتذة الفينيقيين ولكن هؤلاء لم يحسنوا التقليد ، وعلى عهد الاسكندر فقط دخل في البلاد روح جديد في البناء اي اصول الهندسة اليونانية .

ولقد بحث الاثريون في فلسطين عن المعاهد الدينية في الاكثر وامتدوا في حفرياتهم الى بلاد العرب للعثور على مدينة يعتقد بها سبقت الرومان واليونان ، وكل ما عثروا عليه تافه في الحقيقة . وقد تبين لم ان البيوت كانت كقصور الملوك تحتوي على دائرتين : دائرة الرجال او النوي وهو المكان المعبد للضيف « السلامك » ودائرة الحرم شأن قصور الشرق الاسلامي لهذا العهد . وما قصر هر كان في عراق

الامير ، وحصون القدس ، و برج انطونينا ، الا من بقايا الهندسة اليونانية الرومانية . ونقل في فلسطين وشمالي غربي بلاد العرب القبور التي يرد عهدها الى الزمن الذي يسبق العصر اليوناني . وقبور مدائن صالح التي نحتت في الصخر ، لا يستدل منها الا انها مثال من امثلة البناء الاشوري . وقد اختلفت الطنون في هذا الشأن والاثريون يوالون حفرياتهم ليكشفوا شيئاً يستدلون منه على مدينة اقدم امة نزلت الارض المقدسة .

واقمت عدة انصاب في الشام للملوك الرومان منها ما عثر عليه الاثريون فقد ذكر وادنكتوت كتابة وجدتها في السويداء كأنها كتبت تحت نصب اقيم لاحد ملوك الرومان فيه « للملك اليوس قيصر ادر يانوس انطونينوس ييوس العاهل » ووجد مع كتابة في قرية ام الجمال في حوران كتب فيها « للعاهل القيصر مرفس اورليوس انطونينوس اغسطس قاهر الارمن والبرتهين » . ولهذا القيصر كتابة أخرى في سهوة الخضرة من جبل حوران وأخرى في الشبهة المسماة فيليببولي نسبة الى الملك فيلبس العربي ووجد في السويداء أيضاً كتابة يونانية مؤذنة باقامة اثر نكرمة للملك كومود اقامه له دوميتيوس بروكستر والى العربية ذكره جلب الماء الى المدينة وضواحيها سنة ١٨٧ ووجد في جنوبي اللاذقية على مقربة من عدوة النهر الكبير كتابة تدل على محطة عسكرية . وفي دير القلعة في لبنان على الصخر الذي في جانب البئر كتابة فيها « بسلامة مولانا القيصر لوستيوس سبتيموس ساويروس برتينكس اغسطس اقام هذا النصب بومبايوس انجيوس نذراً للمشتري » .

وبعد فان البحث في مصانع الشام وحدها يحتاج الى مجلد قد يضطر مؤلفه الى ان يرمي الكلام على عواهنه لصعوبة الحكم على كل اثر بعينه ونسبة كل بناء الى الامة التي اقامته وكل واحدة منها تركت على الاغلب اثرأ مغلداً متلداً لتأخر به . فالطريق الرومانية التي أنشئت من القدس الى بلاد النبط جنوبية بحيرة لوط ومن شمالها وطريق مادبا الى البتراء والعقبة حتى البحر الاحمر وطريق جرش - وادي موسى والطريق المبلط شرقي صرخدا الممتد الى العراق وكان يسمى بالرصيف هي من الآثار المهمة كالمعسكر

الروماني في أذرح قرب معان وآثار قنوات وشبهة وسالة ودامية العليا ولبن .
 عدت البتراء في الجنوب رصيفة لتدمر تباريها بضروب مرافقها ومنها الهياكل
 الجبلية والدور الفخمة والاندية والمجالس والقصور والحمامات والمسارح والمدافن
 والمسلات وقد رأى فيها دومازفسي آثار الهندسة المصرية واليونانية والرومانية
 والسورية . واهل البتراء عرب من النبط شيدها حوالي القرن السادس ق م
 وارتقت على عهد الرومان بعد المسيح بقرنين الى ان زاحمتها تدمر في القرن الثالث الميلادي .
 ومن اجل ما في وادي موسى اليوم خزنة فرعون وهي دار الحكم تقرت في الصخر
 وجعلت ثلاث قاعات ويهوا . ومن مفاخرها الملعب العظيم المنحوت في الصخر قطره
 ١٧ قدماً وفيه ٣٣ صفاً من المجالس يسع من ٣٠٠٠ الى ٤٠٠٠ من المتفرجين ولكن
 الملعب الروماني في عمان اي ربة عمون هو اكبر الملاعب في الشام وهو مركب من
 ثلاثة مراتب جعلت المرتبة الاولى خمسة صفوف من المقاعد والمرتبة الوسطى اربعة
 عشر صفاً من المقاعد والمرتبة الثالثة ستة وعشرون صفاً من المجالس وهو يسع اربعة آلاف
 ناظر ايضاً . وفي اسفل الملعب حجرتان كبيرتان لسجن الاسود والتمورة والتاسيح .
 ويرتفع ارفق جرش الى القرون الاولى للمسيح وتاريخ ابنتها الى امبراطرة القرنين
 الاول والثاني وهي شاهدة بتأثيرات الطراز الروماني حتى في الاصقاع البعيدة .
 وكانت جرش من جملة المدن المهمة للغاية من بين مدن بلاد العرب وعمدها المائلة
 للعبان ومنها ما بلغ طوله ١٤ متراً وقطره خمسة اقدام وملاعبها وهياكلها وساحاتها
 وحماماتها تذكر بما كان للرومان من مثلها في بعض البلاد المهمة التي تولوا الحكم عليها .
 وصف شيخ الرتبة خرائب جرش وعمات في القرن الثامن بقوله : « ذكروا ان بدمنة
 مدينتي عمان وجرش بالشام ملعين ، فاما جرش فمنها تلال وجبال وحجارة منقولة ،
 وبعض بناء ابوابها قائم في الهواء نحو خمسين ذراعاً ، وبهذه الدمنة موضع كصورة
 نصف دائرة مقطوعة بخائط وذلك الخائط به مجلس للملك ، واما النصف المستدير
 فانه مدرج درج بعضها فوق بعض ، وهي دوائر وكل دائرة فوقانية اوسع من السفلى ،
 وبين هذه الدرج الدائرة ابواب ومساكن وكل درجة وعليها مرتبة من الناس وكلهم
 ينظرون الى الملك وهو ينظر اليهم كلهم لا يجيبون عنه ولا يجيب عنهم في ذلك

المجلس وكانما هو ليوم الحكم العام فقط ، وبالقرب من هذا الملعب ايضاً ملعب وفيه
 عمد طوال قائمات وفي كل منهن بكرة وهن مستديرات المراكز كصورة دائرة وكانما
 كان على رؤوسها من الحجارة عتبات من عمود الى عمود وفوق ذلك ابنية لاهلها
 وآثار شاهدة ولا يعلم في الشام من الآثار مثل هاتين المدينتين الا بمدينة بعلبك
 وبباب البريد بدمشق اه .

وذكر بعض الاثريين ان مدينة تدمر بناها سليمان ايمن على طريق التجارة حتى
 اصبحت في اوائل النصرانية احدي المدينتين اللتين جمعتا بين تجارة اوربا وآسيا
 واعني البتراء وتدمر . قال ياقوت واهل تدمر يزعمون ان ذلك البناء قبل سليمان بن
 داود عليه السلام باكثر مما بيننا وبين سليمان ولكن الناس اذا رأوا بناءً عجيباً جهلوا
 بانيه اضافوه الى سليمان والى الجن . قلنا وكان القدماء يعتقدون ان بعض مدن
 ساحل سورية بناها الالهة قال المعري :

وقد كانت ارباب الفصاحة كما رأوا حسناً عدوه من صنعة الجن

وقال النابغة الذبياني :

الا سليمان اذ قال الاله له ثم في البرية فاحدها عن الفند

وخيس الجن اني قد امرتهم يبنون تدمر بالصفاح والعمد

وقد كان من جملة التصاوير التي بتدمر صورة جاريتين من حجارة من بقية
 صور كانت هناك فربها اوس بن ثعلبة التيمي صاحب قصر اوس الذي في البصرة
 فنظر الى الصورتين فاستحسنهما فقال :

فتاتي اهل تدمر خبراني ألما تسأما طول القيام

قيامكما على غير الحشايا على جبل اصم من الرخام

فكم قد مر من عدد الليالي لعصر كما وعام بعد عام

وانكما على مر الليالي لابقى من فروع ابني شام

وقال محمد بن الحاجب يذكرها :

اتدمر صورتاك ها بقلبي غرام ليس يشبهه غرام

افكر فيكما فيطير نومي اذا اخذت مضاجعها النيام

اقول من الشجب اي شيء
املكنا قيام الدهر طبعاً
كانهما معاً قرناً فاما
ير الدهر يوماً بعد يوم
ومعكنها يزيد بها جمالاً
وما تعدوها بكتاب دهر

وقد اقام الرومان بين دمشق وتدمر الى الفرات اثنين وخمسين حصناً او قلعة
بعد كل منها عن الاخرى ثلاث ساعات ولا شك في ان الحرس الروماني كان
في بعضها وبنى الرومان عدة حصون على الطريق الممتد بين بصرى ودمشق ليأمنوا عبث
البادية وبعد ان فُتحت الزباء اوزيب او زنبوب سلطانة تدمر المشهورة القطر المصري
عمرت الابنية التي جلبت اليها الامن من اقطار الارض ولا سيما اليونان وما كان من
الامبراطور اورليانوس الروماني الا ان داهمها سنة ٢٧٢ وخربها وبعث ابنيتها وقوض
ها كلها ودك اسوارها وهدم قلاعها فاصبحت كأن لم تكن بالامس الى ان جاء
بوستينيانوس سنة ٥٢٧ فجدد بناء الاخرية وشيد ابنية اخرى فيها وجعل لها سوراً ثم
سُطت عليها الزلازل كثيراً وما يرى اليوم من الاثر الضئيل الباقي من عادياتها شاهد
على ما كان هناك من عمران تمتد الرواق وما استخرج ولا يزال يستخرج من ارضها من
التايل والانساب والشواهد يدل على فضل ذوق وحسن هندسة وقد كان لهؤلاء
الرومان اغراب كما قال التعالي في خرط التايل والابداع في عمل النقوش
والتصوير حتى ان مصورهم يصور الانسان ولا يغادر شيئاً الا الروح ثم
لا يرضى بذلك حتى يصوره ضاحكاً ثم لا يرضى بذلك حتى يفصل بين ضحك الشامت
وضحك الحجل وبين المتبسم والمستغرب وبين ضحك المسرور وضحك الهازي فيركب
صورة في صورة وصورة في صورة او كما وصف الارجاني شبيذير وعلى مثل هذه
التايل يصدق وصفه :

ومن كل انواع الانام مصور
ومجلس انس يفسح الطرف ملؤه
شباب وشمط يمرحون وشيب
فيان تغني وسطه وشروب

وصرعى وقنلى في قتال عساكر
فمن جانب اصحت نصب مداة
خليطان هذا للقراع معبس
وقد حققوا التصوير حتى وجوههم
وكل يماني شغله غير انه
ملاعب فيها الملك رام بطرفه
وعاشوا طويلاً ثم فرق شملهم
فلولا مكان الدين قل لفقدهم
ملوك اقاموا ما اقاموا اعزة
وخيل للرائي لينذكر عهدهم
خيال لهم يهدى الى كل امة
لقصده اعتبار ان رآه ليب

وان بقايا هيكل الشمس او المشتري وهيكل الزهرة وهيكل باخوس ودار المذبح
او البهو الكبير الماثلة الى اليوم في قلعة بعلبك لا كبر دليل على ارتفاع فن الهندسة حتى
في العصور التي سبقت الرومان واليونان . وفي بعلبك هيكلان كبيران طول اصغرهما
٢٢٥ قدماً وعرضه ١٢٠ قدماً وكان محاطاً باعمدة كبيرة الحجم طول الواحد منها
٤٥ قدماً وطول هيكل الشمس ٣٢٤ قدماً وكان محاطاً باربعة وخمسين عموداً يبلغ
قطر الواحد منها ٧ اقدام وعلوه من قاعدته الى قمته ٨٩ قدماً وقد بلغ طول بعض
الحجارة المبني منها الهيكل ٦٤ قدماً وسمكه ١٢ قالوا وكانت هياكل بعلبك تضاهي
هياكل اليونان بعظمة بنائها واكسها دونها بالترتيب والزخرفة .

قال شيخ الربوة وبقلعة بعلبك بيت محكم من الحجر طوله خمسون ذراعاً وهو من
كل جهة ثلاثون ذراعاً وسقفه حجر وفي وسط السقف نسر حجر فارش اجفنته وفيه
اربعة قرن السقف اربعة اصنام واسماؤها ود سواع ويغوث ويعوق ويقطع الحجارة
حجر رابع للثلاثة التي بالقلعة متروكة الى وقتنا هذا والى ما يشاء الله مثال للناس يعني ان من
ههنا حملنا الاحجار الثلاثة المبنية بالقلعة — وهو الحجر المعروف اليوم بحجر الجبل —

وبالحصن أيضاً عمد طول كل عمود نحو عشرين ذراعاً وفي الأرض منها نحو أربعة أذرع ودوره نحو ذراعين وأكثر وعددها نحو ستين عموداً وكان على رؤوسها عتبات وفوق العتبات البناء المحكم وإن أثار بعلبك بما فيها من العمدة الفخمة ومنها من النوع المعروف بالغيب الذي جلب من بلاد السودان على ما يظهر وما جاء عليها من القرون ولم نلته نذل دلالة صريحة على أن كل هذا من صنع الرومان وبايدي مئات الألوف من العملة المحترقة المتعدين وهكذا قامت جميع آثار الرومان بأرهاق الإنسان للإنسان .

ويصدق على قلعة بعلبك في الوصف ما قاله عبد اللطيف البغدادي في أهرام مصر أنها سبغت على مر الأزمان بل على عمرها صبر الزمان ، فأنك إذا تجرعتها وجدت الأذهان الثمينة قد استهلك فيها والعقول الصافية قد افرغت عليها بمجهودها والافئس النيرة قد افاضت نلها اشرف ما عندها لها والملكات الهندسية قد اخرجتها الى الفعل مثلاً هي غاية احكامها حتى انها تكاد تحدث عن قومها وتخبر بحالم وتنطق عن علومهم واذعانهم وترجم عن سيرهم واخبارهم . او ما قاله في يراي مصر : فالحكاية عن عظمها وانقان صنعتها واحكام صورها وعجائب ما فيها من الاشكال والنقوش والتصاوير والخطوط مع احكام البناء وجفاء الآلات والاحجار مما يفوت الحصر .

ومن اجل ما وصفت به خرائب بعلبك قول صديقنا خليل مطران من قصيدة :

حرب حارت البرية فيها	فئة السامعين والنظار
معجزات من البناء كبار	لأناس مل الزمان كبار
البتها الشمس لتوفى در	وعقيق على رداء نزار
ونحلت من اللبالي بشاما	ت كمنقبط عنبر في بهار
وسقاها الندى رشاش دموع	شربتها ظوامي الانوار
زدها الشيب حرمة وجلالاً	توجتها به يد الأعصار
رب شيب اتم حسناً واولى	واهن العزم صولة الجبار
معبد للأسرار قام ولكن	صنعه كانت اعظم الاسرار
مثل القوم كل شيء عجيب	فيه تمثيل حكمة واقنصار
صنعوا من جماده تمراً يح	نقى ولكن بالعقل والابصار

وضروباً من كل زهر انيق لم نفتها نضارة الازهار
وشموساً مضبشة وشعاعاً باهرات لكنها من حجار
وطيوراً ذواهباً آيسات خالجات الغدو والابكار
في جنان معلقة زواه بصنوف النجوم والانوار
وأسوداً يخشى التحفز منها ويروع السكوت كالنزار
عابسات الوجوه غير غضاب باديات الانياب غير ضواري
في عراينها دخان مثار وبالحاظها سيول شرار
تلك آياتهم وما برحت في كل آت روائع الزوار
ضمها كلها بديع نظام دق حتى كأنها في انتشار
في مقام للحسن يعبد بعدال معقل فيه والعقل بعد الباري
منتهى ما يجاد رستم وابهى ما تحج القلوب في الانظار

هذا اجمال في المصانع الكبرى في هذه الديار وهندستها ومن أهم آثارها انطاكية التي بناها انطيوخوس واكمل زخرفها سلوقس سنة ٣٠٠ ق م وكان فيها عجائب من الهندسة اليونانية ما لم يكتب ليونان ان تعمل مثله في ارضها ولولا ان الزلازل تحيبتها في ادوار مختلفة لكانت اليوم من أهم ما يقصد للزيارة . وكانت انطاكية عاصمة الشرق ايام اغسطس قيصر كما كانت رومية عاصمة الغرب . ومن يدخل انطاكية و يذكر ما كان فيها من القصور والدور والمعابد والمباني والحمامات والافنية ودور التمثيل يكي لبلد انفتحت الآفات السماوية والارضية على تخريبه ولم يبق من عظمته التار يخية سوى بعض جدران قلعتها القديمة .

ومن جملة آثار الهندسة الرومانية او اليونانية بحيرة قدس او خزائن حص وقناة سلمية وجسر قنوات وآثار سبسطية ومنها مصانع حلب وهي صورة تامة من نشوء الهندسة وقد غابت هذه المدينة بالمصانع ذات الهندسة العسكرية والدينية والمدنية وما برح معظمها بحاله . ومن أهم ما في شمالي سورية ملعب أفامية (قلعة المضيق) وملعب دفنة وكان فيها معبد ابولون رب الشمس والنور والصنائع والآداب والطب عند قدماء اليونان ونصب فيها بربا كليس المهندس الآتي تمثالاً للرب

اشتهر بين العارفين بالصنائع الجميلة وهو قابض يده على قبضته وقد صورت صورته على نقود انطاكية وفيها معبد ديان والزهرة وغيرها من الارباب . ومن اهم الآثار القديمة بدمشق الشارع العظيم الذي كان يجرها من الشرق الى الغرب اي من الباب الشرقي الى باب الجابية وطوله ١٦٠٠ متر وعلى جانبيه رواقان من العمود وهو اليوم مستور مردوم قامت عليه الدور والحوانيت وكانت مقسوما الى ثلاثة اقسام الوسط للدواب والجمالات والرصيفان بجانبه للذاهبين والجالئين والباب الشرقي اليوم على ما يرى هو احد الرصيفين فقط بحيث يستدل من ذلك ان الشارع لم يكن عرضه اقل من خمسة وثلاثين متراً .

ولا تزال خرائب بصرى عاصمة حوران واحصن مدن باشان ومقل الرومان شرقي الاردن شاهدة بما كان في تلك المدينة من الفخامة والعظمة وكان طولها داخل السور كما قال بورتز ميلاً ورسم ميل وعرضها ميلاً ويحيط بالسور ربض كثير المباني ومحيطها خمسة اميال لها سور عالي الجدران وثيق البنيان وقلعة لا حصن منها في عامة بلاد الشام ويقطع المدينة شارع كبير على طولها يمر في وسطها له بابان جميلان على طرفه وشوارع رجة وفيها ما يفوق الوصف من غرائب الصناعة وبدائع البناء واساليب النقش في المباني كل الكنائس والقبور والمذابح وركام الانتقاض وبهوت الاقدمين وقوم نصر اقيم للقائد فيليبس الذي صار امبراطوراً وهو من اهالي بصرى والمشهد نصف دائرة قطره ٢٧١ قدماً وهو مكشوف من الاعلى مثل كل المشاهد الرومانية وفيها مشدان وستة هياكل وعشر كنائس او عشرة مساجد عدا القصور والحمامات والسبل والقنوات واقواس النصر وغير ذلك من المباني الكثيرة وبعضها ما يصلح ان تزدان به اعظم عواصم اوربا الآن .

ولقد شوهد في معظم المدن التي بنىها الرومان في هذه الديار وفي غيرها انها متشابهة في مرافقها الا قليلاً ففي كل مدينة ساحة عامة (فوروم) وما يتبعها من المرافق ومعبد الكابول او معبد المشتري وجونون ومينرفا (ربة الحكمة والفنون والحرب) وكانت في المدن الرومانية بمثابة البيع الكاتدرائية في مدن اوربا الحديثة وفيها اسواق ذات نفاذ من الحجر وفوارات ومقامم ماء ذات اقنية لا تزال ترى

الى اليوم آثارها ومراحيض نامية وخاصة ولما كان للاستحمام فيها مغاطس باردة وحارة وبهوت للتعريق وناعات للرياضة والحداثة ومماش للنزه وافرات واقواس نصر وابواب تغلق ليلاً ودور تمثيل لا يزال في اكثرها مصاطبها المدرجة ومساكن خاصة .

ومن اهم الآثار في سورية جسر المعاملتين وجسر جبيل بين البلدة ومدافنها القديمة ومنها قناتان تمتدان بين نهر الكلب وجونيه والثانية القناة الكبرى التي كانت تنقل مياه الجبل الى بيروت وهي من عجائب الآثار القديمة . ومنها هيكل دير القلعة بالقرب من بيت مري في لبنان وهيكل افقا عند منبع نهر ابراهيم وهيكل فقرا فوق مزرعة كفر ذبيان في سفح جبل صنين وفي لبنان هياكل رومانية أخرى كهيكل بزيزا ونالوس في جهات اميونيون قرب طرابلس وتماثيل كثيرة مبعثرة وفي البترون حصن منيع وملعب . وفي بيروت مسرح ومن قلاعهم قلعة صربا وفقرا ويحتمر ومن اجمل حماماتهم حمام شبيه الذي يذكر بخرائب الفخمة كما قال ري بحمامات كارا كالا في رومية وكنيسة السويداء التي تشبه كنيسة القديس بولس في رومية قال ولا شك انها اجمل قطعة من هندسة روم القسطنطينية في جميع بلاد حوران .

لما انتشرت النصرانية في هذه الديار اخذ من دانوا بها في بناء الكنائس والاديار على اسلوب الابنية القديمة ومالت الهندسة السورية الى السذاجة واجتناب كل زينة زائدة لتؤثر بتناثرة البناء المعمول بالحجارة الفخمة وجمال الحجم وترتيب الاجسام . وقد نشأت بين القرن الرابع والقرن السادس للميلاد في الشام هندسة متينة راقية مختلفة عن الهندسات الاخرى تعرف حالتها من خرائب المدن العديدة في سورية العليا وحوران . قال جلابيرت : ومن المصانع المتنوعة في الهندسة السورية شيطان يلتفتان النظر خاصة وهما البيع والابنية ذات السطوح وكان المهندسون السوريون فيها عالة على الشرق ويسترشدون بأراء مهندسي فارس وقد أثرت الهندسة السورية اذ ذاك في هندسة كثير من الامم ولا سيما في بيزنطية واخذت بيزنطية من سورية او من طريق مصر عن سورية اصول كثير من الابنية . وقال ايضاً والحق يقال

ات في سورية الوسطى مجالاً واسعاً للأبحاث العلمية ودرس العاديات فأت فيها ما لا يحصى من الابنية العادية كالمباني كل الوثنية والكنائس المسيحية ودور الخاصة والاندية العمومية من اواخر القرن الاول قبل المسيح والقرن السابع للميلاد ولاكثرها كتابات تاريخية تزييل الرب في زمانها وهذه الآثار لتوالي سنة بعد سنة حتى لو جعلت على سباق متواصل لما وجدت عشرة اعشار من الستين خالية من آثار او آثار حجة ومجمل رأي بوتلر احد اعضاء البعثة الاميركية التي بحثت في آثار سورية الوسطى بين عامي ١٨٩٩ - ١٩٠٠ بعد معاينة كل هذه الآثار المتعددة واتخاذ اقيستها وتدوين رسومها انه كان لاهالي شمالي سورية الوسطى هندسة قائمة بذاتها مبانيتها لفن البناء الذي اشاعه الرومان في سورية وهو بناء قد يدعى بالطروز السوري لا اثر فيه للطرائق البنائية الرومانية والشرقية المحضة لكن له علاقة ظاهرة بالهندسة اليونانية الشائعة في انطاكية وهذه العلاقة ابين وأظهر في اول استعمالها ثم امتزجت به على توالي الاجيال عناصر شرقية حتى نجم اخيراً عن اختلاطها طرز مركب شاع في القرون الاخيرة . واذا حاولت رائد البصر الى الجنوب وامعنت النظر في ابنية حوران وجدت طرائقها البنائية مختلفة اختلافاً عظيماً عن الهندسة الشمالية نعم ان فن البناء الروماني ليس يمتثل على ابنية تلك الانحاء الا ان آثار نفوذ الفنون البنائية الشرقية اوفر واعظم وبذلك قد تألف طرز وطني سبق عهد دخول حوران في اقليم سورية مع مبانيتها للطروز اليوناني الذي ادخله السلوقيون .

عنه ابن خردادبة من عجائب البنيان ملعب فاميه وتدمر وبعلبك ولدت و باب جبرون قال والروم اقول : ما من بناء بالحجارة ابهى من كنيسة الرها (اورفة) ولا من بناء بالخشب ابهى من كنيسة منج لانها بطاقات من خشب العناب ولا بناء بالرخام ابهى من فسيان انطاكية ولا بناء بطاقات الحجارة ابهى من كنيسة حمص . وبعدة القسيان في انطاكية هيكل طوله مائة خطوة وعرضه ثمانون وعليه كنيسة على اساطين وكان يدور الهيكل اربعة يجلس عليها القضاة للحكومة والطلبة للدرس وعلى احد ابواب هذه الكنيسة فنان الساعات يعمل ليلاً ونهاراً اثني عشرة ساعة وفي

اعلاه خمس طبقات في الخامسة منها حمامات وبساتين ومناظر حسنة تحفر منها المياه وهناك كنائس كثيرة معمولة بالذهب والفضة والزجاج الملون والبلاط المجزغ . وكنيسة حمص كما قال المسعودي من بناء هيلانة وهي احدى عجائب العالم . ومن العجائب آثار عسقلان واشتهرت الشام بطراييلها اي صوامعها وكانت في الشام اديار كثيرة ذكر بعضها ياقوت منها دير باعنتل من جوسية على مرحلة من حمص وفيه عجائب منها أزج - بيت بني طولاً - فيه صور الانبياء محفورة منقوشة فيها وهيكل مفروش بالمرمر وصورة مريم في حائط منتصبه كما ملت الى ناحية كانت يمنتها اليك . وبظاهر انطاكية دير سمعان وهو مثل نصف دار الخلافة ببغداد وكان له من الارتفاع في كل سنة عدة فناطير من الذهب والفضة . وكان دير مران المطل على دمشق من جهة حدائق الصبار مبنياً بالحصص واكثر فرشه بالبلاط الملون وهو دير كبير في هيكله صورة عجيبة دقيقة المعاني وفي الجبل المشرف على كفرطاب قرب معرة النعمان دير آخر اسمه دير مران وبقرى المعرة دير النقيرة . ودير مار مارون شرقي حماة وشيزر كان ذا بنيان عظيم حوله اكثر من ثلاثمائة صومعة كان فيه من آلات الذهب والفضة والجواهر شيء عظيم .

قال ابن بطريق : ان كنائس الغوطة ودير مران كان المسلمون ينزلونها ويسكنون فيها . وفي الشام اديار وبيع كثيرة لم يحدث التاريخ عنها الا اجمالاً . ومن اهم الكنائس كنيسة القيامة بالقدس وكنيسة بيت لحم ومنها كنائس الناصرة وفي لبنان اديار كثيرة قديمة واقدمها على الغالب لا يرتقي الى اكثر من مائتي سنة تراها كما قال لامنس اشبه ببيوت القرى لا تختلف عنها الا بسعتها وليس لها طرز هندسي وكان للبنان في القديم طريقة هندسية لبناء كنائسه الا انها دثرت والنقوش والتصاوير فيها كلها من الشكل البيزنطي . وقال ابن الهندسة والتصوير والنقش وفنون الزينة اخذت تسير في طرق مستقلة عن النماذج اليونانية والرومانية التي كانت منذ عهد السلوقيين مؤثرة في جميع الصنائع النفيسة وانشأ المهندس السوري يرفض استعمال الملاط بين الاحجار وبكتني بحسن وضعها على صورة متوازنة تقوى بها بدون لجة بين اجزائها واستعاض عن الآجر المؤلف على عهد الرومان واليونان

بالبحر المحيطة وبني الكنائس ذات قباب فكثرت في البلاد البيع البديعة التي يعجب
بجرائها العظيمة اليوم الاثريون وعنها اخذ بناء الكنائس الرومانية .
ومن الكنائس المهمة كنيسة مريم في دمشق كانت ذات شأن قال ابن جبير
في القرن السادس ان لما عند الروم في دمشق شأنًا عظيمًا وليس بعد بيت المقدس
عندهم افضل منها وهي حيلة البناء لثمن من التصاوير امرًا عجيبًا تبيحت الافكار
وتستوفى الابصار ومرارها عجيب . وليس في دمشق الآن كنيسة اقدم من ستين
سنة لانها حرقت كلها في حادثة سنة ١٨٦٠ م وكذلك لا ترى في حلب كنيسة
يرد عهد بنائها الى اكثر من خمس وسبعين وفي الشام اديار كثيرة وبيع مثل اديار
جبل الكرمل والطور واريحا وطبرية ودير الروم والروس وكنيسة الالمان في
القدس ودير صيدنايا ومعلولا في جبل قلمون وكلها حديثة الا قليلاً ليست ذات شأن
معم وكذلك الحال في اديار شمالي الشام وسواحلها .

كان العرب قبل الاسلام يختلفون الى بلاد الشام ينزلونها واثجرون مع اهلها
ويقنون المزارع والقرى فيها بل كان التبط وهم عرب هم الذين انشأوا آثار جرش
والبتراء والغسانين والبيهم نسب آثار كثيرة في الشام الوسطى ومنها قصر النعمان
ابن المنذر في السويداء وفي حارب . وبني جنة اول ملوكها جلق والقرية وعدة
مصانع وبني ابنه عمرو دير حالي ودير ايوب ودير الدهناء وبني ثعلبة بن عمرو عقة
وصرح الغدير في اطراف حوران مما يلي البلقاء وبني جبلة بن الحارث من ملوكهم
القناطر وادرج والقسطل وبني الحارث بن جبلة وكان مسكنه البلقاء - الحفير في
البلقاء ومصنعه بين دجمان وقصر ابير وبني المنذر بن الحارث صربا ورزقا قربها من
الغدير وبني جبلة بن الحارث قصر حارب وكان منزله بحارب ومحاربا زمنه وبني
الايم بن الحارث الاديار دير ضخيم ودير النبوة وسعف وبني عمرو بن الحارث قصر
الغضا وصفاء العجلات وقصر منار وكان منزل جبلة بن النعمان بصفين وهو صاحب
عين اباغ واصلى النعمان بن الحارث صهاريج الرصافة وكان بعض ملوك علم خربها
وكان القجام قبل الغسانين ملوك الشام وهم عرب ايضا . وحكم النخوعيون شمالي

سورية قبل ان يخيئها جيوش العرب بقرون ولم تعرف للقباجم والنخوعيين آثاراً
تذكر . وآثار الصفا ولغتها المأخوذة من الحميرية العربية بخط سبأ وآثار بني مميذع
العرب في السويداء من جملة الشواهد على ذلك . قال البكري: ان اهل ثلاث بيوتات
من العرب كانوا يتبارون في البيع وزينها: آل المنذر بالحيرة وغسان بالشام وبنو
الحارث بن كعب بنجران ويعتمدون ببنائهم المواضع الكثيرة الشجر والرياض والمياه
وكانوا يجعلون في حيطانها وسقوفها الفسافس والذهب . وقد نسب دوسو عدة ابنية
في سيف البادية الى الغسانين . كتب ايليا بطريرك بيت المقدس الى انسطاس
ملك الروم قد بعث اليك بجماعة عبيد الله ورؤساء رهبان يرتقا وفيهم سبأ الفاضل الذي
قد صير برينسا مدائن واعمرها وهو نجم فلسطين . وفي سنة احدى وعشرين من
ملك يوستينيانوس الملك ثار بفلسطين اهل السامرة وهدموا الكنائس كلها واحرقوها
وقتلوا النصارى وعذبوهم عذاباً شديداً فناد يوستينيانوس الكنائس وكتب الى عامله
في فلسطين ان يعي اهلها من الخراج ويعمر بها الكنائس والديارات وبني بيارستانا
للغرباء في القدس

قال هوار: « ان القوافل عند عودتها الى الحجاز من سورية وقد سرخت
الطرف في المصانع العظيمة على العهد الامبراطوري كانت نقص احاديث عجيبة مما
رأت فأشربت النفوس تلك القصص وكانت منها ان انشؤا في صحاري شمال بلاد
اليمن جنات النعيم وارم ذات العماد الغربية وقد بنيت في غالب الظن على مثال دمشق
وتدمر وبعليك » . على انه من الثابت انه كان لحمير سكان اليمن الخضراء هندسة
مهمة قبل العهد الامبراطوري فان قصر غمدان في صنعاء من اعجب القصور انشاء ازال
ابن قحطان بامر اخيه يعرب عشرين طبقة بعشرين سقناً بين كل سقف عشرين
ذراعاً وجعل فيه مائة مسكن وكان اعلى غرفه ممرداً بالزجاج وقد بني على اربعة اوجه
وجه احمر ووجه اصفر ووجه ابيض ووجه اخضر وقيل بني في داخله قصر على سبعة
سقوف بين كل سقنين منها اربعون ذراعاً وجعل في اعلاه مجلس بالرخام الملون
وجعل سقفه رخامة واحدة وصير على كل ركن من اركانه تمثال اسد من شبه كاعظم
ما يكون . فالامة التي تبني هذا كانت لها ولا جرم عناية بلغة بالبناء وبراعة في

تقديرها وهندستها وسواء اخذت العرب عن سورية الهندسة واخذت السور يون عن
عرب الحيرة واليمن فان الملم ان يعرف ان العرب ليسوا كلهم بادية بل كان منهم من
يشيد المدن امثال الجانبين والى اليوم ظاهرة آثارهم البديعة على الانحطاط الذي طرأ
على ذلك القطر العجيب بعاديته وخيراته .

جاء العرب المسلمون الى الشام ولم يكن لهم هندسة خاصة واختاروا بادي بدء
ان يسكن جيوشهم في الخيام وكان جمهور من الروم في دمشق تخلوا عن دورهم ولحقوا
بهم قل فترها الناقحون ثم اخذوا في كل بلد ينزلونه يرمون ماعور من بنائه وربما بنوا بالمدر
اي بالطين والطين اولاً ولكن عادوا الى استعمال الحجر فقد روي ان عمر بن الخطاب
رضي الله عنه لما بلغه ان سعداً واصحابه بنوا بالمدر كتب : اكره لكم البنين بالمدر
فلما اذا فعلتم فعضوا الحيطان واطيلوا السلك وقاربوا بين الخشب وقد كان لبعض
اصحابه الكرام ممن فتحوا دمشق دور وقصور منتشرة في انحاء المدينة مثل دار ابي
عبيدة بن الجراح وخاله بن الوليد وفضالة بن عبيد والعباس بن مرداس وابي العزيز
الازدي ووابصة بن معبد وطلحة بن عمرو وخاله بن اسيد والنعمان بن بشير الانصاري
ووائل بن اسفح وهبار بن الاسود وعمرو بن العاص واوس بن اوس ويزيد بن نيشة
وعبد الله بن عامر الى امثالهم ولا نعرف الامكانات دار ابي عبيدة وكان في محلة
حجر الشعب اي المحلة التي تعرف اليوم بالبيارستان وكانت اجمل حي في دمشق وقد
اقام بعضهم مساجد في جوارهم . وكان معاوية يقيم احياناً في غوطة دمشق وينصب
الابنية والاروقة والفساطيط قال اليعقوبي كان معاوية اول من بنى وشيد البناء وسخر
الناس في بنائه ولم يسخر احد قبله . ولما بنى معاوية داره بدمشق المعروفة بالخضراء لقبة
خضراء بناها عليها عرفت النار بها وذلك قبل الجامع الاموي دخلها وفد الروم فقالوا :
ما احسن ما بناها للعصافير وفي رواية اما اعلاه فللعصافير واما اسفله فللنار فهدمها
وبناها بالحجر . والغالب انها ظلت عامرة الى القرن الثالث بدليل ما قاله ابن واضح من
ان في دمشق خضراء معاوية وهي دار الامارة . ولما استخلف عبد الملك بن مروان طلب
من خاله بن يزيد بن معاوية شراء الخضراء وهي دار الامارة بدمشق فاشترها باربعة
الف دينار واشترى منه اربع ضباع باربعة اجناد الشام اختارهن فاختار من فلسطين

عمواس ومن الاردن قصر خالد ومن دمشق الاندر ومن حمص دير ركا .
وقد بنى الامويون بعده يهوتاً لهم كانت بجوار الجامع ومنهادار عمر بن عبد العزيز
مكن المدرسة السمساطية الآن ودار هشام مكان تربة نور الدين وقصر سليمان بن
عبد الملك مكان سقاية جيرون ودار مسلمة بن هشام بباب البريد قال الذهبي بنى سليمان
ابن عبد الملك دار السلطنة وعمل بها قبة صغرى عالية بدمشق بدرب محرز وكان
لعائكة ابنة يزيد بن معاوية قصر خارج باب الجابية بدمشق وقال ابن عساكر
كانت دار هند بنت معاوية في درب القبلي . وقصر حجاج منسوب الى الحجاج بن
عبد الملك بن مروان وقد بنى الامويون قصوراً لهم في الغوطة لانهم كانوا يملكون
جانباً عظيماً منها ولكن لم يظهر لها اثر ولا خبر .

وفي ايام الوليد بن عبد الملك كانت الناس تسكن في البنايات والعائر لزيادة
رغبته في البناء فبنت الناس المجالس الحسان وذلك لان الخليفة كان يرغب في
البنايات والقباب المصانع وفي عهده دخلت دمشق في طور العواصم والناس على
دين ملوكهم .

قال احد المؤرخين وكان الوليد عند اهل الشام محبوباً لانه صاحب عمارة وبناء
عمر الضياع ووضع النار في الطرقات واعطى الجزء بن وافردم وقال لا تسألوا وادهم
كل مقعد خادماً واعطى كل ضرير قائداً وكتب الى جميع البلاد بهدم المساجد
والزيادة فيها وتسهيل الطرق وحفر الانهار وان تعمل البيمارستانات التي تعالج فيها
المرضى وهو اول من فعل ذلك وهو اول من اجري على القراء وقوام المساجد الارزاق .
كان الامويون اذا ارادوا اقامة بناء عظيم تقدم مملكة بيزنطية الصنائع والرسوم
التي يراد النقل عنها . ذكروا ان الوليد لما اراد في القرن الاول ان يعمر جامع بيت
المقدس ودمشق استقدم روماً من القسطنطينية للقيام بهذا الغرض فبدأت الهندسة
العربية بالاعتباس عن الامم الاخرى فلم تأت بابداع جوهرى في مبادي البناء
وقد استخدم العرب بادي بدء من المهندسين وارباب الصنائع من وجدوهم في البلاد
التي افتتحوها فكانت أسلوب البناء الاسلامي في اول الامر سورياً في الشام
وقبطياً في مصر .

قال سنيوس لم يكن للعرب كما للرومان صناعات وطنية خاصة بهم فكانوا إذا احتاجوا إلى قصور أو جوامع يعمرونها أولاً على الطرز الفارسي أو البيزنطي مثل جامع دمشق ولكن ما لبثت الصناعات الفارسية والبيزنطية أن اختلطت ونشأ منها صناعة جديدة هي الصناعة العربية واجمل هذه الصناعات الجوامع والقصور . وقال أحد علماء الأفرنج ان التقليد في الحضارة الاسلامية محسوس بهد انه تقليد غير اعمى لان تأثيرات الاساتذة الاقدمين لا تمنع من البحث العلمي والاختراع الحديث كما ان مشيد البدائع القديمة ودرسها لا يحولان دون التفنن ولطافة الابداع والاختراع . وفي الشرق نشأت هذه المدنية وكانت دمشق احدى مراكزها ومنبعث انوارها ولم يخلف العرب في النقش ولا الرسم آثاراً خارقة للعادة وما بقي مع هذا من آثارهم وعادياتهم الحجرية وانواعهم المنقوشة ونماذجهم ومجوهراتهم يشهد بان تعدد اذم الفنياء . وقال هوار : كان بدخ ملوك المسلمين من الدواعي للصناع ان يرقوا الاساليب التي كانوا يأخذونها تقليداً عن اجدادهم شفاهاً فجددوها ونقشوها فيها فارتقت مع عدة اشكال قديمة بعضها من اصل بيزنطي وهي وارثة اليونان ورومية والآخر ساساني من احلاف الدولة الاخمانية او اشوري او بابلي فارتقت عدة فروع من الصنائع الاسلامية وهي ليست من اصل بيزنطي ولا فارسي .

ولقد تفنن العرب في التزيين الجميل في كل اجزاء البناء . وحسن الصناعة عند العرب يبدو في جوامعهم . فان ما يتجلى على الجدران والسقوف من ضروب الزخرف والخطوط المتلوقة قد دعا الافرنج الى تسميته باسم ارابيك اي النقوش التي نقلت النسانات والاشجار ونسبوا للعرب حتى ان حروف الكتابات التي زبرت على الامجار والعاديات تشبه صورة من صور الزينة اكثر مما تبدل على اصل من اصول الخط . ولم يكتفوا بتصوير الاشجار الحسنة المثمرة والمزهرة وغير ذلك في الجامع الاموي بل صوروا البلدان والافاليم .

ومن اعم الآثار التي لم عن ذوق عربي في هذه الديار المسجد الانصي وقد جرى ترجمه سيف اوقات مختلفة والقليل الذي بقي من آثار نقش العرب وتصويرهم

بدل على ما كان هناك من فكرة وقادة ويد صناع . وقد غشى الوليد قبة الاقصى بالخماس اخذه من كنيسة في بعلبك وكذلك فعل مروان في قبة الصخرة مدة ولايته وكان صناع هذه القبة من الروم . فهندسة الجامع الاموي والمسجد الانصي مقبسة اذاً من الهندسة اليونانية وممزوجة باشياء اسلامية .

بعث ملك الروم الى الوليد كثيراً من البنائين والمقدرين اي المهندسين مع ما بعث اليه من المفصص اي الفسيفساء والذهب قال المقدسي : ان الوليد جمع لبنائه حذاق فارس والهند والمغرب والروم . وروى ابن شداد : ان الوليد اقتلع من كنيسة انطاكية عمداً عجيبة من المرمر والرخام لمسجد دمشق حملت في البحر الى ساحلها . ولما كان البناء من صنع بنائين مختلفين ساغ ان تقول انه جمع اجمل ما في الهند وفارس وآثينة ورومية . اما طرز البناء فالغالب ان بعض الجدر بقيت بحالها كما كانت يوم كونها بيعة او معبداً للصائبة . ومساجد الشام ومصر مبنية على شكل الكنائس التي قال المؤرخ ايسابوس انها ذات افنية واراوين وفسافي ومساكن للقسس .

ولقد بلغ من تفنن الوليد بزخرفة الجامع الاموي ونقشه وتصويره ما يعجب منه ولا يكاد يكون له نظير في هذه الديار فقد قال ابن كثير : ان ارض الجامع الاموي كانت منقصة كلها وان الرخام كان في جدرانها الى فامات وفوق ذلك كرامة عظيمة من ذهب وفوقها الفصوص المذهبة والخضر والحر والزرق والبيض وسقته مقرنص بالذهب والسلاسل المعقدة فيه من ذهب وفضة . وقد أُنق في خراج الشام سنين وفي رواية اربعمائة صندوق كل صندوق ثمانية وعشرون الف دينار وكان خراج الشام على عهد بني أمية الف الف دينار ومائتي الف دينار . وذكر بعضهم ان الوليد اخذ ربع اعطيات اهل دمشق تسع سنين وكانوا خمسة واربعين الفا يستعين بها على عمارة جامع دمشق . قال المقدسي والجامع جامع دمشق احسن شيء للمسلمين اليوم ولا يعلم لهم مال مجتمع اكثر منه ومن اعجب شيء فيه تأليف الرخام المنزع كل شامة الى اختها ولو ان رجلاً من اهل الحكمة اختلف اليه سنة لافاد كل يوم صنعة . وقال المقدسي : رأى الوليد الشام بلد النصارى ورأى لهم فيها بيعة حسنة قد

أقن زخارفها وانتشر ذكرها كالقمامة وبعدة لد والرها فاتخذ للمسلمين مسجداً في دمشق
شغلهم به عنهن وجعله إحدى عجائب الدنيا .

ومما رواه صاحب مطالع البدر أن اليونان لم يزالوا يعمرّون دمشق وبنّون فيها
وبني معاملاتها من حوران وغيرها البنايات الغربية العجيبة حتى كان بعد المسيح عليه
السلام مدة نحو من ثلثائة سنة فتصّرت أهل الشام على يد قسطنطين بن قسطنطين
الذي بنى المدينة المشهورة في بلاد الروم وبني لهم هذا الملك التي نسب اليه الطائفة الملكية
منهم كنائس كثيرة بدمشق وغيرها حتى يقال أنه بنى في زمانه اثنتي عشرة ألف
كنيسة . وقد غلب حب البناء على بني أمية فكان منزل سليمان بن عبد الملك قبل
الخلافة الرملة وهو أنشأ مسجد جامعها ونقل الناس إليها من لدن وكانت المدينة التي
يترها الناس فاحذ بهم منازلهم بالدينار بالرملة وعاقب من أمتنع من ذلك وهدم
منازلهم وقطع الميرة عنهم حتى انتقلوا وخرب لدن .

دخل المؤمن مرة جامع دمشق ومعه أخوه المعتصم ونجى بن أكرم فازدادوا عجباً
فقال المؤمن لها : أي شيء يعجبكما من هذا المسجد فقال المعتصم : ذهبه فأننا نضعه في
قصورنا فلا تقضي عليه عشرون سنة حتى يحول وهذا بحاله مع طول الزمن كأن
الصانع فرغ منه الآن . فقال المؤمن : ما أعجبنى هذا . فقال نجى بن أكرم الذي
العجب أمير المؤمنين تأليف زخارفه فان فيه عقوداً ما يرى مثلها . فقال المؤمن : كلا
بل العجبي أنه بنى على غير مثال شوهه .

ومع أن تلك الآثار الجميلة في الجامع ذهبت في الحريق الأول سنة ٤٦١ هـ ثم
الحرائق الخمس التي حدثت في أوقات مختلفة وآخرها سنة ١٣١٠ هـ فقد بقي في الغالب
سوره الأول . وصف ابن جبير قبة الرصاص في الجامع الأموي فقال أنها من أعظم
ما شاهده من مناظر الدنيا الغربية وهياكلها المائلة للنيان وقال أنها مستديرة كالكرة
وظاهرها من خشب قد شد بأضلاع من الخشب الفخام مؤلفة بنطق من الحديد ينعطف
كل ضلع عليها كالدائرة وتجمع الأضلاع كلها في مركز دائرة من الخشب أعلاها
وداخل هذه القبة وهو مما يلي الجامع المكرم خواتيم من الخشب منظم بعضها ببعض
قد اتصل اتصالاً عجيباً وهي كلها مذهبة بأبدع صنعة من التذهيب مزخرفة التلوين

بديعة الفريضة وفي الجدار حجارة بزن كل واحد منها قناطر مقنطرة لا تنقلها الفيلة
فضلاً عن غيرها فالعجب كل العجب من تطليعها إلى ذلك الموضع المفرط السمو
وكيف تمكنت القدرة البشرية لذلك فسبحان من ألهم عباده إلى هذه
الصنائع العجيبة اه .

أما المسجد الأقصى في القدس فقد كاد المؤرخون والجغرافيون من العرب
يجمعون على أنه أحسن من جامع دمشق عمره عيسى الملك بن مروان سنة ٦٥ الحرم
والقبة الكبرى التي فوق الصخرة على أسلوب جميل لم يسبق إليه . قال بعضهم إن
شكل قبة الصخرة مستعار من الهندسة البيزنطية ثم هدم الكنيسة التي كان شيدتها
إسثينيانس وبني موضعها المسجد الأقصى وثنوق في تنقيته وأكمل البناء سنة ٧٢ وقالوا
إن أساس المسجد الأقصى من عمل داود وهو على غاية الحسن والأحكام كما قال
ياقوت مبني على الأعمدة الرخام الملونة والفسيفساء التي ليس في الدنيا أحسن منه
لا جامع دمشق ولا غيره . وروى ابن العديم أن جامع حلب كان يضاهي جامع
دمشق في الزخرفة والرخام والفسيفساء وأن سليمان بن عبد الملك هو الذي بناء وتأنق
في بنائه ليضاهي به ما عمله أخوه الوليد في جامع دمشق .

وصف يزيد بن المهلب دار ولي عهد سليمان بن عبد الملك بدمشق فقال :
دخلتها فإذا هي دار محصنة حيطانها وسقوفها وفيها ووصائف عليهم ثياب
صفر وحلي الذهب ثم أدخلت داراً أخرى فإذا حيطانها وسقوفها خضر وإذا وصفها
ووصيفاتها عليهم ثياب خضر وحلي الزمرد وأن ولي العهد قاعد على سرير معه
امراته . ووصف حماد الراوية دار هشام بن عبد الملك في دمشق فقال أنها دار
قوراء مفروشة بالرخام وهو في مجلس مفروش بالرخام وبين كل رخامتين قضيب من
ذهب وحيطانه كذلك وهشام جالس على طنفسة حمراء وعليه ثياب حر من انار وقد تضخخ
بالمسك والعنبر وبين يديه مسك مفتوت في أواني ذهب يلقه بين يديه فنفوح رائحته
وفي المجلس جارية ثمان لم ير مثلها قط . والله أعلم أكان ذلك حقيقة أم خيالاً .
وقد ادعت ميس بل أنه لولا حوادث القرن السابع أي لولا دخول العرب

القائمين ببلع السور يون طريقة في هندسة الابنية خاصة بهم مستقلة عن غيرهم وان امتزج بها شيء من هندسة الام الاخرى فرد عليها لامس بان هذه المدينة مدينة دمشق لم تكن عاصمة كبرى الا في عهد بني أمية وبعمتهم . قلنا ولو لم يُعَفَّ بنو العباس آثار بني أمية في الشام رأينا فيه احسن صورة تامة من صور بنائهم . وكان منه ما هو في المدن ومنه ما هو في البادية او ما يقرب منها لان الامويين كانوا على الاغلب يقيمون نزول دمشق لطلوبتها وحياتها فمنهم من نزل قصر الموقر او المقور وقصر المشتى والرياء والقدين والازرق والاندف والبخراء والايض والقسطل والرصافة والريثونة والحلابة وحواريين والصبرة ودابق وبطنان حبيب وأياير في البلقاء وشمال سورية وشرقها وبني هشام حصن المنقب على يد حسان بن ماهون الانطاكي وحوله خندقاً وحصن بوقا من اعمال انطاكية وبعض هذه القصور لا تزال أسسها ماثلة للعيان مثل قصر الموقر والمشتى لم ينسها العباسيون كما نسفوا آثار المدن ونقضوا مثلاً سور دمشق يوم فتحوها حجراً حجراً واخربوا ايضاً قصور الامويين في حلب مثل قصر سليمان بن عبد الملك بالناصر وقصر مسلمة بن عبد الملك بالناعورة بحلب ومنازل هشام بن عبد الملك في القطيفة من جبل سنير وقصري هشام في الرصافة وابقوا في الغالب على قصر خناصر من ارض الاحص لم يبق من قصر بني امير بن عبد العزيز لانهم احترموه ولم يبقوا على غير قبزه من قبور بني أمية . والظاهر من كلام المقدسي المعروف بالبناء الذي ولد سنة ٣٢٦ ان آثار بني أمية كانت موجودة في عهده خلافاً لما هو المعروف من ان العباسيين اتوا عليها كلها والغالب ان بعض الابنية لم تعمر كثيراً ورمت فاطلق عليها اسمها الاصلي ونسبت الى بانيها الاول .

قال الجاحظ : من شأن الملوك ان يعلموا على آثار من قبلهم وان يمسحوا ذكر اندثارهم فقد هدموا بذلك السبب المدن واكثر الحصون كذلك كانوا ايام العجم وايام الجاهلية وعلى ذلك هم في الاسلام كما هدم عثمان صومعة غمدان وكما هدم الاطام (الحصون) التي كانت بالمدينة وكما هدم زياد كل قصر ومضيق كان لابن عامر وكما هدم اصحابنا (يعني العباسيين) بناء مدن الشامات (قد تسمى الشام بالشامات) اما بنو العباس فلم يبق الايام من آثارهم مصنعة معتد بها في الشام لتحكم على عظمته

وكان من اهمها قناة قرية منين التي جررها المأمون الى معسكره بدير مران في جبل قاسيون . وهذا عمل مهم مما بلغنا خبره لان الطريق من منين الى قاسيون يحتوي على اودية وشعاب ونجاد كثيرة ذكر ذلك ابن عساكر . وقد بني للمتوكل العباسي قصر بين داريا ودمشق فلم يعثر له على اثر وفي سنة ٢٦٢ هـ بنى الامير النعمان داراً عظيمة في بيروت وحصن سور المدينة وقلعتها اما المنغلبة على الملك في زمن العباسيين مثل الفاطميين والطولونيين والحمدانيين والسلجوقيين فاننا لانعرف عن آثارهم كبير امرايضاً ولا سيما بنو طولون وبنو عبيد فانهم آثروا ان يجعلوا مصانعهم في ممر مقلهم كما آثر العباسيون ان يجعلوها في العراق وخراسان ومما بناه ختكين والي دمشق للعالم بامر الله جسر الحديد تحت القلعة قلعة دمشق على نهر بردى وسخر الناس لاجل عمله واخذ اموالهم .

ومن اجمل ابنية دمشق دير مران كان عامراً الى القرن الثالث وكان فيه قصر خمارويه وفيه قتل وللشعراء فيه قصائد جميلة . ذكر ابن عساكر ان حمزة بن الحسن المعروف بفخر الدولة قاضي دمشق من قبل الفاطميين جدد في دمشق مساجد ومناير وقنوات واجرى الفواردة التي في جيرون . وذكر انه وجد في تذكروته سبعة آلاف دينار صدقة في كل سنة وهو الذي انشأ القيسارية المعروفة بالثغرية توفي سنة ٤٣٤ وكان لشمس الدين بن المقدم من كبار امراء الدولتين النورية والصلاحية (٥٨٤) دار كبيرة بدمشق الى جانب المدرسة المقدمة ثم صارت لصاحب حمزة ثم صارت لقراسنقر المنصوري ثم للسلطان الملك الناصر وله تربة ومسجد وخان وكان الملك الامجد صاحب بعلبك يقيم بداره التي داخل باب النصر بدمشق المعروفة بدار السعادة وهي التي ينزلها النواب ولعلها دار المشيرية اليوم .

وقد نشأت في القرن الرابع وما بعده في سورية حركة مباركة في العمران قام بها مهندسون من العرب انتهت اليها تراجم بعضهم وقليل من اعمالهم مثل ابي بكر البناء المهندس الذي ابني ميناء عكا لابن طولون . قال المقدسي ولم تكن عكا على هذه الحصانة حتى زارها ابن طولون وقد كانت رأى صور ومنعتها واستدارة الحائط على مينائها فاحب ان يتخذ لعكا مثل ذلك الميناء فجمع صناعات الكورة وعرض عليهم

ذلك قبيل لايتندي احد الى البناء في الماء في هذا الزمان ثم ذكر له جدنا ابو بكر البناء وقيل ان كان عن احد علم هذا فعنده فكتب الى صاحبه على بيت المقدس حتى اتبعه اليه فلما صار اليه وذكر له ذلك قال هذا امر هين عليّ بخلق الجيز الغليظة فصفا على وجه الماء بقدر الحصن البري وخيط بعضها ببعض وجعل لها باباً من الغرب عظيمًا ثم بنى عليها بالحجارة والشيد وجعل كبا بني خمس دواوس ربطها بأعمدة غلاظ ليشند البناء وجعلت الفلق كبا ثقلت نزلت حتى اذا علم انها قد جلست على الرمل تركها حولا كاملاً حتى اخذت قرارها ثم عاد فبنى من حيث ترك وكما بلغ البناء الى الحائط القديم داخله فيه وخيطه به ثم جعل على الباب قنطرة فلما ركب سيف كل ليلة تدخل المينا وتجر السلسلة مثل صور اه . قلنا وبنى احمد بن طولون قلعة بافا ولم يكن لها قلعة من قبل .

ومن المهندسين الذين رأينا اسماءهم مكتوبة على المصانع التي عمروها ابراهيم ابن غنائم المهندس الذي بنى القصر الابلق في الميقات القبلي بدمشق وهو قصر عظيم مبني من اسنله الى اعلاه بالحجر الاسود والاصفر بتأليف غريب واحكام عجيب بناء الظاهر يبرس البندقاري وعلى مثاله بنى الناصر محمد بن قلاوون القصر الابلق بقلعة الجبل بمصر . قال ابن فضل الله : وامام هذا القصر اي ابلق دمشق درگاه . يدخل منها الى دهليز القصر وهو دهليز فسح يشتمل على قاعات ملوكية مفروشة بالرخام الملون البديع الحسن المؤزر بالرخام المنصل بالصدف والنقص المذهب الى سقف السقف وبالدار الكبرى به ايوانان متقابلان تطل شبابهك شرقيهما على الميقات الاخضر وغربيهما على شاطئ واد اخضر يجري فيه نهر وله رفارف عالية تنافي السحب تشرف من جهاتها الاربع على جميع المدينة والغوطة . قال شيخ الرهوة

(١) الدرگاه البيت المستطيل امام النار يرتفق به وهو فارسي اخذه العرب من الفرس كما اخذوا لفظ الهنداز بمعنى الحد من اندازه ومنه المهندس المقدر بباري الذي والابنية واخذوا البركار ايضاً كما اخذوا الشاذروان للفوارة تشق منها فوارات كثيرة والايوان والدهليز والبازار والحركاه والبيارسنان والماثقاء وكثير غيرها ومن ذلك يستدل على كثرة تأثير الاوضاع والهندسة الفارسية في الاوضاع والهندسة العربية .

سبي بالقصر الابلق لكونه مبنياً بالحجارة البيض والحجارة السود . وقد بقي هذا القصر عامراً الى عهد العثمانيين رآه ابن طولون المتوفى سنة ٩٥٣ وقرأ تاريخه ٦٦٨ وقال ان على أسكفته ضرباً من رخام ابيض وسطه مكتوب عمل ابراهيم بن غنائم المهندس . وقد قال العارفون ان التكية السلجانية قامت على انقاض ذلك القصر . وابراهيم بن غنائم هذا هو الذي هندس ايضاً المدرسة الظاهرية بدمشق ونقش اسمه على يسار الداخل من الباب في الزواية الشمالية هكذا « عمل ابراهيم بن غنائم المهندس » . ولا تزال اسماء بعض المهندسين ظاهرة في بعض آثار طرابلس على عهد المماليك منهم المعلم محمد بن ابراهيم المهندس والمعلم عمر بن نجيم والمعلم محمد الصفدي . ومن بلغنا خبره علم الدين قيطر المعروف بتعاسيف المهندس بنى الملك المظفر في حماة ابراجاً وطاقوفاً على العاصي وعمل له كرة من الخشب مدهونة رسم فيها جميع الكواكب المرصودة وعاونه في عملها المهندس القاضي جمال الدين بن واصل .

وصف بهاء الدين الموصلي قصر الابلق بدمشق فقال : وقصرها الابلق ليس بالعقوق من شاهد بديع معانيه سها عن العاشق والمعشوق قد شام في غمده مشهور غمدان، واسبل على ايوان كسرى ستر النسيان، يبير الناظر حسن معناه، ولا يقدر على وصف محاسنه من يراه ، الماء مرفوع في اقطاره ونواحيه ، فتصب في فوار بركه لتبهيز ناظره ، يتكسر جمعه على شاذروانائه مجروراً باضافته الى مجاريه ، فقد اجتمع لقاطنه اضافة المعنى والحسن الباهر ، ولم يكمل ذلك البهاء الا بكمال جمال الظاهر ، اعين شبابهك الى ميدانه الاخضر ناظرة ، قد جمع الصادح والباغم واللافت والطاعم به الطباة الاوانس ، والمها الكوانس ، اقطاره عريضة طويلة لا ترجع الابصار من السفر في دمنه الا كليله ، اخجلت خمائله الايك والغصون ، ولاذ القائف بالسوان عن اقفاء اثر السلوك في معانيه التي كلها عيون ، وقف الابلق حين جرى الى منتهاه ، وادركه الاعياء فسكن باقصاء ، وشاهد الشقراء ترح في ميدان وادبها فاراد الوصول اليه فعاوده الاضطراب ، فقطعت عليه الانهار الطريق وضرب بينهما بسور له باب .

ولما قويت حركة العمران في عهد الدولتين النورية والصلاحية بدمشق وحلب والقدس وحماة وطرابلس والمعرة وبلبك وغيرها واخذوا ينشئون فيها المدارس

والجوامع والرباط والمستشفيات والقلاع والجسور كانت منها ما هو مثال الهندسة العربية مثل واجهة بناء هذه المدرسة العادلية التي شرع ببنائها نور الدين ولم يتمها ولما ولي العادل لزال ما بناه نور الدين وبنائها كما قال صاحب الروضتين هذا البناء الحكم الذي لا نظير له في بنيات المدارس . ومن البدائع واجهة مدخل المستشفى القبري في صاحبة دمشق وهندسة مدرسة الصهبية في حلب وكذلك المدرسة التي كانت بجوار الشهباء وصفها ابن جبير قال ومن اعرف ما يلحظ فيها ان جدارها القبلي مفتوح كله بيتاً وغرفاً وله طيقان يتصل بعضها ببعض وقد امتد بطول الجدار عريش كرم مشرعياً فحصل لكل طاق من تلك الطيقان قسطها من ذلك العنب متديلاً امامها فبيد الساكن فيها يده ويحنيه متكئاً دون كلفة ولا مشقة . وقد قيل ان منارة جامع حلب المثال الوحيد من الهندسة الاسلامية .

ولقد بنى الملك الاشرف بن الملك العادل بدمشق قصوراً ومنازل حسانة وكانت عمارة اللاذنية في الحروب الصليبية من احسن الابنية واكثرها زخرفة ملوثة بالرخام على اختلاف انواعه كما قال ابن الاثير فغرب المسلمون كثيراً منها وقتلوا رعاياها الى دمشق وغيرها وخربوا البيع التي قد غرم على كل واحدة منها الاموال الجلية المقدار ولما تسلمها نبي الدين عمر حصن قلعتها وكان عظيم المهمة في تحصين القلاع والغرامة الوافرة عليها كما فعل بقلعة حماة .

وبعد ان كانت دمشق في القرن السادس اكثر مدن الارض سكاناً كما قال ابن جبير وكانت في القرن الثامن كما قال ابن تغري بردي اجمل مدينة في العالم بل اغنى مدينة احرق نيمورلنك بعض احيائها ومدارسها وغرفاتها ملايين من الدنانير وحمل معه المهندسين والبنائين والنقاشين في جملة من حمل من ارباب الصنائع الى سمرقند كما فعل السلطان سليم العثماني في مصر لما فتحها في الربع الاول من القرن العاشر فحمل الى القسطنطينية كل صاحب صنعة وعمل نافع وجردها من بدائعها وصناعاتها النفيسة .

وكان في دمشق في القرن التاسع مائة حمام افردتها ابن عبد الهادي في رسالة

كما كان في عصره الف جامع ومسجد في دمشق وضاحيتها وناهيك ببلدة فيها هذا القدر من آثار العمران ولا غرو بعد هذا ان قال فينس ابو الفضل بن منقذ الكنتاني يوم كان لنا القدح المعلى في العمار :

واذا مررت على المنازل معرضاً عنها قضى لك حسنها ان تقبلا
ان كنت لا تستطيع ان تمثل الفر - دوس فانظرها تكن ممثلاً
واذا عنان اللحظ اطلقه الفتى لم يلق الا جنة او جسدولا
او روضة او غيضة او قبة او بركة او ربوة او هيكلا
او وادياً او نادياً او ملعباً او مذبناً او مجسداً او مؤثلاً
او شارعاً يزهو برقع قد غدا فيه الرخام مجزئاً ومنصلاً

ومن قصور حلب في القرن الثالث دار واليها زكا الاعور ودار حاجبه فيروز ودار سبي الطويل ودار كورة الخراساني ومنها قصر السلطنة بدمشق . قال ابن الجوزي : هدم اهل دمشق قصر السلطنة في القرن الخامس ودرسوه وكان عظيماً يسع الوفاء من الناس . وقصر بطناس في حلب كان عامراً الى عهد ابن العديم في القرن السادس . وقد خربت محلة الفراديس المعروفة اليوم بمحلة العارة في فتننة القرامطة سنة ٣٦٣ وكان فيها على رواية ابن القلانسي من البنيان الرفيع في الحسن والبهاء ما لم ير مثله وهو احسن مكان كان بظاهر دمشق . وقال ابن شاكر : ان اللؤلؤنين كانوا منظرين ظاهر دمشق مما يلي باب الحديد غرباً وكانوا من أعجب البناء . احرقها المصريون لما حاصروا دمشق . وقنطرة سنجة التي قال فيها ابن حوقل ليس في الاسلام قنطرة احسن منها ويقال انها من العجائب وسنجة بالقرب من منبج . وقال ابن القلانسي من اقتراحات شمس الملوك صاحب دمشق الدالة على قوة عزيمته ومضاء همته ومستحسن ابتدائه ما أحدثه من البابين المستجدين خارج باب الحديد من القلعة بدمشق الاوسط منها وباب جسر الخندق الشرقي منها وهو الثالث لها انشي ذلك في سنة ٥٢٧ مع دار المدرسة بالقلعة والحمام المحدث على قضية اخترعها وبنيه اقترحها وصفة آثرها نجاءت في نهاية الحسن والطبقة والتقويم والاعتدال .

من المدن ما نبه ذكره بعد خموله في عهد الدولة الانابكية والايوبية مثل حماة

فلم يكن لها في القديم تباعة ذكر وكان الصبت لمحص دونها فلما آلت الى ملك بني
ايوب مصرها بالابنية العظيمة والقصور الفسافة والمساكن الفاخرة وفي جوامعها اثر
من آثار الصنائع في القرون الوسطى وما قبلها . ومنها ما قام على انقاض الكاتدرائية
القديمة ومنها ما حرق وخرب واستعيب عنه مكاناً آخر مثل طرابلس في سنة ٦٨٨
فتحت طرابلس واخرب سورها وكان من الاسوار العظيمة وامر السلطان بتجديد
مدينة على مثل طرابلس فبنيت ثم سكنها الناس وكانت في يد الفرنج من سنة ٥٠٣
ومثل ذلك يقال في غزة فقد قال الظاهري في القرن التاسع للهجرة : ان فيها من
الجوامع والمدارس والعمارات الحسنة ما يورث العجب وتسمى دهليز الملك . وكان سور
عسقلان عظيم البناء بحيث كان عرضه في مواضع تسع اذرع وفي مواضع عشر اذرع .
وقال ابن فضل الله في بعلبك : انها مختصرة من دمشق في كمال محاسنها وحسن بنائها
وترتيبها بها المساجد والمدارس والربط والخوانق والزوايا والبيمارستانات والاسواق
الحسنة . وقال آخر وبقلعة بعلبك من عمارة من نزل بها من الملوك الايوبية آثار
ملوكية جليلة . وكانت منج ذات مدارس وربط عليها سور بالحجارة المهندسة
حصينة جداً . ومن هذه المدن ما اصبح الآن كالقرى مثل قيسارية التي قال فيها
المقدمي ليس على عمر الروم بلد اجل ولا اكثر خيرات منها ومثل المعرة معرة النعمان التي
تري الى اليوم مسافة ما بين ابوابها ساعة على السائر .

وقد انشأ جامع طرابلس الاشراف خليل ٦٨٩ - ٦٩٣ على عهد حكومة
عز الدين ابيك الخزندار وازهرت طرابلس على عهد سيف الدين اسنمدر الذي
بني القلعة وحماماً وسوقاً وانشأ فيها مجاري المياه الغربية في تقسيمها الى جميع طبقات
الدور ليأمن ساكنوها من الحى في الطبقات الارضية وقد عمر فيها هذا الملك
سنة ٧٠٩ حماماً عظيماً اجمع من رأوه انه ما عمر مثله في البلدان وعمر قيسارية وطاحوناً
وانشأ للمالكة بها مساكن حسنة البناء تجري المياه اليها بالقنوات ومنها ما يطلع الى
اعلاها وتجري في طياتها وعمر ايضا بعض القلعة واقام ابراجاً وهذه القلعة مجاورة
لدار السلطنة بطرابلس - قاله النويري .

في بر الشام كثير من القلاع من بناء القرن الخامس والسادس والذي بعده
مثل قلعة صرخد . قال ابن تغري بردي : في حوادث سنة ٤٦٦ وفيها بني حسان
ابن مسمار الكاكي قلعة صرخد وكتب على بابها أمر بعمارة هذا الحصن المبارك الامير
الاجل مقدم العرب عز الدين نجر الدولة عدة امير المؤمنين يعني المستنصر صاحب
مصر وذكر عليها اسمه ونسبه ومثل قلعة حلب وان كان تاريخها يرد الى ابعد من هذا
القرن والمعتمدين انبثتها بدأ في عهد الاسلام .

وكذلك قلعة دمشق التي سميت « الاسد الرايض » وهي من بناء تاج الدولة
نش سنة ٤٧١ هـ جعل بها دار اماره وسكنها ثم زاد الملوك بعده فيها وسكنها كثير
منهم . وكانت دار الامارة قبله تسمى « القصر » بناها العباسيون بعد ان ذكروا
الخضراء وقصور الأيوبيين تخرب القصر في بعض قن الفاطميين .

وفي سنة ٦٩١ كمل بناء الطارمة وما عندها من الدور والقبه الزرقاء في قلعة
دمشق فجاءت في غاية الحسن والكمال والارتفاع وانشي فيها قاعة اسمها قاعة الذهب
وفرخ من جميع ذلك في سبعة اشهر وجاه في غاية الحسن . وصف ابن حجة الحموي
قلعة دمشق عندما حوصرت في الوعدة المشهورة : ونظرت بعد ذلك الى القلعة
المحروسة وقد تامت قيامه حربيها حتى قلنا أزفت الآزفة وقد ستروا بروجها من
الطارق وهم يتلون : (ليس لها من دون الله كاشفة) واستقبلت عروس الطارمة
عند زفتها وقد تجوزت للحرب ولم ترض بغير الارواح ميراً وقد عقدت على رأسها
تلك العصائب وقد توشحت بتلك الطوارق وادارت على معصمها الابيض سوار
النار وغازلت بمحواجب قسيها ورومت القلوب من عيون مراميتها بالبال واهدت الى
العيون من مكاحل نارها احلاماً كانت السهام لها اميال وطلبها كل من الخاضعين وقد
غلا دست الحرب وشيخ وهو على فرسه بنفسه الغالية وراموا كشفها وهم في رفعة
الارض كأنهم لم يعملوا بال الطارمة غالية وثالله لقد حرس بقوم لم يتورعوا بغير
آية الحرس في الاسعار وقد استبقظوا لجل قديمهم ولم تلم اعينهم عن الاوفار
فاعيد رواسيها التي كالجبال الشامخة بن اسس الحجوج واحصنها قلعة بالسما
ذات البروج .

واشتهرت في القرن الخامس دار ابن بني عقيل صاحب صور (٤٦٥) دخلها أسامة
ابن منقذ فراها وقد تهدمت وتغير زخرفها فكتب على لوح من رخام هذه الايات :
احذر من الدنيا ولا تغتر بالعمر القصير
وانظر الى آثار من صرعه منا بالغرور
عمروا وشادوا ما ترا من المنازل والقصور
وتحولوا من بعد سكنائها الى سكنى القبور

وذكر سبط ابن الجوزي ان أسامة الحلبي بنى داراً بدمشق بانقاض بيوت الناس
غرت على يد ايوب بن الكامل محمد في سنة ٦٤٧ وكان أسامة قد غرم عليها اموالاً
عظيمة واخذ اراضي الناس والآلات بدون الطيف وصح فيه قول القائل الحجر
المعصوب في البناء اساس الخراب وكانت هذه الدار سبب هلاك أسامة .

ومن جملة قصور الحكومة في الدولة الجركسية دار السعادة وكانت مكان دائرة
الشيعة امس ودار حكومة دمشق اليوم . ومن القلاع المهمة قلعة بصرى بنيت على
مثال قلعة دمشق . وهي اقدم من الاسلام جدد فيها من استولوا عليها بعد في ادوار
مختلفة دح القلاع والحصون الكثيرة في الشمال والجنوب مثل شقيف ارنون وشقيف
تيرون وهونين وتبين وكوكب وعجلون وفاقون والصيبية والصلت والمارونية وبيت
لاها وحصن ابني قيس وصافيتا وعريمة ولوقا وتل باشر وعكار وحارم وصهيون
وبغراس ودرساك ودر كوش واسفونا وبسرفوت وبلأطس وحصن الاكراد وشيزر
والسيطرة والشعر وبكاس وارسوف وبيت جبرين وحبرون وارتاح والاثارب وبارين
وبارة واعزاز وصرفند وعدلون وبرج الرصاص وحصن الاسكندرونة والتينات
وحلبا وعرقه ويزبه وخناسرة وقسطون وتل اعدى وحصن الحبيس والقدموس ومصيات
والكهف والعلقة والحواشي وغيرها من القلاع المعروفة بقلاع الدعوة اي الدعوة
الباطنية او الاسماعيلية . هذا الى قلاع المدن المشهورة مثل قلعة طرابلس وقلعة حماة
وحمص وعكا والكرك والشوبك ومرخد وصفد وشميميس . ومعظمها اناطح السحاب
علوها ونسب الجبال بمتانتها وما احلى ما قاله القاضي الفاضل في وصف حصن كوكب :
ووردنا حصن كوكب وهو نجم في سحاب ، وعقاب في عقاب ، وهامة ، لها الغمامة عمامة ،

واغلة ، اذا اخضيبها الاصيل كان الهلال لها قلامة . ووصف شهاب الدين محمود حصناً
فقال : حصن قد تفرط بالنجوم ، وتقرطق بالغيوم ، وسما فرعه الى السماء ورسا صله الى الخوم ،
شمال الشمس اذا علت انها لنقل في ابراجه ، و يظن من سها الى اليها انها ذبالة في
سراجها ، لا يعلوه من نسر السما غير نسر السما وزمامه ، ولا يرمق متبرجات بروجها غير عين
الشمس والمقل التي تطرف من انجمه ، وحوله كل شائع تنيب عقاب الجو قطع عقابه ،
وتقف الريح حسرى اذا تعرقلت في هضابه ، تتحقق العيون اذا رمقته سلوك مادونه من
المهاجر ، ويحيل الفكر صورة الترقى اليه لا يبلغها حتى تبلغ القلوب الخناجر ، وحوله من
الودية خنادق لا تعلم منها الشهور الا بانصافها ، ولا تعرف فيها الالهة الا باوصافها .
وبدا منذ القرن الخامس الغرام ببناء القلاع والحصون لان المدينة او الموقع
الحربي اذا خليا من حصن يسهل على العدو كل حين ان يجتاحها ومن كتاب فاضلي
في وصف حصن بيت الاحزان : « وقد عرض حائطه الى ان زاد على عشر اذرع
وقطعت له عظام الحجارة كل فص منها من سبع اذرع الى ما فوقها وما دونها وبنيت
تزيد على عشرين الف حجر لا يستقر الحجر في مكانه ولا يستقل في بنيانه الا باربعة
دنانير فما فوقها وفيما بين الحائطين حشو من الحجارة الصم المرغم بها انوف الجبال
الشم وقد جعلت سقيته بالكس واحاطت قبضته بالحجر مازجه بتل جهته وصاحبه
بارثق واصلب من جرمه واوعز الى خصمه من الحديد بان لا يتعرض لهدمه »

وكثيراً ما كان سلاطين هذه الديار منذ استولى عليها الاتابك زنكي الى اواخر
عهد المماليك يخرّبون الحصون التي استولوا عليها او التي كانوا بنوها لئلا يعود اعداؤهم
فيستولوا عليها ويتقدموا في داخلية البلاد . وقد ألف جمهور الناس ان ينقضوا البنيان
القديم ويعمروا به بناءهم الحديث ولهذا امثلة كثيرة في تاريخ العمران في هذه البلاد
خاصة . فقد ذكر الامام الكاتب ان اللاذقية لما استخلصت من ايدي الصليبيين وقع من عدة
من الامراء الزحام على الرخام ونقلوا منه احمالاً الى منازلهم بالشام « فشوهوا وجوه
الاماكن ومحووا سنا الحماسن » وبظاهر اللاذقية كنيسة عظيمة نقيصة قديمة بالجزء
الاجزاء مرصعة وبالوان الرخام مجزعة واجناس تصاويرها متنوعة ولما دخلها الناس
اخرجوا رخامها وشوهوا اعلامها .

وذكروا ان سيدي كافل الشام في الدولة الجركسية لما اراد بناء جامع في باب الحامية بدمشق خرب عدة جوامع ومدارس واتى باحجارها فسمى العلماء ما بناء « جمع الجوامع » ولما ارادوا في اواخر القرن الماضي بناء رصيف على طول نهر بردى من صدر الباز الى داخل مدينة دمشق حملوا اليه من ضخام الاحجار التي كانت في قلعتهما وربما هدم مثل هذا العامل ما كان في اكثر مدن الشام من دور الضيافة التي ابتدعها عمر بن عبد العزيز وهو اول من اتخذ من الخلفاء الخانات للمسافرين كما اتخذ دار ضيافة والشأ معاوية فيله البريد . وقصر الفقراء الذي بنىه نور الدين في ربوة دمشق ووقف عليه قرية داريا ليعطى الفقراء الى جانب الاغنياء ودار العدل التي بناها نور الدين ايضا في دمشق وهي اول واحدة من نوعها بناها لكشف الظلمات وسمي دار العدل كان يجلس فيها لتصل الخصومات مرتين في الاسبوع وعنده القاضي والفقهاء وبنى نور الدين جسر كامد اللوز في سهل البقاع (على الليطاني) كما جدد كثيرا من الجسور والخانات وقنوات السبل في اعمال دمشق وغيرها . وما كان في قم الجبال من المناور التي كانت توقد فيها النيران للاعلام بحركات العدو في الليل وما كان شيد في البلاد من ابراج حمام الزاحل لنقل الاخبار في النهار . ومن ذلك دمنة القبتين المائتين في قبة جبل فاسيون وكان فيه مرصد فلكي بناه المأمون فدمر في حمله ما دثر . ومما اشتهر جسر منج اتخذ في زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه للصوائف ويقال بل كان له رمم قديم .

دخلت سورية في القرون الوسطى هندسة جديدة عسكرية وغيرها وهي هندسة الصليبيين للقلاع والحصون والدور والكنائس ولا سيما في طرابلس وبيروت وعسكا واعتم الصليبيون بناء القلاع والكنائس في البلاد التي احتلوها من ارض الشام ولا سيما طرابلس وصور وانطاكية وعسكا والقدس حتى قال بعض الباحثين : اذا استثنينا الدور الروماني فانه لم يأت على الشام زمن توفرت المصممة فيه على البناء مثل عهد الصليبيين فان كل مسخرة تجارية في الموافيا البحرية كانت تحاول ان يكون لها على الاقل كنيسة وخانات وحمامات ومن ذلك العهد يرد تاريخ الكنائس الكثيرة وبعضها عظيم

ثم القلاع التي غصت بها البلاد وهي احسن نموذج للهندسة المعمارية في القرون الوسطى . وانشاء الكنائس في الشام يرد الى عهد قسطنطين سنة ٣٣٠ م فكثرت بكثرة عنايته ورفعته من شأن الكنيسة وقال فان يرشم ان على طرابلس صيغة المدن الايطالية اثرت فيها منذ الحروب الصليبية كما اثرت هندسة المدن الايطالية الكبرى على جميع المواني البحرية في سورية وكان للطراز الايطالي التقدم على غيره لان الطليان اهل الهندية وبيزة وجنوة وطسقانا كانوا اسبق امم الغرب الى الاختلاط بسكان الشام للغرب وللعلاقة الدينية بين رومية ونصارى الشرق العربي قبل الحروب الصليبية وكان عدد الصليبيين من جمهوريات ايطاليا اكثر من غيرهم من الامم قال الاثري فان يرشم : لما كانت سواحل سورية محط رحال الصليبيين ونقطة حركاتهم الحربية تشعبت ايتها بالروح الايطالي خصوصا لان الطليان كانوا اذ ذاك اكثر عددا في هذه الحملات من العنصر الفرنسي . ومن هذه المدن ما دثر مثل طرطوس وصيدا وصور وقيسارية وعسقلان ومنها ما هو باق مثل انطاكية وبيروت واللاذقية وعسكا . وفي مدينة طرابلس من بين المدن كلها يتجلى الروح الايطالي الباقي من القرون الوسطى في بلديتها وهندستها ولا تزال قلعة الحصن او حصن الاكراد والكرك كما يدعونها قرسات الصليبيين محفوظة منذ عهد الصليبيين على ما هي عليه وهي آية في باب الهندسة العسكرية في القرون الوسطى ناطقة بلسان حالها بان الصليبيين نزلوا الارض المقدسة .

قلنا فاذا كان الطليان يبيعون هندستهم في البناء ونقشهم ورسمهم من الامم الغربية حتى اليوم فاحر بهم ان يبيعوها من اهل القرون الوسطى هنا . ومن هندسة الصليبيين جامع خليل الرحمن وجامع بيروت وطرطوس الكبير وارواد وصور وصيدا ودير البلمند قرب طرابلس وكنيسة مار يوحنا في جبيل وكنيسة مار شيرال في معاد وكنيسة انفة هذا الى غير ذلك من البيع في شمالي لبنان وجوار البترون وقد بنوا نحو خمسين قلعة وحصنا في البلاد التي احتلوها .

قال رنان الظاهر ان البناءات المربعة الشكل الفخمة الجبم هي من عمل الطليان وفرسان الميكائيلين . وان البناءات ذات البرج المدور هي من صنع الفرنسيين وفرسان الاسبتيالبيين وكثيرا ما كانت تأثر هندسة اليونان البيزنطيين لقلاعهم — وكانت

البلاذ خاصة بها - تعدل ذوق الافرنج الخاص في هذا المعنى . قال وفي طرطوس قامت ام هذه الآثار واستدل مما فيها ان منزل الصليبيين في هذه البلاد لم يكن منزل قلعة بل وطردوا انفسهم على احتلالها احتلالاً دائماً وان في طرطوس بيعة هي اجمل مصنع من المصانع التي بنيت على الطراز الغوتي في هذه الديار .

وتجلى الهندسة الايطالية في الابنية الحديثة التي أنشئت منذ ستين سنة في بيروت ولبنان وطرابلس وحيفا ويافا وصيدا وغيرها من مدن الساحل فان معظمها من الطراز الايطالي لا تحوي شيئاً من روح الهندسة العربية الا كونها تأمت في صميم بلاد العرب . لا جرم ان علاقة سورية باباطاليا اقدم من الاسلام . علاقتها ببلادنا منذ كنا ولاية رومانية تحكمنا رومية عاصمة تلك الامة العظيمة .

يرجع مهندسو العرب في هذه الديار في علم عقود الابنية وهي ما يتعرف منه احوال اوضاع الابنية وكيفية شق الانهار وتقنية القني وسد البشوق وانضيد المساكن ولو لم يبرعوا في كيفية ايجاد الآلات الثقيلة لنقل الثقل العظيم بالقوة البسيرة لما تمكنوا من عمارة المدن والقلاع والمنازل والجوامع والمدارس هذا التمكن الذي يبرنا اليوم مع علمنا بقله الآلات الحركة في عهدهم وفقدان وسائله الفنية . ولو كان مؤلفو التراجم يعنون باخبار المهندسين والفلكيين والكياويين مثلاً عنايتهم بالنقائص اخبار الشعراء والمتأديين والمتزهدين لجاء لنا منهم سلسلة طويلة واعلمنا من اسباب تفننهم وعلومهم الشيء الكثير وما ندري ان كانت هذه الموضوعات افردت بالتأليف فصاعت في جملة ما ضاع في الفن في بغداد ودمشق وغرناطة .

لم يبلغنا ان في البلاد دوراً يرد تاريخها الى الف سنة حتى نعرف حق المعرفة كيف كانت هندسة المساكن في عهد ارتفاع البلاد على عهد الحكومات العربية كما بقيت مثلاً بعض دور قنوت في جبل حوران محفوظة كما كانت بنواؤها وابوابها الحجرية . ولكننا على مثل اليقين من ان طرز البناء في دمشق هو كما كان منذ بضعة قرون بل منذ دخول العرب الفاتحين وقبلهم بمصور وان هذا الطراز في بناء بيوت دمشق خلاصة أسلوب قديم ارتقى مع الزمن حتى بلغ ما بلغ في القرون الاخيرة

ومنه مثال حي من مدارس المذاهب الاربعة ودور القرآن والحديث والمستشفيات والربط وغيرها في دمشق . وعن هذا المثال نقل الأمويون أسلوبهم في بناء البيوت بقرطبة وغرناطة واشبيلية وطليطلة وغيرها من مدن الاندلس اقتبسوا أسلوب بناء الدور من دمشق على ما يظهر كأن لا تكون الدار اكثر من طابقين احدهما شتوي وهو الاعلى والاخر صيفي وهو الادنى والدار مدخل او دهليز يتصل بفناء واسع فيه حوض ماء وفي صحن الدار اشجار وازهار وفوارات . قال احد المهندسين المعاصرين ان التشابه مؤثر بين هندسة دار قديمة ودار عربية فقد كانت الدور تشاد ولا تجعل لها نافذة على الشارع ويكتفي بطيخان للتهوية ولها فناء داخلي تحف به شرف ومخادع وفي وسط الفناء او الصحن فوارة او حوض ماء . لا جرم ان المسلمين قد اخذوا عن الرومان هذا الطراز في البناء الذي ينطبق مع هذا على مناخ البحر المتوسط ولا تزال نجد فيه مثلاً في اسبانيا حيث يسمى الفناء الداخلي باسم « باتيو » او الفناء المبلط .

وكانت دمشق تعتمد في ابنتها على الحجر غالباً . وزاد الاعتماد على الخشب والطين في الادوار الاخيرة . قال المقدسي : ان منازل دمشق ضيقة وازقتها غامة واكثر اسواقها مغطاة ولم سوق على طول البلد مكشوف لا ترى احسن من حماماتها ولا اعجب من فواراتها . هذا في القرن الرابع للهجرة . وقال ابن جبير في القرن السادس ان اكثر ابنتها بالقصب والطين . وقال ابن فضل الله في الثامن ان غالب بناء دمشق بالحجر ودورها اصغر مقادير من دور مصر لكنها اكثر زخرفة منها وان كانت الرخام بها اقل وانما هو احسن انواعاً قال وعناية اهل دمشق بالمباني كثيرة ولهم في بساطتهم منها ما تفوق به وتحسن باوضاعه وان كانت حلب اجل بناء لعنايتهم بالحجر فدمشق ازين واكثر رونقاً لتحكم الماء على مدينتها وتسلطه على جميع نواحيها ويستعمل في عمارتها خشب الحور بدلاً من خشب النخل الا انه لا يغشى بالبياض ويكتفى بحسن ظاهره واشرف دورها ما قرب واجل حاضرتها ما هو في جانبها اهـ .

قلنا وهذا يناق ما كان يراه العرب في تخير اما كن بيوتهم فقد كانوا اصطلموا على ان الاطراف منازل الاشراف قال المجتري :

عجب الناس لاغزالي وفي الاطراف تاني منازل الاشراف

ولذلك كنت ترى في سطح جبل الصالحية والربوة والشرف الاعلى الشمالي والشرف الادنى الجنوبي من ظاهر دمشق قصوراً انيقة يتزلفها القضاة والحكام وكبار ارباب الاملاك والاشراف ولكنها دثرت بالفتن المتواترة ولم تقو على عوادي الايام حتى يحكم على ما عملته الدمشقيون واسلافهم في هندسة مصانعهم على العهد الاسلامي الاوسط وقد خربت هذه كلها في عهد العثمانيين . ويقول كاتب جلبي : انه كان في المرحلة بدمشق قصور عالية مشهورة في الآفاق لا يتأتى ايفاؤها حقها من الوصف لاسيما ابنية البرامكة وآثارهم فانها لم تزل باقية الى هذا العهد (القرن الحادي عشر) وروى الطاهري : ان دمشق اشتمل على سور محكم وقلعة محكمة وبها طارمة مشرفة على المدينة بها تحت الملك مغطى لا يكشف الا اذا جلس السلطان عليه وقال ايضاً : ان ما في الميدان الاخضر في دمشق من القصور الحسنة عجيبة من العجائب وهذا في القرن العاشر .

وآثار العثمانيين في هذه العاصمة التكتبان السلجانية والسلتية والجامعان السنانية والدرويشية . ونوعا على الاسلوب التركي البيزنطي ولم مثل ذلك في حلب ومنها المدرستان البديعتان مدرسة الحسروية والمدرسة العثمانية . قال سوبرنيم الاثرية ان عدداً عظيماً من مصانع حلب يرد الى زمن المماليك والعثمانيين وما عدا الجوامع الكثيرة مثل جامع الاطروش والطلون بغا والطواشي ومناراتها المختلفة الهندسة — وبفضلها تذكر حلب بصورة القاهرة في هذا المعنى — فان حلب قد احتفظت بالمستشفى الجميل الذي بناه ارغون سنة ٧٥٥ وبكثير من الخازن والخانات والحمامات والحدائق والسبيلات . وفي هذا المستشفى افاريز ونقوش من اجمل ما نقش النقاشون تركه فجعله بهجة للناظرين . ومدينة حلب غنية بمصانعها الجيدة الهندسة ومنها العسكري والديني والمدني وكلها بما زهر عليها من الكتابات مادة واسعة لمن يريد ان يصور اصول الهندسة لا في حلب فقط بل في شمالي سورية اه . ومن اجمل آثار الهندسة في حلب محراب مدرسة الفردوس التي بنيتها خاتون التي ملكت حلب ست سنين وهي ابنة ابي بكر بن ايوب الملك العادل ولو كتب البقاء على الاقل للقصر

الذي بناه بقرية بطيما من ضواحي حلب صالح بن علي العباسي وقصر الدارين الذي بناه عبد المالك بن صالح خارج باب انطاكية وقصر مرتضى الدولة احد موالى بني حمدان وقصر سيف الدولة بن حمدان الذي بناه بالشملة من ضواحي حلب ونماه في حسنه وعمل له اسواراً وقد احرقه الروم في احدى غزواتهم فلم يعمر بعد ذلك . او قصر آخر من قصور الحمدانيين — لو كتبت الافدار ذلك لساغ لنا ان نحكم حكماً صحيحاً على هندسة دور الشهباء في القديم . والغالب ان هذا الطراز المعروف اليوم منها منقول كما هو الحال في دمشق عن الطراز القديم . ويقول الطاهري ان الميدان الاخضر في دمشق كان فيه من القصور الحسنة ما هو عجيبة من العجائب . وفي سنة ٦٩٢ كان الفراغ من بناء جسر نهر الكلب الذي شرع ببناؤه سيف الدين ارقطاي المنصور الناصري كافل السلطنة ايام الملك المنصور بن قلاوون وكان بناؤه بعدما خرب الجسر الذي اقامه السلطان انطونيوس الحليم الذي تملك على رومية بعد المسيح بمائة واربعين سنة وهو الذي قطع الصخور وبني البرج ومشي في الطريق الذي على شاطئ البحر الموصل الى مدينة بيروت كما هو مكتوب على الصخر قبل الجسر القديم مما يلي قبله على هذه الصورة مكتوب : الامير ادوار قيصر مارقوس اورليوس انطونيوس الحليم السعيد اغسطس كبير الجرمانيين الحبر الاعظم قطع الجبال المشتملة على نهر ليقا ونجح الطريق مهلاً واقبه بالطريق الانطونياني وهذا النهر تلقب بالكلب لكونه بعد ما صلحه انطونيوس الملك نصب به قائمة (نصباً) من حجر كبير على صورة الكلب وقبده بسلسلة حديد في الصخر وجعلوا قدامه تقيراً لاجل الطعام .

لما اراد نائب الشام في اواخر النصف الاول من القرن الثامن عمارة جسر الدامور الجاري بين صيدا وبيروت بعد ان لم يبق في السواحل مثل هذا النهر بغير جسر وكان عمراً مرة فاقام سنين فاختاره السيل ثم عمر ولم يبق الا بعض الشتاء لضعف الاساس انتدبوا لذلك مهندساً خبيراً بالاعمال البحرية يقال له ابو بكر بن البصيص البعلبكي وهو الذي عمر جسر نهر الكلب وله غير ذلك من الاعمال الثقيل ببلاد طرابلس فعمله على صورة متينة . وكذلك جسر الطاهر يرفوق الذي بناه على نهر الأردن اي الشريعة وطوله مائة وعشرون ذراعاً وعرضه عشرون . وقالت فيه

السيدة عائشة الباعونية الدمشقية :

بني سلطاننا برفوق جسرأ . بأمر والآنم له مطيعه

مجاز في الحقيقة لأربابا . وأمر بالمرور على الشريعة

وعمر قاضي دمشق سنة ٩٣٢ سوقا تجاه باب جيرون بدمشق فبنى اقواسا يحملون فيها قباب مبنية بالآجر اذ رآه أحكم في البناء لانه لا يحتاج الى طين ويؤمن من حرقه .

من القاعات في دمشق وحلب ما يرجع تاريخه الى القرن التاسع والعاشر والحادي عشر والثاني عشر ومنها نعرف كيف كانت هندسة القوم فمنها القاعة المشهورة بباب جيرون وباب السلسلة انشاها الامير محمد بن منجك الذي عمر العمارات الفائقة بدمشق فانه تأنق في عمارتها بالقاشان والرخام وعمر القصر المعروف به في الوادي الاخضر (١٠١١) ومنها عمارات الامير منصور بن الفريخ امير البقاع المقتول سنة ١٠٠٢ بقربة قب الياس وكانت له دار عظيمة خارج دمشق قبلي دار السعادة قال المحي لم يرمم مثلها جعل بابها بالرخام الابيض والحجر الاحمر المعدني ونقل لها الرخام من بلاد السواحل والحجارة من البقاع واستعمل فيها العملة بالسفيرة . وفي سنة ١٠٣٤ بنى الامير منذر بن الامير سليمان بن علم الدين بن محمد التنوخي سرايا عظيمة في قرية عبيه في الشام من الغرب في لبنان وبقي مدة اربعين سنة ولم يكملها لزيادة اتساعها وكان البنائون من اسلابول . وأمر الوزير احمد باشا الكوبرلي الذي ولي دمشق سنة ١٠٧١ بعمارة قاعة معظمة داخل دار الامارة بدمشق فبنيت كما قال المحي على اسلوب عجيب ووضع غريب . وقال المؤرخون ان الامير بشير الشهابي كان كالامير نجر الدين المعني يحب البذخ والزخامة وانظيم اصطبلاته وبطرنه حتى اصبح مضرب الامثال في ذلك وعمر في بيت الدين قصراً ملكياً وجاب اليه الماء في ساقية طولها ثلاثة فراسخ . قال بعض المؤرخين جر الامير بشير بواسطة رجل دمشقي قناة ماء من ينبوع القاعة بجانب نهر الصفا الى منزله في بيت الدين من بعد ثلاث ساعات وغرم على ذلك زهاء مائتي الف درهم وكانت جميع اهل البلاد تخضع في كل سنة يومين تعمل في هذه القناة

بغير اجرة اكراماً له ومدة العمل اثنان وعشرون شهراً وعمر الامير بشير بابعاز من والي . يدا جسراً على نهر الدامور في طريق صيدا الى بيروت فجمع اهل الصناعة اليه فكانوا اكثر من مائة وخمسين رجلاً فاتمه في شهرين وغرم عليه نحو مائة الف درهم . ومن الابنية التي اشتهرت في عصرها قاعة حسين بن قرني في صالحيه دمشق عمرت سنة ١٠٧٧ وكان يضرب بها المثل وهي على الاربع في رأس العقبة مكان دار بني الشريف دثرت في القرن الماضي . ومن محاسن دمشق في هذا القرن الداران اللتان عمرهما في القنوت الامير المنصور الشهابي امير وادي التيم وابن عمه الامير علي وذلك على اسلوب متقن محكم وزخرفتهما بأنواع الزخارف والنقوش وجلبا اليها الرخام من بلادهما قال المحي : ولعمري انها ابدنا ونوعا واجادا في صنعها .

وذكر المؤرخون ان الامير نجر الدين المعني جلب مهندسين من الغرب ولعلمهم من ايطاليا ليضعوا له خطط قصوره في بيروت وصيدا وذكروا ايضاً انه بنى عدة بنايات وقلاعاً وحصوناً كثيرة ولما حدث اختلاف بينه وبين بيت سيفا واتى بنو سيفا أصحاب طرابلس فاحرقوا ونهبوا الشوف قيل انه اقسم هكذا : وحق زمزم والنبي المختار لا عمر لك يادير بحجر عسكار . وهكذا لما فاز على بني سيفا وحاصر قلعة الحصن واخذها وهدمها جعل الجمال بالالوف تحمل الحجارة من قلعة عسكار الى دير القمر وبني جميع الدور القديمة في دير القمر ووزع في جدرانها من حجارة عسكار وهي الحجارة الصفراء الموجودة في الخرج وفي جميع بنايات بيت معن القديمة وهي باقية الى الآن . ومن امثلة البناء الجميل دار اسعد باشا العظم في جوار جامع بني أمية بدمشق شرع بانشاها سنة ١١٦٣ وانتهت سنة ١١٧٤ قيل ان ما اتفق عليها اربعائة كيس كل كيس بخمسمائة قرش وهذا اجور العملة واما الخشب والبلاط والتراب وغيره فكله من املاكه وبساتينه عدا من سخره للبناء من الناس وكان عدد العملة ثمانمائة قيل ان داخل الدار اما كن عديدة لاتشبه الواحدة الاخرى وجميعها ببناء الفضة والذهب واللازورد والبلاط والرخام العظيم ونقل بعض السائحين ان ليس مثلها في ملك بني عثمان حتى ولا سراي الملك المعظم . وهذه الدار بما حوت من القاعات والقاعات والردهات والابهاء والفساقي والنوارات والحمام من الطف ما هندس المهندسون في

ذاك القرن وكذلك يقال في قصره في حماه وهو على مثال داره في دمشق على صورة مصفرة. والنقوش وانواع الزينة فيها فارسية فاستدل من ذلك ان النقاشين كانوا فرساً أو تأثروا بالاسلوب الفارسي ومن اجل ما فيه صورة حماة في القرن الثاني عشر تبين منها انها كانت عامرة اكثر من اليوم. ودار اسعد باشا العظم في دمشق اشترتها فرنسا ورممتها وجعلتها متحفاً وداره في حماه اشترتها جمعية وجعلتها مدرسة وهي عامرة ايضاً. ومن اجل الآثار في دمشق ايضاً خان اسعد باشا العظم وواجهته ورتاجه «بوابته» وقد عمر هذا الباشا جسر الكسوة من الرأس الى الرأس وعرضه ومن اجل آثار ذلك القرن جامع الجزائر في عكا وداره في البهجة على مقربة منها نسج فيها على مثال الهندسة المصرية في ذلك القرن. وسراي بيت الدين انشئت في اوائل القرن التاسع عشر ومهندسوها ايطاليون والبنائون دمشقيون وحلبيون واثراك من الاستانة وهي على الطرز التركي الممتزج بالطرز الابيطالي. ومن البيوت الجميلة قصور بني جبلاط في المختارة في لبنان وفي الحلايلة قرب صيدا وقصر بني شهاب في حاصبيا وسرايهم في راشيا. فان هذه القصور مثال من نفن اعيان ذلك الزمان في تجيد بيوتهم وحسن هندستها. وقد تبين مما سلف ان الهندسة في الشام اصبحت في القرون الاخيرة سورية عربية وانت اذا شاهدت ماشادوا ونضدوا ونقشوا ورصعوا رأيتهم يبنون كما قيل بناء الجبابة وينقشون نقش الصياغ.

وانا اذا تأملنا الابنية التي قامت في النصف الثاني من القرن الثالث عشر للهجرة في مدن الشام تراها طرزاً اطلانياً في الاكثر قد لا ينطبق مع روح البلاد ومصطلحها في اشادة البيوت منذ القرون الاولى وقد انتشر هذا الطراز في مدينة بيروت ولبنان اولاً ثم امتد الى طرابلس وبافا وحيفا والقدس ودمشق وحلب وحمص وغيرها من المدن وما دور بني مسروق في بيروت وصوفر ودور بني بسترس والتويني وغيرها في بيروت والدور المعلقة في مدينة طرابلس ودور الجيلية والعزيزية في حلب ومصايف لبنان في عاليه وصوفر وبكفيا وغيرهما وبعض الدور المحدث في دمشق الامثال منها ومن اهم ابنية الشام الحديثة دير الكازانوف في الناصرة ودير الامان ودير الروس في القدس ومدرسة اليسوعيين والجامعة الاميركية ودار المفوضية العليا في بيروت ومحطة السكة الحجازية في دمشق ومحطة سكة بغداد في حلب وغير ذلك من القصور الخاصة

والفنادق والمدارس والملاجي والمباني والمستشفيات في القدس وطبرية وبيروت ولبنان وغيرها ومن اهم دور القرن الماضي في دمشق دار القولي وشامية وعنبر وشعابا واستانبولي والحلبوني ويسرع البلى الى ما كان بناؤه منها من الخشب والطين او بعضها منها على الاغلب واكثر دمشق كانت كذلك ظاهرها نذبو عنه العين والزخرف في داخلها قال الجعري:

وتأملات انت تظل ركابي بين لبنات طلعا والسدير

مشرفات على دمشق وقداع - رض منها يباض تلك القصور

ومع ان المقالع قرية من دمشق وفيها ضروب الحجر الجميل من ابيض ومائل الى الصفرة او الحمرة فان القوم يستسهلون او يسترخسون البناء بالخشب واللبن او الحجر الاسود الناري فيبنون به كما يبنون اهل حمص. واجمل الحجر الحجر الرملي في بيروت وحجر حلب ولم يزل بناء بيت المقدس - كما قال القاضي الفاضل - من الرخام الذي يطرد ماؤه ولا ينطرد لآلؤه قد لطف الحديد في تجزيعه، وثفنن في توسيعه، الى ان صار الحديد الذي فيه بأس شديد، كالذهب الذي فيه نعيم عتيق، فما ترى الامقاع كالرياض لها من يباض الترخيم رفرق، كالاشجار لها من التبت اوراق. وان بعض القاعات اذا كتب لها البقاء فلانها بنيت بالحجر الصلب وتعاورتها ايدي العقلاء فرمتها يوم احتاجت الى الترميم بطاري طراً عليها.

فأت في الشام قصور افراد الناس من التجار والصناع والزراع كما تشاهد في الغرب مثلاً لان اهل البلاد كانوا يفنون في كبرائهم فلم يكن شأن من مظاهر النعمة والغبطة مدة قرون لغير ارباب الدولة او من كان يعد في جملتهم وكان سائر الناس يحاذرون ان تنشأ لهم شهرة في الثروة والثروة تفعل في الدار والفرش والداية واللباس فيتظاهرون بالفقر لينجوا من محالب العمال الذين كانت مصادرة الاموال اسهل شيء عليهم وقتل من يريدون استصفاء ارضهم وعقارهم وعروضهم من المباحات. ولذلك كان ذو الغنى كثيراً ما يدفن امواله في مكان مجهول من داره ودكانه وربما خاف من زوجه وولده فكتم عنهم ما يملك وقد يموت وتبقى دفينته مجهولة حتى يمضي بعد دهر طويل من ينش الارض او الجدار ويعثر بالعرض على ما جمعه ذلك الغني المحروم. والناظر الى مدارس دمشق وحلب وغيرها ثلاثمائة مدرسة

ومدارس حلب وهي تروى على مئة يدرك انما من عمل السلاطين والعمال وقليل من التجار واهل الخير وكان منهم من يتوخى منها ان تكون توليتها لبيته من بعده ليعيشوا منها اذا صودرت املاكهم . وقل ان رأينا جماعة الفقهاء على اقامة عمل من هذا القبيل يتفخر به اللع الا قليل من المساجد ولو فعلوا لامنت اعمال الجماعات من اعتداء المعتدين ولما استصفت واستحل هدمها او تعبير معالمها من لا يخافون الله ولا عباده وعبادته ممثلة العظمة الحقيقية في الامة . انما المسلمون هذا القدر من المدارس في اكبر مدن القطر دغ مدارس حماة وطرابلس وعلبك والقدس والمرة ومنبع بدأوا في القرن السادس وانهوا في القرن التاسع فجاء من بعدهم من ينسفها واحدة تلو الاخرى فتداعت واكلوا اوقافها فاخرجوها عن الغاية الشريفة التي وضعت لها :

مدارس آيات خلت من نلاوة . ومزل وحى . مقبر العرصات

هكذا كان حظ المدارس والجوامع فما بالك في غيرها من المصانع . وكم ادر كنا وادرك آباؤنا واجدادنا في هذه الديار من اثر يدع سطت عليه يد خرقاء لنسل حجارته وكم من كتابة تاريخية عني اثرها جهلاً وغباوة . اجتاز القاضي ابو علي المعري ببلدة شيات طاهر معرفة النعمان والناس ينقضون بنيانها ليعمروا به . موضعاً آخر فقال :

مررت برمم في شيات فراغني به زجل الاحجار تحت المعاول

فنادوا عبل الدراع كأنما رمى الدهر فيها بنعم حرب وائل

انلقها شلت يمينك خلها لمعبر او زائر او مسائل

منازل قوم حدثنا حديثهم ولم ارا حل من حديث المنازل

وبعد فقد علمنا بما مر بنا من العبر ان الشام لا يحفظ بآثاره وبنيانها الا يوم لنشأ فيه ادارة للمعانيات يكون سلطانها نافذاً على الكبير والصغير كما فعلت مصر منذ امد فاحتفظت بالبقية الباقية من اعمال الغابرين وخدمت احباب الآثار وغلاة الهندسة من المحدثين . واهم من هذا ان يتربى في الامة الذوق في الجمال وينتشر العلم بالصنائع النفيسة حتى بين الاطفال ويعرف كل وطني معنى هذه التذكارات المطبوعة بطابع الاجداد والاجيال وعندئذ يصح الشام كله متحفاً نفيساً . دونه اجمل المتاحف وانعم ببيت المفاسر والآثر .

محمد كرد علي

فهارس كتاب المحاضرات

« الجزء الاول »

الفهرس الاول في اسماء المحاضرات

صفحة	
٠	الفاتحة
١	معلقة طرفة بن العبد
١٧	الحسبة في الاسلام
٢٥	الوبالة (الملائيا) وكيفية الوقاية منها
٣٨	الجباية في الشام
٧٤	القضاء في الاسلام
١١٣	العلم
١٣٠	الحقوق المدنية في العالم القديم ومنابعها الثابتة
١٤٠	حقائق تاريخية عن دمشق وحضارتها
١٦٧	أحيمة بن الجراح
١٧٨	كيف تحقق الآثار التاريخ
٢٠٠	العمل بالعلم
٢٢١	ارتباط البلاد على اصول الاتحاد
٢٣٧	طرفة أدب من آداب العرب
٢٥٩	الكتب والمطالعة
٢٨٠	صناعات دمشق القديمة
٣١٣	صفحة من تاريخنا الاجتماعي
٣٢٩	مصانع الشام منذ عرف التاريخ

للشيخ عبد القادر المغربي
 للسيد محمد كرد علي
 للدكتور مرشد خاطر
 للسيد محمد كرد علي
 للسيد تارف التكندي
 للسيد انيس سلوم
 للشيخ سعيد مراد الغزي
 للسيد عيسى اسكندر المعلوف
 للشيخ عبد القادر المغربي
 للسيد عيسى اسكندر المعلوف
 للسيد انيس سلوم
 للسيد فارس الحوري
 للشيخ عبد القادر المغربي
 للسيد انيس سلوم
 للسيد عيسى اسكندر المعلوف
 للشيخ عبد القادر المغربي
 للسيد محمد كرد علي

❖ الفهرس الثاني في اسماء المحاضرين ❖

انيس سلوم	صفحة ١١٢ و ٢٠٠ و ٢٥٩
سعيد مراد الغزي	١٣٠
عبد القادر المغربي	١ و ١٦٧ و ٢٣٧ و ٣١٣
عارف النكدي	٧٤
عيسى اسكندر المعلوف	١٤٠ و ١٧٨ و ٢٨٠
فارس الخوري	٢٢١
محمد كرد علي	١٢ و ٣٨ و ٣٢٩
مرشد خاطر	٢٥

❖ الفهرس الثالث في موضوع المحاضرات ❖

اثرية فنية	(١٧٨ و ٣٢٩)
اجتماعية	(٣١٣)
ادبية علمية	(١١٢ و ٢٠٠ و ٢٥٩)
ادارية	(٢٢١)
اقتصادية	(٣٨)
تاريخية	(١٤٠)
تاريخية ادبية	(١ و ١٦٧ و ٢٣٧)
حقوقية	(١٣٠)
صحية طبية	(٢٥)
صناعية	(٢٨٠ و ٣٢٩)
فضائية	(٧٤)
مدنية	(١٢)
هندسية	(٣٢٩)

❖ اصلاح أم الخطا المطبعي ❖

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٨	١٨	التجرد	صواب
١٠	٢١	لا ينفذ	المختبر
١١	١٠	أحمل	لا ينفذ
١١	١٩	الصحة	أحمل
١٣	١٢	فهم	المعتمد
٣٠	٢٤	غارة وجه الحجر	م
٧٨	١٥	صيفي	غاب وجه الحجر
٧٩	١	واليمين على ادعى	صيفي
٨٢	١	واجتهاد	... من ادعى
٨٣	٨	والمذاهب	واجتهاده
٨٣	٨	رضيها	المذاهب
٨٤ السطر (٢) من الحاشية (١) يشرح			رضيتها
٩٣	١٧	ومع هذا في فقد قضي عليه خصومة	يرجع
٩٥	آخر سطر	ملخم	ومع هذا فقد قضي عليه في خصومة
١٠٠	١٤	او الحق الالهي	ملخم
١٠٢	آخر سطر	بين امر المنازعين	الحق الالهي
١٠٣	٢٢	ضرب الاول	بين المنازعين
١٠٥	٧	في	ضرب الاول
١٠٦	١٦	لا يكون مداراً	نفي
١٠٦	٢٤	واوجبوا في	لا يكون الاقرار بالاكرام مداراً
١٠٨	٥	يجنس	واوجبوا التبرئة في
١٠٨	٢٤	يقام له الحد	يجنس
١١٣	١	جميع	يقام الحد

صواب	خطأ	صفحة	سطر
مناب	منا	١١٥	٢١
مكائن	يكن	١١٦	١٤
من	من	١١٦	١٥
والحديد اقل من	والحديد من	١٢٤	٢٢
عليهم	عليهم	١٢٦	٢٣
ونشط	ونشط	١٢٨	٢
يرسلون	يراسلون	١٢٨	٢٣
بروشيووس	بروشيووس	١٨١	قبل الاخير بسطر
ما علاقة الآثار	ما علامة الآثار	١٨٢	١
شؤوننا	شؤونها	١٩٩	٨
حلية	حيلة	٢٠٢	٤
يكونوا	يكون	٢٠٥	٢٢
الغريبين	الغريبين	٢٠٦	١٩
لاخالفن	لاخافن	٢٥٢	١٠
حين من الدهر	حين الدهر	٢٥٩	١
بجمع	بجميع	٢٦٤	١٢
وما مثلها	مثلها	٢٦٩	١٩
المؤلفة	المزلفة	٢٧٢	١٢
بعضها	بعضهم	٢٧٤	١٨
عنه	عند	٢٧٧	٨
وهبت	وهنت	٢٧٨	٢٢
ابن عربي	ابن العربي	٢٩١	١١
لقصره	قصره	٣١٨	٩

هذا على حروف ونقط ساقطة او زائدة مما لا ينبغي امره عن اللبيب .